

القَرْآنُ وَالنَّبِيُّ

لِلشَّاعِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

الدكتور
عبدالحليم محمود

القرآن في النبي ﷺ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

الطبعة الثالثة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١٩ كورنيش النيل - القاهرة . م . ع .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُتَّدِّمَةٌ

من رحمة الله سبحانه وتعالى بخلقه أن رسم لهم سبيل السعادة في دنياهم وفي آخرتهم ، وهو طريق لا استحالة فيه ولا مشقة حقيقة ، قد جربه الكثيرون فما زروا بالسعادتين :

| لقد استراحوا في هذه الحياة الدنيا ، لقد غمرهم الرضا ، وأحاط بهم الاطمئنان ، ولفتهم أردية السعادة .

ولقد ضمن الله لهم حياة هنية في الآخرة : يظلمهم بظله يوم لا ظل إلا ظله ، ويكفل لهم عدم الخزي حين يغمر الخزي كثيراً من الخلاق ، ويدخلهم الجنة برحمته ، ويرهم وجهه الكريم تفضلاً منه سبحانه ، هذه السعادة في الدنيا والآخرة وعد الله بتحقيقها لكل من توفر فيه شرطان .

الأول : الإيمان .

الآخر : العمل الصالح .

يقول سبحانه :

(من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحييه حياة طيبة ، ولنجزئهم أجراًهم بأحسن ما كانوا يعملون)^(١) .

لقد وعد الله بتحقيق الحياة الطيبة في هذه الآية الكريمة لكل فرد تحقق فيه الشرطان ، ونص الله سبحانه فيها على الأنثى ، وسوى بين الذكر والأنثى : وفي ذلك دعوة صريحة أو ضمنية للنساء إلى القيام بالعمل الصالح والتخلص بعكارم الأخلاق ، مثلهن في ذلك مثل الرجال سواء بسواء ، وذلك حتى تعم السعادة جميع أفراد الأسرة .

^(١) سورة التحليل آية ٩٧.

وذكر الله سبحانه ثمرة تحقيق هذين الشرطين في صورة من التأكيد وهي الحياة الطيبة في هذه الدنيا ، والحياة الطيبة إنما هي السعادة .

ثم بين سبحانه في صورة أيضاً من التأكيد المؤكد أنه سيجزيهم في الآخرة وأن جزاءهم لن يكون على مستوى متوسط أعمالهم ؛ وإنما سيكون بأحسن ما كانوا يعملون .

هذه السعادة تتحقق للفرد باعتباره فرداً إذا حقق ما اشترطه الله سبحانه ، وتحقق للأسرة باعتبارها أسرة إذا تكافف أفرادها متعاونين متضامنين على توفير الشرطين : يرى كل من أفرادها أنه مسئول عن نفسه وعن الآخرين ، فيتناصرون من أجل سعادتهم :

ألم تر إلى سيدنا إسماعيل ؟ لقد كان في نفسه (صادق الوعد) :
أى أنه صدق مع الله في عهد الإيمان والعمل الصالح .
ولقد كان بالنسبة لأسرته (يأمر أهله بالصلوة والزكاة) .
ومن أجل ذلك (كان عند ربه مرضياً) ^(١) .

وهذا قانون إلهي عام ، ليس خاصاً بسيدنا إسماعيل ولا بفرد معين ؛ وإنما هو شامل لكل من انضوى تحت لواء الإيمان والعمل الصالح .

وقد بين سبحانه عمومه في آيات كثيرة من القرآن الكريم ، وبين سبحانه أنه كما يشمل الفرد وكما يشمل الأسرة فإنه يشمل أيضاً المجتمع .

فالمجتمع الذي يحقق الشرطين يصل إلى السعادة .
وإذا كانت الآية التي نحن بصددها هنا تعلن في وضوح تام عن السعادة في عمومها وشمومها في الدنيا والآخرة ، فإن آيات تبين زوايا جميلة من السعادة وتحدد في تفصيل بعض الجوانب ، يقول سبحانه :
(ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا و كانوا يتقوون ،

(١) هذا الجزء والله أعلم قبله أجزاء من آياتي ٥٤ . ٥٥ من سورة مرث

لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، لا تبدل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم ^(١) .

والآيات الكريمة تشتمل على زوايا أكبر من زوايا السعادة منها :

١ - أن الذين آمنوا وكانوا يتقوون : أئي الذين حفروا الإيمان والعمل الصالح - هم أولياء الله .

٢ - ولأنهم أولياء الله فلا خوف عليهم .

٣ - ولأنهم أولياؤه سبحانه فإنهم لا يحزنون .

٤ - ولأنهم حفروا الإيمان والعمل الصالح فإن لهم البشري في الحياة الدنيا .

٥ - ولهم البشري في الآخرة .

ثم يؤكد الله كل ذلك بأنه لا تبدل لكلماته ؛ إن وعده حق ، ومن أوف بعهده من الله ؟

ثم يوجه الله سبحانه الأذهان ، أذهان الصالحين وأذهان المنحرفين على السواء - بأن ذلك لا غيره إنما هو الفوز العظيم :

(إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون ^(٢)) .

ويقول سبحانه في شيء من الإيضاح الجميل الشائق :

(إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون .

نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكنكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكنها ما تدعون

نُزلا من غفور رحيم .

ومن أحسن قوله من دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين .

ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه

عداوة كأنه ول حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم .

(١) سورة يونس الآيات : ٦٢ - ٦٤ . (٢) سورة الأحقاف آياتا : ١٣ - ١٤ .

وإما يتزغنك من الشيطان نرغ فاستعد بالله إنه هو السميع العليم ^(١)).
ولله سبحانه وتعالى في عالم الروح وفي عالم الاجتماع قوانين لا تختلف .
وكما أنه سبحانه رسم في عالم المادة نواميس تسير في انتظام فإنه سبحانه رسم في
عالم الأخلاق وفي محيط الإيمان ، وفي ظواهر الاجتماع – قوانين تسير في نظام حكم
بل إنه يمكن أن يقال :

إن قوانين الطبيعة إنما هي « عادات الطبيعة » ، أما القوانين التي عبر الله سبحانه
وتعالى عنها في القرآن الكريم أو على لسان رسول الله ﷺ في الأحاديث القدسية أو
في الأحاديث النبوية وأكدها سبحانه – فإنها نواميس لا تختلف .
ولقد أبان الله سبحانه منها عما يحتاج إليه الإنسان في سعادته الحالية .
من هذه القوانين :

١ – قانون الاستغفار ، أو قانون سعة الرزق .

يقول تعالى :

(وَيَا قَوْمَ اسْفَرُوا رَبُّكُمْ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ يَرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مَدْرَارًا وَيَزِدُّكُمْ قُوَّةً
إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَنَوَّلُوا مُجْرِمِينَ ^(٢)).

ويقول سبحانه :

. (فَقُلْتَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَارًا ، يَرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مَدْرَارًا ،
وَيَعْدِدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ، وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّاتٍ ، وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا ^(٣))
٢ – قانون التقوى ، أو قانون تفريح الكربات وسعة الرزق .

يقول تعالى :

(وَمَنْ يَتَقَّدِّمَ لِهِ بِخَيْرٍ يُجْعَلُ لَهُ مُخْرِجًا وَيُرْزَقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ^(٤)).

ويقول سبحانه :

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ ^(٥) ..

^(١) سورة فصلت الآيات : ٣٦ - ٣٠ . ٢ . ^(٤) سورة الطلاق من الآيات : ٣٠ . ٢ .

^(٢) سورة هود آية ٥٢ . ^(٥) سورة الأعراف آية : ٩٦ .

^(٣) سورة نوح الآيات : ١٢ - ١٠ .

٣ - قانون التوكل .

يقول سبحانه :

(ومن يتوكل على الله فهو حسبي)^(١) ..

٤ - قانون النصر .

يقول سبحانه :

(ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز)^(٢) .

ويقول سبحانه :

(إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)^(٣) .

مع العلم بأن النصر دائماً إنما هو من عند الله :

يقول تعالى : (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم)^(٤) .

٥ - قانون الجهاد ، أو قانون المداية .

يقول تعالى :

(والذين جاهدوا فينا لنهدئنهم سبلنا)^(٥) .

أى جاهدوا أنفسهم من أجل الله ، وجاهدوا أعداء الله سبحانه من أجله تعالى ، إذا فعلوا ذلك فإن الله يهدئهم إلى الصراط المستقيم : يسدد خطأهم ، وينحهم التوفيق فيما يأتون وفيما يدعون ، ويضعهم على أبواب النصر ، وينصرهم بالفعل .

٦ - قانون التوبة .

ونتيجة التوبة الخالصة النصوح المغفرة ، وفي القرآن ما لا يكاد يحصى من الآيات إثباتاً لذلك .

بيد أن الذى نريد أن نتحدث عنه إنما هو قانون التوبة في ذريتها :

وما لا شك فيه أن التوبة أنواع :

(١) سورة الطلاق آية : ٣.

(٢) سورة الحج آية : ٤٠.

(٣) سورة محمد آية : ٧.

(٤) سورة آل عمران آية : ١٢٦.

(٥) سورة العنكبوت آية : ٦٩.

(ا) نوع هو أدناها ، وهو التوبة من الذنوب والمعاصي والآثام ، وقد وعد الله التائبين من هذا النوع المغفرة .

(ب) نوع هو توبة من الغفلة عن الله ، وهو نوع وسط بين التوبة من الذنوب والتوبة التي هي عبادة .

(ج) أما النوع الأسمى فهو التوبة مع عدم ذنب ، والتوبة مع عدم الغفلة : التوبة حيث لا معصية ولا غفلة ، والتوبة لأن الله أمر بالتوبة ، وتكرار التوبة لأن الله سبحانه يحب ذلك .

وقانون هذه التوبة التي ليست للذنب ولا لغفلة إنما لأمر الله هو ما رسمه الله بقوله :

(إن الله يحب التوابين) ^(١).

ولقد عبر الله سبحانه بقوله : « التوابين » ولم يعبر بالتائبين ؛ لأن الله سبحانه يحب الإنابة إليه على الدوام والرجوع إليه باستمرار : أي التوبة دائماً . ونتيجة ذلك هي هذه المزللة الكبرى ، وهي حب الله سبحانه للتوابين .

٧ - وللرحمة قوانين عدة :

(ا) الراحمون .. يرحمهم الرحمن .

(ب) ارحموا من في الأرض .. يرحمكم من في السماء .
ويتصل بقوانين الرحمة ما يلى من مرويات الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ :

(ج) من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا ... نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيمة ، ومن يسر على معسر .. يسر الله عليه في الدنيا والآخرة .
والله في عون العبد .. ما كان العبد في عون أخيه ..

(د) أما القانون الذي أعلنته السيدة خديجة رضوان الله عليها ، والذي كانت نتيجته عدم الخزي في الدنيا والآخرة - فهو أيضاً من قوانين الرحمة :
لقد قال رسول الله ﷺ ذات يوم للسيدة خديجة رضي الله عنها : لقد خشيت

(١) سورة البقرة آية ٢٢٢ .

على نفسي . فقلت له فوراً : كلا والله ما يخزيك الله أبداً . هذه النتيجة التي ذكرتها - رضوان الله عليها - لم تتركها دون ذكر مقدمتها ، أما المقدمة فهي : إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكتب المعدم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نواب الحق .. وهذه الأوصاف الجليلة الجميلة إنما تتبلور كلها في كلمة واحدة هي : الرحمة .
والمقدمة والنتيجة يكونان قانوناً من قوانين الرحمة ، يعلن أن كل من أراد لا يخزيه الله فليكن رحيمًا .

(هـ) ومن أحب أن يبسط له في رزقه ، وينسأ له في أثره . . . فليصل رحمه ، ومعنى ينسأ له في أثره : أى يؤخر له في أجله وعمره ، كما يقول الإمام النووي .

* * *

وإذا كان القرآن الكريم قد رسم طريق السعادة في عمومه وشموله ، وفصل الأمر في زوايا منه * فإنه رسم طريق الشقاء في عمومه وشموله ، وفصل أيضاً الأمر في زوايا منه .

وطريق الشقاء في عمومه وشموله تصوره الآية القرآنية التي تقابل بالضبط آية السعادة التي افتحنا بها الحديث ، يقول تعالى :
(ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنك ، ونحشره يوم القيمة أعمى ^(١)).

إن هذا الذي أعرض عن ذكر الله إيماناً وأعرض عنه عملاً جراوئه في هذه الحياة الدنيا معيشة يغمرها الشقاء ، ويوم القيمة يحشره الله متخبطاً لا يهتدى إلى طريق النجاة .

إن هذا الذي أعرض عن ذكر الله فأصابه الله بمعيشة الضنك - سيعبر بهذا الضنك ولو كان في سعة من المال وبمحبوحة من الغنى ، سيصييه الله بالشعور بالضنك غنياً كان أو فقيراً ويصور الله سبحانه شعوره بالضنك في الرخاء والشدة خير تمثيل

(١) سورة طه آية ١٢٤ .

حينما يصوّره في خسته بالكلب : إن تحمل عليه يلهمت أو تركه يلهمت : أى يلهمت في جميع أحواله .

يقول سبحانه :

(واتل ~~عليهم~~ نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبّعه الشيطان فكان من الغاوين .

ولو شئنا لرفعناها بها ولكنه أخذ إلى الأرض واته هواه فثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهمت أو تركه يلهمت ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون .

ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ^(١) .

وقد يكون شر هؤلاء عميقاً فلا يكون هناك من مناص لتدميرهم : فرادى أو جماعات ، كلها أو جزئياً . وانظر بالله هذه الآيات الكريمة من سورة العنكبوت وفيها عظة وعبرة للأفراد وللمجتمعات .

للأفراد من أمثال « قارون وفرعون وهامان » .

وللمجتمعات التي ذكر الله فيها : مدین ، وعاد ، وثمود .

يقول تعالى :

(ولما جاءت رسالنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين .

قال : إن فيها لوطاً . قالوا نحن أعلم من فيها لنتجنيه وأهله إلا أمراته كانت من الغابرين .

ولما أن جاءت رسالنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً . وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا أمراتك كانت من الغابرين . إنا متزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون .

ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون .

وإلى مدین أخاهم شعيباً فقال يا قوم اعبدوا الله وارجووا اليوم الآخر ولا تعثروا

(١) سورة الأعراف الآيات : ١٧٥ - ١٧٧ .

فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ .

فَكَذَّبُوهُ فَأَخْذَتْهُمُ الرِّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاهِمِينَ .

وَعَادًا وَثُمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَا سَكَنُوكُمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ .

وَقَارُونَ وَفَرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ .

فَكَلَّا أَخْذَنَا بِذَنْبِهِ : فَهُنْمِنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًاً . وَمِنْهُمْ مِنْ أَخْذَتْهُ الصِّيَحةُ . وَمِنْهُمْ مِنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ ، وَمِنْهُمْ مِنْ أَغْرَقْنَا ، وَمَا كَانَ اللَّهُ يَظْلِمُهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

مِثْلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَيَاءَ كَمِثْلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذُتْ بَيْتًا وَإِنْ أَوْهَنَ الْبَيْتَ لَبِيتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكَمُ .
وَتَلِكَ الْأَمْثَالُ نَصْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ)^(١) .

ثُمَّ تَدْبِرُ هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ ، سُورَةِ الْلَّيلِ ، فَإِنَّهَا تَتَحَدَّثُ عَنْ سُعْيِ النَّاسِ فِي الْحَيَاةِ وَاتْخَالِفُ أَسَالِيهِ وَطَرِيقَهُ مَتَّحِدَةً بِذَلِكَ عَنْ طَرِيقِ السُّعَادَةِ وَعَنْ طَرِيقِ الشَّقَاءِ .

يَقُولُ تَعَالَى :

(وَاللَّيلُ إِذَا يَغْشِي . وَالنَّهَارُ إِذَا تَجْلِي . وَمَا خَلَقَ الذِّكْرُ وَالْأَنْثَى . إِنْ سَعَيْكُمْ لِشَيْءٍ : فَأَمَا مِنْ أَعْطَى وَاتَّقِ ، وَصَدِقَ بِالْحَسْنَى ، فَسَيِّسِرُهُ لِلْيُسْرَى . وَأَمَا مِنْ بَخلَ وَاسْتَغْنَى . وَكَذَّبَ بِالْحَسْنَى فَسَيِّسِرُهُ لِلْعُسْرَى ، وَمَا يَغْنِي عَنْهُ مَا لَهُ إِذَا تَرَدَّى . إِنْ عَلَيْنَا لِلْهَدِى . وَإِنْ لَنَا لِلآخِرَةِ وَالْأُولَى . فَأَنذِرْنَاكُمْ نَارًاً تَلْظِي . لَا يَصْلَاحُهَا إِلَّا أَشْوَى . الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّ . وَسِيَجْنِبُهَا الْأَتْقَى . الَّذِي يَؤْقِنُ مَا لَهُ يَتَرَكَى . وَمَا لَأَحَدٍ عِنْهُ مِنْ نِعْمَةٍ تَجْزِي . إِلَّا ابْتِغَاءُ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى . وَلِسُوفَ يَرْضَى)^(٢) . لَقَدْ بَيْنَ الْقُرْآنِ الْقَوَانِينِ الاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي تَعْلُقُ بِالْفَرْدِ ، وَتَعْلُقُ بِالْأُسْرَةِ ، وَتَعْلُقُ

(١) سورة العنكبوت الآيات : ٤٣ - ٣١ . (٢) سورة الليل الآيات : ١ - ٢١ .

بالمجتمع الكبير ، لقد بینا بالتعبير الإلهي في دقته وروعته . وبيینا في تأكيد واضح . ولقد اتبع سلفنا الصالح هذه التعاليم في فجر الإسلام وصدره الأول : في عهد الرسول ﷺ ، وفي عهد الصديق وفي عهد الفاروق رضي الله عنها ، فكانت الحياة الطيبة الراضية ، وكان النصر والفتح المبين . هذا الفتح الذي لا تجد تعبيراً عنه أبلغ من تعبير هذا المؤرخ الذي أخذته الدهشة فتسائل قائلاً : أصغرت رقعة الدنيا في عهدهم فجأباوها بهذه السرعة المذهلة ؟ أم أن الأرض كانت تطوى من تحت أرجلهم ، فقطعواها في زمن قصير ؟

واما صغرت رقعة الدنيا ، وما طويت الأرض ، ولكنه الإيمان الحي الذي يصنع المعجزات .

* * *

ما هي الصورة الإيمانية التي كانوا يتمثلونها ويستشعرونها ويعملون على تحقيقها ؟ إننا نذكر هنا بعض آيات من القرآن ترسم مجتمعة أهم جوانب الصورة الإيمانية الكريمة التي كانوا يتحلون بها ، والتي أحب الله للمؤمنين التحلّى بها في كل وقت . يقول تعالى :

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هُوَا وَإِذَا خَاطَبُوهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا . وَالَّذِينَ يَبْيَثُونَ لِرَبِّهِمْ سُجْدًا وَقِيَامًا . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ : رَبُّنَا اصْرَفْ عَنَا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنْ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا . إِنَّهَا سَاعَةٌ مُسْتَقْرَأً وَمُقَاماً . وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يَسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتَرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً . وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَيْهَا آخِرَ وَلَا يَقْتَلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزِنُونَ وَمَنْ يَفْعُلُ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً . يَضَعِفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مَهَانًا . إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا .)

ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متتاباً . والذين لا يشهدون الزور وإذا مرروا باللغو مرروا كراماً . والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صُمّاً وعمياناً والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا فرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً . أولئك يجزوون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً . خالدين فيها حسنة مستقرراً

ومقاماً . قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً^(١) .

ويقول سبحانه :

(قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيديهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلاتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون)^(٢) .

ويقول عز وجل :

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يَقَاطِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعِدَّاً عَلَيْهِ حَقًا فِي التُّورَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايْعَمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوزُ الْعَظِيمُ . التَّائِبُونَ ، الْعَابِدُونَ ، الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ ، الرَّاكِعُونَ ، السَّاجِدُونَ ، الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّاهِونَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَالْحَافِظُونَ لِحَدُودِ اللَّهِ ، وَبِشْرُ الْمُؤْمِنِينَ^(٣) .

ويقول :

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يُرْتَابُوا وَجَاهُوهُمْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ^(٤))

ويقول :

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجَلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلِيتْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتُوَكِّلُونَ . الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمَا رَزَقَنَاهُمْ يَنْفَقُونَ . أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)^(٥) .

ويقول سبحانه :

(يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدْلَكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تَنْجِيْكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلْيَمِ . تَوْمَنُونَ بِاللَّهِ

(١) سورة الفرقان الآيات : ٦٣ - ٧٧ .

(٢) سورة المؤمنون الآيات : ١١ - ١ .

(٣) سورة التونة آية : ١١١ - ١١٢ .

(٤) سورة الحجرات آية : ١٥ .

(٥) سورة الأفال الآيات : ٤ - ٢ .

رسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنبكم ويدخلكم جناته تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ^(١) .

هذه الصورة الإيمانية فيها الرحمة وفيها التواضع وفيها العزة إنها في حقيقة الأمر :

إسلام الوجه لله في كل ما يحب ، أو هي الاسترسال مع الله على ما يريد . إنها إسلام الوجه لله في العبادة ، وإسلام الوجه له في الجهاد : الجihad بكل أنواعه : جهاد النفس ، والجهاد في الأسرة حتى يستقيم أمرها ، والجهاد في المجتمع حتى يستقيم أمره ، والجهاد في العمل تجارة كان أو زراعة أو صناعة ، والجهاد الحربي أقوى ما تكون الصورة عدة وعتاداً وروحاً معنوية .

لقد دان العالم المسلمين دون أن تصغر رقعة الدنيا ودون أن تطوى الأرض من تحت أرجلهم ، ولكن ليعهم النفس والنفيس لله سبحانه .

ثم خلف من بعدهم خلف استقام أمرهم بمقدار قربهم من الصورة الإيمانية السليمة . واختل أمرهم حينما ابتعدوا عن الصورة الإيمانية الصادقة .

بيد أن الأمة الإسلامية لم تخل في عصر من العصور من هؤلاء الذين يرفعون أصواتهم بالإيمان وبكلمة الحق مصداقاً لقول رسول الله ﷺ على حسب ما رواه الإمام البخاري : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق يقاتلون ، وهم أهل العلم » ويرى الإمام البخاري حدثنا عبيد الله بن موسى ، عن إسماعيل ، عن قيس ، عن المغيرة بن شعبة ، عن النبي ﷺ ، قال : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون » .

لقد احتفظ الإسلام على وجه العموم بذاتيته مستقلة حية . وكان المسلمين على وجه العموم يرجعون إلى القرآن وإلى السنة معتاصمين مسترشدين . وكان الكل - فرادى وجماعات - يتذربون القرآن والسنة قراءة وعملاً . وكانوا كلما وجدوا أنفسهم

(١) سورة الصافات الآيات : ١٠ - ١٣

ابعدوا في قليل أو في كثير ، عن الروح الإيمانية الصادقة – حاولوا جاهدين أن يستعيدها ، وقام فيهم الموجه والمرشد من أمثال : الحسن البصري ، وسفيان الثوري ، ومالك ، وعمر بن عبد العزيز ، وأحمد بن حنبل . والشافعى ، رضوان الله عليهم ..

* * *

واستمرت الأمة الإسلامية – في صورتها الإيمانية – بين جزر ومد ، ولكن كان مدها في الجملة أكثر من جزرها ، إلى أن جاءت بدعة ترجمة كتب إلهيات اليونان وكتب أخلاق اليونان أى إلى عهد المؤمن .

ونريد قبل أن نتحدث عن بدعة الترجمة هذه أن نعود إلى عصر النبوة فنرى أمراً يجب أن نتدبره :

لقد رأى رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وبهذه صحيفة يقرأ فيها ، فقال : ما هذا ؟

فقال سيدنا عمر : إنها صحيفة من التوراة .

فلم يرض رسول الله ﷺ عن ذلك ، وقال : والله لو كان موسى حيا ما حل له إلا اتباعى !

وبطبيعة الحال ترك سيدنا عمر الصحيفة ولم يعد إليها .
لماذا كان ذلك ؟ ما تعليله ؟ وما الحكمة فيه ؟

الحكمة في ذلك هي :

أولاً : إن الوحي القرآني وأحاديث الرسول ﷺ قد بینا الحق في صورة لا لبس فيها ، وفي يقين لا تردد فيه ، وفي وضوح واضح ، وبيناه في صورة من الدقة لا يتأتى أن يوجد ما يماثلها في أسلوب آخر ، وذلك أنها بالتعبير الإلهي نفسه . فكان ينبغي على سيدنا عمر فيما رأه رسول الله ﷺ وكان ينبغي على كل مسلم أن يتلزمها .

ثانياً : أن الرسالة الإسلامية خاتمة الرسالات ، مهيمنة عليها : تصديقاً وإثباتاً ونفيها ، تحق الحق وتبطل الرائف ، وهي من أجل ذلك الفيصل والمرجع في

كل أمر . وقد أزالت على خير مخلوق وأفضل رسول : (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) ^(١) ومن أجل ذلك كانت أفضل وأكمل رسالة .
وما دامت هي المرجع وهي الفيصل ، ومادامت هي أفضل رسالة – فإن الحكمة تقتضي ألا يصرف المسلم وقته ولا بعض وقته في غيرها .

ثالثاً: أن للإسلام شخصية خاصة . وذاتية محددة ، وطابعاً معيناً فإذا ما خلط المسلم ذلك بغيره وإذا ما ألف هذا (الغير) بالتكرار والعادة – فإن ذاتية الإسلام تنبع في ذهنه ، وتحتفل في تفكيره ، فلا يتأنى له أن يتبعها في وضوح أو أن يتبعها في دقة .

والشخصية الإسلامية ليست شخصية مادية . فهي ليست طبيعة ، ولا فلكاً ، ولا كيمياء ، ولا علم أحياء ، بل إن الزوايا المادية لا تكون ذاتية ، ولكن الذاتية تتكون من العقيدة والأخلاق والمبادئ والمثل ، إنها فكرة وطبع وشعار ، ولابد أن يكون الشعار والطبع والفكرة محددة معينة . ويحجب من أجل هذا التحديد والتعيين ألا تلوث الفكرة بغيرها حتى تستمر الذاتية واضحة في الذهن مصدرأً للإحساس والشعور ، ومبداً للسلوك والتصرف .

وسار الأمر على ذلك إلى أن كان عهد المؤمنون .

مها أشاد المؤرخون بعهد المؤمنون فإنه مما لا ريب فيه أن المؤمنون دخل بحمق أحمق ، وبتهور متهر في التزاع الديني الذي كان بين المعتزلة من جانب ورجال الحديث وأهل السنة من جانب آخر ، وهو لم يدخل في هذا التزاع للصلح أو للتهديد ، وإنما جعل نفسه طرفاً في الخصومة يكتل الدولة شرطة وجهاها وملاعاً مع طائفة ضد الأخرى !

لقد أخذ صفات المعتزلة محارباً رجال الحديث ، أو محارباً الصالحين العابدين الأصفباء .

وظن المؤمنون أنه إذا ترجم إلهيات اليونان وترجم أخلاقهم فإن في ذلك نصراً له .

(١) سورة البقرة آية : ٢٥٣

ونفذ ما رأى بترجمة إلهيات اليونان . وأمر بترجمة أخلاقهم . وأمر أيضاً بترجمة إلهيات غير اليونان وترجمة أخلاقهم .

ولقد كان موقف الم الدينين تديننا صادقاً من ذلك موقفاً صريحاً : لئن كانت هذه الآراء البشرية اليونانية أو الهندية أو الفارسية حقاً - إن عندنا ما هو أحق . وهو الوحي الإلهي الإسلامي . وهذا الوحي الإسلامي بالغ في دقته . أى : كان بالأسلوب الإلهي نفسه . أى أنه : إلهي معنى وأسلوباً . ولست من أجل ذلك في حاجة إلى فكر بشري في هذه الجوانب .

أما إذا كانت هذه الآراء البشرية اليونانية أو الهندية أو الفارسية باطلاً فإننا في غنى عنها . وذلك أن الحياة الدينية أو الحياة الحادة لا تتحمل ولا تقبل إضاعة الوقت في الباطل . هذا موقفهم فيما يتعلق بالإلهيات والأخلاق وهو موقف واضح . أما فيما يتعلق بالمطب والكيمياء والطبيعة والفلك والعلوم المادية على وجه العموم - فإنهم رحبوا بها باعتبارها عاماً أساسياً في تدعيم قوة الدولة . ولكن المؤمنون لم يعبأ بذلك وأمر بترجمة التراث اليوناني - فلسفة أو أخلاقاً وشجع الآخرين من الأثرياء والوجهاء وكبار رجال الدولة على أن يخذلوا حذوه ويجهروا بهجه . وتنافس هؤلاء في إرضائه . وتملقوه بالترجمة كما كانوا يتملقونه بقول ما يرضيه وبعمل ما يرضيه .

وأخذت هذه الكتب تشيع في أرجاء الأمة الإسلامية . وكما تقرب الأمراء والوجهاء والأثرياء إلى المؤمنون بترجمة الإلهيات والأخلاق - فقد تقرب المثقفون إليه بدراساتها وفهمها وتدارسها وإذاعة ما فيها من آراء : مهتدية كانت تلك الآراء أو ضالة . وكبت آراء المعارضين . ونكل بخصوص المعتزلة : أى نكل بالصالحين من رجال الحديث والسنة .

وشاعت الآراء الدخيلة ، وذاع المنهج البشري الأرسطي في الأجراء التعليمية ، وألف الناس الأمر شيئاً فشيئاً .

وعند ذلك أخذت الفكرة الصحيحة عن الذات الإسلامية تأرز شيئاً . وأخذ الجو الإسلامي الصادق يغمره نوع من الغربة .

ولكن القرآن في نصرته الدائمة ، والستة في صفاتها وروحانيتها السامية – كانا دائماً مبعث إلهام وتوجيه : فكان يقوم من آن لآخر فرد أو أفراد يوجهون المسلمين إلى الصراط المستقيم بسلوكهم وبتدينيهم وبكتابهم وعلى رأس هؤلاء : الإمام الغزالى حجة الإسلام الذى أحيا المفاهيم الإسلامية بسلوكه وبكتابه الخالد (إحياء علوم الدين) الذى قضى على الفلسفه فى المشرق قضاء لم تقم لها بعده قائلة .
وسار فى هذا الطريق نفسه الإمام عبد القادر الجيلاني ، والإمام الرفاعى .
والإمام الشاذلى ، وشيخ العرب ، والإمام الدسوقي ، وغيرهم من كبار المدعاة المهدىين الذين كرسوا حياتهم لقيادة الناس إلى الله ورسوله بسلوكهم وتعاليمهم وكتابهم وكان لهم أتباع ساروا على سنتهم . وسلكوا طريقهم فاهتدوا وهدوا .

* * *

ولقد غزا الغرب فى العصور الحديثة بكل ما يملك : بالسلام وبالقلم .
وقد كانت مهمة القلم فى هذا المجال واسعة متفرعة . لقد كان منها :
١ – محاولة الخط من شأن الشرقيين على وجه العموم ، ومن شأن العرب على وجه المخصوص باعتبارهم جنساً من الأجناس .
لقد تناول كتابهم العرب قبل الإسلام وأخذوا يحطون من شأنهم باعتبارهم جنساً من الأجناس لا باعتبارهم طوراً من أطوار الحضارة ، وحكموا عليهم باعتبارهم جنساً بالإعدام الحضاري .
ونسى هؤلاء الحضارة الإسلامية التى ازدهرت عصوراً طويلاً ، تناسوها متعمدين ، فإذا ما تحدثوا عنها مضطرين قلوا من شأنها ، ويعثوا نحوها الشكوك .
وكان غرضهم من ذلك كله أن يبعثوا عدم الثقة في نفوس العرب حتى يكونوا باستمرار تابعين للغرب مقلدين له .

٢ – وتناول كتابهم الإسلام عقيدة وتشريعاً وأخلاقاً وتاريخاً محاولين أن يزيفوا الحقائق في كل ميدان من ميادين الدين .
٣ – حاولوا أن يقللوا من شأن الإسلام ، ومن شأن العرب ، وحاولوا بكل ما أتوا من وسائل في الدعاية أن يبعثوا في النفوس روح التحلل والفساد الأخلاق .

وأخذت شخصية الإسلام بذلك كله تأرخ ونكون . وكان لابد من أن تتضانف
أقلام المخلصين لدينهم ، وتحتمع عاملة على توضيع ذاتيته متكاتفة على إحياء
مفاهيمه .

* * *

وهذا الكتاب وما يتلوه من سلسلة « في إحياء المفاهيم الإسلامية » ، إنما هو
مساهمة متواضعة في بيان ذاتية الإسلام وتوضيع مفاهيمه . أرجو الله أن يتقبلها
خالصة لوجهه الكريم .

وأرجوه أن يهدى بها وأن يهدى لها .
ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العلم .

الكتابُ الْأَوَّلُ

القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلوة
والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن
اتبع هديه إلى يوم الدين .

بسم الله الرحمن الرحيم
(ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين
يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون . والذين
يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوفون .
أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ^(١))

(١) سورة البقرة الآيات : ١ - ٥

تَمْحِيد

ال الحديث في القرآن وعن القرآن لا ينتهي ، إنه لا يحده فكر بشري ولا يقيده تصور إنساني . ولقد كان من الحكمة العميقة أن رسول الله ﷺ لم يأخذ في تفسيره كلمة كلمة وآية آية ؛ وإنما فسر كلمة من هنا وآية من هناك . ولم يقل صلوات الله وسلامه عليه : إن تفسيره يحد المعنى ويحدده ويقيده . وفسره رسول الله ﷺ بسلوكه أكثر مما فسره بقوله المباشر في معناه لقد كان خلقه ﷺ القرآن ، فكان خلقه تفسيراً للقرآن ، ومن هنا كان قوله تعالى :

(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً^(١)) .

وفسره ﷺ بأحاديثه الكثيرة - عن طريق غير مباشر - أكثر مما فسره بطريق مباشر .

وإذا كان رسول الله ﷺ قد تخل بالقرآن فكان سلوكه تفسيراً له ، وإذا كان قد امترج بالقرآن فكان نطقه - وما ينطق عن الهوى - تفسيراً له ، وإذا كانت حياته كلها سلباً وإيجاباً قولاً وصمتاً حرّكة وسكنوا إنما هي تفسير للقرآن فإن الصحابة ساروا على منواله بقدر استطاعتهم ، ولم يحاول أحد منهم أن يفسر القرآن كلّمة كلّمة وآية آية وإنما حاولوا أن يستهدوا بالقرآن وأن يكون القرآن - ما استطاعوا - خلقهم .

لقد كانوا يعملون بالقرآن ، ويستخدمونه إماماً وقائداً . إنهم لم يتخدوه دراسة نظرية ؛ وإنما اتخذوه هداية عملية حتى إن بعضهم ما كان يتجاوز في الحفظ السورة إلى غيرها إلا إذا حق ما فيها من أوامر ، وانتهى عما فيها من نواه . لقد اتخذوه دستورهم في الحياة ، وأقاموه إماماً لهم في حياتهم . لقد طبقوا قواعده والتزموا

(١) سورة الأحزاب آية :

مبادئه : من جهاد ، وضرب في الحياة ، وصدق في القول ، وإحسان في العمل ، وعبودية أسمى وأقوى وأحشى ما تكون العبودية لله سبحانه وحده ؛ وحققا بذلك الأمة التي أحبها الله ورسوله .

ولقد ربي القرآن على مر العصور رجالاً اتخذوه إماماً وهادياً فكانوا مثلاً عالياً في الإنسانية لا يدانيهم غيرهم من سائر الدول . ولا يزال القرآن للآن هو القرآن الذي وحد قبائل وجمع أشتاناً ، وألف بين قلوب ، وكون أمة ، وأرسى قواعد حضارية تعتر بها لأنها حضارة بنيت على التقوى من أول يوم .

والآن ونحن في شرقنا العربي وفي عالمنا الإسلامي في سبيل النهوض والتطور والبعث والرقي في حاجة أمس ما تكون الحاجة إلى الاسترشاد بمصدر الهدایة ومنبع القوة .

(إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) ^(١)

ولقد استرشدت في كل ما كتبت بالآية القرآنية الكريمة .

(اقرأ باسم ربك الذي خلق) ^(٢) .

لقد بدت أمامي كروضة يانعة يقتطف الإنسان منها أجمل الزهور ، ويشم من عبرها أذكي الروائع ، وبدت أمامي كأنها منهج حياة ، وبدت أمامي موحبة موجهة ، فسرت في البحث مستلهمة على الخصوص هذه الآية الكريمة .

إنها أول آية نزلت في القرآن الكريم ، وهي ثرية بالمعانى ، وعلى الرغم من أنها كانت جوهر موضوع الكتاب في ألفاظها وفي جوها فإن لم أقل عنها كل ما يمكن أن يقال . ولكنني وأنا أسير في جوها أحبّيت أن يكون الحديث خطوة في سبيل إيضاح الطريق إلى النجاح على سنن الصدر الأول في الاستهداء بالقرآن عملياً ، وفي الأخذ في الناحية العملية عبادة كانت أو ضرباً في الأرض .

ولقد استرشدت بالآية الكريمة في عدة مجالات منها :

مجال العلم وهو أساس الحضارة والبعث والنهضة ، ولن تهض أمة إذا لم تتحذى العلم أساساً من أسس نهضتها ، العلم بأوسع وأشمل ما تدل عليه كلمة العلم .

(١) سورة الإسراء آية ٩ .

(٢) سورة العلق آية ١ .

واسترشدت بها في مجال الغزو الفكرى وموقف الإسلام منه ، وذلك لرجوع إلى النبع الصافى مصدر حضارتنا وأساس هدایتنا .

ولما كان الكتاب عن القرآن الكريم فقد كان من الضرورى أن نتحدث عن وصف القرآن وعن فضله ، ولقد استفاضت في بيان أوصاف القرآن من القرآن نفسه ؛ فتعبير القرآن عن القرآن كله توجيه للمسلم وبيان له عن مصدر هدایته ، ووصف صادق لكتاب التور والهدایة .

واستفاضنا أيضاً في موضوع الذكر وموضوع الدعاء مستتدلين في كل منها إلى القرآن ، وذلك لأنهما تعبير من أهم وأصدق مظاهر التعبير عن العبودية لمالك الملك . ونحن في عصرنا الراهن أشد ما نكون في حاجة لتحقيق العبودية لله سبحانه وتعالى فإن فيها الاستغناء به عمن سواه . فإذا اتجه المسلم الصادق إلى الله فقد استغنى به ، واعتزبه ، ومن كان الله كان الله له : أليس الله بكاف عبده ؟ وإذا حقق المسلم العبودية لله فإن الله يتکفل بنصره .

إن تنصروا الله ينصركم .

ولينصرن الله من ينصره .

وكان ختام البحث عن توجيهات القرآن الكريم في النصر بإذن الله . وإنما لرجو الله جلت قدرته وعظم سلطانه أن يوجه الأمة الإسلامية الوجهة التي نرضيه ، وأن يمدها بمدد من عنده ، وأن يكتب لها النصر ، وأن يعيد لها مجدها السابق .

إنه نعم المولى ونعم النصير .

د. عبد الحليم محمود

الفصل الأول

الجرو الذى نشا فيه الإسلام

١

الحنفاء^(١) :

وأسلمت وجهي لمن أسلمت له الأرض تحمل صخرًا ثقلا
دحها فلما استوت شدها سواء وأرسى عليها الجبالا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت له المزن تحمل عذباً زلا
إذا هي سقطت إلى بلدة أطاعت فصبت عليها سجالا
بهذه الأبيات كان يترنم زيد بن عمرو بن نفيل ، ثم يستقبل البيت ويقول :
لبك حقاً حقاً تبعداً ورقاً ، البر^(٢) أرجو لا الحال^(٣) ، وهل مهجر^(٤) كمن
قال^(٥) ثم ينشد :

عذت بما عاذ به إبراهيم مستقبل الكعبة وهو قائم
يقول : أنني لك عان راغم منها تجشمني فإني جاشم^(٦)
ثم يسجد

كان زيد بن عمرو عربياً أصيلاً ، فهو ابن عم سيدنا عمر بن الخطاب . وهو
أبو سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة . وكان أحد من اعتزل عبادة
الأوثان ، وامتنع عن أكل ما ذبح باسمها ، وكثيراً ما أنكر على قريش ذبحها على غير
اسم الله قائلاً :

يا معشر قريش ، أيرسل الله قطر السماء ، وينبت بقل الأرض ، ويخلق السائمة

(١) من مصادر هذا الفصل . الأغاني جـ ٢ . ٥ . في الأدب الجاهلي للدكتور طه حسين . سيرة ابن هشام ، والروض الأنف . تمهيد لتأريخ الفلسفة للمرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق . فجر الإسلام للمرحوم الدكتور أحمد أمين ، الملل والنحل للشهرستاني .

(٥) قال : أقام في القائلة .

(٦) البر : الطاعة والخير .

(٣) الحال : الحيلاء .

(٤) المهجر : السائر في الماجرة .

فيه ، وتدبرونها لغيره !

ولقد أثارت حالي هذه اهتمام بعض علماء الكلام من قديم الزمان ، وهم من أجل ذلك يذكرونه عند تعريفهم للنبي ، ويتسائلون : أتخرج عن التعريف أم داخل فيه : يقول الجلال الدواني في تعريف النبي :

« هو إنسان بعثه الله تعالى إلى الخلق لتبلیغ ما أوحاه إليه ، وعلى هذا لا يشمل من أوحى إليه ما يحتاج إليه لکماله في نفسه ، من غير أن يكون مبعوثاً إلى غيره ، كما قيل في زيد بن عمرو بن نفیل ، اللهم إلا أن يتکلف ^(١) »

وبعل من الأسباب التي وجهت بعض المتكلمين إلى ذكر زيد عند حدیثهم عن النبوة ما روى عن سعيد بن زيد بن عمرو قال : سألت أنا وعمر بن الخطاب رسول الله ﷺ عن زيد فقال :

« يأتي يوم القيمة أمة وحده ». .

وسواء أكان نبياً أوحى إليه بما يکمل نفسه ، أم لم يكن نبياً - فإنه كان من هؤلاء الذين يتطلبون المعرفة الحقيقة . ويسعون وراءها جاهدين . كان يعتصر ذهنه ، ويشحذ شعوره يريد أن يخل الفاز الكون ، ويكتشف أسرار العالم ، ويحب عن :

من أين ؟

وإلى أين ؟

ولم ؟

ولكنه يتلفت يميناً ، ويتلفت يساراً ، فلا يجد نفسه إلا في بيداء مظلمة ، وفي ضلال محیط ، ويثير شعوره الديني فينشد - وكأنه يصرخ أو يستغيث :

أرباً واحداً أم ألف رب أدين ، إذا تقسمت الأمور ؟

عزلت اللات ، والعزى جمیعاً كذلك يفعل الجلد الصبور

فلا العزى أدين ، ولا صنعي بني عمرو - أзор

ولا هبلا أدين ، وكان ربأ أنا في الدهر ، إذ خلmi يسیر

(١) المقائد القصدية . ص ٣ .

عجبت ، وفي الليالي معجبات
بأن الله قد أفنى رجالاً
كثيراً كان شأنهم الفجور
وابقى آخرين ببر قوم
ليربو . منهم الطفل الصغير
وبينا المرء يفتر ثاب يوماً
كما يتروح الغصن المطير
ولكن أعبد الرحمن ربِّي ليغفر ذنبي الربُّ الغفور
فتقوى الله ربكم احفظوها لا تبوروا
ترى الأبرار دارهم : جنان وللتكفار : حامية سعير
وخرى في الحياة ، وإن يموتوا يلاقوا ما تضيق به الصدور
ولكن الهدایة إلى الدين القوم لم تكن إذ ذاك سهلة هينة .
وإذا كانت الوثنية ضلالاً فـأين الهدایة ؟
وإذا ترك اللات والعزى وهبَّل فإلى أين يتوجه ؟

ويستولي عليه شعور ديني ، ويغمره فيض من التطلع إلى المعرفة : فلا يجد مفرأً
من الهجرة يستتبئ في أثناءها الطاعن والمقيم عليه يجد من يرشده إلى سبيل الله القوم .
والقصة التالية توضح لنا - سواء أصحت أم لم تصح - الكثير من جوانب
نفسه ، وما كان يشعر به نحو اليهودية والنصرانية حينئذ :

وها هي ذى كما رواها صاحب الأغاني :

إن زيد بن عمرو خرج إلى الشام يسأل عن الدين لكي يتبعه فلقى عالماً من
اليهود ، فسأله عن دينهم فقال : لعلى أدين بدينكم ، فأخبرني بدينكم .
قال اليهودي : إنك لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبيك من غضب الله .
قال زيد بن عمرو : لا أفر إلا من غضب الله ، وما أحمل من غضب الله
شيئاً أبداً ، وأنا أستطيع ، فهل تدلني على دين ليس فيه هذا !
قال : ما أعلمك إلا أن يكون حنيفاً .
قال : وما الحنيف .
قال : دين إبراهيم .
فخرج من عنده وتركه ، فأقى عالماً من علماء النصارى فقال له نحواً مما قال لليهودي .

فقال له النصراوی : إنك لن تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من لعنة الله .
فقال : إنى لا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئاً أبداً وأنا أستطيع . فهل
تدلى على دين ليس فيه هذا .

فقال له نحواً مما قال اليهودي : لا أعلم إلا أن يكون حنيفاً .
فخرج من عندهما وقد رضى بما أخبراه ، واتفقا عليه من دين إبراهيم ، فلما بُرِزَ
رفع يديه وقال :

اللهم إنى على دين إبراهيم .

استمر زيد يجاهد في سبيل الوصول إلى الله .

كان يجاهد تارة بمنطقه وتفكيره ، وتارة بسؤاله كل من يصادفه من ذوى المعرفة
الدينية ، كان يسأل الناس إذا أقام ، ويسائلهم إذا ارتحل ، حتى انتهى في النهاية إلى
مذهب اطمأنـت إـلـيـه نـفـسـه فـخـاطـب قـرـيـشـاً قـائـلاً :

« يا معاشر قريش ، والذى نفسي بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم
غيري » .

ويقول الدكتور (طه حسين) عن زيد :

إنه كان « رجلاً رقيقاً ، ليناً ، مرهف الحس ، ذكي القلب ، نقى الطبع ،
مستعداً للإيمان الصادق ، مبغضاً للقديم ، شديد النشاط للتجدد ، شك في وثنية
قومه ، ثم جحدها ، والتمس دينًا صفوًا ، وملة نقية ؛ وجعل ينكر على قريش
ما كانت فيه ، فكانت قريش تسمع منه وتعرض ، ولا تحفل بما كان يقول .
وكان الخطاب بن نفيل ثبت له ، ثم قاومه ، ثم جد في فتنته حتى أشقاءه ، ثم
حبسه في مكة ، ثم أغري به الشباب ، حتى اضطربه إلى أن يستخف ، وأن يحتال في
الفرار من مكة ، ليلتمس ما كان يحب من دين من عند اليهود والنصارى ^(١) .
وقد فر زيد بدينه الجديد - أو باستعداده للدين الجديد - وجعل يلتمس
ما يحب عند اليهود مرة ، وعند النصارى مرة ، حتى استئشس من أولئك
وهؤلاء » .

(١) عن مجلة الملائكة سنة ١٩٣٧ م .

كيف انتهى زيد إلى حقيقة مذهبة؟ وماذا كان سببه إلى الاطمئنان الروحي؟
وماذا كان يرى في مشكلة المبدأ ، ومشكلة المصير ، ومشكلة الغاية !
عن كل ذلك يصمت التاريخ . . .
ولكن الذي لا شك فيه أن زيدا اطمأنت نفسه إلى منطق ، أو إلى إهام فيما
يتعلق بما وراء الطبيعة .

ولم يكن زيد الوحيد في جزيرة العرب الذي بحث عن الله ، بل كان هناك كثيرون
غيره ، كان هناك :

أمية بن أبي الصلت الشاعر المشهور .

وكان على حسب ما يروى صاحب الأغاني :

«قد نظر في الكتب وقرأها ، ولبس المسوح تعبداً» .

وكان من ذكر إبراهيم وإسماعيل والخنيفية ، وحرم الخمر وشك في الأوثان
وكان محققاً ، والتس الدين ، وطبع في النبوة ؛ لأنه قرأ في الكتب أن نبياً
يبعث من العرب ، فكان يرجو أن يكون هو» .

وشعره حافل بذكر الرسل والأنبياء ، والجنة والنار والثواب والعذاب ، حتى
لقد قال ابن سلام :

«كان أمية كثير العجائب ، يذكر في شعره خلق السموات والأرض ، ويذكر
الملائكة ، ويذكر من ذلك مالم يذكره أحد من الشعراء !» .

ونحن - وإن لم يصلنا كل شعره - يدل ما جمعه منه الأستاذ شلتيس على الكثير
من منازعه ، ومن شعره الذي يدل على اتجاهه :

ألا أيتها الإنسان إياك والردى	إإنك لا تخفي من الله خافيأ
وإياك لا تجعل مع الله غيره	فإن سبيل الرشد أصبح باديا
رضيت بك اللهم ربّا ، فلن أرى	أدين إلهًا غيرك الله ثانية
أدين لرب يستجيب ، ولا أرى	أدين لمن لم يسمع الدهر داعيا
وأنت الذي من فضل من ورحمة	بعثت إلى موسى رسولا مناديا
فقلت له : يا ذهب وهارون فادعوا	إلى الله فرعون الذي كان طاغيا

وقولا له : أأنت سويت هذه بلا وتد حتى اطمأنت كما هي
 وقولا له : أأنت رفعت هذه بلا غمد أرقق إذا بك بانيا
 وقولا له : أأنت سويت وسطها منيراً إذا ماجنه الليل هاديا
 وقولا له : من يرسل الشمس غدوة فيصبح مامست من الأرض ضاحيا
 وقولا له : من ينبت الحب في الثرى فيصبح منه البقل يهتر رايما
 وفي ذلك آيات لمن كان واعيا
 وقد بات في أضعاف حوت لياليا
 وإنى لو سبحت باسمك ربنا لأكثر إلا ماغرت خطائيا
 ويقول مترجمه في دائرة المعارف الإسلامية :

إنه يمكن قسمة قصائد بحسب موضوعها إلى قسمين كبيرين : أصغرهما يتكون من قصائد وأبيات قيلت في مدح أشخاص ، وبخاصة في مدح رجل من أغنياء مكة هو عبد الله بن جدعان ، وهي لا تختلف في جوهرها ونظائرها عند غيره من شعراء العرب القدماء .

أما القسم الأكبر الذي يبدأ بالقصيدة الثالثة والعشرين من طبعة شلتيس فليدل دلالة كاملة على الترعة التي يمكن تسميتها بالحنيفية .

وأساسها القول بإله واحد ، وهو رب العباد ، ونرى فيها صوراً شبيهة بالوحى عن مقام الله وملائكته ، وحكايات عن الخلق وآراء تتعلق بيوم القيمة والجنة والنار ، وفيها دعوة إلى عمل الخير ، وإشارات إلى عبرأخذ بعضها من أخبار العرب عن عاد وثوفود ، وبعضها من قصص التوراة عن الطوفان وإبراهيم ولوط وفرعون .

وابن أبي الصلت مولع إلى جانب هذا بقصص الحكايات على ألسنة الحيوانات .
 ونلاحظ في شعره أيضاً ذكرًا للأعمال السحرية » .

وكان أمية - كما كان زيد - يزيد دين إبراهيم ، فلم يكن يهوديا ولا نصرانياً وما يثبت هذا في غير لبس ولا إبهام قوله :
 كل دين يوم القيمة عند الله إلا دين الحنفة زور ولكنه - على خلاف ما كنا

نوقع - قد عادى الرسول ، وحاربه فغلبت عليه شقوته ، وصح فيه قول رسول الله :

«آمن شعره وكفر قلبه» .

ويخيل إلينا أنه قد ندم في آخر حياته ندماً شديداً على موقفه ذاك من الرسول ، فتمنى أن لو كان - بدل معرفته وعلمه - راعياً في رعوس الجبال يرعى الوعول ، لقد قال وهو على فراش الموت هذا الشعر البائس الخزين الرائع :

كل عيش وإن تطاول دهراً منتهي أمره إلى أن يزولا
ليتني كنت قبل ما قد بدا لي في رعوس الجبال أرعى الوعولا
اجعل الموت نصب عينيك واحذر غولة الدهر إن للدهر غولا
وكان أبو قيس بن أبي أنس من الحنفاء ، وهو من بنى النجار ، وكان ترهب
ولبس المسوح ، وفارق الأوثان وهم بالنصرانية ، ثم أمسك عنها ، ودخل بيته له ،
فاختذه مسجداً لا يدخله طامث ولا جنب وقال : أعبد رب إبراهيم .
فليا قدم رسول الله ﷺ المدينة أسلم وحسن إسلامه ، وقال في رسول الله ﷺ
ـ شرعاً يمتدحه (١) :

ـ ومن الحنفاء خالد بن سنان وهو من بنى عبس ، ويقول ابن قتيبة : وروى أن رسول الله ﷺ قال :

ذلك نبي أضاعه قومه ..

ـ وأتت ابنته رسول الله ﷺ فسمعته يقرأ : (قل هو الله أحد) فقالت : كان أبي يقول ذا (٢) .

بعض من رأى التدين بالنصرانية :

ـ وكانت التزعة إلى الحنفية شائعة في جزيرة العرب ، ولكن من العرب من رأى التدين بالنصرانية أو اليهودية ، بيد أنهم لم يكونوا يدينون بوحدة منها إلا بعد أن يحولوا في شعاب التفكير ، ويصلوا في متأهات ما وراء الطبيعة : فيروا بعد بحث وتفكير أن الإسلام التزام دين يؤمنون في رحابه من ضلال الأوهام :

(١) المعارف لابن قتيبة ص ٢٨ . (٢) المعارف لابن قتيبة ص ٢٩ .

ذكر ابن هشام المتوفى بالفسطاط سنة ٢١٨ هـ في سيرته ص ٢٣٧ .
قال ابن إسحاق : واجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ، ويعكرون عنده ويدورون به ، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً .

فخلص منهم أربعة نفر نجياً ، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكم بعضكم على بعض ، قالوا : أجل . وهم : ورقة بن نوفل . . . عبد الله بن جحش بن رثاب . . . وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد بن عمرو بن نفيل . . فقال بعضهم لبعض : تعلموا والله : ما قومكم على شيء ، لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم ! ما حجر نطيف به لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يضر ، ولا ينفع ؟ يا قوم ، التنسوا لأنفسكم ديناً فإنكم والله ما أنتم على شيء . فتفرقوا في البلدان يتلمسون الحنيفة ، دين إبراهيم .

فأما ورقة بن نوفل : فاستحکم في النصرانية ، واتبع الكتب من أهلها حتى علم شيئاً من أهل الكتاب .

وأما عبد الله بن جحش : فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم ، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة . . فلما قدمها تنصر . .
وأما عثمان بن الحويرث : فقدم على قيصر ملك الروم ، فتنصر وحسن حسنته منزلته
عنه . .

وأما زيد بن عمرو بن نفيل : فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية ، وفارق دين قومه ، فاعتلل الأوثان ، والميته والدم ، والذبائح التي تذبح على الأوثان ، ونهى عن قتل الماء ودة ، وقال : أعبد رب إبراهيم : وبادي قومه بعيوب ما هم عليه » .

كان من هؤلاء ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، وهو عربي أصيل من ذرية بيوتات قريش .

وهو - كما يروى صاحب الأغاني « أحد من اعزل عبادة الأوثان في الجاهلية وطلب الدين ، وقرأ الكتب ، وامتنع من أكل ذبائح الأوثان » .

طلب ورقة الدين ، ولم يكتف في طلبه باللغة العربية ، بل لعل اللغة العربية إذ ذاك لم تكن تسعفه بما يريد من معرفة فتعلم العبرانية « وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب » .

ولم يكن أمر معرفته وعلمه مجهولاً بين قومه ، ولذلك انطلقت خديجة بنت خويلد إليه بالنبي ﷺ : لتسпросه عما عرض للرسول من أمر الوحي ، فأفادها وطمأنها ، وتنوى أن لو عاش حتى يرى الرسول قد أمر بنشر دعوته ، لينصره نصراً مؤزراً .

وكان ورقة شاعراً ناضج التفكير في شعره ، ومثال ذلك قوله :

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم
أنا النذير ، فلا يغركم أحد
لا تعبدن إلها غير خالقكم ،
إإن دعوكم فقولوا : بينما حدد (١)
سبحان ذى العرش ، سبحانًا نعوذ به
وقبل قد سبع الجودى (٢) والحمد
مسخر كل ما تحت السماء له
لا ينبغي أن ينawi ملكه أحد
لا شيء مما ترى تبقى بشاشته
يبيق الإله ويودى المال والولد
لم تغن عن هرمز يوما خزائنه
والخلد قد حاولت عاد فا تحملوا
ولا سليمان إذ دان الشعوب له
والجن والإنس تجربى بينما البرد (٣)

ويروى أن رسول الله ﷺ سُئل عنه فقال : « قد رأيته في المنام كأن عليه ثياباً بيضاً ، فقد أظن أن لو كان من أهل النار لم أر عليه البياض » .

لم يكن أمثال ورقة ، وأمثال زيد من النادرين في العرب ، ولم يكونوا يستخفون بآرائهم ، فكثيراً ما كان يدور النقاش بينهم وبين قومهم ، فضلاً عن دورانه بين بعضهم وبعض .

ولقد عاب زيد فيما يبدو ورقة على اعتناقه النصرانية ، وأراد منه التخلّي عنها فقال : « أنا أستمر على نصرانيتي إلى أن يأتي النبي الذي تبشرنا به الأخبار » .

(١) المتن .

(٢) الجودى والحمد : جبلان .

وحيثما اطمأن زيد إلى التوحيد ، وأعلن ذلك قال ورقة له :
رشدت وأنعمت ابن عمرو ، وإنما تجنبت نوراً من النار حاماً
بدينك ربّاً ليس ربّ كمثله وتركك جنّان^(١) الجبال كما هي

٢

الحكماء :

كان الطابع العام لؤلؤة الذين ذكرنا : هو البحث عن الدين المستقيم ، والتطلع إلى الهدىية السماوية ، ولكن ميدان التفكير الناضج في أرجاء الجزيرة العربية كان أوسع من أن يكون مقصورةً على هؤلاء .

يقول الشهرياني : « ومنهم - أى الفلاسفة - حكماء العرب ، وهم شرذمة قليلة ، لأن أكثرهم حكمتهم فلتات الطبع ، وخطرات الفكر وربما قالوا بالنبوات ». وحكماء العرب هؤلاء هم : العلماء الذين يرجع إليهم فيما يعرض من مشاكل ، وهم في الجملة : أعظم العرب حظاً في الثقافة .

وكان مثلهم في الحكمة : مثل حكماء اليونان ، لقد أثرت عنهم الحكم القصيرة التي تركت فيها التجربة والحنكة ، مثل : « مقتل الرجل بين فكيه ». « من طلب شيئاً وجده وإن لم يجده يوشك أن يقع قريباً منه ». « الحرب مأيمة » .

« وإن المبت لا أرضًا قطع ولا ظهراً أبقى ! ». وإذا ما قارنا هؤلاء الحكماء بمن يماثلهم من حكماء اليونان وجدنا أنهم يتشابهون في كثير من التواهي : يقول أفلاطون : « واجتمعوا - أى الحكماء - في دلف وأرادوا أن يقدموا لأبولون في هيكله بواكيه حكمته . فاختصوه بالأيات التي يرددها الناس الآن مثل : « أعرف نفسك » و « لا تسرف » و « الصلاح عسير » فكانوا مصلحين

(١) حنان الجبال : الذين يأمرؤون بالفساد من شياطين الجن .

ومشرعين ، ولم يكونوا فلاسفة بمعنى الكلمة ^(١).
وكذلك كان حكماء العرب .

وقد روى عن حكماء العرب بعض الآراء التي تدل على تفكيرهم .
كان منهم عامر بن الظرب الذى يقول فيه الميدانى : كان من حكماء العرب ، لا
تعدل بفهمه فهماً ولا بحكمه حكماً
ومن كلامه في استدلاله على وجود الله وعلى تصريفه للكون .
«إني ما رأيت شيئاً قط خلق نفسه ، ولا رأيت موضوعاً إلا مصنوعاً ، ولا جائياً إلا
ذاهباً ، ولو كان يحيى الناس الداء لأحياءهم الدواء » .
ومن حكماء العرب أكثم بن صيفي بن رباح .

وكان من حديثه - كما ذكر الألوسى - أنه لما ظهر النبي ﷺ بمكة ودعا إلى
الإسلام بعث أكثم ابنه حبيشاً ، فأتاه بخبره . فجمع بنى تميم وقال :
يا بنى تميم ، لا تحضروني سفيهاً ؛ فإنه من يسمع يخل ^(٢) ، إن السفيه يوهن من
فوقه ويضبط من دونه ، لا خير فيما لا عقل له . كبرت سنى ودخلتني ذلة ، فإذا
رأيتم مني حسناً فاقبلوه ، وإن رأيتم مني غير ذلك فقوموني أستقم .
إن ابني شفه هذا الرجل مشافهة ، وأتاني بخبره ، وكتابه يأمر فيه بالمعروف
ونهى عن المنكر ، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو إلى توحيد الله تعالى ،
وخلع الأوثان ، وترك الحلف بالنيران ، وقد حلف (عرف) ذوو الرأى منكم أن
الفضل فيها يدعوا إليه ، وأن الرأى تركه ما ينهى عنه .
إن أحق الناس بمعونة محمد ومساعدته على أمره أنتم ، فإن يكن الذي يدعوا إليه
حقاً فهو لكم دون الناس ، وإن يكن باطلًا كنتم أحق الناس بالكف عنه والستر
عليه . وقد كان أسقف نجران يحدث بصفته ، وكان سفيان بن مجاشع يحدث به
قبله ، وسمى ابنه محمداً ، ف تكونوا في أمره أولاً ولا تكونوا آخرأ . اشتوا طائرين قبل أن
تأتوا كارهين .

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم ص ٨ .

(٢) «من يسمع أخبار الناس ومعايبهم يقع في نفسه عليهم المكره» عن حمل الأمثال الميدانى .

إن الذي يدعو إليه محمد لو لم يكن ديناً لكان في أخلاق الناس حسناً . أطیعوني واتبعوا أمری ، أسأل لكم أشياء لا تنزع منكم أبداً ، وأصبحتم أعز حى في العرب ، وأكثرهم عدداً ، وأوسعهم داراً ، فإني أرى أمراً لا يكتبه عزيز إلا ذل . ولا يلزم ذليل إلا عز . إن الأول لم يدع للأخر شيئاً . وهذا أمر الله ما بعده ، ومن سبق إليه غمر المعالى واقتدى به التالي والعزم حزم ، والاختلاف عجز .

فقال مالك بن نويرة : قد خرف شيخكم .

فقال أكثم : ويل للشجى من الخل . ولهى على أمر لم أشهده ولم يسبقنى فذهب مثلاً .

وكان منهم قيس بن ساعدة الذي يقول فيه رسول الله ﷺ : كأنى أنظر إلى بسوق عكاظ على جمل له أورق ، وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة ، ما أجدنى أحفظه ، وخطبته بسوق عكاظ مشهورة : « أيها الناس اسمعوا وعوا . . . إلخ » . ودليله على وجود الله أيضاً مشهور : إنه يستدل بالأثر على المؤثر . وهو يصف الإله فيقول : كلا بل الله إله واحد ليس بمولود ولا ولد ، أعاد وأبدى ، وإليه المأب غداً .

ثم ينشد :

يا باكى الموت والأموات في جدث عليهم من بقايا برهم خرق دعهم ، فإن لهم يوماً يصاح بهم كما ينبه من نوماته الصعق وأما عبد المطلب جد الرسول وهو من حكماء العرب المشهورين فقد رويت عنه سن أقر القرآن أكثرها : كالمنع من نكاح المحارم ، وقطع يد السارق ، والنهى عن قتل الموعودة .^(١)

ولم تكن الناحية الأخلاقية مهملة لدى الشعراء ، وزهير بن أبي سلمى يتحدث عنها في كثير من شعره ، وهو القائل :

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ، ومها يكتم الله يعلم يؤخر ، فيوضع في كتاب فيدخل يوم الحساب ، أو يعدل ، فينقض

(١) تمہید لتأریخ الفلسفۃ الاسلامیۃ ص ۱۱۰ .

ويقول في ضرر الحرب والدعوة إلى السلم :

(١) وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المترجم
 (٢) متى تبعنها تبعنها ذميمة وتضرى إذا ضررتها فتضمر
 (٣) فتعركم عرك الرحي بثقالها وتلقي كشافا، ثم تتبع فتئم
 (٤) فتتسع لكم غلامن أشام كلهم كأحمر عاد، ثم ترضع فتفطم
 (٥) فتغلل لكم مالا تغل لأهلها قرى بالعراق من قفيز ودرهم

٣

رأي الحمس :

وإذا كان ما سبق يعتبر من الجوانب المحدودة برغم كثرته . فإن قريشا قد غمرتها نزعة روحانية ، ففكرت في أمر الدين وقداسته ، والبيت وحرمتها ، وبعد تأمل وترو - ابتدعت رأي الحمس .

والخمس جمع أحمس ، والأخمس - كما يقول صاحب المختار - هو : الشديد الصلب في الدين والقتال ، ولم يكن هذا الرأي الذي ابتدعه إلا تحسناً دينياً ، وعاطفة روحانية قوية .

وكانوا يذهبون فيه - كما يقول السهيلي - « مذهب التأله والتزهد ». وكان مثلكم في ذلك مثل من قال الله فيهم (ورهانية ابتدعواها) سورة الحديد / ٢٧ قال ابن إسحق « وقد كانت قريش - لا أدرى قبل عام الفيل أم بعده ابتدعت

(١) المترجم من الحديث : المقول بطريق الظن . لاعن تحقيق أبي : وما حديثي عن الحرب وتخويفكم ويلاتها بالحديث المفترى . بل أنتم قد علمتم ويل الحرب وذقتها .

(٢) متى تهيجوا الحرب تهيجوها مذمومة ويشتد حرها وتصرم نارها

(٣) الثقال : جلدة توضع تحت الرحي . كشافا سنتين متاليتين . تتم : تلد توه مين والمعنى : تحمل مرتين في عامين متاليين وتلد في كل منها توه مين .

(٤) إن أمر هذه الحرب يطول وتتسع لكم غلامن مثلهم في الشرم كمثل عاقر ناقة صالح عليه السلام ، وتعيش هذه الغلامن حتى ترضع وتفطم ، يريد بذلك أن يكفي عن طول الحرب وشorerها .

(٥) ولن نقل الحرب الذي يكال بالقبيض ، أو يباع بالدرهم ، إذ هي لا تتسع إلا الموت والملائكة .

رأى الحمس رأياً رأوه ، وأداروه ، فقالوا : نحن بنو إبراهيم ، وأهل الحرمة ، ولادة وقطان مكة وساكنوها ، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ، ولا مثل منزلتنا ، ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا ، فلا تعظموا شيئاً من 'الحل' كما تعظمون الحرم ؛ فإنكم إن فعلتم ذلك استخف العرب بحرمتكم ، وقالوا : قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم .

فتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها ، وهم يعرفون ويقررون بأنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم عليه السلام ، ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها ، وأن يفيضوا منها إلا أنهم قالوا : نحن أهل الحرم ، وليس ينبغي لنا أن نخرج من الحرمة ، ولا نعزم غيرها كما نعزمها نحن الحمس ، والخمس أهل الحرم . ۱ هـ . ولقد كانوا في سبيل ذلك يشقون على أنفسهم ، ويشقون على غيرهم : فيحرمون على أنفسهم أشياء ، ويفرضون عليها أخرى ، وكذلك كانوا يفعلون ، بالنسبة للحجاج وللمعتمرين .

قال ابن إسحاق : « ثم ابتدعوا في ذلك أموراً لم تكن لهم حتى قالوا : لا ينبغي للخمس أن يأنقظوا الأقط (١) ولا يسلثوا السمن وهم حرم ، ولا يدخلوا بيته من شعر ، ولا يستظلوا إلا في بيوت الأدم (٢) ما كانوا حرماً .

ثم رفعوا في ذلك فقالوا : لا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل إلى الحرام إذا جاءوا حجاجاً أو عماراً ، ولا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الحمس ، فإن لم يجدوا منها شيئاً طافوا بالبيت عراة ، فإن تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة ولم يجد ثياب الحمس ، فطاف في ثيابه التي جاء بها من الحل - ألقاها إذا فرغ من طوافه ، ثم لم ينتفع بها ، ولم يمسها هو ولا أحد غيره أبداً .

فحملوا على ذلك العرب ، فدانت به ، ووقفوا على عرفات ، وأفاضوا منها . وطافوا بالبيت عراة أما الرجال فيطوفون عراة ، وأما النساء فتضيق إحداهن ثيابها

(١) الأقط : الجن : لا يصنعون الجن ولا يصنعون السمن .

(٢) بيوت الأدم : الأختية التي تصنع من الجلد .

كلها إلا درعاً مفرجاً عليها ثم تطوف فيه .
وكان الغرض من طوافهم عراة ، إن لم يجدوا ثياب أحمس - هو طرح الثياب
التي اقترفوا فيها الذنوب ، فقد تدنس بما أتوا من معصية .

٤

حلف الفضول :

هذه العاطفة الدينية تبعها كلام من لوازمه - عمل أخلاقي كريم قد بلغ من
السمو حداً لا يكاد يحدث في التاريخ إلا نادراً : إننا نريد أن نتحدث عن حلف
الفضول . قال صاحب الروض الأنف :

وكان حلف الفضول ^(١) هذا قبلبعث بعشرين سنة ، وكان أكرم حلف
وأشرفه ، وأول من تكلم به ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب .

وكان سببه : أن رجلاً من زبيد قدم مكة بضاعة ، فاشترتها منه العاصي بن
وائل ، وكان ذا قدر بمكة وشرف ، فحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه الزبيدي
الأحلاف : عبد الدار ومخزوماً وجمح وسهماً ، وعدى بن كعب ، فأبوا أن يعينوه
على العاصي ، وزبروه (زجوه) . فلما رأى الزبيدي الشر أوفي على أبي قبيس عند
طلع الشمس ، وقريش في أندائهم حول الكعبة ، فصاح بأعلى صوته :
يا آل فهر . لظلوم بضاعته بيطن مكة نائى الدار والمفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته يا للرجال وبين الحجر والحجر !
إن الحرام لمن تمت كرامته ولا حرام لثوب الفاجر الغدر
فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب . وقال :

(١) يذكرون في سبب تسمية هذا الحلف بهذا الاسم : إن جرها في الرمن الأول ، قد سبقت قريشاً إلى مثل هذا
الحلف ، فتحالفت منهم ثلاثة وهم ومنتبعهم . أحدهم : الفضيل ابن فضالة ، والثاني الفضل بن وداع ، والثالث
ابن الحارث ، وقيل : بل هم الفضل بن شراعة ، والفضل بن وداع ، والفضل بن قضاوة . فلما أشهه حلف قريش هذا
حلف مؤلاء الحرميين سمي حلف الفضول .
وقيل : بل سمي كذلك لأنهم تحالفوا أن ترد الفضول على أهلها ، ولا يغزو ظالم مظلوماً .

ما هذا مترك !

فاجتمعت هاشم ، وزهرة ، وتيم بن مرة ، في دار ابن جدعان فصنع لهم طعاماً وتعاقدوا ، وكان حلف الفضول ، وكان بعدها أن أنصفوا الزبيدي من العاصي ^(١) .

ويقول ابن هشام راوياً عن ابن إسحاق :

تدعى قبائل من قريش إلى حلف ، فأجتمعوا له في دار عبد الله بن جدعان بن عمر .. لشرفه وسنّه ، فكان حلفهم عنده (بنو هاشم ، وبنو عبد المطلب ، وأسد بن عبد العزى ، وزهرة بن كلاب ، وتيم بن مرة) فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكّة مظلوماً من أهلها وغيرهم من دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه ؛ حتى ترد إليه مظلمته ، فسمّت قريش ذلك الحلف حلف الفضول » .

كان بحق - كما يقول السهيلي أكرم حلف وأشرفه . ومن أجل ذلك قال رسول الله ﷺ في شأنه :

« لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم ، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت » .

(١) عن الروض الأنف .

الفصل الثاني

تصحيح الفكرة العامة عن العرب

١

الفكرة العامة عن العرب وتصحيحها :

ومع كل ذلك فإنه لا يخفى علينا أن الفكرة العامة عن العرب : هي أنهم كانوا في تدهور ديني لا حد له :
لقد كانوا يشربون الخمر .

وكانوا يعبدون الأصنام ، كانوا يعبدون قطعاً من الحجارة منحوتة بأيديهم .
ويدعونها آلهة ويعبدونها .

وهل من دليل على فتورهم الديني أوضح من تركهم أبرهة يسير إلى البيت الذي يقدسونه ويعظمونه ليهدمه بدل أن ينتشقا الحسام لصدده ؟ إنهم تركوه وما يريدون
أن يتذمروا عليه شعواء !

هذه شبّهات تعلق بالذهن وتثار في كل آونة ، ولا بد من أن نتحدث عنها :
أما الخمر فقد تركتها طائفة في الجاهلية ، ودعت إلى تركها ، ومنهم قيس بن عاصم التميمي ، وصفوان بن أمية الكناني ، وعفيف بن معد يكرب الكندي ،
وغيرهم وما يقول قيس فيها :

ووجدت الخمر جامحة وفيها خصال تفضح الرجل الكريما
إلى آخر القصيدة .

أما الأصنام فلم يكن العرب يعبدونها لذاتها ، ولم تكن عندهم مجرد قطعة من حجر ؛ وإنما اتخذوها على (شكل الهياكل العلوية^(١)) فكانوا يعبدونها باعتبارها رمزاً «للهيكل العلوية » .

وكانوا يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى
أما مسألة تركهم أبرهة فإن الصورة التي عند العامة في هذا الأمر غير صحيحة ؛
وللحقيقة والتاريخ نقول :

إن أبرهة أراد أن يصرف العرب عن الحج إلى بيت الله الحرام ومن أجل ذلك

(١) الشهرياني .

«بني - كما يقول ابن هشام - القليس بصنعاء ، فبني كنيسة^(١) لم يرّ مثلها في زمانها شيء من الأرض ؛ ثم كتب إلى النجاشي : إني قد بنيت لك أهلاً الملك كنيسة لم يبن مثلها ملك قبلك ، ولست بعمته حتى أصرف إليها حج العرب» وتحدث العرب بكتاب أبرهة إلى النجاشي وثار بهم الغضب : فخرج رجل من كانة حتى أتى القليس فقعد فيها : أى أحدث فيها : يريد أن يعرف أبرهة أنها ليست لذلك بأهل».

وكان ما فعل هذا الكنانى يعبر عما كان يريد الكثيرون من العرب إذ ذاك ، ولكنه أغضب أبرهة غضباً لا حد له . وحلف ليهدمن البيت الحرام . وندع بعد ذلك ابن هشام يتحدث :

«وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفظعوا به ، ورأوا جهاده حقاً عليهم حين سمعوا أنه يريد هدم الكعبة ، بيت الله الحرام . فخرج إليهم رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له (ذو نفر) ، فدعا قومه ومن أجيائه من سائر العرب إلى حرب أبرهة ، وجهاده عن بيت الله الحرام ، وما يريد من هدمه وإخراجه ، فأجابه إلى ذلك من أجيائه ، ثم عرض له فقاتلته ، فهزم ذو نفر وأصحابه ..

ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد مخرج له ، حتى إذا كان بأرض خشم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمي في قبيلة خشم : شهران ، وناهش ، ومن تبعه من قبائل العرب ، فقاتلته فهزمه أبرهة ..

فلما نزل أبرهة المغمس (بالقرب من مكة) . . . همت قريش وكنانة وهذيل ، ومن كان بذلك الحرم - بقتاله ، ثم عرفوا أنهم لاتاقة لهم به . فتركوا ذلك . نرى من هذا أن العاطفة الدينية عند العرب لم تكن فاترة ضعيفة إلى الحد الذي يتصوره بعض المؤرخين والكتاب .

(١) سبت القليس لارتفاع بنائها ، وعلوها ، وكان أبرهة ينقل إليها الرخام الجذع ، والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام ، وكان من موضع هذه الكنيسة على فراسخ . وكان يستخدم مع أهل اليمن العنف الذي لاحد له ، حتى لقد كان يقطع بد العامل إذا طلعت عليه الشمس قبل أن يأخذ في عمله .

٢

الأديان في جزيرة العرب :

على أن الذى ينبغي أن يلاحظ أن جزيرة العرب لم تكن كلها وثنية : «كانت النصرانية في ربيعة وغسان ، وبعض قضااعة .

وكانت اليهودية في حمير وبني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة .

وكانت الجوسية في تميم : منهم زراة ، وحاجب بن زراة ، منهم الأقرع بن حابس كان مجوسيّاً .

وكانت الزندقة في قريش أخذوها من المhire (١) .

ومن العرب من كان يدين بالرجعة : يقول صاحب لسان العرب : «والرجعة مذهب قوم من العرب في الجاهلية معروف عندهم» .

ولم يكن القول بالجبر أو القول بالاختيار بعيداً عن العقلية العربية : يقول يحيى بن متى راوية الأعشى : كان الأعشى قدرياً وكان لبيد مثبتاً ، قال لبيد :

من هداه سبل الخير اهتدى ناعم البال ومن شاء أضل
وقال الأعشى :

استأثر الله بالوفاء وبالعد ل ولی الملامة الرجل
والحق : أن جزيرة العرب لم تكن - كما يُظن عادة - بمنأى عن التفكير الديني
القوى إنكاراً وجحوداً ، أو إثباتاً وتأييداً ، وسرى فيما بعد إيصالاً لجوانب أخرى
من تفكيرهم الديني عندما نتحدث عن موقف القرآن منهم .

ونريد الآن أن نذكر آراء بعض الكتاب في شأن العرب : نستأنس بها فيما ذكرنا .

(١) ابن قتيبة : كتاب المعرف .

٣

بعض الآراء عن العرب :

يقول الجاحظ : « وذكر الله تعالى حال قريش في بلاغة المنطق ورجاحة الأحلام ، وصحة العقول .

وذكر العرب وما فيها من الدهاء والنكراء^(١) والمكر ، ومن بلاغة الألسنة واللدد عند الخصامة فقال :

(إِذَا ذَهَبَ الْحُوفُ سَلَقُوكُمْ بِالسَّنَةِ حَدَادٌ) ^(٢)

ثم ذكر خلابة السنهم واسمائهم الأسماع بحسن منطقهم فقال :

(وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمِعُ لِقَوْلِهِمْ) ^(٣) ثم قال :

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْجِبُ كَوْلَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) البقرة/٢٠٤ مع قوله

(وَإِذَا تَوَلَّ سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيَهْلِكَ الْحَرثَ وَالنَّسْلَ) البقرة/٢٠٥

وقال جرجى زيدان فى تاريخ آداب اللغة العربية :

« وقد يتadar إلى الذهن أن أولئك البدو كانوا أهل جهالة وهمجية بعدهم عن المدن ، وانقطاعهم للغزو وال الحرب ، ولكن يظهر مما وصل إلينا أنهم كانوا أكابر العقول ، أهل ذكاء ، ونباهة واختبار وحنكة ، وأكثر معارفهم من ثمار قراحتهم ، وهى تدل على صفاء أذهانهم وصدق نظرهم في أحوال الإنسان مما لا يقل عن نظر أعظم الفلسفه : فإن قول زهير بن أبي سلمى في معلقته : « رأيت المايا خطط عشواء » إلى قوله :

« وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تَعْلَمْ)^(٤) لَا يَقُلُّ شَيْئاً عَنْ أَحْكَامِ أَكَابِرِ الْفَلَاسِفَةِ »

جزء ١ ص ٢٩ .

(١) النكراء : الدهاء والنفعة .

(٢) سورة الأحزاب آية : ١٩ .

(٣) سورة المنافقون آية : ٤ .

(٤) سورة البقرة آية : ١٩ .

(٥) البيان والتبيين ج ١ .

ندكر هنا الآيات التي أشار إليها الكاتب نقاً عن كتاب المعلقات ليرى القارئ بنفسه مبلغ ما وصل إليه زهير من

عمق :

ويقول فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر الأسبق :

«في الشعر الجاهلي معان سامية وحكمة صادقة ، ومن يقرأه خالى الذهن من كل ماقيل فيه يقضى العجب من ذكاء منشئيه وسعة خيالهم ، وإفصاحهم النظر في تأليف المعانى والتصرف في فنون الكلام ». .

وكما اعتمد الجاحظ على القرآن فيما ذكرناه له من رأى سابق - فإن الدكتور (طه حسين) يرى أن القرآن أصدق مرآة للحياة الجاهلية .

وهذه القضية - كما يقول الدكتور (طه حسين) غريبة حين تسمعها ، ولكنها بديهة حين تفكير فيها قليلاً .

فليس من اليسير - أن ~~فهم~~ أن الناس قد أعجبوا بالقرآن حين تليت عليهم آياته ، إلا أن تكون بينهم وبينه صلة : هي هذه الصلة التي بين الأثر الفنى البديع وبين الذين يعجبون به حين يسمعونه أو ينظرون إليه .

وليس من اليسير - أن ~~فهم~~ أن العرب قد قاوموا القرآن وناهضوه وجادلوا النبي فيه إلا أن يكونوا قد فهموه ، ووقفوا على أسراره ودقائقه .

وفي القرآن رد على الوثنين فيما كانوا يعتقدون من الوثنية .

وفيه رد على اليهود

<p>ثمانين حولاً - لا أبالك - يسلم ولكتني عن علم ما في غد عم رأيت المنايا خطط عشاء : من تصب يضرس بأنباب ويوطأ بنسنم يفره ، ومن لايق الشتم يشم على قوله يستغرن عنهم ويدم إلى مسطمن البر لايتجمجم ومن يوف لايذم ومن يهد قلبه واب - أسباب المنايا يلته ومن يجعل المعرفة في غير أهله ومن يغض أطراف الرجال فإنه ومن لم يذد عن حوضه بسلامه يدم ، ومن لايظلم الناس يظلم ومن يغترب يحسب عدوا صديقه ومها تكن عند أمرئ من خلية وابن خالها تحنى على الناس تعلم</p>	<p>= سشت تكاليف الحياة ، ومن يعش وأعلم ما في اليوم والأمس قبله رأيت المنايا خطط عشاء : من تصب ومن لم يصانع في أمور كثيرة ومن يجعل المعرفة من دون عرضه ومن يلک ذا فضل فيدخل بفضله ومن يوف لايذم ومن يهد قلبه ومن هاب - أسباب المنايا يلته ومن يجعل المعرفة في غير أهله ومن يغض أطراف الرجال فإنه ومن لم يذد عن حوضه بسلامه ومن يغترب يحسب عدوا صديقه ومها تكن عند أمرئ من خلية وابن خالها تحنى على الناس تعلم</p>
--------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------	----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------

وفيه رد على النصارى

وفيه رد على الصابرة والمجوس .

وهو لا يرد على يهود فلسطين ، ولا على نصارى الروم ومجوس الفرس ، وصائبة الجزيرة وحدهم ؛ وإنما يرد على فرق من العرب كانت تمثلهم في البلاد العربية نفسها ..

ولكن القرآن لا يمثل الحياة الدينية وحدها ؛ وإنما يمثل شيئاً آخر غيرها لأنجده في هذا الشعر الجاهلي : يمثل حياة عقلية قوية ، يمثل قدرة على الجدال والخصام أنفق القرآن في جهادها حظاً عظيماً :

أليس القرآن قد وصف أولئك الذين كانوا يجادلون بقوة الجدال ، والقدرة على الخصم ، والشدة في المخاورة ؟

وفيم كانوا يجادلون ويختلفون ويحاورون ؟ في الدين وفيما يتصل بالدين من هذه المسائل المعضلة التي ينفق الفلاسفة فيها حياتهم دون أن يوفقا حلها : في البعث ، في الخلق ، في إمكان الاتصال بين الله والناس ، في المعجزة وما إلى ذلك »

ويمضي الدكتور (طه حسين) في الحديث عن تصوير القرآن للأمة العربية من الناحية الاقتصادية ومن ناحية اتصال العرب بغيرهم من الأمم ، ويتمشى مع القرآن في أن العرب لم يكونوا كلهم سنتاً واحدة ، بل كان فيهم الأعراب في جفوتهم وغلوظتهم وإمعانهم في الكفر والنفاق ، وقلة حظهم من العاطفة الرقيقة التي تحمل على الإيمان والتدين :

(الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله) ^(١)

ونعود إلى الجاحظ في مقارنة له بين العرب في عصرها الجاهلي وغيرهم من الأمم ، وهذه المقارنة : قد اعتقاد قوم أنها مقارنة بين العرب كجنس : أي بين العرب في ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم وبين غيرهم ، ولكن ذلك خطأ واضح . فالجاحظ يقارن بين العرب في طور من أطوارهم هو الطور الجاهلي فحسب وبين غيرهم ، ولذلك لم يتحدث في هذه المقارنة عن الدين ، أو فلسفة الكندي وهو

(١) سورة التوبه آية : ٩٧.

عربي صميم أو فلسفة المعتلة ؛ فقد كانوا منها على حظ وافر . ولم يتحدث عن تشريع أبي حنيفة أو الشافعى ، وقد كان في ذلك - لو أراد - ميدان من أخصب الميدانين لتأييد رأيه .

يقول الجاحظ : «إن الهند لهم معان مدونة ، وكتب مجلدة ، لاتضاف إلى رجل معروف ، ولا إلى عالم موصوف ؛ وإنما هي كتب متواترة . وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة .»

ولليونان فلسفه ، ولكن صاحب المنطق نفسه بكىء اللسان ، ولا موصوف بالبيان .

وف الفرس خطباء إلا أن كل كلام للفرس ، وكل معنى للعجم فإنما هو عن طول فكرة ، وعن اجتهد وخلوة .

وكل شيء للعرب فإنما هو بديبة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليس هناك معانا ولا مكافحة ، ولا إجالة فكر ولا استعana ؛ وإنما هو أن يصرف همه إلى الكلام فتأتيه المعاني إرسالاً وتثال على الألفاظ اثنالاً .»

من كل ما سبق نرى أن العرب لم يكونوا - كما يظن كثير من الناس - أهل جهل مطبق أو ضلال شاملة ؛ وإنما كانوا أصحاب شعر وحكمة ودين ، كان فيهم بلاغة المنطق ، ورجاحة الأحلام ، وصحة العقول ، وشعور ديني قوى يضخون في سبيله بأموالهم وأنفسهم .

٤

العرب على حسب ما نعتقد :

أما ما ت يريد أن ننتهي إليه من كل ما سبق فهو الرأى الذى رأه فضيلة المرحوم الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق فى كتابه : «تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية» :

«ومهما يكن من أمر العرب عند ظهور الدين الحمدى فإنهم لم يكونوا في سذاجة

الجماعات الإنسانية الأولى من الناحية الفكرية التي تهمنا ، يدل على ذلك ما عرف من إيمانهم وماروا من آثارهم الأدبية »

وكان العرب عند ظهور الإسلام : « يتسبّبون بأنواع من النظر العقل يشبه أن تكون من أبحاث الفلسفة العلمية ، لاتصالها بما وراء الطبيعة من الألوهية ، وقدم العالم أوحدوته والأرواح ، والملائكة ، والجن ، والبعث ، ونحو ذلك .

٥

الدهماء لا يمثلون الأمة :

ومع ذلك فإننا نعلم حق العلم أن الأكثريّة العظمى في جزيرة العرب كانت من البدو الرحل الذين شغلتهم البحث وراء لقمة العيش عن التفكير في الدين وفيها وراء الطبيعة ، وليس من الطبيعي أن تطلب من شخص يقايس في عufe شطف الحياة – أن يفكر تفكيراً مجرداً .

إن الأغلبية العظمى من جزيرة العرب صحراء قاحلة ، وليس لساكنيها استقراراً ، وليس بها أمن مستتب ، والمحروب والغارات في جبالها ووهادها لا تكاد تنقطع ، فمن الطبيعي ألا يكون عند هؤلاء أوقات فراغ يقضونها في التفكير فيها وراء الطبيعة .

ولكن إذا كنا لا نتخد من عقلية الفلاح الحاف القدمين الذي قوس انحناؤه على الفأس ظهره مثلاً لحضارة المصريين وثقافتهم ، سواء كان ذلك في العصر القديم ، أو في العصر الحديث ، وإذا كنا لا نتخد من الفرنسي الريف الجاهل مثلاً لحضارة فرنسا وثقافتها – فإنه من غير الطبيعي أن يكون البدو الرحل مقياساً للثقافة العربية فيها قبل الإسلام .

الفصل الثالث

في العقيدة

وصف القرآن :

كانت جزيرة العرب - كما تحدثنا سابقاً - تعج بمخالف الآراء الدينية ، كان فيها النصرانية واليهودية والخنفاء ، وكان فيها الزندقة والدهرية ، ومن ينكرون البعث ، ومن ينكرون إرسال الرسل ؛ وكان فيها من يقول بالرجعة ، ومن يقول بالجبر ، ومن يقول بالاختيار .

كان فيها توحيد وإلحاد ومؤمنون ومشركون ، ولكن هؤلاء وأولئك كانوا جمِيعاً يتظرون بارقة تشرق عليهم فتبعد حيرتهم ، وتحسم ما بينهم من جدل واختلاف . في هذه الآونة قام رسول الله ﷺ بدعوته ، ودعوته لم تنشأ عن تفكير إنساني شخصي ؛ إنما هي وحى أنزل عليه .

وهي معصومة لأنها وحى ، إنها معصومة عن التخطط في الآراء ، معصومة عن متأهات الخيال .

والقرآن وهو كتابها المقدس يقول فيه رسول الله ﷺ كما روى عن على رضى الله عنه :

«عليكم بكتاب الله : فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بال Hazel ، من تركه من جبار قسمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلله الله .

هو حبل الله المtin ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم .

هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا يشيع منه العلماء ، ولا يخلق عن كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه .

من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن خاصم به أفلح ، ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم » ١ . هـ

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : «إن هذا القرآن

مأدبة الله ، فاقبلوا مأدبته ما استطعتم ،
 إن هذا القرآن حبل الله ، والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة من تمسك
 به ، ونجاة من اتباعه ، لا يزيف فيستعبد ، ولا يعرج فيقف ، ولا تنقضى عجائبه
 ولا يخلق من كثرة الرد .
 اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته ، كل حرف عشر حسناً ، أما أنى لا أقول
 ألم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » رواه الحاكم .

٢

تواتر القرآن :

وقد وصل إلينا القرآن بطريق التواتر ، بحيث لا يمكن الشك مطلقاً في أنه وصل
 إلينا كما نزل على سيدنا محمد ﷺ ، دون زيادة أو نقص .
 والمستشركون - برغم تحامل الكثيرين منهم على الإسلام - لا يجدون مطعناً
 صحيحاً من تلك الجهة أبداً .

ولقد قال المستشرق الفرنسي الأستاذ « ديمومبين » بحق ، في كتابه عن
 الإسلام :

إن المنصف لامناص له من أن يقرّ بأن القرآن الحاضر هو القرآن الذي كان يتلوه
 محمد ﷺ .

٣

السبب في أن مهمة الرسول كانت شاقة :

ومع استشراف نفوس العرب إلى هاد يقودهم إلى السبيل السوى فإن مهمة
 الرسول ﷺ لم تكن سهلة ميسورة ، وذلك :
 (١) لأن النفوس إذا ألفت شيئاً فترة طويلة من الزمن لم يكن من السهل
 انصرافها عنه .

والإلف - لا العقل ولا المنطق - هو الذي يعرقل دائمًا عمل المصلحين خلال التاريخ .

(ب) وكان التنافس بين الأسر في قبيلة واحدة ، وبين القبائل المختلفة من العوامل أيضًا التي دفعت الكثيرين إلى المعارضة ..

(ج) ورأى اليهود أن اعترازهم بدينهم سينهار إذا انتشر الدين الجديد .

(د) ورأى النصارى أن مصير دينهم هو الآخر الاندثار

(هـ) وضاق تفكير طائفة كبيرة من العرب ، فلم يروا العظمة إلا في الثروة ، ولم يكن محمد ﷺ ثريًا ، فقالوا :

(لولا نَزَّلَ هذا القرآن على رجل من القرىتين عظيم)^(١)

وتضامنت عوامل الشر هذه كلها ، وتأليت ، وأرادت - طوال مدة الدعوة -
القضاء عليها .

٤

القيمة الذاتية للدعوة الإسلامية :

ولكن الدعوة الإسلامية كانت تحمل في طياتها من القيمة الذاتية ما يفرضها ويكتب لها الانتشار والسيادة .

إنها تمتاز عن النصرانية المنتشرة إذ ذاك - بنظام اقتصادي خلت منه الأنانية ، وينطق عقل لا يوجد فيها كان مأثرًا حيثًا من كلام السيد المسيح عليه السلام ، ثم

هي تصحيح للمسيحية التي كانت موجودة إذ ذاك محرفة ، كما سرى فيها بعد . وهي تمتاز بما كان موجوداً ، إذ ذاك من اليهودية بما فيها من بساطة ، ونبوة ،

وتزييه الله ورسله وأنبيائه ، لا يوجد ما يماثله في العهد القديم .

ثم هي رجوع باليهودية إلى الحق قبل أن يحرفها ذوو أهلها .

وهي هداية للحنفاء إلى دين إبراهيم الذي يتطلعون إليه .

(١) سورة الزخرف آية : ٣١ .

ثم هي معصومة وليس رأياً يجوز بالبحث أن يكون وهمًا من الأوهام . وهي بعد كل ذلك نظام كامل للحياة الإنسانية : فيها العقيدة ، وفيها التشريع ، وفيها الأخلاق ، إنما ترضى العقل وترضي الوجدان .

٥

وسائل الدعوة هداية العرب :

ولكن العرب قابلوها بصراع . فاتخذت الدعوة الإسلامية من أجل هدايتهم أحکم الوسائل .

نبهتهم إلى أنه ليس من المنطق أن يكون الإله ، وأن تكون العادة أو العزف - مقاييساً للحق ؛ فليس من المنطق إذا قيل لهم - اتبعوا ما أنزل الله - أن يقولوا « بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا » لأنه من الجائز أن يكون آباءهم « لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون »

وليس من المنطق أن يقولوا : (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةً وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقتَدُون) الزخرف/٢٣

وسخر القرآن من الذين حرموا على أنفسهم مزية الفهم والتبصر ، فقال في أسلوب لاذع :

(مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) الجمعة/٥

ثم أضاف الإسلام إلى ذلك تقدير المسؤولية الفردية ، ليجتث بذلك كل محاولة من الفرد لإلقاء التبعة على الجماعة ، أو على البيئة ، أو على الآباء والرؤساء :

(الآتَرْ وَازْرَ وَزَرْ أَخْرَى ، وَأَنَّ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَاسْعِي) النجم/٣٨-٣٩.

(فَنَّ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)

الزلزلة/٧-٨.

ثم صرح في وضوح واضح بالمسؤولية ، فيما يتعلق بالأراء خاصة ، ورتب

العقاب الشديد على من قلد غيره في ضلاله وأهوائه فقال تعالى :
 (وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه ولو ترى إذ
 الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول : يقول الذين استضعفوا
 للذين استكبروا : لولا أنتم لكننا مؤمنين ، قال الذين استكبروا للذين استضعفوا :
 أنحن صدناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين ، وقال الذين استضعفوا
 للذين استكبروا ، بل مكر الليل والنهار إذ تأموتونا أن نكفر بالله ، ونجعل له أنداداً
 وأسرّوا الندامة لما رأوا العذاب ، وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يحزنون
 إلا ما كانوا يعملون)^(١)

وإذا كان الإسلام قد قرر المسئولة الفردية – أي أن كل إنسان مسئول عن
 عمله – فإنه مع ذلك لم يخل الفرد من المسئولة بالنسبة لغيره : فالرسول ﷺ يمثل
 الجماعة الإنسانية بسفر على سفينة أحد بعضهم في إفسادها : فإن أخذوا على يديه نجا
 ونجوا ، وإن تركوه هلك وهلکوا : عن النعمان بن بشير ، رضي الله عنها أن النبي
 ﷺ ، قال :

« مثل القائم في حدود الله الواقع فيها – كمثل قوم استهموا على سفينة ، فصار
 بعضهم أعلىها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرروا
 على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبي خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ! فإن تركوهم
 وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً » البخاري
 وغيره .

ويقول الله تعالى :

(واتقوا فتنة لاتصيبن الدين ظلموا منكم خاصة) الأنفال/ ٢٥
 ويقول في عنيف :

(يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة ، عليها
 ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون)^(٢)
 روى أن عمر رضي الله عنه قال حين نزلت هذه الآية :

(١) سورة سباء الآيات . ٣١ - ٣٣ . (٢) سورة التحريم : آية : ٦ .

«يا رسول الله ، نق أنفسنا فكيف لنا بأهلينا؟»

فقال عليه الصلاة والسلام :

«تهونن بما نهَاكم الله عنه ، وتأمرون بما أمركم الله ، فيكون ذلك وقاية
لبيئن وبين النار» .

على أن الرسول ﷺ يصور هذا النوع من المسئولة تصويراً جميلاً في غير
ما حديث ، إنه يصور الأمة في تواطدها وتراحمتها بجسم إذا اشتكت منه عضو تداعى
له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

وهو يقول في روعة أخاذة :

«كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»

ثم يفصل هذا الإجمال ويضرب بعض الأمثلة .

فالإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل في بيته راع ومسئول عن رعيته ،
والزوجة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع في مال سيده
ومسئول عن رعيته ،

إذن الآباء والأجداد ليسوا مقياس الحقيقة ، وكذلك العرف والعادة ، والفرد
مسئول بما يفعل ، وكل إنسان مأمور بأن يصلح من نفسه ويصلح من أمر الآخرين .

فهذا الجواب أخذ محمد ﷺ ينشر دعوته .

٦

الدعوة الإسلامية دعوة موحدة :

وهي دعوة موحدة لامفرقة ، إنها دعوة نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى
عليهم السلام .

(شرع لكم من الدين ما وصي به نوح ، والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به
إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) ^(١) .

(١) سورة الشورى آية ١٣

وعلم الاختلاف ، والإسلام دعوة لا تهدف إلا إلى عبادة الله وعدم الشرك به وعدم اتخاذ أرباب من دونه ؟

(قل : يأهل الكتاب ، تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأننا مسلمون)^(١)

هذه الدعوة الإسلامية التي هي دعوة الرسل من قبل تقرر أصولاً في ناحية العقيدة ، وشعائر للعبادة ، ومبادئ في القانون ، وقواعد للأخلاق ، والذى يعنيها هنا على الخصوص هو العقيدة .

٧

إيات الرسالة :

إن أشق مرحلة يصادفها كل رسول من الرسل إنما هي إقناع الناس برسالته ، وقد اختلفت وسائل هذا الإقناع ، واحتلت أساليبه ، وقد بدأ الرسول عليه السلام كأسلافه بتقرير أنه رسول ، وأنه متصل بالسماء ، وأن الوحي يتزل عليه تباعاً .

وقد أرسله الله تعالى لحكمة سامية قد رددها القرآن في غير ماموضع :
هي تزكية النفوس وتطهيرها ، تزكيتها وتطهيرها خلقياً ، واجتماعياً ، مؤسساً ذلك على تطهيرها وتزكيتها من ناحية العقيدة .

(لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لنى ضلال مبين)^(٢)
(ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم)^(٣)

ومن أجل ذلك كان إرساله رحمة للعالمين :

(١) سورة آل عمران آية : ٦٤ .

(٢) سورة البقرة : ١٢٩ .

(٣) سورة آل عمران آية : ١٦٤ .

(وما أرسلناك إِلَّا رحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) الأنبياء / ١٠٧
لكن العرب سخروا من دعوته ، وكان لا بد من أن يفهّمهم بآيات من آيات الله ، فلم تخرج هذه الآية عن أن تكون القرآن .

لقد تحداهم به في عنيف ، وتحداهم - متدرجاً بهم - من أن يأتوا بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، إلى أن يأتوا عشر سور مثله ، ثم انتهى بهم أخيراً إلى أن يأتوا بسورة من مثله . قال تعالى :

(قُلْ لَئِنِّي جَعَلْتُ الْإِنْسَانَ وَالْجِنَّةَ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لَبَعْضٍ ظَهِيرَاً) ^(١)

(أَمْ يَقُولُونَ : أَفَتَرَاهُ ؟ قُلْ : فَأَتُوا بِعَشْرَ سُورًا مِّثْلَهُ مَفْتُوحَاتٍ وَادْعُوا مِنْ أَسْطُوعِهِمْ
مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) ^(٢)

(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رِيبٍ مَا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأَتُوا بِسُورَةَ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شَهِداءَكُمْ
مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعُلُوا ، وَلَنْ تَفْعُلُوا فَاقْتُلُو النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا
النَّاسُ وَالْحَجَارَةُ أَعْدَتْ لِلْكَافِرِينَ) ^(٣)

(١٠) سورة الإسراء آية : ٨٨

(١١) سورة البقرة آيتا : ٢٣ - ٢٤ . في هذه الآيات قرر القرآن لفظ : (مثل) والمثلية لا تختص بجانب دون جانب .

وإنما تعم جميع المناخي .

والواقع أن النقاش في القرآن معجز بأسلوبه ، أو معانيه أو يقصصه أو يتعجبه عن المفهومات ، أو غير ذلك من وجوه - إنما هو . نقاش لا يتمشى مع الفكرة القرآنية التي هي في المثال من حميم النواحي .

قال صاحب البحر المحيط :

(المثلية في حسن الظاهر ، وبديع الوصف ، وغرابة الأسلوب ، والأخبار بالغيب : مما كان وما يكون : وما احتوى عليه : من الأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، والقصص ، والحكم والمواعظ ، والأمثال ، والصدق ، والأمن من التحرير والتباين) ج ١ ص ١١٤ - ١٠٥ .

ومن هنا الاختلاف ، في تحديد وجوه الإعجاز في القرآن . راجع إلى اختلاف درجة الاستعدادات الفطرية ، والاتجاهات الفكرية ، لإدراكها ، معرفتها .

فتلائنا . من وجد القرآن مصدقًا لما يديه من التوراة ، والإنجيل ، وأخبار السابقين ، والغيبيات التي لا تحيط بها البشرية علمًا - حصر وجوه الإعجاز فيها أدرك .

ومن نظر إلى القرآن من ناحية اللفظ ، وحسن السبك ، وجزالة الأسلوب ومalle من روعة تملك على السامع شعوره ووجوداته - حصر الإعصار في ذلك . ومن أجال فكره فيها حواره القرآن من الأسرار الكونية التي تكشف عنها العلوم والحووث أي كانت فهو مصدق لما في الطبيعة ، والمطردة (سرهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم) «اتجه هدا الاتجاه . . . إلخ متفرقين =

ولم الشك في أمر الرسول ﷺ مع أنه لو أخبرهم : أن خيلا وراء الوادي ستغير عليهم لصدقه ؛ لأنهم لم يعهدوا عليه كذباً ؟
على أنه قد لبّث فيهم من قبل ذلك أربعين عاما ، فلم يحدث بنبوة ولا برسالة ؛
ذلك أن هذا الأمر إنما يرجع إلى مشيئة الله فحسب .

(قل لو شاء الله ماتلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبّثت فيكم عمرا من قبله
أفلا تعقلون ؟) يومنس / ١٦ (١) .

ويطلب إليهم القرآن أن يتفكروا في أمر صاحبهم هذا الذي نشأ بينهم ، وترعرع
على مرأى ومسمع منهم ، بل كانوا يعرفونه كما يعرفون ابناءهم بالصدق ، والأمانة
ورجاحة العقل ، قال تعالى :

(قل : إنما أعظمكم بواحدة : أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، ثم تتفكروا ،
ما بصاحبكم من جنة ، إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد) سباء / ٤٦ .

ولم الشك في أمره مع أنه قد تجرد من كل مطعم دنيوي ؟

(قل : ما سألكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله ، وهو على كل شيء
شهيد) سباء / ٤٧ .

ولم التشكيك في أمره وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب ؟ ومن كانت حاله هذه لا يمكنه
أن يستمد ما يقول من كتاب ، قال تعالى :

= اثنين اثنين ، وواحدا واحدا « ثم تفكروا » في أمر محمد ﷺ وما جاء به .
أما اثنان ، فيتفكيران ويعرض كل واحد منها محصول فكره على صاحبه وينظران فيه متضادين لا يميل بها اتباع
هوى ، ولا ينبع لها عرق عصبية ، حتى لا يهجم بها الفكر الصالح والنظر الصحيح على جادة الحق وستره .
(١) الآية رقم ٤٦ من سورة سباء ، والمعنى على ماورد في الزمخشري « ملخصاً » إنما أعظمكم بواحدة ، إن فعلتموها
أصيّم الحق وتخلصتم ، وهي أن تقوموا لوجه الله خالصاً ، وكذلك الفرد : يفكر في نفسه بعدل ونصفة ، من غير أن
يكتابرها ، ويعرض فكره على عقله وذهنه وما استقر عنده . من عادات العقلاه وبخاري أحوالهم .
والذى أوجب تفرقهم مثنى وفرادى . أن الاجتماع مما يشوش الخواطر ويعين من الرؤية ، ومع ذلك يقل الإنصاف ،
ويكثر الاعتساف .

وقد علمت أن حمداً ﷺ : ما به من جنة ، بل علمته : أرجح قريش عقلاً ، وأصلهم رأياً ، وأصدقهم قوله ،
 وأنزههم نفساً ، فكان مظنة لأن تظنوا به الحير ، وإذا فلتم ذلك كفواكم أن تطالبوه بأن يأتيكم آية .

(وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك ، إذاً لا رتاب المبطلون)^(١)
هذه الظروف ، وهذه الملابسات ، فضلاً عن القرآن ، ترشد إلى أن محمدًا
صلوات الله عليه كان صادقاً في دعوه .

٨

معارضة العرب :

ييد أن العرب تغالوا في المعارضة ، حتى لقد وصلوا أحياناً إلى حد السخف ،
ولكن القرآن كان لهم بالمرصاد ، وكان دائماً يفحّمهم في قوّة .
لقد قالوا : (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ، ويمشي في الأسواق ؟)^(٢) فرد الله
عليهم بما يقطع حجتهم .

(وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم لياكلون الطعام ويمشون في الأسواق)
الفرقان/٢٠ وقال : (ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية)
الرعد/٣٨

ولم يجد اليهود ولا النصارى مفرّاً من الاعتراف بأن الرسل السابقين كانوا حقاً
كذلك .

وقال العرب : (لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ؟) الفرقان/٣٢ .
إذا بالقرآن يعلل ذلك تعليلاً في غاية القوة والوضوح :
(كذلك لثبت به فوادك ورتلناه ترتيلًا)^(٣) الفرقان/٣٢

(١) سورة العنكبوت آية : ٤٨ . (٢) سورة الفرقان آية : ٧ .

(٣) وهذا أيضاً من اعتراضاتهم ، واقرراً جديداً على شرودهم عن الحق ، وتجاهفهم عن أتباعه ، قالوا : هل نزل
عليه دفعة واحدة ، في وقت واحد ، كما أنزلت الكتب الثلاثة ! وما له أنزل على التفاريق ؟ ، والقائلون قريش ، وقيل
اليهود .

وهذا فضول من القول ، ومماراة بما لا طائل تمنه : لأن أمر الإعجاز والاحتجاج به لا يختلف بتزويه جملة واحدة
أو مفرقاً ، وقوله تعالى . (كذلك لثبت به فوادك) جواب لهم أي كذلك أنزل مفرقاً .
والحكمة فيه : أن نقوى بتفريغه فوادك حتى تعيه وتحفظه لأن المتألقن : إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئاً بعد شيء وجزءاً
عقب جزء ، ولو ألقى عليه جملة واحدة لتعلّم بها وتعينا بمحيطها . والرسول - صلوات الله عليه . فارقت حاله حال موسى وداد وعيسى =

وقالوا : (لولا نُزل هذا القرآن على رجل من القراءتين عظيمٍ !) الزخرف / ٣١
فرد عليهم القرآن في أسلوب لاذع :

(أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ) الزخرف / ٣٢

ورأوا أن يكون الرسول ملكاً ، فإذا بالقرآن يحييهم في منطق صارم :
(ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسا علينا عليهم مايلبسون) الأنعام / ٩
ويذكر ذلك في موضع آخر مصوراً تعنتهم في إنكار النبوة فيقول :
(ومامن الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم المهدى إلا أن قالوا أبعت الله بشراً
رسولاً؟) الإسراء / ٩٤

ويرد عليهم القرآن معللاً الأمر بتعليق آخر غير السابق فيقول :
(قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لتزلفنا عليهم من السماء ملائكة
رسولاً) الإسراء / ٩٥

وهذا التعليل في غاية العمق ؛ فإنه ينطوى على سبب من أهم أسباب إرسال
الرسل فالملائكة ليسوا - بطبيعتهم - في حاجة إلى من يهدفهم من الناحية
الأخلاقية ، إنهم ملائكة .

ويتعتمد القرآن أن يصفهم بأنهم « يمشون مطمئنين » فيثبت بذلك توضيح
طبيعتهم الملائكة في أذهاننا ، ومع ذلك يقول :
(لتزلفنا عليهم من السماء ملائكة رسولاً)

لم ؟ إنهم ملائكة ، وهم يمشون مطمئنين فما حاجتهم إلى الرسالة ؟
الواقع أن مهمة الرسول الأولى ليست الأخلاق ، وإنما هي معرفة الله والملاء
الأعلى وما وراء الطبيعة ، وذلك لا يأتي في صحة لا يشوبها خطأ بمنطق عقلى أو
قياس نظري ؛ وإنما يأتي عن الله بسفرائه إلى عباده وهم الرسل .
• والملائكة كالبشر : عاجزون عن معرفة الله إلا به ، ولقد قالوا كما حكى القرآن

= عليهم السلام حيث كاد أمياً . لا يقرأ ولا يكتب ، وهم كانوا قارئين كاتبين ، فلم يكن له بد من التلقن والتحفظ ، فأنزل عليه منجمائى عشرين سنة ، وقيل في تلات وعشرين ، وأيضاً فكان يتزل على حسب الحوادث وجوابات السائلين .
« عن الزمخشري ج ٢ ص ١٠٩ » (م - القرآن) (١١) .

عنهم في سورة البقرة .

(سبحانك لا علم لنا إلا ما علمنا)^(١) ، أما الأخلاق فإنها في المرتبة الثانية بعد معرفة الله .

وأرجفوا : بأن محمداً ﷺ يستمد القرآن من شخص معين فرد عليهم القرآن في قوته :

(لسان الذي يلحدون إليه أعمى . وهذا لسان عربي مبين) النحل / ١٠٣
ولما استئش العرب من الجدل المنطق تقمصوا عقلية الصبيان :
(قالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهر خلا لها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفنا أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ، أو يكون لك بيت من ذخر أو ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه)^(٢) .

فيجيئهم القرآن في سهولة قوية لاذعة جادة ساخرة .

· (قل : سبحان رب ! هل كنت إلا بشراً رسولًا ؟) الإسراء / ٩٣
ويثور العرب ، حينما يرون منطقهم ينهار فينادون :
(يأيها الذي نزل عليه الذكر ، إنك لجنون ، لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ؟) الحجر / ٦ ، ٧

ويرد عليهم القرآن مبينا لهم ما قد خفي عنهم .

(ماننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين) الحجر / ٨
ويصور القرآن في النهاية موقفهم الحقيقي الذي لا يخرج عن أن يكون عناداً لاشائة فيه لطلب الحق ، ولالرغبة في المهدى فيقول :

(ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلو فيه يرجعون ، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون)^(٣)

(ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا

(١) آية : ٣٢ .

(٢) سورة الإسراء الآيات : ٩٠ - ٩٣ .

(٣) سورة الحجر آيتا : ١٤ . ١٥

سحر مبين) الأنعام / ٧

فَلِمَا أَخْذَتْهُمُ الْحَجَةَ مِنْ جَمِيعِ أَقْطَارِهِمْ وَرَأَوْا أَنْهُمْ أَضَعَفُ مِنْ أَنْ يَغْلِبُوهَا بِالْمُنْطَقِ
أَعْرَضُوا وَقَالُوا :

(قُلُوبُنَا فِي أَكْنَةٍ مَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ، وَفِي آذَانِنَا وَقُرُّ وَمَنْ بَيْنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ .
فَاعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ)^(١)

فيذكرهم القرآن موقف الأمم قبلهم ، وينذرهم بعذاب : كما هي سنته مع هذا النوع من المعاندين .

(إِنْ أَعْرَضُو فَقُلْ أَنْذِرْتُكُمْ صَاعِقةً مِثْلَ صَاعِقةِ عَادٍ وَثَمُودٍ) فصلت / ١٣
حقاً لقد كانت خصومة العرب للرسول ﷺ عنيفة قوية ، ولقد صورها القرآن
في قوتها وفي عنفها ، ولم يأب أن يذكر ما فاحت به العرب مما يسىء الرسول ﷺ ،
فذكر وصفهم له بالجنون ، وبالشعر ، وأنه ساحر أو مسحور ، وبأنه ليس من
عظماء القرىتين^(٢) وبأنه يأخذ القرآن عن غيره ، أو بأن القرآن ليس إلا سحراً ، أو
أساطير الأولين اكتسبها فهي تملي عليه بكرة وأصيلاً .

ذكر القرآن كل ذلك ، وصور الخصومة في عنفوانها عارضاً أدلة الجاحدين
ذلك أن القرآن هداية الله ، وهدايته سبحانه وتعالى : هي الحق الذي يقذف على
الباطل فيدمجه فإذا هو زاهق .

٩

وجود الله :

لقد كان من الطبيعي - بعد أن ثبتت النبوة - أن يتلقى العرب كل ماجاء في
القرآن بالقبول ، ولكن القرآن لم يكن يلقى القول على علاته ؛ وإنما يأتي بالقضية
ميرهناً عليها بالدليل تلو الدليل : فيرضي العقل ، ويطمئن النفس ، ويقود الضمير
إلى الإذعان .

.
(٢) مكة، والطائف .

(١) سورة فصلت آية : ٥ .

وبلغم أن وجود الله أوضح من أن يبرهن عليه فقد وجد في كل الأزمنة من جحدوا الصانع المدبر العالم القادر ، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه وبلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، كذلك كان ، وكذلك يكون أبداً^(١)

على هؤلاء - في كل زمان ومكان - يرد القرآن في استفاضة وفي تنوع ، وما من شك في أن مسألة إثبات وجود الله لم تكن في يوم من الأيام هدفاً من أهداف القرآن ، ولم تكن في يوم من الأيام هدفاً من أهداف الرسول ﷺ ، أو أحد أصحابه ، وذلك أن الإيمان بوجود الله مسألة نظرية ويدعوية ، ونحن هنا نسير على أنه يمكن أن يؤخذ من القرآن أدلة على وجود الله وإن لم يكن ذلك هدفاً من الأهداف القرآنية ، وإذا نسقنا الأدلة أو نظمناها فإنما يرجع ذلك إلى استنتاج من نصوص هدفها الصحيح بيان عظمة الله وتدبیره وقدرته وهيمنته على كل ما في العالم من صغيرة وكبيرة وبيان عنایة الله ورعايته وإحكامه الحكم وإبداعه المتقن لكل ما يسرى في العالم من قوانين ونوميس . إن القرآن يمكن أن يؤخذ منه الرد على من انحرفت فطريتهم فيقال : إنه يرد عليهم أولاً بضروريات فكرية ، فيثبت الدلالة الضرورية من الخلق على الخالق :

(أَفَاللَّهُ شَكْ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) ^(٢)

(وَمِنْ آيَاتِهِ : أَنْ خَلَقْتُمْ مِنْ تَرَابٍ) ^(٣) ، (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) ^(٤) .

ويؤكد هذا بمبادئ مقررة يعرف بها كل إنسان عندما يفك فيها تفكيراً بسيطاً أنه من بين أن الشيء لا يمكن أن يوجد بدون علة ، ولا يمكن من جانب آخر أن تكون علة صياغة نفسه :

(أَمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخالقُونْ؟) ^(٥)

(١) المتفق من الفضلال للغزالى : طبعة دار الكتب الحديثة . (٤) سورة الروم آية ٢٢ .

(٢) سورة إبراهيم آية ١٠ / . (٥) سورة الطور آية ٣٥ .

(٣) سورة الروم آية ٢٠ .

ولا يقتصر القرآن على ذلك بل يوجد في غير ما موضع وفي غير ماسورة ، ذلك الدليل الذي يقول عنه «كانت» إنه يذكر مع الاحترام : أعني الدليل الذي يطلق عليه أحياناً ، دليل العناية ، وأحياناً أخرى : دليل النظام ، أو التدبير ، أو الغائية ، وهذا الدليل ، هو الذي يستند إلى مانراه في العالم من تناسق ، وتضامن وانسجام ، ومن تدبير محكم ، وعنابة تامة بكل صغيرة وكبيرة ، وترتبط لا انفصام له بين أجزاء العالم وأجزاء وحداته أيضاً .

وقد استخدم القدماء هذا الدليل ، ولزيال المحدثون يستخدمونه ، ويعتبره بعضهم أوضح الأدلة على وجود الله ، بل أقواها ، وهو في الوقت نفسه أسهلها بالنسبة للإدراك الإنساني .

قال الله تعالى :

(وَلَقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدُكُمْ) ^(١) (اللهُ الَّذِي سَخَرَ لَكُمُ الْبَحْرَ) ^(٢)

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً) ^(٣)

(وَهُوَ الَّذِي يَرْسِلُ الرِّيحَ بِشَرَابٍ بَيْنَ يَدَيِ رَحْمَتِهِ) ^(٤)

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بَسَاطًا) ^(٥)

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مَهَادًّا ، وَالجَبَالَ أَوْتَادًّا ، وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ، وَجَعَلْنَا نُومَكُمْ سَبَاتًا ، وَجَعَلْنَا اللَّيلَ لِبَاسًا ، وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ، وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شَدَادًا وَجَعَلْنَا سَرَاجًا وَهَاجًَا ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمَعْصَرَاتِ مَاءً ثَجَاجًا ، لَنْخُرَجْ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ، وَجَنَّاتَ أَلْفَافًا) ^(٦)

وإذا تصفحت القرآن تبييت مصدق قوله تعالى : (وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تَنْحِصُوهَا) ^(٧)

وكثير من آيات القرآن يجمع بين دليل الخلق ودليل العناية :

(إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ ، وَالفَلَكِ الَّتِي تَجْرِي

(١) سورة الحج آية : ١٥ .

(٢) سورة الحج آية : ١٢ - ٦ .

(٣) سورة البقرة آية : ٢٩ .

(٤) سورة إبراهيم آية : ٣٤ .

(٥) سورة نوح آية : ١٩ .

(٦) سورة الحج آية : ١٢ .

(٧) سورة الأعراف آية : ٥٧ .

فِي الْبَحْرِ مَا يَنْفَعُ النَّاسَ ، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَا ، مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ، وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمَسْخُرِ بَيْنَ السَّمَا وَالْأَرْضِ لِآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقُلُونَ)^(١) .

وَفِي سُورَةِ الرُّومِ آيَاتٌ مُتَتَالَّيْنِ تَجْمِعُ بَيْنَ الدَّلِيلَيْنِ - الْخَلْقُ وَالْعِنَاءُ - وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى :

(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيْتِ وَيُخْرِجُ الْمَيْتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تَخْرُجُونَ) ،

(وَمِنْ آيَاتِهِ - أَنْ خَلَقْتُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ)

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مُوْدَةً وَرَحْمَةً إِنْ فِي ذَلِكَ لِآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ،

وَمِنْ آيَاتِهِ - خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْخَلْفَ الْمُسْتَكْمَ وَالْوَانِكَمْ ، إِنْ فِي ذَلِكَ لِآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ .

وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَّا مُكَمِّ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتَغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنْ فِي ذَلِكَ لِآيَاتِ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ .

وَمِنْ آيَاتِهِ : يَرِيكُمُ الْبَرَقُ خَوْفًا وَطَمْعًا ، وَيَنْزَلُ مِنَ السَّمَا مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنْ فِي ذَلِكَ لِآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقُلُونَ ،

وَمِنْ آيَاتِهِ - أَنْ تَقُومَ السَّمَا وَالْأَرْضَ بِأَمْرِهِ ، ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دُعَوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ)^(٢) .

هَذِهِ الْأَدْلَةُ تَكَادُ تَتْضَمَّنُ كُلَّ مَا عَدَاهَا مِنْ أَدْلَةٍ قَدِيمَةٍ كَانَتْ أَوْ حَدِيثَةٍ بِرَغْمِ اخْتِلَافِ أَسَالِيبِ التَّعْبِيرِ ، بِحَسْبِ اخْتِلَافِ الْبَيْتَةِ أَوِ الزَّمْنِ :

إِنَّهَا تَتْضَمَّنُهَا فِي صُورَتِهَا السَّهْلَةَ : الْأَثْرُ يَدُلُّ عَلَى الْمُؤْثِرِ وَتَتْضَمَّنُهَا فِي صُورَتِهَا الْفَلْسَفِيَّةِ الْقَدِيمَةِ : الْمُمْكِنُ وَالْوَاجِبُ وَتَتْضَمَّنُهَا فِي صُورَتِهَا الْفَلْسَفِيَّةِ الْحَدِيثَةِ سَوَاءً رَجَعْنَا فِيهَا إِلَى شَعُورِ الْوَجْدَانِ أَوْ فَكْرَةِ الْكَمالِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكِ .

(١) سُورَةُ الْبَقَرَةِ آيَةُ ١٦٤ .

(٢) سُورَةُ الرُّومِ آيَاتُ ١٩ - ٢٥ .

الإنسان في رحلة البحث عن الله عز وجل :

من روائع مناجاة ابن عطاء الله السكندرى ما يلى :

«إلهي ، كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك ، أیكون لغيرك من الظهور ماليس لك حتى يكون هو المظاهر لك ؟»

«متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ؟»

«ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك»

إن مسألة وجود الله^(١) لم تكن في يوم من الأيام محل بحث عند ذوى الشعور الدينى السليم ..

ولم ينشأ الجدل في هذه المسألة إلا في العصر اليونانى ، فهو العصر الذى جعل منها مشكلة قابلة للأخذ والرد ، والقبول والرفض :

والواقع أن ظروف العصر اليونانى القديم هي التي جعلت منه مثلاً سيداً في كل ما يتعلق بالدين والخلق .

لقد كان عصراً خلا من الدين الحق ، ولم ينعم بالمعرفة الصحيحة عن طريق الوحي ، فحاولت طائفة منه أن تصعد إلى الوحي عن طريق الكهانة ، ومن ذلك كاهنات معبد دلفي المشهورات ..

وحاولت طائفة أخرى أن تصعد إلى الوحي عن طريق النسك والعبادة والذكر ، ومن هؤلاء : فيشاغورث وأتباعه وأفلاطون والأفلاطونيون ، القدماء منهم والحدثون ، لقد حاولوا أن يقتنعوا الوحي اقتناصاً ، وأن يكشفوا عن الحجب وأن يزيلوا الأقنعة ، وأن يصلوا إلى الله ، فيتصلو بالجهاز والجلال والخير المطلق .

بيد أن الطريق الذى سلكوه إنما هو طريق خاطئ لأنه لم يؤسس على وحي يرسم طريق الهدایة الصحيح ، وإنما أسس على نهج عقلي بشري ، أو على تقالييد متوارثة .

(١) حينما يكتب الكاتبون عن مثل هذا الموضوع يبدون عادة يأثبات وجود الله سبحانه وتعالى . ويتخيلون أن هذه المسألة أعم ماقبل الموضوع . . . وهذا السبج فيما نرى - لا يقره دين ولا فطرة ، وقد حاولنا أن تستفيض في بيان رأينا في هذا النهج مبين أن الدين لا يضع مسألة وجود الله موضع حث ، وأن الفطرة السليمة لا تقر ذلك .

ومن أجل ذلك لم ينفع الثرات المرجوة ، ثم هو طريق صعب المرتيق ؛ لأنه يعارض التزعات الحيوانية في الإنسان ، ويحاول السمو بها وإعلاءها ، ويريد أن يرقى بالإنسان إلى ما يقرب من المستوى الروحي الملائكي .

ولكن بني البشر في الأغلب منهم يخلدون إلى الأرض ، ويتبعون أهواءهم ولذلك كانت قلة قليلة تلك الفئة التي حاولت اتباع هذا التيار في صرامة وإخلاص .

أما الأغلبية العظمى من اليونان فقد اتبوا التيار الذي يعتمد على العقل البشري اعتماداً كلياً ، وكان زعيمهم الأكبر في ذلك أرسطو : فهو الذي وطد أركان العقل البشري وأشاد به كأساس للبحث في عالم ماوراء الطبيعة ، وفي عالم الفضيلة أو الخير .

وما كان العقل في يوم من الأيام – عند حكماء المصريين أو حكماء الهند – أهلاً لأن يكون مصدر المعرفة في عالم الغيب .

وأخذ العقل – عقل أرسطو ومن لفّ لفه – يجادل ويمارى في الحقائق : صغرت أو كبرت ، ودققت أو جلت ، واضحة كانت كوضوح النهار ، أو خفية كأنها غلفت بقطيع من الليل المظلم ؛ وتجزأت أقلامهم على تناول عالم الغيب وعالم الخير بالإنكار أو الشك ، أو ترجيح الوجود أو ترجيح العدم .

وحاول كل زعيم أن يصور الأمر في هذين الميدانين – ميدان ماوراء الطبيعة ، وميدان الأخلاق – بحسب مزاجه وأهوائه ، وبحسب ماتحليه عليه ثقافته وبيته ، وبحسب ما تحليه عليه طبيعته الجسمانية وجبلته الخلقية .

وانتهى الأمر بأن حاول المثبتون الرد ، فحاول المنكرون تعلييل الرفض .. وزالت قدسيّة الموضوع ، وأصبحنا أمام جو من اللجاج والماراة لا يليق بجلال الله وعظمته (وما قدروا الله حق قدره) ^(١) ..

ولو قيصر الله للبيئة اليونانية جواً من الخير والهدى ، ولو أنعم الله عليهم بنشأة رسول فيهم – لما كان هذا الانحراف الذي انتشر فيهم – منذ أرسطو – انتشار الوباء

(١) سورة الحج آية : ٧٤

الحيث ، والذى تغلل حتى وصل به الأمر - وهو المحرف منحرف - إلى أن أصبح - وكأنه الوضع الطبيعي - فساداً في كل بيئه ، وغزا كل عقل ، وكلما تقدم به الزمن ازداد رسوحاً وثباتاً ، وازداد انتشاراً ، حتى لقد غزا الأديان التي تأيي أن تقره أو تعرف به .

لقد تغلل في المسيحية ، فوضع رجال المسيحية مسألة وجود الله وقضية الفضيلة موضع البحث ، ونزلوا إلى مجال المجادلة والمماراة !

وأخذ هذا الوضع يتحلى القرون حتى جاء الإسلام ، فوضع الأمر في نصبه ، ووجه الأذهان إلى أن الأمر الأساسي إنما هو مسألة الوحدانية : «أشهد أن لا إله إلا الله» وجه الإسلام الأذهان في عنف وفي قوة إلى التوحيد ، لا إلى إثبات الوجود . لقد وجه الإسلام الأذهان إلى أن الله لا يحتاج في إثباته وفي وجوده إلى دليل وهو - على العكس - الدليل على غيره ، فغيره ثابت به ، والعالم ثابت بثباته .. السموات والأرض والعرش والكرسي - كل ذلك موجود بوجوده ، ثابت بثباته .. والوجود بأكمله يحتاج في كل لحظة إليه فضلاً عن احتياجه إليه في نشأته الأولى وجوده الأصلي .. (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) ^(١)

إنه يمسكها في كل آونة وفي كل لحظة ، فإذا ماتخلي عنها طرفة عين تلاشتا فكانتا هباء ، وكانتا عدماً .. وكل ذرة في العالم ، وكل خلية في كائناته - إنما ثباتها بالله وقيامها به ..

ومثل الإنسان كمثل أي كائن آخر من حيث وجوده وقيامه بالله ، وقد كرمه الله وأعطاه الكثير من المنح والمزايا ووهب له هذا التمييز والفهم ، وسخر له الكثير من العوالم الأخرى . وجعله خليفة في الأرض .

ومن أجل ذلك كانت مسؤوليته فيما يتعلق بتصحيح الصلة بينه وبين الله عظيمة خطيرة .

أما تصحيح هذه الصلة فإن ذروتها العليا ومثلها الأسنى إنما هو ما أمر به صلوات الله وسلامه عليه في قوله تعالى :

^(١) سورة فاطر آية : ٤١.

(قل إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايِ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِ الْعَالَمِينَ ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أَمْرَتُ وَأَنَا أَوْلُ الْمُسْلِمِينَ)^(١)

وفرق هائل بين من يتخذ هذه الآية القرآنية شعاراً ، ومن يحاول - متتجاوزاً قدره - الاستدلال على وجود الله بمخلوق من مخلوقاته .. إن الفرق بينهما هو الفرق بين طريق المهدى والصواب ، وطريق الجدل والشك . وجاء الإسلام - كما قلنا - ليضع الأمور في نصابها ، وليصحيح الأوضاع التي انحرفت

ومن هذه الأوضاع المنحرفة الشرك بالله .. والإنسان يشرك بسبب الضعف على وجه العموم ، وقد يكون هذا الضعف فقراً ، وقد يكون جهلاً ، وقد يكون طمعاً وجشعًا ، وقد يكون خوفاً وفزعًا ، وقد يكون غير ذلك .. ومما يken من أمر الشرك فإنه - أيها وجد - ليس إلا مظهراً من مظاهر الضعف .. وحاول الإسلام أول ما حاول أن يظهر النقوص من هذا الضعف ، وأن يعيدها بالتوحيد - إلى مجالات العزة والكرامة .. (وَلَهُ الْعَزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)^(٢) ، فكانت دعوته للتوحيد .

أما ما في القرآن مما تخيله بعض الناس استدلالاً على وجود الله ، واعتقد أن القرآن قصد بذلك الاستدلال على وجود الله ، فليس إلا بياناً لمظاهر قدرة الله وعناته بالعالم ومن ذلك مثلاً :

(وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٍ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٍ وَنَخْلٍ صَنْوَانٍ وَغَيْرِ صَنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفْضُلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ)^(٣) وَإِنَّ اللَّهََ سَبَّحَنَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ :

(الْأَرْضَ مَهَادِاً ، وَالْجَبَالَ أَوْتَادِاً ، وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ، وَجَعَلْنَا نُوْمَكُمْ سَبَاتًا ، وَجَعَلْنَا اللَّيلَ لِبَاسًا ، وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ، وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شَدَادًا ، وَجَعَلْنَا سَرَاجًا وَهَاجَا ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمَعْصَرَاتِ مَاءً ثَجَاجًا ، لِتَخْرُجَ بِهِ حَبَا وَنَبَاتًا ، وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا)^(٤)

(١) سورة الأنعام آية : ٤ .

(٣) سورة الرعد آية : ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٤) سورة البأ آيات : ٦ - ١٦ .

(٢) سورة المنافقون آية : ٨ .

و(بارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قادر، الذى خلق الموت والحياة ليسلوكم أياكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور ، الذى خلق سبع سموات طباقاً ماترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسداً وهو حسيراً) ^(١)

وما مثل هذا في تصوير قدرة الله إلا كمثل :

(ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لاترى فيها عوجاً ولا أمتاً ، يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمٰن فلا تسمع إلا همساً ، يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قوله ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً ، وعنت الوجوه للحِي القِيُوم وقد خاب من حمل ظلماً) ^(٢)

إن ذلك وكثيراً غيره إنما ذكر ليبين عظمة الله وجلاله وقدرته ، ويبين رحمته بعباده وعناته بهم ..

ومامن شك في أنه يمكن أن يؤخذ من ذلك أدلة كثيرة على وجود الله ..
وما من شك في أن الأدلة التي تؤخذ من ذلك يمكن أن تصاغ في أسلوب منطقى في قياس يشتمل على المقدمات والتائج ، ويكون متفقاً مع قواعد المنطق الأرسطى ومبادئه ، لكن ذلك لن يكون أبداً تصويراً لهدف من أهداف القرآن ، فالقرآن لا يضع أبداً وجود الله موضع شك حتى يحتاج إلى الاستدلال عليه .

ومن القصص التي تروى على أنحاء شتى ، وبأساليب مختلفة تتفق في الجوهر وتختلف في الرسم - ما يمحكي من أن بعض مشاهير العلماء ألف كتاباً ضخماً في إثبات وجود الله ، فأقام له أصدقاؤه حفلة تكريم من أجل عمله الضخم هذا ، ومر بهم بعض الصالحين ، فأخذوا يحدثونه عن عبقرية المؤلف ، فسأل :

ومتى غاب الله حتى يكون في حاجة إلى إثبات ؟

فوجم الجميع ، ولم يستطع المؤلف الإجابة ، وتركهم الرجل الصالح وهو

يردد :

(١) سورة الملك الآيات : ١ - ٤ .

(٢) سورة طه الآيات : ١٠٥ - ١١١ .

(قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) ^(١)

وقال رجل للثوري - الصوف المعروف - : ما الدليل على وجود الله؟

قال : الله ..

قال الرجل : فما العقل؟ ..

قال : العقل عاجز ، والعاجز لا يدل إلا على عاجز مثله ..

كل ذلك يؤيد ماقاله الشاعر :

من رام بالعقل مسترشداً سرمه في حيرة يلهمو

وشاب بالتبليس أسراره يقول من حيرته هل هو؟

والنتيجة التي نريد أن نصل إليها هي :

أن روح القرآن إذن هي قيادة النفوس إلى التوحيد ..

(وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبادون) ^(٢)

(وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين ، قل إنما يوحى إلى إنما إلهكم إله واحد فهل

أنت مسلمون) ^(٣)

وتؤقى مشكلة الملاحدة والوجوديين المتكرين لوجود الله ، ماذا نفعل بآرائهم؟

إن مثل هؤلاء لا وجود لهم في المجتمع سليم طاهر ، ويكون اعتزازهم كمرض خبيث ينفر الإنسان منه ، ويكون عزّهم عن أن يفسدوا الآخرين : تلاميذ كانوا أو طلبة ، أو عمالاً أو زارعين ، ولن تمر فترة طويلة عليهم في هذا الوضع حتى يرتدعوا ويعدلو عن اتباع أهوائهم وشهواتهم .

وما الوجودية إلا الهوى ، إنها هوى النفس التي لا تحتمل القيام بالواجب الاجتماعي والديني ..

والإلحاد ضعف ؛ لأنّه محاولة للفرار من التكاليف .

ومع كل ما تقدم فإنه لا يتأقى لي أن أترك هذا المجال دون أن أذكر قصة سمعتها

(١) سورة الأنعام آية : ٩١

(٢) سورة الأنبياء آية : ٢٥

(٣) سورة الأنبياء آيتا : ١٠٧ ، ١٠٨ .

حدِيشاً هرَتني من الأعماق أيضاً ، ووَقعت من نفسي موقعاً من الرُّوعة والجلال لا يُكْنِي تصوير مداه .

لقد ذكر لي هذه القصة فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ مدثر الحجاز وكيل جامعة أم درمان ورئيس الطريقة التيجانية بالسودان :

في إحدى القرى النائية المنعزلة من قرى السودان - كان يعيش رجل عابد صالح ، وكان يقضى وقته بين المسجد والبيت ، لم يكن يفارق القرية يوماً ما ، والقرية في انعزالتها كأنها - بالنسبة له - العالم كله .

وفي يوم من الأيام ، ولظروف معينة غادر هذا الرجل الصالح القرية بصحبة صديق له ، وجدَا في السير حتى وصلا إلى الطريق الذي يؤدى إلى المدينة .. وما إن وصلا إلى الطريق حتى رأيا - بطريق المصادفة - رجالاً من رجال الجيش الإنجليزي بملابس العسكريية مترف المظهر ، متحللاً بكل ما يمكن أن يتزين به رجل الجيش المترف الأنثيق .. ولم يكن الشيخ الصالح قد أتاهم له الظروف رؤية مثل هذا المنظر في قريته أو في عالمه المنعزل النائي الذي اختصره الشيخ - مع صغره - من قرية إلى بيت إلى مسجد .

وتأمل الشيخ رجل الجيش الإنجليزي في دهشة ، ثم سأله صديقه مثيراً إلى هذا الشيء الغريب :

- ما هذا؟

- هذا خواجة . وما كانت كلمة خواجة قد دخلت في قاموس الشيخ .
فقال لصديقه : وما خواجة؟
- هذا كافر ..

وعاد الشيخ يسأل في دهشة أشد ، وفي استغراب أقوى :
- أهو كافر بالله؟

فقال صديقه : نعم ..

وما إن نطق صديقه بذلك حتى تملَّكَ الشيخ شعور بالاشمئزاز منعه من أن يتلفظ أو ينطق ، وغمراه إحساس بالغثيان أخذ يقوى ويزداد بسرعة سريعة وإذا

بالشيخ يتقياً الش美ثراً وغثياناً وتقرزاً من هذا الكافر..!

هذه هي القصة.

أترى تصويراً أدق للشعور بالنسبة للملحد من هذا الاشمتراز؟

وأى قلم يبلغ في التعبير ما بلغ هذا الشيخ؟ وأى أسلوب؟

إن جميع الأعراف في جميع أرجاء الكون تتفق في الاشمتراز من ينكر الجميل ، وهذا الاشمتراز يتفاوت بنسبة قيمة الجميل الذي يسدى ، وبينية درجة النكران التي تقابله وبينية صفاء النفس التي تعلم أوترى هذا النكر.

والإنسان - إيجاداً وخلقًا وتصويراً - من صنع الله .. وهو - بصرًا وسمعاً وذوقاً وإحساساً وشعوراً - من صنع الله .. وهو - عقلًا وفكراً - من صنع الله ..

وكل نعمة ظاهرة وباطنة - ونعم الله لا تعد - إنما هي من صنع الله ..

(وإن تعدوا نعمة الله لاتخضوها)^(١) .. (وما بكم من نعمة فن الله)^(٢)

من نعم يتقلب فيها ليلاً ونهاراً ، صباحاً ومساءً - إن كل ذلك من الله فإذا ما كفر إنسان بالله فإنه يكون أحسن من أن يعاقبه الإنسان بالصفع ، وأحقر من أن يبصق الإنسان في وجهه ، ولا يستأهل إلا الاشمتراز إلى درجة التقيؤ ..

أما الجزء في الدين الإسلامي فإنه معروف :

يستتاب ، فإن لم يتتب قتل مرتدًا .

وما لاشك فيه أن من الوسائل الكريمة التي تحول دون انتشار هذه القيادات الفاسدة الملحدة في المجتمع ما يرجع إلى علماء الدين : فإنهم وقد هيأ الله لهم أن يتولوا قيادة المجتمع دينياً لاشك يكون تأثيرهم جارفاً إذا كانوا مثلاً عالية للفضيلة : للفضيلة في أسمى معانيها وأشملها .. أى إذا كانوا - حقاً - بالمرتبة التي ترضي الله ورسوله : علماء وخلقوا وحباً للخير ، وإخلاصاً في كل ما يأتون وما يدعون . وقد بين الله مقاييس الخير وموازين الفضيلة ؛ وبين طريق الخير وسبل الضلال ، وعلماء الدين أعرف بذلك من غيرهم ، فسئوليتهم أشد وواجباتهم أصرم ، وتأثيرهم في المجتمع - باديةً وحاضرةً - ، لاشك كبير .. والله يهدينا جميعاً سواء السبيل .

(١) سورة النحل آية : ١٨ .

(٢) سورة النحل آية . ٥٣ .

الوحدانية :

وإذا كان القرآن لا يجعل من أهدافه إثبات وجود الله فإنه يجعل من أهدافه الكبرى إثبات التوحيد ، والإسلام هو دين التوحيد ، والله سبحانه وتعالى واحد لا شريك له ويستدل القرآن بالمشاهدة الصادقة : (لو كان فيها آلة إلا الله لفسدنا)^(١)

هذه المشاهدة العادية تلبس صورة منطقية رائعة ، فلو كان هناك إله غير الله إذن (لذهب كل إله بما خلق ولعنة بعضهم على بعض)^(٢)

على أن القرآن لا يكتفى المشاهدة وبالمنطق ، وإنما يرجع بالإنسان إلى وجداته ويبتئل الوحدة عن طريق النظام والعناء والتدبر فيقول في آيات رائعة :

(قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، الله خير أمة يشركون ، أمن خلق السموات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ؟ إله مع الله ؟ بل هم قوم يغدرون .

أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلاطها أنهاراً وجعل لها رواسي ، وجعل بين البحرين حاجزاً ؟ إله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون ،

أمن يحيي المضطرب إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض إله مع الله ؟ قليلاً ما تذكرون .

أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ؟

إله مع الله ؟ تعالى الله عما يشرون ،

أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ إله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)^(٣) .

(١) سورة الأنبياء آية : ٢٢ .

(٢) سورة المؤمنون آية : ٩١ .

(٣) سورة النحل الآيات : ٥٩ - ٦٤ .

١١

العلم :

والله سبحانه وتعالى عالم ، إنه عالم الغيب والشهادة :
 (الله يعلم ماتحمل كل أثني ، وما تغيس الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ، سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) ^(١)

والله تعالى لا يعلم الماضي والحاضر فحسب ، ولكنه يعلم المستقبل أيضاً :
 (ما أصاب من مصيبة في الأرض ، ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير) ^(٢)

وهو يسخر من جعلوا لله شركاء ، ويسألهم في سخرية وإنكار :
 (وجعلوا لله شركاء ، قل : سموهم ، أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض أم بظاهر من القول) ^(٣)

وفي القرآن آية يرى بعضهم أنها تشير إلى العقل الباطن أو اللاشعور .

(وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى) ^(٤)

والقرآن يرشد إلى أن علمه ليس مقصوراً على ذاته كمابي أرسطو ، وليس مقصوراً على الذات والكليات كما يرى بعض الفلاسفة ، ولكنه علم شامل للذات والكليات والجزئيات جميعها على الوجه الثام :

(يعلم ما يلتحف في الأرض ، وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو الرحيم الغفور ، وقال الذين كفروا : لا تأتينا الساعة قل : بل وربى لتأتينكم ، عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك

(١) سورة الرعد آيات : ٨ - ١٠ .

(٢) سورة الرعد آية : ٣٣ .

(٣) سورة الحديد آية : ٢٢ .

(٤) سورة طه آية : ٧ .

وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مَبِينٍ)^(١)

(وَعِنْهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرْقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ، وَلَا حَبَّةٌ فِي ظَلَامَاتِ الْأَرْضِ إِلَّا رَطِيبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مَبِينٍ .

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّا كُمْ بِاللَّيلِ ، وَيَعْلَمُ مَا جَرَحَتْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيَقْضِي أَجْلَ مُسْمَى ثُمَّ إِلَيْهِ مُرْجِعُكُمْ ، ثُمَّ يَبْثَثُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)^(٢)
أَمَّا دَلِيلُ الْقُرْآنِ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ فَهُوَ فِي غَايَةِ الوضُوحِ وَالْقُوَّةِ .
(إِلَّا يَعْلَمُ مِنْ خَلْقِهِ وَهُوَ الْلَّطِيفُ الْخَبِيرُ ?)^(٣)

١٢

مظاهر صفاته :

الله عالم ، وهو مريد ، قادر ، وحكيم ، ومن مظاهر صفاته هذه المتضامنة هذا الكون وماحواه من بديع صنعته ، والقرآن يتحدث في استفاضة عن مظاهر هذه الصفات في كثير من السور ، بل لا تكاد تخلو سورة من هذه المظاهر كلها أو بعضها .
وإليك نموذجاً يحدّثك بذلك :

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، وَسَخَرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَمْرِى لِأَجْلِ مُسْمَى ، يَدْبِرُ الْأُمُرَ ، يَفْصِلُ الْآيَاتَ لِعُلْكُمْ بِلِقَاءَ رَبِّكُمْ تَوقُنُونَ .

وَهُوَ الَّذِي مَدَ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون .
وَفِي الْأَرْضِ قَطْعَ مُتَجَاوِراتٍ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٍ وَنَخْلٍ صَنْوَانٍ ، وَغَيْرٍ صَنْوَانٍ يَسْقُى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفْضُلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقُلُونَ)^(٤)

(١) سورة سباء آياتا : ٣٠، ٢.

(٢) سورة الملك آية : ١٤ .

(٣) سورة الأنعام آياتا : ٥٩ ، ٦٠ .

(٤) الرعد آيات : ٤-٢ .

البعث :

الله سبحانه وتعالى خالق ، وهو واحد مريد ، عالم قادر .. إلخ ، وهو أيضاً باعث ، ومسألة البعث مسألة أنكراها قوم يطلق عليهم الإمام الغزالى «الطبعيون» وهم قوم أنكروا البعث مع اعترافهم بالصانع .

لقد اعترفوا بالصانع لما رأوه في عجائب الطبيعة من تناسق محكم لا يمكن أن يكون وليد المصادفة ، ولكنهم رأوا أن النفس تابعة للبدن ، ولذلك تفنى بفنائه . وكانت نتيجة ذلك أن جحدوا الآخرة ، وأنكروا الجنة والنار والحساب . على هؤلاء وأنصاراً لهم على اختلاف بيئتهم وأساليبهم يرد القرآن في غير ما وضع . وطبعيو العرب لم يكن عندهم في هذه المسألة منطق جدل فلسفي ، وليس لهم من دليل سوى الإنكار والاستبعاد :

(وقالوا ، إِذَا كُنَّا عظَمًا ورَفَاتًا أَإِنَا لَمْ يُعَوَّثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا) ^(١)

(قَالَ مَنْ يَحْيِي الْعَظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ؟) ^(٢)

والقرآن يرد عليهم بتذكيرهم بمظاهر قدرة الله السائدة في الكون ، وبأنه ليس من العدالة الإلهية أن يترك الإنسان سدى فلا يجازى على ما قدم . (أيحسب الإنسان أن يترك سدى؟ ألم يك نطفة من منى يمنى؟ ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى؟) ^(٣)

وفي القرآن كثير من الآيات ترد عليهم مستندة إلى مظاهر قدرة الله وعداته . وفيه آيات متتالية في آخر سورة يس تحدثت عن رأى منكري البعث ، ثم ردت عليهم ردوداً متنوعة مختلفة واضحة قوية ، ونحن نذكر هذه الآيات ، ونذكر تفسير الكندي لها نفلاً عن كتاب الكندي للأستاذ أبي ريدة

(١) سورة الإسراء آية : ٤٩ .

(٢) سورة يس آية : ٧٨ .

(٣) سورة القيمة آيات : ٣٦ - ٤٠ .

(قال : من يحيى العظام وهي رميم ؟ قل : يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عالِم ، الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنت منه توقدون ، أوليس الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى ، وهو الخالق العالِم ، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، فسبحان الذي بيده ملائكة كل شيء وإليه ترجعون)^(١)

ويقول الأستاذ أبو ريدة عن تفسير الكندى لهذه الآيات :

إن فيه يبرز فيلسوفتنا الأصول النظرية التي تتضمنها هذه الآيات من جهة .

ويستخرج النتائج التي تلزم عنها من جهة أخرى ، وهى :

- ١ - وجود الشيء من جديد ، بعد موته وتحلله السابقين - ممكن بدليل مشاهدة وجوده بالفعل مرة بولاسياً أن جمع المترافق أسهل من إيجاده وإبداعه عن عدم ، وإن كان لا يوجد بالنسبة لله شيء هو أسهل شيء أصعب ، هذا الدليل موجود في الآيات في كلمات قليلة :

(قل يحييها الذي أنشأها أول مرة .. وهو بكل خلق عالِم) .

- ٢ - ظهور الشيء من نقائه كظهور النار من الشجر الأخضر ممكن ، وواقع تحت الحس .

وإذن يمكن أن تدب الحياة في الجسد المتحلل الهامد مرة أخرى .

وذلك أيضاً على أساس المبدأ الأكبر وهو : أن الشيء يوجد من عدم المطلق بفعل المبدع الحق - هذا الدليل موجود في آية :

(الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ، فإذا أنت منه توقدون) .

وقد انتفع به الأشعري في إمكان البعث .

- ٣ - خلق الإنسان أو إحياؤه بعد الموت أيسر من خلق العالم الأكبر بعد أن لم يكن ، وهذا هو مضامون آية :

(أليس الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخالق العالِم)

(١) سورة يس الآيات : ٧٨ - ٨٣ .

٤ - الخلق والفعل مطلقاً منها عظم المخلوق لا يحتاج من جانب الله المبدع لا إلى مادة ولا إلى زمان - خلافاً لفعل البشر الذي لا يتم إلا في زمان ، ويحتاج إلى مادة تكون موضوع الفعل ، وهذا هو معنى آية :
 (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) .

وهذه الآية - في رأى الكندي - إجابة عما في قلوب الكفار من التكير بسبب ظنهم أن الفعل الإلهي المتجل في خلق العالم الكبير يحتاج إلى زمان يناسب عظمته قياساً منهم لفعل الله على فعل البشر ، لأن فعل البشر لما هو أعظم يحتاج إلى مدة زمانية أطول فجاءت الآية حاسمة في بيان نوع الفعل الإلهي وأنه إبداع . فالإرادة الحالقة والقدرة المطلقة لا تحتاج إلى مادة ولا إلى امتداد زمني . «فَأَيُّ بَشَرٍ كَمَا يَقُولُ الْكَنْدِيُّ - يُقْدِرُ بِفَلْسَفَةِ الْبَشَرِ أَنْ يَجْمِعَ فِي قَوْلٍ بِقَدْرِ حَرْوَفِ هَذِهِ الْآيَاتِ مَا جَمَعَ اللَّهُ - جَلَّ وَتَعَالَى - إِلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا مِنْ إِيَاضَاحٍ : إِنَّ الْعَظَامَ تَحْيَا بَعْدَ أَنْ تُصْبَرَ رَمِيمًا ، وَإِنْ قَدْرَتِهِ تَخْلُقُ مِثْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَإِنَّ الشَّيْءَ يَكُونُ مِنْ نَقْيَضِهِ؟ كَلَّتْ عَنِ ذَلِكَ الْأَلْسُنُ الْمَنْطَقِيَّةُ الْمُتَحَايِلَةُ ، وَقَصَرَتْ عَنِ مُثْلِهِ نَهَايَاتُ الْبَشَرِ ، وَحُجِّبَتْ عَنِ الْعُقُولِ الْجَزِئِيَّةِ» (١) . هـ

على أننا لانترك موضوع البعث دون أن نوجه ذهن القارئ إلى هذا التنظير البديع الذي ذكره القرآن الكريم بين الأرض الموات التي يحييها الله فتنبت من كل زوج بهيج ، والظامان والرفات التي يحييها الله ويصورها فيحسن تصويرها .

(يَا إِيَّاهَا النَّاسُ إِنَّ كُنْتُمْ فِي رِيبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِّنْ عُلْقَةٍ ، ثُمَّ مِّنْ مُضْغَةٍ مُخْلَقَةٍ وَغَيْرِ مُخْلَقَةٍ لَنَبِينَ لَكُمْ ، وَنَقْرَفُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجْلِ مُسَمٍّ ، ثُمَّ نَخْرُجُكُمْ طَفْلًا ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشْدَكُمْ ، وَمِنْكُمْ مَنْ يَتَوفَّ ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرْدَ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكِيلًا يَعْلَمُ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ، وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَنَّهُ يَحْيِي الْمَوْتَى ، وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لِرَبِّكُمْ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَعْثِثُ مِنْ فِي الْقُبُورِ) (٢)

(١) رسائل الكندي ص ٥٧ - ٥ .

(٢) سورة الحج الآيات ٥ - ٧ .

١٤

مشاهد القيامة :

ويسبق البعث ويعقبه أمور تحدث عنها القرآن في كثير من الآيات ووصفها في روعة أخاذة : إنها تصف يوم القيمة ، وتتحدث عن الحساب والميزان وتصف حالة المؤمنين والكافرين وتتصور النار في صورتها البشعة الكريهة ، والجنة في روحها وريحانها وصورها ورياضها الفيحة ، وسنكتفي من كل ذلك بآيات من آخر سورة الزمر :

(وما قدروا الله حق قدره والأرض جمِيعاً قبضته يوم القيمة والسموات مطويات بيمنيه سبحانه وتعالى عما يشركون : ونفح في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفح فيه أخرى فإذا هم قيام ينتظرون . وأشرقت الأرض بنور ربها ، ووضع الكتاب وجئ بالنبيين والشهداء ، وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون . ووفيت كل نفس ما عملت ، وهو أعلم بما يفعلون .

وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ، حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها : ألم يأتكم رسلاً منكم يتلون عليكم آيات ربكم ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا : بلى . ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين .

قيل : ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، فبئس مثوى المتكبرين .

وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها : سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين .

وقالوا : الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبأ من الجنة حيث نشاء ، فنعم أجر العاملين . وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق ، وقيل : الحمد لله رب العالمين)^(١)

(١) سورة الزمر الآيات ٦٧ - ٧٥ .

١٥

القرآن ومعتقدات العرب :

إن ما قدمناه سابقاً لم يكن إلا مناحي موجزة من العقيدة الإسلامية لم تستوعبها ، فنحن لم نتبع القرآن آية آية ، أو سورة سورة ، لنصل من ذلك إلى إعطاء فكرة تامة عن العقيدة الإسلامية .

على أن إيضاح هذه العقيدة يستلزم حتماً توضيح موقف القرآن مما كان منتشرًا في جزيرة العرب من معتقدات .

لقد قلنا سابقاً : إن جزيرة العرب كانت ملائى بمختلف العقائد ، سواء ما استند منها إلى الخيال والوهم ، أو ما استند منها في أساسه إلى كتاب سماوي ، والقرآن يتحدث عن هؤلاء وأولئك . ويناقشهم ويجادلهم : ليقودهم في النهاية إلى الطريق المستقيم .

وإذا كان القرآن قد تحدث عن هذه المعتقدات فلم يكن ذلك ؛ لأنها في جزيرة العرب فحسب ، وإنما كان ذلك لأنها أنماط من معتقدات منتشرة في جزيرة العرب وفي خارجها ، وكان هدفه من ذلك طبعاً تخليص فكرة الألوهية عن كل ما يشوبها من خطأ ووهم وضلال :

تحدث القرآن عن معبدات لا تتصف بصفة الحياة كالأصنام والكواكب . وفي قصة سباً ذكر لعبادة الشمس ، وفي قصة إبراهيم ذكر لهذين النوعين وفيهما يبطلها . أما فيما يتعلق بالكواكب : فإنه من البين : أن الإله لا يطرأ عليه المغيب إذ الإله متره عن ذلك :

(فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيلُ رَأَى كَوْكِبًا قَالَ: هَذَا رَبِّي؛ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ: لَا أَحْبُّ الْآفَلِينَ .

فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى ، فلما أفل قال : لئن لم يهدنى ربى لا تكونن من القوم الضالين .

فَلِمَ رَأَى الشَّمْسُ بِإِزْغَةً قَالَ : هَذَا رَبِّ هَذَا أَكْبَرُ ، فَلِمَ أَفْلَتَ قَالَ : يَا قَوْمَ إِنِي
بَرِيءٌ مَمَاتِشِرِكُونَ)^(١)

بَيْدَ أَنْ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ كَانَتْ مَتَعْلِمَةً فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ إِلَى درَجَةٍ هِيَ مِنَ الْقُوَّةِ
بِحِيثَ اقْتَضَتِ الْقُرْآنَ أَنْ يَقْتَنِّ فِي الرَّدِّ عَلَيْهَا ، وَاحْتَلَفَتْ أَسَالِيبُ رَدِّهِ بَيْنَ الْجَدْلِ
الصَّارِمِ ، وَالسَّخِيرِيَّةِ الْلَّاذِعَةِ ، وَالْتَّهَكُّمِ الْمَرِيرِ :

(وَاتَّلُ عَلَيْهِمْ نَبَأً إِبْرَاهِيمَ ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمَهُ : مَا تَعْبُدُونَ ؟
قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلَ لَهَا عَاكِفِينَ .

قَالَ : هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضْرُونَ ؟)^(٢)
أَمَا الْأَسْلُوبُ الْمَنْطَقِيُّ السَّاخِرُ الْمَتَهَكُّمُ : فَإِنَّهُ يَتَمَثَّلُ فِي الْآيَاتِ التَّالِيَّةِ :
(وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلِ وَكَنَا بِهِ عَالَمِينَ ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمَهُ مَا هَذِهِ
الْمَثَائِلُ الَّذِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ؟ .

قَالُوا : وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ .

قَالَ : لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ .

قَالُوا : أَجْتَسَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتُمْ مِنَ الْلَّاعِبِينَ ؟

قَالَ : بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ . وَتَالَّهُ لَأَكِيدُنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدَبِّرِينَ . فَجَعَلُهُمْ جَذَادَأَ إِلَّا
كَبِيرًا لَهُمْ لِعْلَهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ .

قَالُوا : مَنْ فَعَلَ هَذَا بِأَهْلِنَا إِنَّهُ لِمَنِ الظَّالِمِينَ

قَالُوا : سَمِعْنَا فِي يَذْكُرُهُمْ يَقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمَ .

قَالُوا : فَأَتَوْا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لِعْلَهُمْ يَشَهِّدُونَ

قَالُوا : أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِأَهْلِنَا يَا إِبْرَاهِيمَ ؟

قَالَ : بَلْ فَعْلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَأَسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطَقُونَ . فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ
فَقَالُوا : إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ . ثُمَّ نَكْسَوْا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُ مَلَهُؤَلَاءِ يَنْطَقُونَ .
قَالَ : أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ ؟ أَفَلَكُمْ وَلَا تَعْبُدُونَ مِنْ

(١) سورة الأنعام الآيات : ٧٦ - ٧٨ . (٢) سورة الشعراء الآيات : ٦٩ - ٧٣ .

دون الله أفلأ تعقلون؟^(١)

أما عجل بنى إسرائيل فقد كان له خوار ، ثم إنه : (ألا يرجع إليهم قوله ، ولا يملک لهم ضرا ولانفعا)^(٢)

ومع ذلك اتخذوه إلها ، يقول تعالى :

(وَاتَّخَذُوا قَوْمًا مِّنْ بَعْدِهِ مِنْ حَلِيمٍ عَجَلًا جَسْداً لِهِ خَوْارٌ ، أَلَمْ يَرُوا أَنَّهُ لَا يَكُلُّهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ)^(٣)

ولم يقتصر القرآن - في تصحيح فكرة الألوهية في العالم - على الرد على عبادة الأصنام أو الكواكب ، إذ كان هناك عبادة فرعون ، وعبادة الجن ، وعبادة الملائكة .

وقد ذكر القرآن كل هؤلاء ، وهم جميعاً ينطبق عليهم ما ينطبق على الذي حاج إبراهيم في ربه فليس في استطاعتهم أن يغيروا مجرى سير الكواكب الذي رسّه الله لها منذ أن وجد العالم :

(أَلَمْ ترَ إِلَى الَّذِي حَاجَ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمَلَكَ؟ إِذَا قَالَ إِبْرَاهِيمَ: رَبِّي الَّذِي يَحْيِي وَيَمْتِتُ، قَالَ: أَنَا أَحْيِي وَأَمْتِتُ.

قال إبراهيم : فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فهبت الذي كفر . والله لا يهدى القوم الظالمين^(٤)

وليس في استطاعتهم ، مجتمعين أن :

(لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهِ وَإِنْ يَسْلِمُوهُمْ الذَّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعْفُ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ)^(٥)

فإذا كانوا قد عجزوا عن أن يغيروا سنة واحدة من سنن الله الكونية ، وعجزوا عن أن يخلقوا ذبابة ، بل يعجزون عن أن يستنقذوا منها ما استلبته منهم . . إذا كانوا قد عجزوا عن ذلك فليسوا بالآلة ؛ لأن من خصائص الإله المقدرة العامة الشاملة .

(١) سورة الأنبياء الآيات ٥١ : ٦٧ . (٤) سورة البقرة آية : ٢٥٨ .

(٢) سورة طه آية : ٨٩ . (٥) سورة الحج آية : ٧٣ .

(٣) سورة الأعراف آية : ١٤٨ .

المسيحية :

على أن الصراع القوى : إنما كان بين الإسلام من جانب ، والمسيحية واليهودية من جانب آخر : فقد كان اليهود يعتزون بالتوراة ، ويعتزون بإبراهيم وموسى ، وينظرون إلى كل من عداهم نظرة احتقار ، يسرورها أحياناً ، ويعلنونها حينما تواترهم الظروف .

وكان المسيحيون يعتزون بالإنجيل ، ويعتزون بيعيسى وموسى وإبراهيم ، وينظرون إلى غيرهم نظرتهم إلى القطع الضال يتطلب راعياً يقوده إلى الخظيرة . وقد زاد اعترافهم بأديانهم حينما اعترف القرآن بموسى ويعيسى ، واعترف بما أنزل الله عليهم من توراة وإنجيل .
وحقاً لقد كان موقف القرآن كريماً بالنسبة إلى المسيحيين : انظر إليه في سموه إذ يقول :

(إذ قالت الملائكة : يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهها في الدنيا والآخرة ومن المقربين ، ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين .

قالت رب أني يكون لي ولد ولم يمسني بشر؟ قال : كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، ويعمله الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، ورسولاً إلى بنى إسرائيل أنني قد جئتكم بآية من ربكم أنني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأتفاخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحبي الموقى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرن في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ^(١))

وبينما يرمي اليهود مريم بأبشع النقائص لحملها بدون زواج إذا بالقرآن يقول :

(يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين) ^(٢)
ولكن القرآن لا يعرف المحاملة في الحق ، وقد ياماً قال أرسسطو كلمته المشهورة :

(١) سورة آل عمران الآيات : ٤٥-٤٩ . (٢) سورة آل عمران آية : ٤٢ .

«أَحَبُّ أَفْلَاطُونَ وَأَحَبُّ الْحَقَّ وَأَوْثَرُ الْحَقَّ عَلَى أَفْلَاطُونَ»
وإذا كان القرآن يعترف بأن أقرب الناس مودة إلى المؤمنين هم الذين قالوا : إننا
نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكرون فإنه لا يحتمل في بيان
الحق ، وتوضيح الجادة ، وتصحيح فكرة الألوهية التي حرفها النصارى بعد
عيسى .

لقد أرسل الله عيسى رسالته إلى بني إسرائيل فحرفها من بعده الذين انتسبوا إليه
أفظع تحريف ، وشوهوها أبغض تشويه وأبعدوا في الضلال .
فزععوا تارة أن المسيح هو الله ، وزعموا أن الله ثالث ثلاثة . بل لقد أهوا
مريم ! وكل هذا ضلال تتنبه عنه الرسالة الإلهية .

وقد رد عليهم القرآن من طريق المنطق تارة ، ومن طريق كلامهم وما جاء فيها
تارة أخرى ، وفي كلتا الحالتين كان أسلوبه قوياً عنيفاً كأنه الصواعق تنزل على
افتراضهم فتحطمه تحطماً .

(وقالوا : التخذل الرحمن ولداً ! لقد جئتم شيئاً إدّا ! تکاد السموات يتفسرون
منه ، وتنشق الأرض ، وتخرب الجبال هداً . أن دعوا للرحمن ولداً وما ينبغي للرحمن
أن يتتخذ ولداً . إنْ كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً^(١))
ويرد عليهم القرآن وعلى غيرهم في هذا متخدًا أساس الرد عقيدة من
عقائدهم ، إنهم يعتقدون أن ليس لله تعالى زوجة فيقول القرآن :
(بديع السموات والأرض أن يكون له ولدٌ ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء
وهو بكل شيء عليم)^(٢)

(١) سورة مرثى الآيات : ٨٨ - ٩٣ .

(٢) يقول صاحب البحر المحيط في تفسير هذه الآية من سورة الأنعام : ١٠١ : «كيف يكون له ولد وهذه حاله : أي أن الولد إنما يكون من الزوجة وهو لازوجة له فلا ولد له . وفيه إبطال الولد من ثلاثة أوجه » أحدهما : أن مبتدع السموات والأرض - وهي أجسام عظيمة - لا يستقيم أن يوصف بالولادة ، لأن الولادة من صفات الأجسام ومحنوع الأجسام لا يكون جسمًا . حتى يكون والدًا . والثاني : أن الولادة لا تكون إلا بين زوجين من جنس واحد ، وهو تعالى متعال عن الجنان ، فلم يصح أن تكون له صاحبة ، فلم تصح الولادة . والثالث : أنه مامن شيء إلا وهو خالقه والعالم به ومن كان بهذه الصفة كان غنياً عن كل شيء والولد إنما يطلب الحاجة إليه . هـ النهر الماء من البحر . ج ٤ ص ١٩٤ .

ثم إن النصارى أهوا المسيح وأمه عليهم السلام ، وأخذ القرآن يرد عليهم في هذا بمختلف الردود :

(إِذْ قَالَ اللَّهُ : يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ : اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ قَالَ : سَبِّحَانَكَ ! مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَا يُسَمِّعُ لِي بِحَقِّهِ . إِنْ كُنْتَ قُلْتَهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلِمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَامُ الْغَيْوَبِ ، مَا بَقَلْتَ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمْرَتَنِي بِهِ : أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ، وَكُنْتَ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَادِمْتَ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتِنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبُ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . إِنْ تَعْذِبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ ، وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) ^(١) .

(لَقَدْ كَفَرَ الظَّاهِرُونَ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، قُلْ فَنِّي مِلْكُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يَهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأَمِهَ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ؟ وَلَهُ مَلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بِهِمْ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ^(٢) .

(لَقَدْ كَفَرَ الظَّاهِرُونَ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابْنِ إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ، إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ حُرِمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارِ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ . لَقَدْ كَفَرَ الظَّاهِرُونَ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ، وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَمْ يَمْسِنُ الْدِينُ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابُ الْآيَمِ) ^(٣) وَيَنبِهُ الْقُرْآنُ الْمُسِيَّحِيِّنَ إِلَى أَنَّ الْمَسِيحَ « وَأَمِهَ كَانَا يَأْكُلُانِ الْطَّعَامَ » ^(٤) وَمِنْ الْبَيِّنِ أَنَّ الَّذِي يَأْكُلُ الْطَّعَامَ ، فَيَتَحَوَّلُ فِي جَسْمِهِ دَمًا وَلَحْمًا وَعَظَامًا ، وَيَنْضَحُ عِرْقًا ، وَيَخْرُجُ فَضْلَةً لَوْ بَقَيْتَ فِي الْجَسْمِ لِضَرْتَهُ مِنَ الْوَاضِعِ أَنْ كَائِنًا مِنْ هَذَا النَّمَطِ لَا يَمْكُنُ أَنْ يَكُونَ إِلَّا بَشَرًا ، خَاصِّعًا لِكُلِّ قَوَافِلِ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي لَا تَؤْتُدُ إِلَى نَصْصِ فِرْتَبَتِهِ كَرْسِوْلُ .

لَقَدْ كَانَ لِيَلَادُ الْمَسِيحِ بِدُونِ أَبٍ أَثْرَ قُوَى فِي زِيَغٍ كَثِيرٍ مِنَ النَّصَارَى وَكَثِيرٍ مِنَ الْيَهُودِ : لَقَدْ غَالَ النَّصَارَى فَقَالُوا : إِنَّهُ ابْنُ اللَّهِ ، وَأَسْرَفَ الْيَهُودُ فِي عَنَادِهِمْ فَرَمَوا أَمِهَ الطَّاهِرَةَ بِالْفَجُورِ .

(١) سورة المائدة الآيات ١١٦ - ١١٨ . (٣) سورة المائدة آية ٧٣ - ٧٤ .

(٤) سورة المائدة آية ٧٥ . (٢) سورة المائدة آية ١٧ .

على هؤلاء وأولئك يرد القرآن في بساطة ووضوح بأن :
 (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم : خلقه من تراب ثم قال له : كن
 فيكون) ^(١)

واليهود والنصارى يعترفون بأن آدم خلقه الله دون أب وأم ، فأمره إذن أعجب وأغرب من أمر عيسى ، فما كان لهم أن يغالوا في أمره غير الحق ، أو يسرفوا في الانتقاد من أمره .

اليهود :

وإذا كان المسيحيون هم أقرب الناس مودة للمسلمين فإن أشد الناس عداوة للمسلمين هم اليهود ، ومثلهم في ذلك مثل الذين أشركوا ، هكذا يصفهم القرآن ويستفيض في الجدل معهم استقاصه تناسب هى وتاريخهم الطويل ، وعنادهم الشديد ومكرهم الخبيث .

ولقد كان الصراع قوياً عنيفاً بين الإسلام واليهود ؛ كان صراعاً بالمنطق والبرهان ، وكان صراعاً بالسيف والرمح ، ولا يعنينا هنا التحدث عن السيف والرمح وإنما نتحدث عن الصراع بالمنطق والبرهان .

ولقد خص القرآن آل عمران من بنى إسرائيل بسورة من أكبر سوره : هي سورة آل عمران : سماها باسمهم . وسورة المائدة ، وهي من أكبر سور القرآن أيضاً تقاد تكون مقصورة عليهم . وفي القرآن سورة يوسف وسورة إبراهيم وسورة مريم وسورة الأنبياء وكلها ملأى بال الحديث عن بنى إسرائيل ، أما سورة الأعراف فإنها تروى قصة موسى مع فرعون ومع السحرة المصريين ، وتنتحدث عن إخراج بنى إسرائيل من مصر ، ومناجاة موسى لربه وأخذه الألواح ، وتذكر انحراف بنى إسرائيل ، واتخاذهم العجل مععبوداً وغير ذلك من شئونهم .

على أن القرآن لا يقتصر - في الحديث عن بنى إسرائيل - على هذه السور التي ذكرناها ، وإنما تخلل الحديث عن بنى إسرائيل كثيراً من السور .

(١) سورة آل عمران آية : ٥٩ .

من ذلك نرى مبلغ الأهمية التي ووجهها القرآن إلى بنى إسرائيل لإرشادهم إلى الجادة ، ولقد صبور القرآن في أحاديثه هذه أخلاقهم في وضوح . وكان في ذلك كطبيب يشخص المرض تشخيصاً دقيقاً حتى يسهل العلاج ، ولكن اليهود الذين بلغوا من موسى مبلغاً جعله يقول :

(رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي ففرق بيننا وبين القوم الفاسقين)^(١)
كانوا عصيين على العلاج ، حتى لقد أيسوا داود وعيسى – عليهما السلام –
فلعنواهم :

(لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مرريم ، ذلك بما
عصوا و كانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبيس ما كانوا يفعلون)^(٢)
ولقد وصل بهم الأمر إلى أن كانوا يقتلون أنبياءهم بغير حق .

بيد أن هذه الناحية الأخلاقية ليست من أهدافنا الأولى في هذا الكتاب وتصفح القرآن خير هاد لمعرفيتها ، والذى يعنينا هنا إنما هو عقيدة اليهود .
والقرآن يذكر أنهم اخذوا العجل معبدًا وأنهم قالوا : «عَزِيزُ ابن الله» وأنكروا
رسالة سيدنا محمد وعيسى – عليهما السلام – . وقد تحدثنا عن رد – القرآن على
هذه الأمور فيما سبق .

تجديد فكرة الإلهية :

وإذا بدد القرآن كل شبهة حلقت في سماء فكرة الألوهية . وثنية كانت تلك
الفكرة أو كتابية – فإنه خص فكرة الألوهية بسورة واضحة ، جليلة ، سهلة ،
موجزة ، سماها : سورة الإخلاص : لتخليصها تلك الفكرة من شوائب كل باطل
وضلال :

(بسم الله الرحمن الرحيم .

قل هو الله أحد ، الله الصمد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد)^(٣)

(١) سورة المائدة آية : ٢٥ .

(٢) سورة المائدة آياتا : ٧٨ - ٧٩ .

(٣) سورة الإخلاص .

ولقد ورد في الخبر : أنها تعدل ثلث القرآن ، لأن من عرف معناها حق المعرفة ، وأدرك ما أشارت إليه إدراك صاحب البصيرة المستنيرة - لم يكن بقية ماجاء في التوحيد والتزarah عنده إلا تفصيلاً لما علم ، وشرحًا لما حصل^(١) في هذه السورة يوصف الله : بأنه «أحد» وكلمة : (أحد) : أبلغ في الدلالة على الوحدة من كلمة (واحد) فأحادية الله لا ترتكب فيها بوجه من الوجوه . إنها ليست كواحدية الإنسان الذي يتركت فيها من أعضاء ووحدات .

وفي هذه الآية فكرة الإسلام في مقابل فكرة التعدد على أي وضع كانت :

(لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة)^(٢)

إنها تنفي التشليث وتتفى الترکب ، إنها رد على النصارى ، وعلى مشركي العرب ، وهي رد على مشبهة الإسلام فيما بعد .

و (الله الصمد) فإليه يرجع الأمر كلـه ، وهو - وإن كان قد سبب الأسباب ، وأجرى سنته على أوضاع محددة ، وطلب إلينا أن نتخذ الأسباب - مع ذلك هو المرجع الأول والأخير لكل ما يجري في هذا العالم من شئون ، فإذا ما توجهت الآمال إلى سواه فقد ضلت وانحرفت ، ولقد ضلت بسبب ذلك النصارى واليهود فقد : (اتخذوا أخبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله)^(٣)

وفي هذه الآية ، بصورة عامة : توجيهه للكـلـ من كان يعلـق آمالـه على غير الله .

(لم يلد ولم يولد)

يترـه الله عنـ أنـ يـلدـ أحدـاـ . ويـشيرـ إـلـيـ فـسـادـ رـأـيـ القـائـلـينـ بـأنـ لـهـ اـبـنـاـ ، أوـ بـنـاتـ ، وـهـمـ مـشـرـكـوـ العـرـبـ ، وـالـهـنـدـ ، وـالـنـصـارـىـ ، وـغـيـرـهـمـ ، وـبـيـنـ لـهـمـ أـنـ الـابـنـيـةـ تـسـتـلزمـ الـولـادـةـ وـالـتـعبـيرـ بـالـأـبـنـاقـ وـنـحـوـ لـاـيـغـيرـ الـمـعـنـىـ ، وـالـولـادـةـ إـنـماـ تـكـوـنـ مـنـ الـحـىـ الـذـىـ لـهـ مـزـاجـ ، وـمـاـ لـهـ مـزـاجـ ، فـهـوـ مـرـكـبـ ، وـنـهـاـيـهـ إـلـىـ اـخـلـالـ - وـفـنـاءـ ، وـهـوـ جـلـ شـائـهـ مـنـزـهـ عـنـ ذـلـكـ :

وقـولـهـ : لمـ يـولـدـ : يـصـرـحـ بـيـطـلـانـ مـاـيـزـعـمـهـ بـعـضـ أـرـبـابـ الـأـدـيـانـ : مـنـ أـنـ اـبـنـاـ اللـهـ

(١) الشـيـعـ مـحـمـدـ عـبـدـ - حـزـهـ عـمـ صـ ١٧٦ـ . (٣) سـورـةـ التـوـبـةـ آـيـةـ ٣١ـ .

(٢) سـورـةـ الـمـائـدـةـ آـيـةـ ٧٣ـ

يكون لها ، ويعبد عبادة الإله ، ويقصد فيها يقصد فيه الإله ، بل لا يستحبى الغالون منهم أن يعبروا عن والدته بـ «أم الله القادرة» فإن المولود : حادث ، ولا يكون إلا بمزاج ، وهو لا يسلم من عاقبة الفناء .

ودعوى أنه أزلى مع أبيه مما لا يمكن تعقله ، ولا تغير من حقيقة الأمر شيئاً .

فإذا أراد أحد من هؤلاء أن يدعى التنزية فما عليه إلا أن يقلع عن هذه الألفاظ

والنسب ويقول : كما نقول :

(الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد) .

وهو نفي لما يعتقد بعض المبطلين من أن الله نداً في أفعاله يعاكسه في أعماله على

نحو ما يعتقد بعض الوثنين في الشيطان مثلاً .

فقد نفي بهذه الصورة جميع أنواع الإشراك ، وقرر جميع أصول التوحيد

والتنزية^(١) .

١٦

القرآن وأسئلة العرب :

في هذه الفترة من صدر الإسلام – فترة حياة الرسول – ﷺ – كان القرآن ، وكان الرسول في أحاديثه يبيان حاجات الأمة ، اعتقادية كانت ، أو تشريعية ، أو خلقية ؛ وكانت الأسئلة ترى موجهة إلى الرسول ﷺ . فيجيب عنها الوحي القرآني تارة ، وتبنيب عنها أحاديث الرسول تارة أخرى ، وأسئلة المجتمع إذ ذاك لم تكن تشهى إلى حد : وكانوا يسألون الرسول في كل صغيرة وكبيرة : فقد سأله عن الروح ، وسأله في القدر ، وسأله عن الأزل ، وسأله عن المصير وسأله عن الله ، وعن الإيمان والإسلام ، والإحسان ، والساعة .

وسأله عن الخمر والميسر ، والأكل والشرب ، والأهلة ، والمحيض ، وسأله عن كل ما كان يجول في أذهانهم .

(١) الشيخ محمد عده تفسير جزء عم ١٧٨ - ١٧٩ .

وكان القرآن سجلاً يصور الكثير من الأسئلة ويعطي الإجابة عنها ، وهاهي ذى آيات متالية من سورة البقرة توضح هذه الفكرة :

(يسألونك : ماذا ينفقون ، قل : ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين ، وابن السبيل ، وما تفعلوا من خير فإن الله به عالم ، كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل : قتال فيه كبير ، وصدق عن سبيل الله وكفر به ، والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا . ومن يرتد منكم عن دينه فيموت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ، والله غفور رحيم .

يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيما إثمكم كبير ومنافع للناس ، وإنها أكبر من نفعها .

ويسائلونك : ماذا ينفقون ، قل : العفو . كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرن في الدنيا والآخرة .

ويسائلونك عن اليتامي : قل إصلاح لهم خير . وإن تغالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح . ولو شاء الله لأعنتكم ، إن الله عزيز حكيم . ولا تنكروا الشركات حتى يؤمن ، ولامة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكروا المشركين حتى يؤمنوا ، ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار ، والله يدعوك إلى الجنة والمغفرة بإذنه ، ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون .

ويسائلونك عن المحيض . قل : هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض . ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتظاهرين)^(١) .

(١) سورة البقرة : الآيات . ٢١٥-٢٢٢ .

أظن أننا بعد الذى قدمناه لستا في حاجة إلى الرد على الأستاذ دى بوى
في قوله :

« جاء القرآن لل المسلمين بدين ، ولم يجئهم بنظريات ، وتلقوا فيه أحكاماً ولكنهم
لم يتلقوا فيه عقائد »

لقد رأينا بوضوح فيما سبق : أن القرآن جاء لل المسلمين بدين ، وبنظريات ،
وبأحكام وبعقائد .

ولاشك أن الإمام الرازى كان أصدق رأيا ، وأعمق غرراً إذ يقول معبراً عن
الحقيقة :

« إن الآيات الواردة في الأحكام الشرعية أقل من سبعين آية ، وأما الباقي في
بيان التوحيد . والنبوة والرد على عبدة الأوثان . وأصناف المشركين » .

ويقول : « وأما محمد عليه الصلاة والسلام فاشتغاله بالدلائل على التوحيد
والنبوة والمعاد - أظهر من أن يحتاج فيه إلى التطويل » ١ . هـ .
ولم يرفع الرسول - ﷺ - إلا وقد أكمل الله دينه ، وأتم نعمته على
المسلمين :

(اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي . ورضيت لكم الإسلام
ديناً) ^(١) .

لقد أكمل الله لل المسلمين الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً وقد أتمه عز وجل
فلا ينقصه أبداً ، وقد رضيه فلا يسخطه أبداً .

الفصل الرابع

في تفسير القرآن

(حم . والكتاب المبين . إنا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مَبَارَكَةٍ ، إِنَّا كَنَّا مُنْذِرِينَ . فِيهَا يُفْرَقُ
كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٌ . أَمْرًا مِنْ عَنْدِنَا ، إِنَّا كَنَّا مُرْسِلِينَ . رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّكَ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ) . ^(١)

لقد أَنْزَلَهُ اللَّهُ فِي لَيْلَةٍ مَبَارَكَةٍ مِنْهُ سُبْحَانَهُ ، وَلَقَدْ أَنْزَلَهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ، لَيْلَةَ السَّلَامِ
وَالْهُدَى ، لَيْلَةَ السَّلَامِ الْفَرْدَى ، وَالْهُدَى فِي الْفَرْدَى ، وَلَيْلَةَ السَّلَامِ الْجَمَاعِى ، وَالْهُدَى
الْجَمَاعِى .

إِنَّ الْقُرْآنَ رِسَالَةُ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِلَى الْكُوْنِ كُلِّهِ بِجَمِيعِ عَوَالِمِ وَهُوَ
رِسَالَةُ رَحْمَةٍ : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) ^(٢)

وَهُوَ لَمْ يَتَزَلَّ لِعَصْرٍ دُونَ عَصْرٍ ، وَلَا لِبَيْثَةٍ دُونَ بَيْثَةٍ ، وَإِنَّمَا أَنْزَلَ لِلْإِنْسَانِيةِ
حَاضِرَهَا وَبَادِيَهَا وَحَاضِرَهَا وَمُسْتَقْبِلَهَا . وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ فَإِنَّ الزَّمْنَ هُوَ الَّذِي يَحْمِلُ
مَعَانِيهِ عَلَى مِنْ أَيَّامٍ ، وَإِنَّ خَيْرَ تَفْسِيرِهِ لَهُ الزَّمْنُ .

وَالْقُرْآنُ بِهَذَا جَدِيدٌ بِاسْتِمْرَارٍ ، نَصْرٌ عَلَى الدَّوَامِ ، لَا تَنْقُضُ عِجَابَهُ ، وَلَا يَبْلِي
عَلَى الزَّمْنِ ، وَكُلُّ شَرْحٍ مَطْوَلٌ لَهُ مِنْهَا اسْتِفَاضَ لَا يُؤْدِي كُلَّ مَعَانِيهِ .

وَلَقَدْ تَجَنَّبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَمْلِي لَهُ شَرْحًا مُسْتَفِيضاً ، أَوْ تَفْسِيرًا لَهُ مَطْوَلًاً
رَغْبَةً مِنْهُ صَلَواتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِي أَنْ يَقْرَأَهُ الْقَارِئُونَ بِالْأَسْلُوبِ الإِلَهِيِّ النَّضِرِ
الْيَانِعِ ، وَتَوجِيهًا مِنْهُ صَلَواتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي أَنْ يَقْرَأَهُ الْقَارِئُ وَكَأَنَّمَا يَتَلَقَّاهُ مِنْ فَمِ الْوَحْىِ
مُبَاشِرًا غَصَّا نَصْرًا ، فَيَكُونُ لَهُ مَصْدِرٌ هُدَى ، وَبَاعِثٌ رُشْدٌ ، وَنَبْعًا فِياضًا
بِالْحَكْمَةِ .

وَتَجَنَّبُ كُبَارُ الصَّحَابَةِ رَضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَنْ تَسْتَفِيَضَ أَقْلَامُهُمْ بِشَرْحِهِ وَتَفْسِيرِهِ
مُتَأْسِينَ فِي ذَلِكَ بِالرَّسُولِ صَلَواتُ اللَّهِ عَلَيْهِ . وَرَغْبَةُ مِنْهُمْ فِي أَلَا تَقُومُ الْآرَاءُ البَشَرِيَّةُ
سَتَائِرُ تَحْجِبُ النُّورَ الْقَرَآنِيَّ أَنْ يَصُلَّ إِلَى الْقُلُوبِ مُبَاشِرًا صَافِيًّا نَفِيًّا . وَلَمْ يَحَاوِلُوا أَنْ
يَكُونُوا حَجَابًا بَيْنَ الْقُرْآنِ وَقُلُوبِ الْقَرَاءِ ، وَكَانُوا فِي اسْتِطَاعَتِهِمْ أَنْ يَكْتُبُوا فِي تَفْسِيرِهِ

(١) سورة الدخان الآيات : ٦-١ . (٢) سورة الأيساء آية : ١٠٧

وتؤويله ما شاء الله أن يكتبوا . ولقد روى عن بعضهم : أنه كان يتلقى له أن يكتب في تفسير الفاتحة وحدها حمل بغير من الأسفار ، ولكن لم يفعل ؛ كذلك لم يفعل كبار الصحابة حتى لا تتدخل البشرية المحدودة في المجال الإلهي اللامحدود . وما لا ريب فيه أن التفسير تحديد ، وأن الشرح تقدير ، وأن التأويل يتخلله عنصر من التخمين . وذلك كله تحديد لما لا يمكن أن يحد . وتقدير للانطلاق النوراني . وتخمين في مجال يتسمى عن التخمين :

(قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربى ولو جئنا بمثله مداداً)^(١) .

(ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبخر ما نفدت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم)^(٢) .

أرأيت إلى شعاع الشمس فياضًا مسترسلًا ، يغمر الكون بلا لائمه الذهبي . لا يمحجهه غيم ولا يسراه حجاب ؟ أرأيت إلى ضوء القمر فضيًّا متألقًا ، لا يسراه سحاب ولا يمحجهه شيء ؟ أرأيت إلى النور والضياء ينزل من السماء مباشرة صافياً نقىًّا فيتلقاء الإنسان ، وينعم به ؟ إن مثل ذلك كمثل نور القرآن وللائيه ، يصل إلى القلب مباشرة يطبعه طابع الجلال الإلهي والجمال الرباني لا يمحجهه شرح ، ولا يسراه تفسير ، ولا يحول بينه وبين القلب تأويل متحكمن ، ولا تتدخل فيه البشرية بأى نوع من أنواع نقصها وقصورها .

وتجنب كبار الصحابة إذن أن يصل القرآن إلى قلوب الناس من خلال شروحهم وتأنيلاتهم توجيهه بشريتهم وتحدداته أذهانهم .

ولقد أنزل الله القرآن : لنعمل بما فيه ، لا للتباري في جعله كتاباً في علم الكلام نضرب ببعضه ببعض ، لنتهى برأي بشرى يعارضه رأى بشرى ، قام هو الآخر على جعل كتاب الله كتاباً في علم الكلام . أخذ يضرب ببعضه ببعض .

لقد أنزل الله القرآن هداية . لنعمل بآياته المحكمات اللواتي هن أم الكتاب . ولنبعد عن الخوض فيما تشابه منه ، ولنجعله في كل حالة من الحالات إماماً نلتزم

(١) سورة الكهف آية ١٠٩ (٢) سورة لقمان آية ٢٧

هديه وتحلّق بأخلاقه ، حتى نكون نحن قرآنًا ، متأسین في ذلك برسول الله صلوات الله عليه ، الذي كان على وجه الأرض قرآنًا كريماً .

١ - الإمام النسفي

من علماء المذهب الحنفي المشهورين ، ومنهم لهم قدم راسخة في كثير من العلوم ، المفسر حافظ الدين ، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي ، المنسوب إلى نصف بلاد السندي بين جيحون وسمرقند .

كان عالماً بالفقه وأصول الدين وأصول الفقه والتفسير ، وامتازت مؤلفاته بجودة التحرى ودقة التعبير وشدة التركيز وحشد المعلومات المتنوعة في حيز بسيط ؛ حتى يعسر على غير المتخصص الأخذ عنها وفهم كل ما يشير إليه .

وقد استفاد من شتى طرق البحث السابق عليه ، فخرج عن استدلالات المتكلمين وجدل الأصوليين واستنباط الفقهاء ، وتميز بطريقته الخاصة في التأليف ؛ كما استفاد من شيوخه المشاهير ومنهم : شمس الأمة الكردي ، وأحمد بن محمد العتاي ، وغيرهما من كبار العلماء المتخصصين .

وللإمام النسفي مؤلفات كثيرة اشتهر بها كمفسر وفقيه وباحث في أصول الدين وباحث في أصول الفقه ومنها .

١ - عمدة العقائد في الكلام .

٢ - شرح عمدة العقائد وسماه الاعتماد .

٣ - منار الأنوار في أصول الفقه .

٤ - الكافي في شرح الوافي في الفقه الحنفي .

٥ - كنز الدقائق في الفقه الحنفي .

وكان على نسق غيره من كبار العلماء المسلمين معروفاً بالزهد والصلاح والتقوى . فضلاً عن تفرغه للعلم والدراسة والبحوث . وقد اشتهر عالمه وفضله في عصره وبعد عصره . وببارك الله في مؤلفاته . فأصبحت مرجع الباحثين ، ومجال

البحث بين الدارسين ؟ لما فيها من تدقيق وتحقيق واكتفاء بالإشارة عن التفضيل وبالإيجاز عن الإطناب .

وقدره العلماء حق قدره ؛ فقد كتب عنه صاحب (الدرر الكامنة) ، فوصفه بهذه الكلمة المدوية : (علامة الدنيا) .

وكتب عنه الحافظ عبد القادر في طبقاته ، فقال : « أحد الزهاد المتأخرين ، صاحب التصانيف المفيدة في الفقه والأصول ، له المستصنفي في شرح المنظومة ، وله شرح النافع سماه بالمنافع ، وله الكافي في شرح الواقف ، وله كنز الدقائق ، وله المنار في أصول الفقه ، وله العمدة في أصول الدين ، تفقه على شمس الأئمة الكردي ، وروى الزيادات عن أحمد بن محمد العتابي » .

والنسفي باعتباره من أئمة أهل السنة كان له موقف في غاية القوة ، وفي غاية العمق ، في الرد على كل انحراف في تفسير القرآن ، وخصوصاً تفسير الكشاف ، ولم يقتصر في الرد على المعتزلة على ما كتبه في تفسير الكشاف ؛ وإنما فعل ذلك في كل كتبه الكلامية التي كانت مجال اهتمام في رحاب الأزهر ، وقررت على الطلبة في مختلف مراحل التعليم ، وقام الأساتذة باختصارها وبشرحها وبالتعليق عليها مستفيدين منها ومفيدين لغيرهم بها .

وكانت وفاة الإمام النسفي رحمه الله عام واحد وسبعيناً من الهجرة ببلدة إيدج
بين خوزستان وأصفهان .

رحمه الله ونفع بعلمه .

تفسيره :

سماه الإمام النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) ، ويعتبر من التفاسير العلمية المحررة ، ليس بالطويل الممل ولا بالقصير المخل .

وقد تحدث الإمام النسفي عن السبب الذي دعاه إلى تأليف هذا التفسير فقال : (سألني من تعين إجابته كتاباً وسطاً في التأويلات ، جامعاً لوجوه الإعراب والقراءات ، متضمناً لدقائق علمي البديع والإشارات ، حالياً بأقاويل أهل السنة

والجماعة . خالياً من أباطيل أهل البدع والضلاله ليس بالطويل الممل ولا بالقصير الحال) .

ثم ذكر أنه تردد في الإجابة ، ولكنه قطع هذا التردد ، وسار في تأليفه بجد حتى أتمه في مدة يسيرة .

والناظر في هذا التفسير يجد فيه فهماً واعياً ، وخبرة دقيقة ، واطلاعاً واسعاً ، وحسن استفادة من هذا الاطلاع ..

وقد استفاد من تفسيري البيضاوى والكشاف أىما استفادة : فأأخذ من البيضاوى معناه الدقيق وفهمه الواعى وتوجيهه السديد وإيجازه المركز ؛ وأخذ من الزمخنجرى في كشافه خبرته الواسعة باللغة ومناقشته للأراء المتعددة .

على أنه لم يقع فيها وقع فيه الزمخنجرى في كشافه من التعصب لمذهب الاعتزال وحمل الآيات في تعسف على تأييد أصوله وقواعده ؛ إنه على العكس من ذلك اتخذ موقفاً مضاداً ، فبحارب ما يخالف المذهب الأشعري متقدماً طريقة الزمخنجرى ، راداً على حججه .

ويمتاز تفسير النسوى بإقلاله من الإسرائيليات ، وابتعاده ما استطاع عنها ؛ كما يمتاز بتحريره في اختيار الأحاديث . ويظهر ذلك أبلغ ما يظهر في تركه ذكر الأحاديث الموضوعة في فضائل السور .

كما أنه لم يتسع في الإعراب ، ولم يدخل في تفصيلات فرعية تشتبه الذهن ، وتبتعد بالقارئ عن الجو القرآنى .

ولم يخل تفسيره من الإشارة إلى المذاهب الفقهية في بعض آيات الأحكام ، والانتصار لمذهبة الحنفى .

ولا يسلم تفسير النسوى على وجه العموم من النقد :

فلقد اكتفى بإشارات في غاية الإيجاز إلى الآراء المختلفة فيما يتعلق بالآيات التي استدللت بها الفرق ، وكأنه يفترض شهرة هذه الآراء ومعرفة الكل بها ودوماً هذه المعرفة ، ويتمثل لنا ذلك في تفسيره لقوله تعالى : (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) من سورة الملك آية ١٤ .

ولم يسلم من الإسرائييليات برغم احتياطه وتحفظه ، فترأه عند تفسيره لقوله تعالى من سورة النمل آية : ١٦ (وورث سليمان داود وقال يأيها الناس علمتنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا هو الفضل المبين) يقول : روى أنه صاحب فاختة . فأخبر أنها تقول : ليت ذا الخلق لم يخلقوا . وصاحب طاووس فقال .. ثم ذكر أصنافاً من الطير ، وقول كل صنف من هذه الأصناف دون أن يعقب على ذلك ، بل دون أن يحترز من ذكر مثل هذه الأقوال التي لا سند لها من الأحاديث الصحيحة . ونأخذ عليه : أن أسلوبه يعلو على مستوى العامة ، حيث حشد فيه ألواناً من العلوم المتعلقة بالقرآن لا يفهمها إلا من عنده فكرة سابقة عنها . وفي آية المائدة يذكر آراء عن الحسن وعن وهب وعن غيرهما دون أن يوجه النظر إلى ما رواه الترمذى بسنته عن عمار بن ياسر : قال رسول الله ﷺ : (أُنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً . . .)

نماذج منه :

١ - يقول الله تعالى :

(والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهر ، خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم)

(والسابقون) مبتدأ ، (الأولون) صفة لهم (من المهاجرين) تبيّن لهم وهم الذين صلوا إلى القبلتين أو الذين شهدوا بدرأ ، أو بيعة الرضوان (والأنصار) عطف على المهاجرين ، أي ومن الأنصار ، وهم أهل بيعة العقبة الأولى ، وكانوا سبعة نفر ، وأهل العقبة (الثانية) وكانوا سبعين (والذين اتبعوهم بإحسان) من المهاجرين والأنصار ، فكانوا سائر الصحابة ، وقيل : هم الذين اتبعوهم بالإيمان والطاعة إلى يوم القيمة والخبر (رضي الله عنهم) بأعمالهم الحسنة (ورضوا عنه) بما أفضى عليهم من نعمته الدينية والدنيوية (وأعد لهم) عطف على رضي (جنات تجري تحتها الأنهر) من تحتها مكى (خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم) .

٢ - يقول الله تعالى :

(لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ، فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) التوبه آية ١٢٨ ، ١٢٩ .

«لقد جاءكم رسول » محمد عليه السلام (من أنفسكم) من جنسكم . ومن نسبكم عربي قرشي مثلكم (عزيز عليه ما عنتم) شديد عليه شاق - لكونه بعضاً منكم - عتكم لقاوكم المكروه ، فهو يخاف عليكم (حريص عليكم) على إيمانكم (بالمؤمنين) منكم ومن غيركم (رعوف رحيم) قيل : لم يجمع الله اسمين من أسمائه لأحد غير رسول الله ﷺ (فإن تولوا) فإن أعرضوا عن الإيمان بك وناصبوك (فقل حسبي الله) فاستعن بالله وفوض إليه أمورك ، فهو كافيك وناصرك عليهم (لا إله إلا هو عليه توكلت) فوضت أمرى إليه (وهو رب العرش) هو أعظم خلق الله . خلق مطافاً لأهل السماء ، وقبة للدعاء (العظيم) بالجر وقرىء بالرفع على نعت الرب جل وعز ، وعن أبي آخر آياته نزلت (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) الآية .

٢ - جمال الدين القاسمي

من علماء الشام الكبار المحقق الجليل جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم القاسمي .

ولد في سنة ثلات وثمانين ومائتين وألف . ونشأ في حجر والده ، وتلقى مبادئ العلوم الدينية والشرعية على يديه . ثم تلقى سائر العلوم على كثير من علماء عصره . ومن أبرزهم الشيخ بكرى العطار والشيخ عبد الرزاق البطار . مدحه أمير البيان شكيب أرسلان . فكان مما قال عنه : كان في هذه الحقبة الأخيرة جمال دمشق وجمال القطر الشامي بأسره في غزارة فضله وسعة علمه وشفوف حسه وذكاء نفسه وكرم أخلاقه وشرف منازعه وجمعه بين الشمائل الباهية والمعارف المتناهية .

وقد سما في العلم والفضل حتى صار وقال عنه الشيخ رشيد رضا : هو علامة الشام ونادرة الأيام المحمد لعلوم الإسلام حيى السنة بالعلم والعمل والتعلم والتهذيب والتأليف وأحد حلقات الاتصال بين هدى السلف والارتقاء الذي يقتضيه الزمن الفقيه الأصولي المفسر المحدث الأديب المفتن التفو الأول الحليم الأول العفيف التزية صاحب التصانيف الممتعة والأبحاث المقنعة .

بدأ الشيخ حياته العامة مدرساً في حياة والده ، فلما توفي والده تولى مكانه في خدمة إمامية في جامع السنانين بدمشق . ومارس نشاطه العلمي في التأليف والشرح والنقد والإصلاح حتى ازدهرت تأليفه وكثُرت مصنفاته . ووصل عددها إلى ما يقرب من المئتين ما بين مخطوط ومطبوع ومن أشهرها :

* محاسن التأويل في تفسير القرآن الكريم .

* فصل الكلام في حقيقة عود الروح إلى الميت حين الكلام .

* بحث في جمع القراءات المتعارف عليها .

* دلائل التوحيد .

* موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين .

* قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث .

وتعتمد طريقة في التأليف على النقل الوعي من التراث الإسلامي الزاخر ، والاكتفاء بالترتيب والتبويب والتعليق اللطيف أو الاستدراك الخفيف . وكان من المعجبين بالشيخ ابن تيمية ومن أقطاب المدرسة السلفية . وقد اكتسب خبرة واسعة في الإطلاع والإحاطة . حتى لقد حكى عن نفسه أنه قد من الله عليه بفضله فأمسى صحيح مسلم رواية ودرائية في مجالس من أربعين يوماً ، وسنن ابن ماجه إحدى وعشرين يوماً ، والموطأ في تسعة عشر يوماً ، وطالع بنفسه لنفسه كتاب تقرير التهذيب لابن حجر مع تصحيح سهو القلم فيه وضبطه وتحشيه من نسخة مصححة جداً ثم قال : وهذه الكتب قرأتها بعضها إثر بعض فأجهدت نفسي وبصرى حتى رمدت .

ولقد ذكرنا ذلك ، لنعرف بهمته واطلاعه الواسع وعلمه الغزير وعنایته

بإصلاح وإخلاصه في بث الدعوة ونشر الدين والحرص على التجديد .

وقد أتتكم بالدعوة إلى مذهب جديد في الدين سمى بالمذهب الجمالي ، وبعض عليه ، وحقق معه ، ولكنه رد التهمة ، وأثبت براءته ، فأخلى سبيله .

ولم تخل حياته من التنقل والارتحال ، فرحل إلى مصر ، وزار المدينة ، وعاد إلى دمشق ، فانقطع في منزله للتصنيف وإلقاء الدروس الخاصة وال العامة في التفسير والأدب وعلوم الشريعة ، إلى أن واتاه الموت في شهر رجب من سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة وألف من الهجرة .

رحمه الله ونفع به .

تفسيره :

إذا أحببت أن تقرأ تفسيراً كاملاً للقرآن لا تجد فيه خرافية ولا أسطورة ولا شيئاً من الإسرائييليات المذمومة التي حشيت بها التفاسير – فعليك بكتاب الإمام القاسمي «محاسن التأويل» الذي فسر به القرآن الكريم تفسيراً يعتبر نموذجاً إلى حد كبير . . . وقد تحدث القاسمي في مقدمة تفسيره فقال بعد أن أثني على القرآن :

(وإني كنت حركت الهمة إلى تحصيل ما فيه من الفنون والاكتحال بإتماد مطالبه لتنوير العيون ، فأكثيت على النظر فيه ، وشغفت بتدبر الآئم عقوده ودراريه ، وتصفحت ما قدر لي من تفاسير السابقين وتعلمت – حين درست – ما تخللها من الغث والسمين – ورأيت كلاماً – بقدر وسعه – حام حول مقاصده ، وبمقدار طاقته جال في ميدان دلائله وشواهده ، وبعد أن صرفت في الكشف عن حقائقه شطراً من عمري ، ووقفت على الفحص عن دقائقه قدرما من ذهري أردت أن أنخرط في سلك مفسريه الأكابر قبل أن تبل السرائر وتفنى العناصر) .

وقد استخار الله تعالى في تسميته وتأليفه ، ثم شرع في تنفيذ ما عزم عليه ، فكان هذا الكتاب الجليل .

وكان شروعه في هذا التفسير بعد تكرار الاستخارة في العشر الأول من شوال سنة ست عشرة وثلاثمائة وألف من الهجرة .. وكان هذا العمل الجليل تفسيراً حافلاً في

سبعة عشر مجلداً ، سد فراغاً وحقق نفعاً للعامة والخاصة ونفع الله به المسلمين . والناظر في هذا التفسير يجد أن مؤلفه قد أفرد جزءاً كاملاً مقدمةً لتفسيره . وفي هذه المقدمة يتجلّى منهجه في التفسير ، بل في التأليف عموماً . لقد ناقش قضايا عامة وخطيره فيها يتصل بالتفسير . ونقل آراء كثير من مشاهير العلماء في الأصول والتفسير وسائر العلوم القرآنية .

لقد تحدث عن مصادر التفسير وعد أن أصوتها أربعة :
الأول : النقل عن النبي ﷺ وعلى المفسر بطريق النقل أن يحذر من الضعيف والموضوع .

الثاني : الأخذ بقول الصحابي ، إذ هو المعاصر للتتزييل والفاهم لجو القرآن .
الثالث : الأخذ بمطلق اللغة .

الرابع : التفسير بما يقتضيه معنى الكلام ومفهوم الشرع .
ومصادر مقدمته غالباً من الشيوخ المعروفين : الإمام الشاطئ والإمام ابن تيمية وشذرات من كلام العز بن عبد السلام ، وكذلك الإمام الغزالى والراگب الأصفهانى وبعض العلماء الحدثين مثل الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا .

لقد كان الإمام القاسى بوفرة اطلاعه ودقة فهمه وأمانته في النقل - يتقدّم بأجود الأقوال فيما يختص بموضوع بحثه ، ثم ينقله في كتب .

وعلى هذا النهج جرى في تفسيره ، فكان أشبه ما يكون بمحديقة غناء لا ترى فيها إلا زرعاً ناضراً أو ورداً عاطراً ، ولا تجد فيه ما يؤذى النفس ويثير الشعور . ويمتاز هذا التفسير الجليل ، بالإضافة إلى التحرى في النقل وحسن الاختيار والبعد عن الضعيف والموضوع - بما يأتى :

- ١ - العناية بالمعانى اللغوية للمفردات وتوجيه الإعراب في سهولة ويسر دون تفريع أو تطويل .
- ٢ - اعتماده على القرآن نفسه ، ثم على السنة الصحيحة ، ثم على أقوال الصحابة وآراء السلف الصالحة .

٣ - اهتمامه بالآيات التي تحتاج إلى بحث وإطالة النفس فيها ، وذلك لأن في القرآن آيات بينة واضحة لا تحتاج إلى بحث ، إنها واضحة من ناحية المعنى . وفي القرآن آيات واضحة ، ولكن بعض المفسرين قد حاول إثارة الجدل فيها أو أخطأ في فهمها أو فسرها إسرائيليات أو انحرفت بها الأهواء على أي وضع كانت . ويشتد اهتمام مفسرنا بمثل هذه الآيات شارحاً ومبيناً محققاً للحق وكاشفاً لزيف الباطل ، وينقل في سبيل ذلك عن القدماء ما يؤيد فكرته ، ويتخذ من هذا التأييد كمصدر أول : القرآن ، فإنه يفسر بعضه ببعض ، ويتخذ كذلك الأحاديث الصحيحة الشريفة عن رسول الله ﷺ كمصدر آخر ، ثم ينقل عن العلماء القدامى وعن العلماء المحدثين ما يؤيد وجهة نظره ، وهي في الأغلب الأعم وجهة نظر سليمة .

٤ - اهتمامه بذكر وجوه القراءات مع الترجيح بينها . يقول في تفسير قوله تعالى (فَازْهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مَا كَانَا فِيهِ) آية ١٦ من سورة البقرة :

فَازْهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا : أى أذهبها عن الجنة وأبعدهما يقال : نزل عن مرتبته وزل عن ذاك : إذا ذهب عنك .. وزل من الشهر كما .. وقال ابن حجرير : فازها بشدید اللام بمعنى استرها .. من قولك زل الرجل في دينه إذا هفا فيه وأنخطاً فاتى ما ليس له إتيان فيه .. وأزله غيره إذا سبب له ما ينزل من أجله في دينه أو دنياه .. وقرىء (فَازْهُمَا) بالألف من التنمية فأخرجها مما كانوا فيه من الرخد والنعيم والكرامة .

ولقد تأثر الإمام القاسمي أيا تأثر بالإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ، اهتم أهتماماً واضحاً بكل ما انفردا به من آراء : إنه ينقل عن ابن تيمية رأيه في مجازات القرآن . وهو من الآراء التي اشتهر بها ابن تيمية وخالف فيها كثيراً من العلماء . وأعجب بالإمام محمد عبده أيا إعجاب ، ونقل عنه رأيه في وجوه التفسير ومراتبه . نقاًلا عن مقدمة تفسير الإمام محمد عبده المشهور .. نقله مؤثرا له مقرأً به . وستطيع أن نقول بحق : لقد تأثر القاسمي بمنهج الإمام محمد عبده ونسق بينه .

وبين منهج ابن تيمية ، لكن إعجابه بالشيخ محمد عبده لم يمنعه من مخالفته في مسائل الملائكة وأدم وإبليس والسحر وغير ذلك : لم يقل برأى الإمام في هذه الأمور ، وسار على رأى الجمهور في أنها حقائق ، وليس تعبيراً بالمثال والإرشاد والتفسير .

ولعل هذا يكشف لنا جانباً هاماً من جوانب الإمام القاسمي .
لقد كان يعجب بقدر ، وكان يتحكم فيها يختار ، ولا ينساق وراء الآراء تبعاً لشهرة قائلها وانتشارها بين الناس .

ومن المعالم البارزة في تفسيره الاعتناء بالربط بين الآيات المختلفة والكشف عن مظاهر الحكمة في ترتيب القرآن : في سورة البقرة مثلاً يتحدث عن الانتقال من قضية آدم ودعوة بنيه إلى الدين . إلى الحديث عن بنى إسرائيل في قوله تعالى : (قلنا اهبطوا منها جميعاً فاما يأتينكم مني هدى فلن تتبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدهم وإياى فارهبون) . يتحدث عن الصلة بين الآيات فيقول :

وما قدم الله تعالى دعوة الناس عموماً وذكر مبدأهم .. دعا بنى إسرائيل خصوصاً لهم اليهود – لأنهم كانوا أولى الناس بالإيمان بالنبي ﷺ . لأنهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل . فدعاهم تارة بالملطفة . وتارة بالتخييف . وتارة بإقامة الحجة وتوبخهم على سوء أفعالهم .

ونعود فنقول :

إن التفسير تعبير حي عن الشيخ القاسمي في معه عالمه ووفرة مراجعه وحسن انتقاءه وسلامة منهجه ودفته في التعبير واقتضائه على قدر الحاجة وقد ضم عصارات الأفكار وخلاصة آراء العلماء في كثير من الآفاق العلمية والفكرية والعملية ، كما عبر عنها القرآن .

وبلغ من تأثير الإمام القاسمي بابن تيمية أنه عد من مدرسته . ولو كان من مدرسة ابن تيمية في الفقه مثلاً أو في مسائل الأخلاق لكان الأمر سهلاً لا يحتاج إلى

تنبيه . ولكنـه كانـ من مدرـسة ابنـ تيمـية فيـ إثـباتـ الجـهة وـ فيـ عـقـيدةـ الصـفـات . وـ فـدـ سـارـ علىـ هـذـاـ النـحـوـ فيـ تـفـسـيرـه .

وهـذاـ المـنـجـ غيرـ مـسـلمـ بـهـ عـنـ جـمـهـورـ الـعـلـمـاءـ مـنـ أـهـلـ السـنـةـ .

وـ ماـ يـؤـخـذـ عـلـىـ الإـيـامـ الـقـاسـىـ فـيـ تـفـسـيرـاهـ أـنـ اـسـتـمـدـادـهـ مـنـ الإـيـامـ اـبـنـ كـثـيرـ بـلـغـ حـدـاـكـبـيرـاـ . . إـنـهـ يـكـادـ يـشـبـهـ تـفـسـيرـ الإـيـامـ اـبـنـ كـثـيرـ فـيـ الـعـدـيدـ مـنـ الـمـوـضـوعـاتـ . . وـ مـعـ ذـلـكـ فـإـنـ هـذـاـ التـشـابـهـ الـقـوـيـ لـاـ يـنـزـلـهـ عـنـ أـصـالـتـهـ فـهـوـ نـاـبـعـ مـنـ اـتـحـادـ الرـأـيـ وـ تـشـابـهـ الـأـفـكـارـ لـاـ مـنـ النـقـلـ وـ التـقـليـدـ .

نـوـذـجـ مـنـهـ :

قالـ تـعـالـىـ :

(ولـوـ اـتـيـعـ الـحـقـ أـهـوـاءـهـ لـفـسـدـ السـمـوـاتـ وـ الـأـرـضـ وـ مـنـ فـيـهـ بـلـ أـتـيـاـهـمـ بـذـكـرـهـمـ فـهـمـ عـنـ ذـكـرـهـمـ مـعـرـضـونـ) .
(أـمـ تـسـأـلـهـمـ خـرـجـاـ فـخـرـاجـ رـبـكـ خـيـرـ وـ هـوـ خـيـرـ الرـازـقـينـ)
(وـ إـنـكـ لـتـدـعـوـهـمـ إـلـىـ صـرـاطـ مـسـتـقـيمـ) .
(وـ إـنـ الـذـيـنـ لـاـ يـؤـمـنـوـنـ بـالـآـخـرـةـ عـنـ الـصـرـاطـ لـنـاـكـبـوـنـ) ^(١).

(ولـوـ اـتـيـعـ الـحـقـ أـهـوـاءـهـ لـفـسـدـ السـمـوـاتـ وـ الـأـرـضـ وـ مـنـ فـيـهـ) :
أـىـ : لـوـ كـانـ مـاـ كـرـهـوـهـ مـنـ الـحـقـ الـذـىـ هـوـ التـوـحـيدـ وـ الـعـدـلـ الـمـبـعـوثـ بـهـاـ الرـسـولـ
صـلـوـاتـ اللـهـ عـلـيـهـ موـافـقاًـ لـأـهـوـاءـهـ الـمـتـفـرـقـةـ فـيـ الـبـاطـلـ النـاـشـئـةـ عـنـ نـفـوسـهـمـ الـظـالـمـةـ
الـمـظـلـمـةـ لـفـسـدـ نـظـامـ الـكـوـنـ : لـأـنـ مـنـاطـ النـظـامـ لـيـسـ إـلـاـ ذـلـكـ وـ فـيـهـ مـنـ تـنـويـهـ شـأنـ
الـحـقـ وـ التـنـبـيـهـ عـلـىـ سـمـوـ مـكـانـهـ مـاـ لـاـ يـنـخـىـ .

(بـلـ أـتـيـاـهـمـ بـذـكـرـهـمـ) إـضـرـابـ عـنـ تـوـبـيـخـهـمـ بـكـراـهـتـهـ وـ اـنـتـقـالـ إـلـىـ لـوـمـهـمـ
بـالـنـفـورـ عـاـمـاـ تـرـغـبـ فـيـهـ كـلـ نـفـسـ مـنـ خـيـرـهـاـ : أـىـ لـيـسـ مـكـرـوـهـاـ بـلـ هـوـ عـظـةـ لـهـمـ لـوـ
اعـظـواـ أوـ فـخـرـهـمـ أـوـ مـتـمـنـهـمـ : لـأـهـمـ كـانـواـ يـقـولـونـ : لـوـ أـنـ عـنـدـنـاـ ذـكـراـ مـنـ الـأـوـلـيـنـ
لـكـنـاـ مـنـ عـبـادـ اللـهـ الـخـالـصـينـ

(١) سـوـرـةـ الـمـؤـمـنـوـنـ الـآـيـاتـ : ٧١ـ ٧٤ـ .

(فهم عن ذكرهم معرضون) : أى بالنكوص عنه وأعاد الذكر تفخيماً وإضافة .
لهم لسبقه وفي سورة الأنبياء (ذكر ربهم) لاقتضاء ما قبله له .

(أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا) أى جعلاً على أداء الرسالة فلأجل ذلك لا يؤمنون (فخرج
ربك خير) أى عطاوه .

(وهو خير الرازقين وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم . وإن الذين لا يؤمنون
بالآخرة عن الصراط لنا كبون) :

أى منحرفون قال القشاني : « الصراط المستقيم الذى يدعوهم إليه هو طريق
التوحيد المستلزم لحصول العدالة في النفس وجود الحبة في القلب وشهود الوحدة
والذين يحتاجون عن عالم النور بالظلمات وعن القدس بالرجس إنما هم منهمكون في
الظلم والبغضاء والعداوة والركون إلى الكثرة ، فلا جرم أنهم عن الصراط ناكبون
منحرفون إلى ضده ، فهو في واد وهم في واد ! وقال الرمخشري :

قد أزمهم الحجة في هذه الآيات وقطع معاذيرهم وعلّهم بأنّ الذي أرسل إليهم
رجل معروف أمره وحاله مخمور سره وعلنه خليق بأن يحيطى مثله للرسالة من بين
ظهرانיהם وأنه لم يعرض له حتى يدعى بمثل هذه الدعوى العظيمة بباطل ، ولم يجعل
ذلك مسلماً إلى النيل من دنياهم واستعطاهم أدواتهم وهو إخلاصهم بالتدبر والتأمل
الذى هو الصراط المستقيم مع إبراز المكنون من أدواتهم وهو إخلاصهم بالتدبر والتأمل
واستهارهم بدين الآباء الضلال من غير برهان ، وتعلّهم بأنه مجنون بعد ظهور الحق
وثبات التصديق من الله بالمعجزات والآيات النيرة وكراهتهم للحق وإعراضهم عما
فيه حظهم من الذكر .

٣ - الإمام الخازن

هو الإمام الفقيه المفسر المحدث المؤرخ علاء الدين أبو الحسن علي بن إبراهيم بن
عمر بن خليل الشيعي البغدادي الشافعى الصوفى المعروف بالخازن .
ولد ببغداد سنة ثمان وسبعين وستمائة ونسب إلى « شيخه » بالقرب من حلب ..

-- ولقب بالخازن لقيامه بالإشراف على مكتبة إحدى المدارس الهامة بدمشق . وأخذ في السياحة منذ أن اشتد ساعده على طريقة العلماء الذين لا يكتفون بالقطر الذي يعيشون فيه . والذين يسافرون دارسين متأنفين متصلين بكتاب العلماء .

لقد سافر إمامنا من بغداد إلى حلب . ومضى فيها فترة طويلة من الزمن . حتى لقد نسب إلى بلدة بالقرب منها .. ورحل إلى دمشق . وكانت تذخر بطائفة كبيرة من العلماء أمثال القاسم بن المظفر . بل إن دمشق إذ ذاك كان بها نساء وصلن في العلم إلى درجة من الدرجات العظمى فجلسن للتفسير وللمحدث . ومنهن : وزيرة بنت عمر ..

ونهل الإمام الخازن من كل ينابيع العلم في دمشق - شيوخاً وكتباً - وجاها جهاداً مستعيناً في سبيل التعريف بالعلم جمعاً وشرعاً وتاليفاً فجمع تفسيراً كبيراً سماه : لباب التأويل في معانى التنزيل .. . واهتم اهتماماً كبيراً بالحديث ، فصنف كتاباً يدل عنوانه على الهدف منه وهو : مقبول المنقول .

وقد حاول مصنفنا أن يجمع في كتابه هذا المقبول من المنقول . فشعر عن ساعده الجد ، وكتب عشر مجلدات جمع فيها بين مسنن الإمام الشافعى ومسنن الإمام أحمد ابن حنبل . وكتب الصحاح الستة : البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى والترمذى وابن ماجه . وضم إلى كل ذلك موطأ الإمام مالك وسنن الدارقطنى ، فأصبحت عشرة كتب رتبها على الأبواب . وهو عمل ليس بالسهل ولا باليسير ، ولا بد فيه من الصبر العميق والجهد الكبير .

وفضلاً عن كل ذلك فإنه جمع سيرة الرسول ﷺ في صورة مطولة مستفيضة في كتاب سماه : « سيرة خير الخلق محمد المصطفى سيد أهل الصدق والوفا » . ولا عجب في ذلك ؛ فإن من جمع كل هذه الكتب في الأحاديث ورتبتها ، يحيط بسيرة رسول الله ﷺ .

ويروى عن الإمام الخازن أنه كان حسن السمت ، معنياً بملابسه وببيئته ،

متابعاً لقوله تعالى : (خذوا زيتكم عند كل مسجد)^(١) ولقوله : (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق . فل هى للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيمة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون)^(٢) ، ومتابعاً لقول الرسول ﷺ : « إن الله جميل يحب الجمال ». وكان دائم البشر ، وكل من كان حسن الثقة في الله فإنه باستمرار دائم البشر . وكان مبتسماً في السراء والضراء : لأنه يثق في حكمة الله . . . كان متفائلاً في العسر واليسر . وكان من خلقه التوడد إلى الناس . وهذا التوڈد هو الذي جعله يفيد أكبر مجموعة من الناس علمًا وهداية . وكان من أجمل خلقه التواضع . وهضم النفس . وعدم الاعتداد بما وصل إليه من علم . . .

لقد كانت حياته - في سبيل الله عملاً وعملاً . دراسة وتدریساً ، هداية وإرشاداً . . .

وانطلق إلى رحمة الله في آخر شهر رجب أو مستهل شعبان سنة إحدى وأربعين وسبعينة بحلب .
رحمه الله رحمة واسعة .

تفسيره :

يعتبر تفسير الخازن من أقرب التفاسير المبسوطة تناولاً . وأسهله فيها . وأكثرها نفعاً للعامة والخاصة .

وقد تحدث عن تفسيره فقال :

« لما كان كتاب الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي ، من أجل المصنفات في علم التفسير . وأعلاها وأنبلها وأنسناها ، جامعاً لل صحيح من الأقوایل . محل بالآحاديث النبوية ، مطراً بالأحكام الشرعية ، موشى بالقصص الغريبة ، وأخبار الماضين العجيبة . مرصعاً بأحسن الإشارات مخرجاً بأوضح العبارات ، مفرغاً في

(٢) سورة الأعراف آية : ٣٤ .

(١) سورة الأعراف آية : ٣١

قالب الجمال بأفصح مقال – أحببت أن أنتخب من غرر فوائد ، ودرر فرائد ، وزواهر نصوصه ، وجواهر فصوصه – مختصرًا جامعًا لمعانى التفسير ، ولباب التأويل والتعبير ، حاوياً لخلاصة منقوله ، متضمناً لنكته وأصوله مع فوائد نقلتها ، وفرائد لخصتها ، من كتب التفاسير المصنفة فيسائر علومه المؤلفة ، لأنه أقرب إلى تحصيل المراد » .

ثم بين منهجه فيما يتعلق بالأحاديث النبوية في تفسيره : لقد حذف منها الأسانيد ، واكتفى بالمتون ليسهل التناول ويتحقق الإيجاز .. ولما كان حذف الإسناد يحتاج إلى التيقن من درجة الحديث ومكانته – فقد ذكر من خرج الحديث من الأئمة وبين اسمه . وزيادة في الاختصار اكتفى عن اسم المخرج بذكر حرف بدلا عنه . فأشار إلى البخاري بحرف خاء ، وإلى مسلم بحرف ميم ، وإلى ما اتفقا عليه بحرف قاف ، وإلى أئمة الحديث الآخرين كأبي داود والترمذى بأسمائهم ..

وقدم لتفسيره بخمسة فصول :

الأول : في فضل القرآن وتلاوته وتعليمه .

الثاني : في وعيد من قال في القرآن برأيه من غير علم ، ووعيد من أولى القرآن فسيه ولم يتعهد .

الثالث : في جمع القرآن وترتيب نزوله ، وفي كونه نزل على سبعة أحرف .

الرابع : في معنى نزول القرآن على سبعة أحرف ، وما قيل في ذلك .

الخامس : في معنى التفسير والتأويل .

وفرغ من تأليفه في يوم الأربعاء العاشر من رمضان سنة خمس وعشرين وسبعينه من الهجرة .

وما يؤخذ عليه استطراده في تفسيره بلا حدود ، والاستطراد قد يحسن في بعض المواطن ، ولكنه في غالبيها مدموم . وقد جره ذلك إلى الإفراط في النقل ، فقلل كثيراً من القصص الذى لا أصل له من الكتاب والسنة ، أوله أصل ، ولكن شوهته الزيادات والاستطرادات ، من المحرفين .

وانتخب تفسيره من تفسير البغوى ، وتفسير البغوى نموذج حى للتحرير

والتدقق . . لقد جرد تفسير الشعبي من الموضوعات والأراء بعيدة عن الصواب –
يقول ابن تيمية :

وكان الشعبي حاطب ليل ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف . .
وموضوع ، والبغوى تفسيره مختصر من الشعبي . لكنه صان تفسيره من الأحاديث
الموضوعة والأراء المبتدةعة . . لقد انطلق الخازن مع زياداته . ولم يكتف بالأخذ
عن البغوى : وإنما أضاف إليه من غيره . . ويبدو أنه أرجع ما تركه البغوى فحشا
به كتابه ..

ويظهر لنا هذا الاستطراد في تفسيره لسورة الكهف مثلاً . حيث ذكر (قصة
أصحاب الكهف) . ونقل رواية محمد بن إسحاق ومحمد بن يسار . ونقل رواية
أخرى عن عبيد بن عمرو . واستغرق هذا من التفسير ثمانى صفحات من القطع
الكبير . . وكثير مما ذكره إن لم يكن كلها – فيما يتصل بهذا الموضوع – لا أساس له
من الصحة .

على أنه إذا كان ينقل هذه القصص فإنه يتحرى في كثير من الأحيان فيها يتصل
بعصمة الأنبياء من أحاديث وروايات . إنه يذكرها ثم يعقب عليها بالنقد والتفنيد .
ففي مجال الحديث عن داود عليه السلام مثلاً – ذكر القصص التي ليست بصحيحة
بالنسبة إلى سيدنا داود عليه السلام . ثم عقب عليها بفصل عنونه بقوله : (فصل
في تزييه داود عليه السلام عما لا يليق به وينسب إليه) . ونقد في هذا الفصل
الروايات التي تمس عصمة داود عليه السلام .

والخازن يعقب – أحياناً – على ما يرويه من قصص مبيناً درجتها من الصحة
والوضع . على أن هذا التفسير – مع ذلك – لم يخل من كثير من القصص التي تحتاج
إلى تحرير . .

ومع النقد لابد من ذكر الحasan :

لقد امتاز تفسير الخازن بالإشارة إلى مصادر الأخبار . وبعض الاستطرادات فيه
طريقة فثلا في تفسير قوله تعالى : (فتبس ضاحكا من قوله وقال رب أوزعني أن
أشكر نعمتك التي أنعمت علىّ وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلنى

برحمةك في عبادك الصالحين)^(١) يستطرد إلى ذكر صاحب الأنبياء فيقول :

قيل : أكثر صاحب الأنبياء تبسم .

وقيل : معنى صاحبها : متسبماً .

وقيل : كان أوله التبسم وآخره الضحك .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : ما رأيت النبي - ﷺ - مستجمعاً قط
صاحبها حتى أرى منه لهواته . وإنما كان يتبسم .

نماذج منه :

قال تعالى : (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً . . وقرآننا
فرقناه لتقرأه على الناس على مكت ونزلناه تنزيلاً)^(٢)

وبالحق أنزلناه وبالحق نزل : يعني أنا ما أردنا بإنزال القرآن إلا تقريره للحق .
فلياً أردنا هذا المعنى فكذلك وقع وحصل وقيل : معناه وما أنزلنا القرآن إلا بالحق
المقتضى لإنزاله . . وما نزل إلا متبساً بالحق لاشتماله على الهدایة إلى كل خير . وما
أرسلناك إلا مبشرًا : يعني بالجنة للمطاعين .
ونذيراً : أي مخوفاً بالنار للعاصين .

قوله عز وجل : (وقرآننا فرقناه : أي فصلناه وبيناه . وقيل : فرقنا به بين الحق
والباطل . . وقيل معناه : أنزلناه نجوماً لم ينزل مرة واحدة بدليل قوله تعالى :
(لتقرأه على الناس على مكت) أي على تؤدة . وترسل في ثلاثة وعشرين سنة .
ونزلناه تنزيلاً : أي على حسب الحوادث .

قال تعالى :

(الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً . . فيما ليندر بأسا
شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً . ما كثين
فيه أبداً . وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً . ما لهم به من علم ولا لأباءهم كبرت

(١) سورة النمل آية : ١٩ .

(٢) سورة الإسراء آياتاً : ١٠٥ ، ١٠٦ .

كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً^(١).
قوله عز وجل : الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب : أثني الله سبحانه وتعالى على نفسه بإنعامه على خلقه ، وعلم عباده كيف يثنون عليه ويحمدونه على أجزل نعائمه عليهم وهي الإسلام . وما أنزل على عبده محمد ﷺ من الكتاب الذي هو سبب نجاتهم وفوزهم ، وشخص رسوله - ﷺ - بالذكر ، لأن إِنْزَالَ الْقُرْآنَ كَانَ نَعْمَةً عَلَيْهِ عَلَى الْخَصُوصِ وَعَلَى سَائِرِ النَّاسِ عَلَى الْعَوْمَومِ .
ولم يجعل له عوجاً :

أى لم يجعل له شيئاً من العوج قط ، والعوج في المعنى كالعوج في الأعيان . والمراد نفي الاختلاف والتناقض عن معانيه ، وقيل : معناه : لم يجعله مخلوقاً .
روى عن ابن عباس في قوله تعالى : (قرآناً عربياً غير ذى عوج) .
قال : غير مخلوق .

قيماً : أى مستقيماً ، وقال ابن عباس : عدلاً ، وقيل : قيماً على الكتب كلها مصدقاً لها وناسخاً لشرائعها .

ليندر بأسا شديداً : معناه ليندر الدين كفروا بأسا شديداً ، وهو قوله سبحانه وتعالى : (بعداب بئيس) الأعراف ١٦٥

من لدنه : أى من عنده . ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً : يعني الجنة . . ما كثير فيه : أى مقيمين فيه أبداً . ويندر الذين قالوا اتخاذ الله ولداً . ماهم به من علم أى بالولد باتخاذه : يعني أن قولهم لم يصدر عن علم ، بل عن جهل مفرط فإن قلت : اتخاذ الله ولداً في نفسه محال . . فكيف قيل : ما لهم به من علم ! قلت : انتفاء العلم قد يكون للجهل بالطريق الموصى إليه ، وقد يكون في نفسه محالاً لا يستقيم تعلق العلم به . .
ولا لآباءهم : أى ولا لأسلافهم من قبل .
كبرت : عظمت .

كلمة تخرج من أفواههم : أى هذا الذي يقولونه لا تحكم به عقوتهم وفكيرهم

(١) سورة الكهف الآيات : ١-٥.

أبته لكونه في غاية الفساد والبطidan . . فكأنه يجري على لسانهم على سبيل التقليد . .

إن يقولون إلا كذباً : أى ما يقولون إلا كذباً

٤ - الشيخ طنطاوى جوهري

الشيخ طنطاوى جوهري علم من أعلام المعرفة الإسلامية في العصر الحديث . ولد في قرية كفر عوض الله حجازى بمديرية الشرقية سنة سبع وثمانين ومائتين وألف ، ونشأ نشأة عادية في أسرته ، ثم تعلم مبادئ العلم في كتاب بلدة (الغار) ، واسْتَهْر بجودة الحفظ والمذكرة المفرط والبدية الحاضرة . . وساعدته ذلك على الالتحاق بالجامع الأزهر ، وتلقى العلم على مشاهير علماء عصره . ثم استكمل دراساته في دار العلوم ، وتخرج منها سنة عشر وثلاثمائة وألف . وعين مدرساً بمدرسة دمنهور ، ثم بالمدارس الابتدائية ، ثم بدار العلوم ثم ، بالمعلمين الناصرية ، ثم بالخطبانية وتعلم الإنجليزية وهو مدرس بها ، ثم اشتغل مدرساً بالجامعة المصرية . وكان له نشاط ديني واجتماعي كبير ، فرأس جمعية الموسعة الإسلامية ، واشتغل بالعلم والأدب والفلسفة والتفسير والتأليف ، وظهر فضيله في عصره وفيها بعد عصره إلى الآن .

ولقد تحدث عن نفسه في مقدمة تفسيره فقال :

أما بعد فإنني خلقت مغراً بالعجبائب الكونية ، معجباً بالبدائع الطبيعية ، مشوقاً إلى ما في السماء من جمال ، وما في الأرض من بهاء وكمال ، آيات بينات ، وغرائب باهرات . شمس تدور ، وبدر يسير ، ونجم يطير ، ووحش يسير ، وأنعام تسري . وحيوان يجري ، مرجان ودر ، وموج يمر ، وضياء في مخارات الأجواء وليل داج ، وسراج وهاج ، وكتاب من العجبائب مسطور ، في لوح الطبيعة منشور ، وسقف مرفوع . . إن ذلك لبهجة لأولى البصائر ، وتبصرة لصادق السرائر . .

وتحدث الشيخ عن طفولته في تفسير سورة يوسف وكيف تأمل في المجتمع من

تحوله؟ وقارن بين مجتمعه الريفي أو المصري وبين المجتمع الغربي المتقدم ، وكيف نزعت نفسه إلى بحث العوامل التي تسببت في ذلك ، والوصول إلى طريق الخلاص من هذا التأخر والانطلاق إلى عالم الحضارة والمدنية .

وكانت مؤلفاته أبلغ تعبير عن تجسيس به نفسه ، وكانت توجيهها حيًّا إلى الحضارة المادية والروحية على أساس من الدين ، وانطلاقاً من مبادئه ، ومن مؤلفاته :

- ١ - الأرواح .
- ٢ - أصل العالم .
- ٣ - أين الإنسان .
- ٤ - الناج المرصع بجوهر القرآن .
- ٥ - جمال العالم .
- ٦ - الفرائد الجوهرية في الطرق النحوية .

وأظهر مؤلفاته هو تفسيره الكبير الذي جمع خلاصة مؤلفاته إن لم يكن كلها . فصار كما قيل : «كل الصيد في جوف الفرا» .

ولم يقتصر نشاط الشيخ طنطاوي على العالم العربي . لقد تعداه إلى مختلف الأقطار الإسلامية وترجمت كتبه إلى اللغة الهندية (الأوردية) ، وإلى لغة القازان بالبلاد الروسية . وإلى لغة جاوية ، وغيرها . وذاعت شهرته في كثير من الآفاق .

ومن طريف ما يتعلق به : ما ذكرته مجلة دار العلوم ، عن أهل التركستان عندما استقلوا استقلالاً تاماً . وأقاموا جمهورية إسلامية ، وأنشئوا المدارس والجامعات ، فاتفقوا على أن يسموها باسم الشيخ طنطاوى جوهري وأصبحت : جامعة طنطاوية ، ومدارس جوهري ، وألف زعاؤهم وعلماؤهم كتاباً في لغتهم للتدرис بهذه الجامعات باسم الشيخ ، مثل : كتاب العقائد الجوهرية ، ومحوه ؛ لأنه في عقيدتهم حجة الشرق وفيلسوف الإسلام .

ولعل هذا يعطينا صورة صادقة عن الشيخ ونشاطه العلمي والديني الذي اجتاز حدود المكان كما اجتاز حدود الزمان .

وقد عمر أكثر من سبعين عاماً . ووافاه الأجل بعد حياة علمية خصبة ، في سنة
سع وخمسين وثلاثمائة وألف ..
رحمة الله رحمة واسعة ..

تفسيره :

سمى الشيخ طنطاوى جوهري تفسيره : الجوادر في تفسير القرآن الكريم .
المشتمل على عجائب بداع المكونات ، وغرائب الآيات الباهرات ..
وقد ابتدأ وهو مدرس بمدرسة دار العلوم في نحو سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة
وألف من الهجرة ، فكان يلقى تفسير بعض الآيات على طلبة دار العلوم ، وينشره
بمجلة الملادي العباسية ، ثم استجتمع همه لاستكمال التفسير ، فأتمه في اليوم
الحادي والعشرين من شهر المحرم سنة أربع وأربعين وثلاثمائة وألف ، بعد أن استغرق
تأليفه ما يناهز ست عشرة سنة .

وجاء تفسيرا حافلا كبير الحجم واسع الأفق ، استغرق خمسا وعشرين جزءاً
يناهز كل جزء منها ما يقرب من ثلاثة صحفة من القطع الكبير بحروف صغيرة .
وطبع هذا التفسير أكثر من مرة . وبعد أن فرغ منه كتب ملحقاً له طبع في جزء
مستقل .

ويتحدث الشيخ طنطاوى في مقدمة تفسيره عن الهدف الذى رمى إليه من هذا
المجهود العلمي الفذ فيقول :

ـ وإن لعلى رجاء أن يؤيد الله هذه الأمة بهذا الدين ، ويسعى على يد هذا التفسير
المسلمون ، وليرأون في مشارق الأرض ومغاربها مقروناً بالقبول .. وليلولعن
بالعجزات السماوية والبدائع الأرضية الشبان الموحدون ، ولزيكون داعياً حيثما على
درس العوالم العلوية والسفلى . وليرقمن من هذه الأمة من يفوق الفرنجة في الزراعة
والطب والمعادن والحساب والهندسة والفلك وغيرها من العلوم والصناعات .. كيف
لا ؟ وفي الفرقان من آيات العلوم ما يزيد على خمسين وسبعين آية ، بينما لا تزيد آيات
الذئبه المسرجية عن مائة وخمسين آية .

ولكن التفسير لم يقتصر على الناحية العلمية المادية وتبسيط أسلوبها وتقريبها قدر الطاقة . . .

لقد وضع فيه - كما يقول - ما يحتاج إليه المسلم من الأحكام والأخلاق ثم عبر في ثقة عن شعوره وهو يقول أيضاً :

ولتعلمن أيها الفطن أن هذا التفسير نفحة ربانية وإشارة قدسية وبشارة رمزية . أمرت بهذا بطريق الإلهام ، وأيقنت أن له شأنًا سيعرفه الخلق وسيكون من أهم أسباب رق المستضعفين في الأرض : (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) (١) .

ولقد ألف شيخنا تفسيره في فترة كان فيها الاستعمار . وكان الجهل . وكان الفقر ، ورأى الشيخ أن الجاهير المتدينة في حاجة إلى الإصلاح ، وإلى تقبّله بسرعة وعن اقتباع ، ورأى أن الدين هو الطريق الوحيد لذلك فسلك هذا الطريق .. ورأى الشيخ تفرق المسلمين ، ورأى لهذا التفرق أسبابه ، ومن أهمها الجهل بالدين ، وبمدى صلاته بالحياة ، وارتباطه بها . . .

ورأى الشيخ أن خير طريق لتوحيد المسلمين وتحقيق الإصلاح المنشود هو التوعية الدينية عن طريق العلم ، أو التوعية العلمية عن طريق الدين ، وسار في هذا الطريق بإصرار عجيب وعزيمة غريبة .

وحرّكة إصلاحية علمية كالتى قام بها الشيخ طنطاوى في تفسيره لا تخلو من الأخطاء . ولقد تعرض الشيخ في تفسيره للنقد بحق وبغير حق ، واصطُرَّ في كثير من المواطن إلى الرد الشائر والتنديد بمن ينتقدونه ، ويرون أن منهجه في التفسير ليس هو المنهج الملائم .

ومما لا شك فيه أن نية الشيخ في التفسير إنما هي نية الرجل الحب لوطنه (ووطنه هو العالم الإسلامي كله) والذى يرى أن هذا الوطن في حاجة إلى التعرف على العلوم الكونية والعلوم التربوية وآراء الغربيين في كثير من هذه النواحي . فاستفاض فيها استفاضة خرجت به عن الأسلوب الذى تعوده الناس في التفسير . حتى لقد وصفه

بعض بأنه كتاب طبيعة وكمياء وفلك وترية أكثر مما هو كتاب تفسير . ومن أجل ذلك منعت بعض الدول دخوله في بلادها ونقده كثير من العلماء .

وما من شك في أن المؤلف قد استطرد استطرادات كثيرة في مواضع متعددة لا تمت بصلة إلى التفسير . كما استخرج كثيراً من علوم القرآن بحسب الجمل . وهي طريقة غير معتادة في التفسير ، وأكثر من الحديث عن نفسه فيه جذباً للقراء ورداً على الأعداء . وتلك طريقة غير متعودة في الكتابة ..

ومع ذلك فإن كتابه فيه التفسير التقليدي اللطيف : إنه يقسم السورة أقساماً ، ثم يذكر الآيات التي يشملها القسم المعين ، ويفسرها تفسيراً تقليدياً مختصراً لطيفاً يدل على تمكن ومعرفة بفنون التفسير . وينطلق بعد ذلك في بحوثه المشعبة في شتى الحالات . ولو اقطع هذا التفسير التقليدي من مؤلفه جاءه تفسيراً لطيفاً حافلاً يأخذ مكانة عالية بين التفاسير .

كان الشيخ في تفسيره عالماً دينياً إلى جانب شغفه بالعلوم الكونية وأفاد في الأولى : كما أفاد في الأخرى .

نماذج منه .

ولكي نقدم نماذج من هذا التفسير سنتقى بعض الآيات الكونية ، وبعض الآيات الاجتماعية والأخلاقية لتكتشف لنا معالم هذا التفسير

(١) قال تعالى :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْخَلَاقَ الْلَّيلَ وَالنَّهَارَ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفُعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمَسْخَرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لِآيَاتِ لَقَوْمٍ يَعْقُلُونَ) ^(١) .

يقول الشيخ في تفسيرها : لقد شرحنا هذه الآية في كتاب (التأج المرصع) وأبنا كيف أبانت نظام العالم العلوى والسفلى وارتباطهما وتعاشقهما ؟ وكيف بدأ بالفلك .

(١) سورة البقرة : آية ١٦٤ .

وشي بعلم الطبيعة ، وجعلها منظمة كإنسان واحد وحيوان واحد ونبات واحد ، فترى كل كائن مستمدًا من سواه .

ثم تحدث عن اختلاف الليل والنهار تبعاً لحركة الشمس ، واختلاف الحرارة والبرودة والرياح ، فتتساقط الأمطار من السماء تبعاً لنوميس الحرارة والبرودة المسخرين لناموس الأفلاك ، وسير الشمس في البروج ، فتنشأ ممالك النبات والحيوان والإنسان من ذلك الماء . وتهب الرياح فتسرير السفن كما تسير السحب ، ولكل قوانين في سيره : فالسفن لا تتجاوز ما رسم الملاحون في رسومهم من الخطوط البحرية ، والسحب لا تتعدي طريقها المرسوم بالقوانين الطبيعية رحمة بالناس . وهذا جميعه مرتبط بالعلويات . . وكيف تسير السفن إلا بالقوانين البحرية المستخرجة من علم الأفلاك ، ومراقبة الأطوال والعرض والنجمون وسير الشمس وقانون المغناطيسية ونحو ذلك ؟

ثم صور ارتباط هذه القوانين بجدول ، وقال : إن ذلك يفيد تناسق العالم ككرة واحدة وشكلًا واحدًا يستمد الأسفل من الأعلى ، ويهد الأعلى الأسفل ، وبين أن هذا التناسق والانسجام في عالمنا يدل على أن نهج العالم الأخرى على هذا النط . ثم عقد مقارنة بين دوران الرياح وحركات المياه ودوران الشموس والكواكب وبين دوران الدم في أجسامنا . واستخلص نتيجة هامة وهي : أن العالم كإنسان واحد وحيوان واحد له رأس وأعضاء رئيسية ومرءوبة (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) ^(١) . وكما أن للجسم مدبراً واحداً فإن للعالم بارتباط أجزائه واستمداد بعضها من بعض مدبراً واحداً دل عليه قوله تعالى : (وإلهكم إله واحد) ^(٢) . واستفاض بعد ذلك في إسهاب يتحدث عن اختلاف الليل والنهار ودرجات التفاوت بينهما ، وعقد جدولًا لذلك وقام بشرحه ، وضرب أمثلة عليه زيادة في التوضيح . .

وانقل من العلم إلى السياسة والدراسات الاجتماعية : فتحدث عن أنه كما يختلف الليل والنهار بالزيادة والنقصان تختلف الدول بالرفعة والغفلة . .

(٢) سورة البقرة آية ١٦٣ .

(١) سورة لقمان آية ٢٨ .

وتحدث عن كتاب خطى يبين أن التقاليد المصرية في الكشف الحديث قديمة يرجع تاريخها إلى ما قبل ثلاثين قرنا فأكثـر ، وتحـدث عن السفن وأنواعها وعن السـمك وأصنافه ، وقارنـ بينـها . وتحـدث عنـ كـثيرـ منـ مـسائلـ الـكـيمـيـاءـ العـضـوـيةـ فـيـ الـنبـاتـ ، وقارـنـ بـينـ نـباتـاتـ وـحـيـوانـاتـ مـخـلـفـةـ ، وـعـنـ المـادـةـ وـبـاسـاطـةـ أـصـلـهاـ وـتـعـقـدـهاـ وـتـعـدـدـ أـلـوانـهاـ ، وـعـنـ أـصـلـ المـادـةـ وـاـخـتـلـافـ الـعـلـمـاءـ فـيـ ذـلـكـ . ثـمـ ذـكـرـ أـصـنـافـ مـتـعـدـدـةـ مـنـ الـنـبـاتـ وـالـحـيـوانـاتـ مـوـضـحاـ لـهـاـ بـالـرـسـومـ مـشـيرـاـ إـلـىـ عـجـائـبـ مـتـيـرةـ فـيـ نـمـاذـجـ مـعـيـنةـ مـنـ كـلاـ النـوـعـينـ ، وـتـحـدـثـ عـنـ السـحـابـ وـالـزـوـافـ وـالـسـفـنـ الـبـخـارـيـةـ وـالـقـوـىـ الـكـهـرـيـةـ الـمـتـولـدةـ عـنـ الطـاقـةـ الـمـيـكـانـيـكـيـةـ الـتـىـ تـحـركـ الـآـلـاتـ بـسـرـعـةـ ، وـقـدـ تـسـبـبـ عـنـ اـنـدـفـاعـ الـمـاءـ كـمـاـ فـيـ سـدـ أـسـوانـ . . .

واستغرقت هذه الرحلة المدهشة عشرين صفحة كاملة .

وقد قدم بين يدي رحلته تفسيراً لفظياً مبسطاً فيه كثير من الوضوح .

(ب) سورة يوسف :

قسم السورة إلى ستة أقسام :

- ١ -رؤيا .
- ٢ -إيذاء إخوة يوسف له .
- ٣ -قصته في بيت العزيز .
- ٤ -سجن يوسف عليه السلام .
- ٥ -تنظيمه لخزائن مصر .
- ٦ -ختامة السورة وحكمها وعجباتها . وفي هذه الخاتمة ذكر الآيات من قوله تعالى (ورفع أبويه على العرش وخرعوا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤيائي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزع الشيطان بيتي وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم) ^(١) إلى آخر السورة . .

^(١) سورة يوسف آية ١٠٠ .

التفسير اللغظي :

ورفع آبويه على العرش : السرير الذي كان يجلس عليه يوسف . والرفع النقل إلى أعلى .

وخرروا له سجداً : أى يعقوب وأمه وإخوته . وقيل خالته موت أمه . وكانت تحية القوم إذ ذاك السجود وهو الانحناء والتواضع .

وقال يا أبت هذا تأويل رؤيائى من قبل : الذى رأيتها فى أيام الصبا . قد جعلها رب حقاً : صدقاً .

وقد أحسن بي إذ أخرجنى من السجن : وأعرض عن ذكر الجب لثلا يكون تثريباً عليهم .

وجاء بكم من البدو : من البدية : لأنهم كانوا أصحاب مواش ينتقلون بها إلى المياه والمناجع .

من بعد أن نزع الشيطان بيى وبين إخوتي : أى أفسد بيننا وأغرى . يقال : نزع الرائض الدابة إذا نسخها وحملها على الجرى .

إن ربى لطيف لما يشاء : لطيف التدبير . فلا صعب إلا وله فيه تدبير ينفذ فيه مشيئته .

إنه هو العليم : بوجوه المصالح والتدبير .

الحكيم : الذى يفعل كل شيء في وقته . . يقال :

إن يوسف طاف بأبيه في خزائنه . فلما أدخله خزانة القراطيس ^(١) قال : يا بنى ما أعقلتك ! عندك هذه القراطيس وما كتبت إلى ! قال : أمرني جبريل : قال : أو ما تسائله ؟ قال : أنت أبسط مني إليه فأسأله . فقال جبريل : الله أمرني بذلك لقميلك (وأنتحاف أن يأكله الذئب) . قال ^(٢) : فهلا خفتني !

(٢) أى الله تعالى .

(١) الورق .

فبالأحرى نحلل آيات الأرض والسماء ، ونستجلِّي فوائدها ، ونستخرج حكمها . وهكذا نفذ بفكره ومنهجه في شتى ألوان العلوم ، واستغرق ذلك ست عشرة صحيفة من القطع الكبير وبالخط الصغير .

وأظن أن السامع أخذ الآن فكرة عن المنهج الذي اتبَّعه الشيخ ، وهو منهج يطوى في التفسير كل ما أمكن للشيخ معرفته في جميع مجالات العلم . ونقدَّه من أجل ذلك كثير من الناس ومدحه من أجل ذلك كثير من الناس . والذى لا شك فيه هو أن الشيخ بذل كل ما يستطيع في تفسير القرآن بنية صادقة وعزيمة أحبت أن ترضى الله ورسوله ، فجزاه الله خير الجزاء ، وأجزل مشوبته . وتقبل عمله .

٥ - الجلالان

علماني جليلان هما : الإمام جلال الدين المحلي . والإمام جلال الدين السيوطي .

١ - أما الجلال المحلي فهو الإمام محمد بن أحمد بن محمد المحلي الشافعى ، المولود بمصر سنة واحد وتسعين وسبعين .

كان مثلاً للعالم الجليل حقاً ، وسار في حياته على نمط أسلافنا من قم العلماء الذين كانت لهم مثل فيما يتعلق بالعلم وفيما يتعلق بالحياة . لقد جعلوا العلم أساساً في حياتهم ، وهذا الأساس لم يتخدوه أساساً منهاراً : أي أنهم لم يتخدوه مادة جدل نظرية ؛ وإنما أقاموا حياتهم العملية على العلم فكانوا علماء عاملين .

ولم يتخد أسلافنا العلم تجارة وتكسباً وحربة يتقربون به إلى الملوك والأمراء وينالون به الزلفي والمناصب ، وإنما حفظوه من أن يتبدل ، وذلك أنهم اكتسبوا حياتهم المادية ، واتجهوا في علمهم إلى الله سبحانه وتعالى فلم يأخذوا عليه أجرًا من أجل ذلك كانت لهم حرية لا يقيدها الدينار والدرهم .

لقد كان إمامنا المحلي من هذا الصنف من الناس . لم يكتف بالعلم ؛ بل صاحبه

فالأحرى نحمل آيات الأرض والسماء ، ونستجل فوائدها ، ونستخرج حكمها . وهكذا نفذ بفكره ومنهجه في شتى ألوان العلوم ، واستغرق ذلك ست عشرة صحيفة من القطع الكبير وبالخط الصغير .

وأظن أن السامع أخذ الآن فكرة عن المنهج الذي اتبّعه الشيخ ، وهو منهج يطوى في التفسير كل ما أمكن للشيخ معرفته في جميع مجالات العلم . ونقده من أجل ذلك كثير من الناس ومدحه من أجل ذلك كثير من الناس . والذي لا شك فيه هو أن الشيخ بذل كل ما يستطيع في تفسير القرآن بنية صادقة وعزيمة أحبت أن ترضي الله ورسوله ، فجزاه الله خير الجزاء ، وأجزل مثوبته ، وتقبل عمله .

٥ - الجلالان

علمانيان جليلان هما : الإمام جلال الدين المحلي ، والإمام جلال الدين السيوطي .

١ - أما الجلال المحلي فهو الإمام محمد بن أحمد بن محمد المحلي الشافعى ، المولود بمصر سنة واحد وتسعين وسبعين .

كان مثلاً للعالم الجليل حقاً ، وسار في حياته على خط أسلافنا من قم العلماء الذين كانت لهم مثل فيما يتعلق بالعلم وفيما يتعلق بالحياة . لقد جعلوا العلم أساساً في حياتهم ، وهذا الأساس لم يتخلدوه أساساً منهاراً : أى أنهم لم يتخذوه مادة جدل نظرية ؛ وإنما أقاموا حياتهم العملية على العلم فكانوا علماء عاملين .

ولم يتخذ أسلافنا العلم تجارة وتكسباً وحرفة يتربون به إلى الملوك والأمراء وينالون به الزلفى والمناصب ، وإنما حفظوه من أن يتبدل ، وذلك أنهم اكتسبوا حياتهم المادية ، واتجهوا في علمهم إلى الله سبحانه وتعالى فلم يأخذوا عليه أجراً من أجل ذلك كانت لهم حرية لا يقيدها الدينار والدرهم .

لقد كان إمامانا المحلي من هذا الصنف من الناس . لم يكتف بالعلم ؛ بل صاحبه

بالعمل ، ولم يمنعه الاشتغال بالتعلم عن التكسب بالتجارة ، فاستغنى عن الحكم والموسرين ، واكتفى بعيشة التقشف ، وأخلص للعلم حق الإخلاص .

عرض عليه القضاء الأكبر ، فتفعف عنه ، وكان كثير من أسلافنا يرفضون القضاء تورعاً وتزها عن أن يحكموا حكماً لا يرضي الله سبحانه وتعالى .
وأدى إليه الكبراء ، فعاملهم معاملة عادلة ، وأعرض عن مداهنتهم أو التزلف لهم ، بل واجههم بظلمتهم ، ووقف في وجوههم ، ووفي لرسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حقها .

اشتغل بالفقه والكلام والأصول والنحو والمنطق وغيرها من العلوم الإسلامية وامتاز بفهم عجيب صادق .

ومن طريف ما يصفه به السابقون أنهم كانوا يقولون : إن ذهنه ينهرق الماس : يعنيون بذلك أن ذهنه حاد نفاذ حتى إنه لو توجه إلى ماس حرقة ! وأنه ينفذ إلى دقائق المسائل ، فيصل إلى حل ما تعقد منها .

وكان يعتمد على الفهم ، ولم يك يستطع الحفظ .

وكان يقول عن نفسه : (إن فهمه لا يقبل الخطأ) .

ولقد صاحبه التوفيق في مؤلفاته ، فامتازت بالاختصار والتحرير والتنقيح وانتقاء العبارة وجودة العرض حتى جذبت الناس إليها ودفعتهم إلى الإقبال عليها .
ومن هذه المؤلفات :

كتاب شرح جمع الجواجم في أصول الفقه .

وكتاب شرح المنهج في فقه الشافعية .

وكتاب شرح الورقات في أصول الفقه .

وتوفي رحمه الله وهو يؤلف تفسيره للقرآن الكريم ، هذا التفسير الذي قام بإكماله تلميذه البارز الجلال السيوطي .

٢ - والجلال السيوطي يعتبر من أبرز رجال عصره من العلماء ، وهو الإمام أبو الفضل جلال الدين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق السيوطي نسبة إلى أسيوط .

وأسرته كريمة ذات علم وفضل . توفي والده وهو في السادسة من عمره ، فنشأ يتيما ، ولكن معلم التجاية ظهرت عليه من صغره ، فحفظ القرآن وتوجه إلى تحصيل العلم من علماء عصره ، وذكر من شيوخه خمسون شيخاً من أعلام العلماء . . .

وقد انتفع انتفاعاً لا حد له بالمكتبة المحمودية ، وكانت عامرة بالكتب النفيسة . وابتدأ التأليف وسنه لا تتجاوز سبع عشرة سنة ، وأفتقى في سن الثانية والعشرين . وأملى الحديث في سن الثالثة والعشرين .

وعلى سنة العلماء الممتازين رحل إلى كثير الأقطار منها : الشام والجهاز واليمن والهند والمغرب ، فضلا عن الطواف بشتى أنحاء القطر المصري . وشرب ماء زمزم قاصداً أن يصل في العلم إلى مراتب شيوخه المتخصصين البارزين كل في فنه متابعاً لقول الرسول ﷺ (ماء زمزم لما شرب له) .

وكان السيوطي جاماً لكثير من العلوم والمعارف الدينية واللغوية كالتفسير والحديث والفقه والنحو والبلاغة ، ووصل فيها إلى مرتبة أهلته للتأليف بكثرة وغزارة ، يقول عن نفسه : (ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ومداركها ونقوصها وأجوبيها والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرتك على ذلك من فضل الله لا بحولي وقوتي) .

وقد بدأ السيوطي الكتابة ملخصاً ومحضراً ، ثم انتهى أمره إلى الاستقلال في التأليف . إلا أن المنهج النقلي يغلب عليه ، لأنه في نظره جانب مأمون .

وحياته تمثل حياة العالم في صورتها السامية : لقد تفرغ للعلم وعكف عليه ، ولم يشغل عنه شاغل . كان العلم شعاره في الصباح وفي المساء ، وكان شعاره في النوم واليقظة ، ومن أجل ذلك كانت حياته خصبة أثمرت ما يقرب من الخمسين مؤلفاً ، منها : ما هو صغير لا يزيد على صفحة أو صفحات ، ومنها ما يسع عدة مجلدات .

ومن أبرز كتبه :

١ - تفسيره الكبير المسمى (الدر المشور في التفسير بالتأثير) .

٢ - كتاب (جمع الجامع) أو (الجامع الكبير) الذى حوى ما حصله من الحديث ، وهو مرتب على حروف المعجم ؛ مما يسر تناوله والتعرف على ما فيه . وهو يعد عملاً تنوع به العصبة أولى القوة . وقد يسره الله تعالى له لذاكرته القوية ولتنظيمه الدقيق واستعانته ببعض تلاميذه . فيما يدو في الجمع والترتيب .

٣ - كتاب (صون المنطق والكلام) وهو من أنفس كتبه وقد حققه أخيراً الدكتور على سامي النشار والسيدة سعاد على عبد الرزاق .
ومن كتبه المشهورة أيضاً :

كتاب (الملائي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة) .

وكتاب (الإتقان في علوم القرآن) .

وكتاب (تدريب الراوى في علوم الحديث) .

وبرهن على سعة اطلاعه ورحابة أفقه في فتاواه الكثيرة التي جمع نموذجاً طيباً منها في جزأين كبيرين بعنوان (الحاوي) .

ويؤخذ على السيوطى إفراطه في النقل . وكثرة استطراداته في مؤلفاته . وافتقار هذه المؤلفات إلى التهذيب والتنقية .

بيد أن إفراطه في النقل يسر لنا معرفة الكثير من الكتب التي كادت تندثر لو لا أنه حفظ لنا أجزاء ضخمة منها بين ثانياً كتبه . ولو لا ذلك لما علمنا عنها شيئاً .
وكان يميل إلى الزهد والتتصوف . وله فيها مؤلفات وفتاوی كثيرة ودقيقة .

وقد توفي في ليلة يوم الجمعة التاسع عشر من شهر جمادى الأولى سنة إحدى عشرة وتسعمائة . وصل عليه الإمام الشعراوى . ودفن بالقاهرة .
رحمه الله رحمة واسعة .

تفسيرهما :

اشترك فيه الشيخان . وقامت الأقدار بدورها في هذا الاشتراك : فقد أخذ الجلال المحلي يعد تفسيراً له ، مبتدئاً من أول سورة الكهف حتى انتهى من سورة الناس . ثم بدأ في النصف الأول ، ففسر سورة الفاتحة إلا أن الأجل وفاته بعد

تمامها . وصار التفسير محتاجاً إلى من يكمله . فقام الشيخ السيوطي بذلك . ولم يتحدث الحلى عن عمله في تفسيره أو عن منهجه فيه ؛ وإنما تحدث السيوطي ، فأشار في مقدمة تفسيره إلى أنه سيقوم فيه بذكر ما يفهم به كلام الله تعالى مع الاعتماد على أرجح الأقوال ، وإعراب ما يحتاج إليه . والتتبّع على القراءات المختلفة المشهورة على وجه لطيف وتعبير وجيزة . وترك التطويل بذكر أقوال غير مرضية .

وأوضح الإمام السيوطي في هذه الكلمات الحاجة إلى النوع الوجيز من التفسير . وافتقار العالم الإسلامي إليه . حيث إن جمهور الناس وعامتهم لا يتوجهون عادة إلى البسط العلمي المتشعب في تفسير القرآن ، وقد لا يستفيد الكثيرون من هذا البسط . وقد يتوهون بين رحاب التفاسير الكبيرة التي لا يحتاج إليها إلا المتخصصون .

ويرغم الاختصار المركز ، وسهولة التناول فإنه اشتمل على كثير من الفنون المتصلة بمجال القرآن الكريم : من الروايات المأثورة ، والإعراب ، والقراءات ، والأقوال الصحيحة المعبرة في ثقة عن الموضوع .

ولم يستغرق تفسير الجزء الذي أعده السيوطي – وهو النصف الأول وقتاً كثيراً . . . لقد أتمه في أربعين يوما . وتحدث في ختامه عما بذله شيخه الجلال الحلى من مجهد .

وقد اشتهر تفسير الجلالين وذاع صيته وظهرت – بحق – حاجة العالم الإسلامي إلى مثله من التفاسير . وطبع عدة طبعات مستقلة تارة وعلى هامش أحد الكتب تارة أخرى . وقام بعض العلماء بكتابه حواشى عليه ، ففصلوا فيها بمحمله . ووضحاوها فيها ما منع التركيز من توضيحه ، وقاموا باستدراك ما فات مفسريه . ومن أشهر هذه الحواشى حاشية الإمام الصاوي . وفيها لمحات نورانية كريمة . وحاشية الإمام الجمل وفيها إيضاحات لغوية قيمة . وقد طبعت كل من الحاشيتين وعلى هامشها تفسير الجلالين . ولعل صغر حجمه وسهولة استعماله وكثرة فائدته وشدة إقبال الناس عليه يسرت تكرار طبعه .

والذى يؤخذ على هذا التفسير أنه برغم اختصاره الشديد لم يخل من بعض القصص الذى لا أساس له من النصوص الصحيحة ، نلحظ ذلك في تفسير قوله تعالى من سورة ص (وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ، إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط . إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولن نعجة واحدة فقال أكفلنها وعزى في الخطاب . قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما فنتاه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب . فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلى وحسن مآب) ^(١) .

لقد ذكر أنها ملكان جاءا في صورة خصمين لتبنيه على ما وقع منه ، وكان له تسع وتسعون امرأة ، وطلب امرأة شخص ليس له غيرها ، وتزوجها ودخل بها . وهذا التفسير للآيات الكريمة تفسير خاطئ لا أساس له من الصحة ولا يساير عصمة الأنبياء .

وكذلك في تفسير قوله تعالى - في سورة يوسف - (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) ^(٢) يقول (همت به) قصدت منه الجماع (وهم بها) قصد ذلك . (لولا أن رأى برهان ربه) قال ابن عباس : مثل له يعقوب فضرب صدره فخرجت شهوته من أنامله وجواب لولا .. لجامعها ..

وهو تفسير خاطئ يجرذ سيدنا يوسف عليه السلام من أي مقاومة تجاه امرأة تعرض نفسها عليه . والتفسير الذى يناسب الأساس اليقيني وعصمة الأنبياء هو ما قال به المفسر الجليل أبو السعود : المراد هم بدفعها عن نفسه . ومنعها عن ذلك القبيح ..

(١) سورة ص الآيات ٢١ - ٢٥ .

(٢) سورة يوسف آية ٠ ٢٤ .

نماذج منه :

قال تعالى :

(فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً من أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين . وما كان ربكم ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ^(١))
 (فلولا) فهلا (كان من القرون) الأمم الماضية .

(من قبلكم أولو بقية) أصحاب دين وفضل (ينهون عن الفساد في الأرض) المراد به النبي أى ما كان فيهم ذلك (إلا) لكن (قليلاً من أنجينا منهم) نهوا فنجروا . ومن للبيان .

(واتبع الذين ظلموا) بالفساد وترك النهى (ما أترفوا) نعموا (فيه وكانوا) مجرمين . وما كان ربكم ليهلك القرى بظلم منه لها (وأهلها مصلحون) مؤمنون .

قال تعالى :

(الر . تلك آيات الكتاب المبين . إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعلقون . نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ^(٢)) .

الر : الله أعلم بمراده بذلك .

تلك : هذه الآيات .

آيات الكتاب : القرآن ، والإضافة بمعنى من .

المبين : المظهر للحق من الباطل .

إنا أنزلناه قرآناً عربياً : بلغة العرب .

لعلكم : يأهل مكة .

(١) سورة هود آيتا : ١١٦ ، ١١٧ .

(٢) سورة يوسف : الآيات ٣ - ١ .

تعقلون : تفهمون معانيه .

نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا : بإيحائنا إليك هذا القرآن وإن :
محففة . أى وإنه .

كنت من قبله لمن الغافلين . .

الفصل الخامس

(اقرأ باسم ربك الذي خلق)

المنهج القرآني لحياة المسلم

عن عائشة أم المؤمنين - فيما رواه البخاري وغيره - أنها قالت :
أول ما بدأ به رسول الله ﷺ من الوحي :
رؤيا الصالحة في النوم . فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .
ثم حب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء ، فتيحنت فيه (يتبع) الليالي ذوات العدد قبل أن يتزعزع إلى أهله ويتزود لذلك . ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لملائتها . حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك ، فقال ، اقرأ : قال : مأنا بقارئ ؛
قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد . ثم أرسلني . فقال : اقرأ ؛ قلت : ما أنا بقارئ ؛ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد . ثم أرسلني فقال : اقرأ ؛
فقلت : ما أنا بقارئ ؛ فأخذني وغطني الثالثة ثم أرسلني فقال : (اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم)^(١) .

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها . فقال : زملوني زملوني ، فزملاه حتى ذهب عنه الروع ، فقال خديجة . وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي ! فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبداً : إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكتب المعدوم ، وتقرئ الضيف ، وتعين على نواب الحق .

ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة ، وكان أمراً تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب . وكان شيخاً كبيراً قد عمى فقالت له خديجة : يابن عم اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يابن أخي ماذا ترى ؟
فأخبره رسول الله ﷺ خبر مارأى فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزل الله على

^(١) سورة العنكبوت الآيات : ١ - ٥ .

موسى ، ياليتني فيها جدع ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ : أو مخرجي هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً موزراً .

هذه الليلة المباركة هي التي سماها الله ليلة القدر ، فقال سبحانه وتعالى : (إنا أنزلناه في ليلة القدر) القدر ١/ .

ثم أخذ الله سبحانه وتعالى يبين فضلها فقال :

(وما أدركك ماليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هي حتى مطلع الفجر) القدر ٢/ - ٥ .
ووصفها الله بأنها مباركة . فقال سبحانه وتعالى (حُمَّ . والكتاب المبين ، إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرین ، فيها يفرق كل أمر حکیم ، أمراً من عندنا إنا كنا مرسلین ، رحمة من ربک إله هو السميع العلیم ، رب السموات والأرض وما بيتهما إِنْ كُنْتُمْ موقنین ، لَا إِلَهَ إِلا هُوَ يَحْيِي وَيَمْتَرِبُ رَبُّ آبَائِکُمُ الْأَوْلَىين) ^(١) .

عن هذه الليلة المباركة نأخذ في الحديث مبتدئين بأسماى أحداها ، وأسمى هذه الأحداث هو الوحي الذي يتمثل في قوله تعالى : (اقرأ باسم ربک الذي خلق)
وهذه المادة الأولى من الدستور الإسلامي غنية بالمعاني ، ثرية بالتوجيهات ومعاناتها وتوجيهاتها ليست آتية من الفاظها فحسب ، وإنما هي آتية أيضاً من الجو العام الذي تشير إليه أو الذي توحى به ، فهي تبتدىء أولاً بكلمة : اقرأ .
إنها تأمر بالقراءة التي هي من أهم وسائل العلم والمعرفة إن لم تكن أهمها ، ويتسم الإسلام لأول لحظة زمنية من حياته ولأول كلمة فيه بسمة العلم . وتتوالى بعد ذلك الآيات موضحة ومؤكدة هذه السمة جاعلة منها طابعاً وشعاراً .

وإذا كانت الآيات الأولى التي نزلت من القرآن في الليلة المباركة قد أمرت بالقراءة مرتين ، وذكرت مادة العلم ثلاث مرات ، وذكرت القلم - فإن الآيات التي نزلت بعد ذلك بجدأت بحرف من حروف الهجاء : «ن» ، وتضمنت أول قسم

^(١) سورة الدخان الآيات : ٨-١ .

بـه اللـه سـبـحـانـه فـي الـقـرـآن ، وـكـان هـذـا الـقـسـم بـالـقـلـم : (ن ، والـقـلـم وـمـا يـسـطـرـون) الـقـلـم ١/ .

ثـم تـوـالـي الـآـيـات الـقـرـآنـية فـي فـضـلـ الـعـلـم ، وـفـي الـحـثـ عـلـى الـتـعـلـم وـفـي تـمـجـيدـ الـعـلـمـاءـ .

لـقـد أـمـر رـسـول اللـه ﷺ أـن يـاجـأ إـلـى اللـه مـتـضـرـعـاً دـاعـيـاً أـن يـزـيـدـه اللـه عـلـمـاً : (وـقـل رـب زـدـنـي عـلـمـاً) طـه / ١١٤ .

وـهـذـا الدـعـاء الـذـى يـتـجـه بـه الرـسـول ﷺ إـلـى اللـه إـنـما هـو مـن أـرـوـعـ الـأـمـثـلـةـ فـيـ التـرـبـيـةـ ، وـذـلـك أـنـه صـادـر مـنـ الـإـنـسـانـ الـكـامـلـ ، أـنـه صـادـر مـنـ رـسـولـ اللـهـ – أـكـمـلـ الرـسـلـ – يـبـيـنـ لـلـأـمـةـ أـنـ الـإـنـسـانـ مـهـمـاـ بـلـغـتـ بـهـ الـمـتـرـلـةـ يـنـقـصـهـ الـأـزـدـيـادـ مـنـ الـعـلـمـ ، وـإـذـاـ كـانـ الرـسـولـ – أـكـمـلـ الـخـلـوقـاتـ – يـرـجـوـ أـنـ يـزـيـدـهـ اللـهـ عـلـمـاًـ فـاـ بـالـكـ بـأـفـرـادـ الـأـمـةـ ، وـتـصـورـ زـعـيمـ أـمـةـ تـكـبـرـهـ وـتـجـلـهـ وـتـقـدـسـهـ يـعـلـنـ فـيـ صـرـاحـةـ لـاـ لـبـسـ فـيـهـ أـنـهـ مـازـالـ – وـلـنـ يـزـالـ – بـحـاجـةـ إـلـىـ الـزـيـادـةـ فـيـ الـعـلـمـ : أـنـهـ يـدـفـعـ الـأـمـةـ بـذـلـكـ – الـأـمـةـ الـتـىـ تـقـدـسـهـ – إـلـىـ السـيرـ عـلـىـ مـنـوـالـهـ ، فـتـرـجـوـ أـنـ يـزـيـدـهـ اللـهـ عـلـمـاًـ .

أـمـا عـنـ هـؤـلـاءـ الـذـينـ سـمـواـ بـأـنـفـسـهـمـ عـنـ مـسـتـوـىـ الـعـامـةـ فـتـقـفـوـاـ وـتـعـلـمـوـاـ إـنـ اللـهـ سـبـحـانـهـ وـتـعـالـىـ يـقـولـ عـنـهـمـ مـشـجـعـاًـ وـحـائـاًـ : (يـرـفـعـ اللـهـ الـذـينـ آـمـنـواـ مـنـكـمـ وـالـذـينـ أـوـتـواـ الـعـلـمـ دـرـجـاتـ) . المـجـادـلـةـ / ١١ .

وـإـنـ أـسـمـىـ شـيـءـ فـيـ الـحـيـاةـ مـنـ غـيرـ شـكـ إـنـماـ هـوـ الـإـيمـانـ ، إـنـهـ فـيـ الـدـرـجـةـ الـمـطـلـقـةـ مـنـ السـمـوـ . وـيـأـتـيـ مـعـ الـإـيمـانـ . تـالـيـاًـ لـلـإـيمـانـ مـبـاشـرـةـ : الـعـلـمـ .

وـالـعـلـمـ فـيـ النـظـرـةـ الـإـسـلـامـيـةـ مـنـ وـسـائـلـ تـبـيـتـ الـإـيمـانـ ، وـزـيـادـتـهـ وـتـقوـيـتـهـ ، ذـلـكـ أـنـ الـعـلـمـاءـ فـيـ الـأـعـرـافـ الـإـسـلـامـيـةـ هـمـ أـشـدـ النـاسـ خـشـيـةـ لـلـهـ سـبـحـانـهـ ، يـقـولـ تـعـالـىـ : (إـنـماـ يـخـشـىـ اللـهـ مـنـ عـبـادـهـ الـعـلـمـاءـ) . فـاطـرـ / ٢٨ .

وـلـاـ يـصـلـ ذـرـوـةـ الـإـيمـانـ – الذـرـوـةـ الـمـطـلـقـةـ – مـنـ بـنـىـ آـدـمـ إـلـاـ الـعـلـمـاءـ : إـنـ اللـهـ سـبـحـانـهـ وـتـعـالـىـ يـقـرـنـهـ بـهـ وـبـمـلـائـكـتـهـ فـيـ شـهـادـةـ التـوـحـيدـ ، وـشـهـادـةـ التـوـحـيدـ فـيـ ذـرـوـةـ سـنـامـ الـإـيمـانـ . إـنـ : أـشـهـدـ أـنـ لـاـ إـلـهـ إـلـاـ اللـهـ – هـىـ قـةـ الـإـيمـانـ . وـهـذـهـ الـقـمـةـ لـاـ يـرـقـ

إليها إلا العلماء . يقول سبحانه : (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم) . آل عمران / ١٨ .

هذه هي النظرة القرآنية للعلم الذي اتسم به الإسلام منذ « أقرأ » .

وقد يظن بعض الناس أن العلم الذي عناه القرآن إنما هو العلم بالدين فحسب ، وليس الأمر كذلك فإن الله سبحانه وتعالى حينما ذكر أن العلماء هم الذين يخشون الله أحاط الآية القرآنية بجواب يمنع أن تحدد العلم بالعلم الديني فقط . يقول سبحانه : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً لأنها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف لأنها وغرائب سود . ومن الناس والدواب والأعماق مختلف لأنها كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور) . فاطر : ٢٧ - ٢٨ .

ثم إن الله سبحانه وتعالى قد امتن علينا بأن سخر لنا البحار والأنهار والجبال وسخر لنا الشمس والقمر والكواكب ، لقد سخر لنا الأرض والسماء وما بين الأرض والسماء : أى أنه سخر لنا الكون كله . وهذا الامتنان من الله سبحانه وتعالى علينا بالتسخير إنما هو من أجل أن نصل إلى السيطرة عليها باكتشاف القوانين التي وضعها الله سبحانه وتعالى لتسخيرها . يقول سبحانه : (الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائرين وسخر لكم الليل والنهار) ٣٢ - ٣٣ إبراهيم .

وقال تعالى : (ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) ٢٠ لقمان .

وقال تعالى : (ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم) الحج ٦٥ .

وقال تعالى : (الله الذي سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكون ، وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك آيات لقوم يتفكرون) . ١٢ - ١٣ الجاثية .

إن الله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان للخلافة الأرضية . ومنحه العقل يكتشف به ما يهوى له هذه الخلافة في العالم المادى . العالم المحسوس . ولقد سير هذا العالم المادى بنواميس محكمة مطردة . وعلى الإنسان أن يكتشف هذه النواميس ليطوع الكون له . وعليه أن يكتشف هذه النواميس كمظاهر لعظمة الله وجلاله فتكون من أسباب خشيته سبحانه .

إن عالم التشريح يرى الدقة في الصنع والإحكام في التكوين . ويرى هذا الإبداع البديع في التركيب الإنساني والحيواني والنباتي ، فيخر ساجداً لمبدع العالم الذي أحسن كل شيء صنعاً . وإن عالم الفلك يشاهد بمرصده ويتصور بذهنه هذه السعة الشاسعة المذهلة في تصورها ، ويعلم أن كل صغير وكبير فيها يسر في تقدير دقيق : (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون)^(١) ، يرى ذلك فيخر ساجداً للمبدع . ويردد مع القرآن الكريم ، (تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قادر ، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور . الذي خلق سبع سموات طبقاً ماترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسيراً)^(٢) .

أرأيت إلى غزو الفضاء والوصول إلى الكواكب ، واكتشاف نواميس الكون في أعماق البحار وعلى قفن الجبال ، وفي مجالات الجو . إن كل ذلك في الأعراف الإسلامية الصادقة واجب على المسلمين . وإنه لمن سوء القصد أن يشيع مسيئ أن الإسلام يعارض غزو الفضاء والوصول إلى الكواكب . إن الإسلام على العكس يوجب كل ذلك على الأمة الإسلامية التي يحب الله ورسوله أن تكون أقوى أمة في العالم حتى تؤدي رسالته التي كلفت أداؤها .

ونعود فنقول : لقد اتسم الإسلام بالعلم منذ «اقرأ» .
وإذا كان القرآن قد وجه الأمة الإسلامية إلى العلم فإن الرسول ﷺ – وهو

(١) سورة بيس آية . ٤٠ .

(٢) سورة الملك الآيات : ١ - ٤ .

صورة قرآنية كاملة – قد حث المسلمين على العلم في أساليب شتى . يقول صلوات الله وسلامه عليه : « من سلك طريقاً يبتغى فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع ، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » (رواه أبو داود والترمذى) .

إن الاتجاه العلمي في الإسلام بدأ في صورة صريحة بـ « اقرأ » ، ولكن « اقرأ » في الإسلام مشروطة بشرط يوجبه الإسلام ويحتممه ، إنها ليست مطلقة ، وإنما هي مقيدة بأن تكون : « باسم ربك » . وهنا يفترق العلم في صورته الإسلامية عن العلم في صورته الأوروبية ، بل تفترق الحضارة الإسلامية عن الحضارة الحديثة ، بل تفترق الحياة الإسلامية فيها ي يجب أن تكون عليه عن الحياة الأوروبية ، وذلك لأن كل أمر من أمور المسلم يجب أن يكون : « باسم ربك » .

فالعلم – أساساً وبواعث – يجب أن يكون : « باسم ربك » والعلم – أهدافاً وغايات – يجب أن يكون « باسم ربك » . يجب أن يكون العلم في سبيل الله ، أي أن يكون للخير والفضيلة ولإسعاد الإنسانية ، فإن ما كان « باسم ربك » يتحقق كل خير ، وكل مكرمة ، وكل فضيلة ، وتسعد به الإنسانية .

والواقع ، والحقيقة أن القراءة المأمور بها في الآية الكريمة ليست إلا رمزاً فحسب ، إنها رمز لما ينبغي أن تكون عليه جميع أعمال المسلم . والآية تريد أن تقول : تكلم باسم ربك ، قم باسم ربك ، اعمل باسم ربك ، لتكن حياتك كلاماً وصيتاً ، حركة وسكنة ، باسم ربك .

والآية الكريمة واضحة وضوحاً بينما في الصورة الإيجابية من الأعمال ، ييد أنها تتضمن الصورة السلبية أيضاً . هذه الصورة التي صرحت بها الآيات فيما بعد : (ولا تأكلوا ما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق)^(١) . وكذلك كل ما ذبح باسم

(١) سورة الأنعام آية : ١٢١ .

الأصنام ، فلم يذكر اسم الله عليه فسق ، يجب اجتنابه : (حرمت عليكم الميتة . والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقدة والمردية والنطحة وما أكل السبع إلا ماذكتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأذلام ذلكم فسق . اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون ، اليوم أكملت لكم دينكم وأتمت عليكم نعمتي ورضيتك لكم الإسلام ديناً فلن اضطر في مخصوصة غير متجانف لإنما إيثم فإن الله غفور رحيم) المائدة : ٣ .

وسواء أكنا بصدق ما صرحت به الآيات الكريمة . « اقرأ باسم ربك » ، أم بصدق ما تضمنت – فإن هذه الآية الكريمة التي أجملت دستور الأمة الإسلامية إيجاباً وسلباً ، صراحة أو رمزاً أو إشارة – تفصيلها نوعاً من التفصيل . آية أخرى فيها أمر إلهي من أعدد الله ليكون أسوة حسنة للإنسانية : (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) . الأنعام : ١٦٢ - ١٦٣ .

إن الله سبحانه وتعالى يقول : (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة من كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) . الأحزاب : ٢١ .

وهذه الأسوة الحسنة كانت صلاته . وكان نسكه . وكانت حياته كلها بل كان مماته . . كان كل ذلك خالصاً لوجه الله الكريم لا يشركه سبحانه فيه شريك . والمسلمون مأمورون بأن يسيراً على نهج رسولهم ، فتكون حياتهم سلباً وإيجاباً ، حركة وسكوناً ، بل ويكون مماتهم لله وفي سبيل الله . إنها في جميع مظاهرها وظواهرها يجب أن تكون قراءة « باسم ربك » : (ألا لله الدين الخالص)^(١) . فكل ما لم يكن خالصاً لوجهه أو كل ما لم يكن قراءة باسمه فليس عملاً إسلامياً . (لن ينال الله لحومها ولا دماءها ولكن يناله التقوى منكم) الحجج : ٣٧ .

ولكن لماذا عدلت الآية الكريمة عن لفظ الله إلى لفظ : « ربك » ، في الآية الكريمة : (اقرأ باسم ربك الذي خلق) ولقد كنا نتوقع ونحن بصدق أول آية نزلت من القرآن أن تأتي الآية بلفظ « الله » فتكون : « اقرأ باسم الله الذي خلق » . وذلك

^(١) سورة الزمر آية : ٣ .

أن هذا اللفظ الكريم « الله » ، يتضمن جميع صفات الله وجميع أسمائه . ولكن الآية الكريمة عدلت عن ذلك إلى لفظ « الرب » . وهذا العدول إنما هو لحكمة بالغة : ذلك أن الله سبحانه ينبه من أول الأمر إلى أن القراءة يجب أن تكون باسم « الرب » . . . باسم « المربى » أي أن القراءة يجب أن تكون في الإيجاب والسلب . في الحركة والسكن ، في النطق والصمت - في إطار التربية الإلهية . في إطار الأوامر والنواهى . في إطار مارسنه الله للفرد . وفي إطار ما مارسنه الله للمجتمع . والعدول عن اللفظ الكريم « الله » إلى اللفظ الكريم « الرب » إنما كان - في بعض أهدافه - لهذا . إن هذا العدول يريد أن يقول للإنسان : إنك حينما تدخل - حراً مختاراً - في عهد الله وفي دينه وفي ميثاقه - يجب أن تروض نفسك منذ المبدأ على أن تستجيب استجابة مطلقة لله سبحانه وتعالى في أمره ونبيه . يجب أن تعقد العزم على أن تكون ربانياً .

أما ما يبرر ضرورة هذه الاستجابة إلى « ربك » فإن البرهان الضخم الخامس يتمثل في قوله تعالى : (الذي خلق) .

وذلك أن الذي خلق أي الذي كون جميع أجزائك . وركب جميع أعضائك . ورتب جميع خلايا جسمك وجميع ذرات وجودك . وأنشأك خالقاً سوياً - أن هذا الذي فعل ذلك هو الأعرف بك .

وحيثما يضع دستوراً لك . وحيثما يرسم لك الحياة التي تسير عليها - فإنما يفعل ذلك على علم . ويفصل ذلك عن حكمة . إنه البارئ . إنه المكون . إنه الخالق . إنه المبدع . فكيف يتلقي أن نعدل عن تربية مخلوق . ومهمها بلغت عقلية هذا المخلوق ومهمها بلغ نضجه فإنه مخلوق لا خالق . مكون لا مكوّن . ولا يتلقي في عرف ذوى البصائر المستنيرة العدول عن تربية المربوب . إنه عدول عن تربية الكامل إلى تربية الناقص .

توجيهات بالنسبة للغزو الفكري وللثقافات الواحدة

وإذا قرأ الإنسان باسم ربه . إذا استجاب الإنسان - بمقتضى دخوله في عقد الإيمان - للتربية الإلهية . إذا كَيْفَ الإنسان حياته كلها لتكون قراءة باسم ربه . . . فقد أسلم .

وإن : « اقرأ باسم ربك الذي خلق) لا يخرج معناها . في ثمرته . عن معنى : « أسلمت » وال المسلم هو من دخل في الإسلام ، والإسلام هو أن يسلم الإنسان وجهه لله ، ولقد سُئل رسول الله ﷺ عن معنى الإسلام ، فقال : « أن تسلم لله وجهك ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك » .

والإنسان إما مسلم صادق وإما مسلم مزيف ، وال المسلم الصادق لا يسمح لنفسه أن ينهل من منابع غير إلهية في الأمور التي أنزل الله فيها وحيًّا ، إن المؤمن الصادق لا يتخذ له في العقيدة أو في الأخلاق إماماً غير إمامه الرباني . والأمور التي أتى بها الدين ونزل بها الوحي وصرح بها الكتاب مبادئ لا يجوز - في أعراف المؤمنين الصادقين - العدول عنها إلى غيرها .

وال موقف القرآني في ذلك حاسم : (فلا وربك لا يؤمِّنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ، ويسلموا تسليماً)^(١) . ولقد حرص الرسول ﷺ طيلة حياته على أن تستمر المنابع التي يستقي منها المسلمون صافية صفاء مطلقاً ، وعلى أن تستمر القراءة^(٢) « باسم ربك » لا تستقي إلا من المنابع الإسلامية الصافية .

وأول منبع هو القرآن الكريم . ولقد حرص رسول الله ﷺ ألا يختلط بالقرآن

(١) سورة النساء آية : ٦٥ .

(٢) لعل القارئ يلاحظ أننا نستعمل القراءة هنا على أنها رمز للحياة كلها في حركتها وسكنها كما سبق أن أوضحتنا ذلك

غيره ، وكان شديد الحرص في ذلك إلى درجة أنه لم يسمح في العهد الأول من الوحي أن تكتب الأحاديث التي كان ينطق بها حتى لا تختلط بالقرآن ، ثم لما بانت معالم القرآن ، وبدت أوصافه الذاتية في وضوح وأسفرت آياته عن شخصيته سمح الرسول ﷺ بكتابته السنة .

ولقد حرص رسول الله ﷺ لا يلوث الدين الإسلامي بغيره . ولقد روى المحدثون في ذلك أحاديث في غاية العمق ، منها مارواه الإمام أحمد ، قال : حدثنا سريح بن النعمان ، حدثنا هشام ، أئبنا خالد عن الشعبي ، عن جابر : أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه على النبي ﷺ . قال : فغضب وقال : « أتَهُو كُونَ فِيهَا يَابْنُ الْخَطَابِ ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقِدْ جَتَكُمْ بِهَا بِيَضَاءِ نَقْيَةٍ . لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فِيْخِبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتَكْذِبُوهُ أَوْ بِبَاطِلٍ فَتَصْدِقُوهُ . وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْ مُوسَى كَانَ حِيًّا مَا وَسَعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَبَعَّنِي » . وأخرج عبد الرزاق في المصنف ، والبيهقي في شعب الإيمان عن الزهرى أن حفصة جاءت إلى النبي ﷺ بكتاب من قصص يوسف في كتف . فجعلت تقرؤه عليه والنبي عليه الصلاة والسلام يتلون وجهه . فقال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَتَكُمْ يُوسُفَ وَأَنَا بَيْنَكُمْ فَاتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي ضَلَّلْتُمْ أَنَا حَظِّكُمْ مِنَ النَّبِيِّنَ وَأَنْتُمْ حَظِّي مِنَ الْأُمَّةِ » .

وأخرج عبد الرزاق والبيهقي أيضاً عن أبي قلابة « أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه مر برجل يقرأ كتاباً فاستمعه ساعة فاستحسنـه . فقال للرجل : اكتب لي من هذا الكتاب ، قال : نعم . فاشترى أديماً فهياه ثم جاء به إليه فنسخ له في ظهره وبطنه . ثم أتى النبي ﷺ فجعل يقرؤه عليه ، وجعل وجه رسول الله ﷺ يتلون ، فضرب رجل من الأنصار الكتاب وقال : ثكلتك أملك يابن الخطاب : ألا ترى وجه رسول الله ﷺ منذ اليوم وأنت تقرأ عليه هذا الكتاب ؟ فقال النبي ﷺ عند ذلك : « إِنَّمَا بَعَثْتُ فَاتِحًا وَخَاتَمًا . وَأَعْطَيْتُ جَوَامِعَ الْكَلْمَ وَخَوَاتِيمَهُ ، وَاحْتَصَرَ لِلْحَدِيثِ اخْتِصارًا . فَلَا يَهْلِكُنَّكُمْ الْمُتَهَوِّكُونَ » (أي الواقعون في كل أمر بغير روية) . وأخرج الفريابي . والمدارمى . وأبو داود في مراسيله . وابن جرير ، وابن

المندر . وابن أبي حاتم عن يحيى بن جعده قال :

جاء ناس من المسلمين بكتف قد كتبوا فيها بعض ما سمعوه من اليهود . فقال رسول الله ﷺ : «كُنْتُ قَوْمًا أَوْ ضَلَالًا أَنْ يَرْغِبُوا عَنْهَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّهُمْ إِلَيْهِمْ . إِلَى مَا جَاءَ بِهِ غَيْرُهُمْ . فَتَرَكُوا : (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ الْكِتَابَ يُتَلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لِرَحْمَةً وَذِكْرًا لِقَوْمٍ يَوْمَنُونَ) العنكبوت ٥١ .

ولقد اختلف موقف المسلمين ذوى الألباب الراكية اختلافاً صريحاً سافراً بالنسبة للأخذ من مجال الحضارة : المادى والروحى : أما موقفهم بالنسبة للمجال المادى من الحضارات التى لم تنشأ في الجو الإسلامى سواء كان ذلك في القديم أم في الحديث - فقد كان ولايزال موقف المشجع على الأخذ منها أينما كانت . وعلى المساهمة فيها مساهمة فعالة وعلى الارتقاء بها وتطورها تطويراً مستمراً . إن اكتشاف نواميس الله في الكون من واجبات المسلم . ولقد ترجم سيدنا عمر بن عبد العزيز كتاباً في الطب لما رأى حاجة المسلمين إلى ذلك . ولما ترجمت كتب الكيمياء والطبيعة والطب والفلك في عهد أبي جعفر المنصور وبعده لم يجد ذلك من المسلمين إلا كل ترحيب .

ولكن موقف المسلمين في الجانب الروحى من الحضارات القدية والحديثية موقف يخالف ذلك كل الاختلاف .

لقد انهر الرسول ﷺ سيدنا عمر في شدة لأنّه أتى بصحف من التوراة يتلوها . وغضب صلى الله عليه وسلم على كل من حاول أن يستقي في العقيدة والأخلاق من منبع غير القرآن والسنة النبوية الشريفة . وسار المسلمون على هذا النسق من التفرقة بين الجانب المادى والجانب الروحى حتى كان عصر المؤمنون . ومما تحدث المتحدثون عن الازدهار والقوة والمجدى في عصر المؤمنون ، ومما قالوا من أنه العصر الذهبي للأمة الإسلامية فإنه مع ذلك عصر يتسم بسيئتين : إحداهما لا يغفرها له المحبون للحرية . والأخرى لا يغفرها له أهل الصلاح والتقوى :

أما الأولى فإنها دخول المؤمنون في النزاع الذى كان بين علماء المسلمين في مسألة خلق القرآن . لقد دخل المؤمنون في هذا النزاع بقوة الدولة رغبة ورهبة . لقد دخل

متخيزاً لفترة ، منكلاً بالفترة الأخرى .

ولقد تخيز للمعتزلة . والمعتزلة قوم حكموا أهواهم في الدين وحسبوا أن ما يقولونه إنما هو حكم العقل . ولو كان حكم العقل لما اختلفوا هم وتفرقوا شيئاً وأحزاباً . إنهم لم يأخذوا الدين مأخذ المستهدي . ولم يعترفوا بأن الدين نزل هادياً للعقل . وإنما رأوا أن العقل هو المرتبة الأولى في معرفة الخير والشر . وهو قوم كانوا يتسمون بالتحمس الشديد للجدل النظري ويتسموون بالفتور الشديد للجانب العملي من الدين . ومن أجل ذلك انصرف جمهور الأمة الإسلامية عنهم .

وكان في مواجهة هؤلاء طائفة من علماء المسلمين تتسم بالصلاح والتقوى . وتوطئ النفس على الاستهداء بالدين وعلى السير في ركاب النص القرآني أو الحديث النبوى . ولقد كانت هذه الطائفة تتسم بالتحمس الشديد للجانب العملي من الدين . وكانت تتسم بقوة الإيمان . فصيير ذلك حياتها إلى جهاد في سبيل الله وكفاح من أجل المسير على ما كان عليه رسول الله ﷺ وخلفاؤه رضي الله عنهم والصدر الأول للأمة الإسلامية . وكان يضم أمثال الإمام أحمد بن حنبل والإمام (مالك) وكان يهتدى بهديها ويقتدى بسلوكها جمهور الأمة الإسلامية .

لقد ترك المؤمنون هذه الطائفة والنجاز إلى المعتزلة . النجاز إلى المعتزلة بقوة الدولة فأغدق المال على أنصاره . وأخذ ينكل بكل من يعارضه . وكان المعارضون له هم المتسمين بالصلاح الحقيقى والتقوى الصادقة . إنهم أمثال الإمام الصالح أحمد بن حنبل .

وما كان لنا أن نعيّب دخول المؤمنون في نزاع علمي لو أنه دخل دخول الأب الرحيم المهدى للنزاع . لو أنه دخل دخول الأخ الأكبر ملطفاً ومانعاً للحادة بين الإخوة ، إننا لانتقد الدخول في النزاع إنما ننتقد الكيفية والصورة ، إنها ليست صورة دخول علمي في موضوع نقاش ديني . وإنما هي صورة دخول جبروتى ، دخول من يريد أن يأمر ليطاع . دخول من لا يريد أن يصغي إلى نصح ولا أن يستجيب لبرهان !

هذه سيئة . وهي سيئة لا يرضى بها أحرار الفكر ولا يرضى بها المتدلين ..

أما الأخرى : فهي أنه برغم موقف جمهور المسلمين الحاسم من التراث الروحي للأمم الأخرى وبرغم معارضتهم الشديدة للغزو الفكري – فإن المؤمنون تحداهم تحدياً سافراً ، آمراً بترجمة التراث الروحي والتراث الأخلاقى للأمم الأخرى . يونانية كانت أو فارسية أو غيرهما .

لقد ظن المؤمنون أن ذلك سينصره في القضية التي اتخذ الخصومة فيها مسألة كرامة ذاتية .

ولقد حكى ابن النديم في ذلك رؤيا للمؤمنون معبرة أوضح ما يكون التعبير : عن نزعة المؤمن أو عن نزعته . لقد رأى المؤمن فيما يراه النائم : رجلاً أبيض اللون ، مشرقاً بحمرة . واسع الجبهة . حسن الشمائل . جالساً على سرير . قال المؤمن : وكأني بين يديه وقد ملئت هيبة من هو هذا الرجل ؟ أهو أحد الخلفاء الراشدين ؟ أهو أحد كبار الصالحين ؟ إن المؤمن يصفه وصفاً جميلاً . وصورته تملأ المؤمن هيبة : فمن هو يا ترى ؟

يقول المؤمن : فقلت : من أنت ؟ فقال : أنا أرسسطو . فسررت به ، وقلت : أيها الحكم . أسألك ؟ قال : سل . . . قلت ما المحسن ؟ قال : ما حسن في العقل . قلت : ثم ماذا ؟ قال : ما حسن في الشرع . قلت : ثم ماذا ؟ قال : ما حسن عند الجمهور . قلت : ثم ماذا ؟ قال : ثم لا ثم . قلت : زدنى . قال : عليك بالتوحيد . وسواء أصبحت هذه الرؤيا أم لم تصح فإنها تعبر صادق عما كان في نفس المؤمن وفي نفس المعتلة من إكبار أرسسطو .

ولعل القارئ قد لاحظ مبدأ في غاية الخطورة وهو مبدأ تقديم العقل على الشرع . لقد جعلت رؤيا المؤمن ، العقل في الدرجة الأولى . وجعلت الشرع في الدرجة (الثانية) . وهو مبدأ معروف عند المعتلة وعند المؤمن ، وهو مبدأ لا يقره أمثال الشافعى ومالك وأحمد بن حنبل رضى الله عنهم أجمعين . أما التوحيد في الرؤيا فإنه التوحيد الذى عناه المعتلة والذى عبر عنه أهل السنة بكلمة « التعطيل » واستيقظ المؤمن من رؤياه : فأمر بترجمة كتب أرسسطو .

ولاقت هذه البدعة الجديدة بدعة ترجمة كتب العقائد وكتب الأخلاق –

معارضة شديدة في الأجواء الإيمانية . لقد رأت هذه الأجواء أن في عقائد المسلمين وفي أخلاق المسلمين من الصدق ومن الحق ومن الوضوح مايغنى عن غيرها . ورأت أن عقائد المسلمين وأخلاق المسلمين قد حددتها الأسلوب الإلهي وبينها الأسلوب النبوى :

إن الله سبحانه وتعالى هو الذى عبر عنها . وإن رسوله ﷺ قد طبقها ، وهذه ميزة لا توجد في غير الدين الإسلامي .

أمن المعقول أن يدع عاقل من العقلاة الرسم الإلهي لصلة الإنسان بربه ولصلة الإنسان بالآخرين إلى رسم بشري لهذه الصلة . رسم يخطئ ويصيب . ويضل ويهدى ؟

أمن المعقول أن يدع الإنسان الأسلوب الإلهي في نصرته ودقته وإحكامه ، وفي وضوحيه ، وبلامغاته ، وإعجازه إلى أسلوب بشري يترجمه أسلوب بشري آخر ؟ إن البشر في تأليفهم بشر منها بلغوا من الدقة . ورحم الله العاد في قوله المشهورة من أنه لا ينتهى الإنسان من تأليفه إلا يتمنى أن لوعاد التأليف من جديد ليغير ويبدل ويزيد ويحذف ، وهذا شأن البشر ، شأنهم على مر العصور منها بلغوا من العقرية والنضج !

وهذا التأليف على هذا النط لا تقرؤه بلغة صاحبه ، وإنما تقرؤه بلغة مترجم يترجم مافهم هو من معانى المؤلف . إن الترجمة منها بلغت من الدقة ليست إلا فهم المترجم لكلام المؤلف .

ولم الترجمة ؟ أفي العقيدة التي جاء بها القرآن والسنة نقص يستكمل ؟ أفي الأخلاق التي رسمها الله ورسوله خلل تزيله ترجمة كتب الوثنين ؟

إن الآراء لا تستند إلى وحى معصوم وهى آراء وثنية وإن الفرق بين الوثنية والإيمان إنما يرجع إلى أن الإيمان مصدره الوحى . أما الوثنية فمصدرها البشرية فى عجزها وقصورها وجهلها . وإن البشرية منها بلغت من الرقى الحضارى لاتنفك متسمة بالعجز والقصور والجهل . وإن الاكتشافات الحديثة التي لاتنقطع والتي تطلع علينا الأخبار منها كل يوم بجديد لها أوضح دليل على عجز البشرية وقصورها وجهلها .

ولن تبلغ البشرية يوماً ما حد الكمال ، لأنه لن تصل البشرية يوماً إلى الانتهاء من اكتشاف كل مجهول والكشف عن كل غامض ، وإزالة الحجب عن جميع المعميات .

أنترك العصمة المطلقة في الوحي . ونترك بيان من لا ينطق عن الهوى . لتأخذ بقول هذا أو ذاك من يتسمون دائماً بالنقص والعجز ومن جهالهم أكثر من علمهم منها بلغوا في المعرفة والعلم ؟

هذه الآراء التي كانت تدور في البيئة الإسلامية إذ ذاك والتي كان يؤمن بها ويقبلها الأغلبية من الشعب . لم تقف في وجه الترجمة ، ولم تحل دون تنفيذ المؤمن لفكرته .

لقد نفذ المؤمن الفكرة . ووجد الأمراء أن من إرضاء المؤمن أن يؤثر الإنسان هذه الفكرة ، وأحب الأمراء رضاة المؤمن . فساهموا في مشروع الترجمة . ووجد الأثرياء أن من وسائل التقرب إلى المؤمن أن يساهموا في مشروع الترجمة ، فعملوا على المساعدة بما لهم في مشروع الترجمة . ووجد المثقفون أن من عوامل التقرب إلى المؤمن أن ينشروا آراء أرسطو وأفلاطون وغيرهما ، فتعلمواها ، ودرسوها ، وعلموها .

وإذا كانت أفكار اليونان قد بدأت الدخول في البيئة الإسلامية على استحياء فإنها بمر الزمن استوطنت ، وألفها كثير من الناس عن طريق التكرار ، وشاعت الآراء واستقرت بالإلف والعادة والتبي والدعاية .

ومنذ ذلك الحين أصبح يحوار (اقرأ باسم ربك الذي خلق) .. أصبح يحوارها : «اقرأ باسم أرسطو !» . و «اقرأ باسم أفلاطون !» ، وفي العصور الحديثة : «اقرأ باسم ديكارت !» .

وببدأ انحلال الأمة الإسلامية لأنها لم تعد تقرأ «باسم ربك» ، أو قل : إن انحلال الأمة الإسلامية وضعفها بدأ منذ أن بدأت تشرك مع التعاليم الإسلامية غيرها .

وإذا كان عصر المؤمن يؤرخ العصر الذهبي للأمة الإسلامية فإنه أيضاً يؤرخ

اللحظات الأولى لدبب الضعف في هذه الأمة .

إن الفلسفة اليونانية والفكر النظري في العقيدة والأخلاق والانصراف إلى ذلك والاشتغال به وجعله مظهراً للحضارة والرقي والمدنية - لا يتيح إلا فتوراً في الإيمان وتخاذلاً في العزائم وتشككاً في كل القيم .

وهل يتبع البحث العقل - البحث في القيم والمعايير الدينية والأخلاقية - على أسلوب الإنكار الإثبات ، والأخذ والرد ، والجدل والمماراة - إلا فتوراً واستهانة ؟ هل أنتجت الفلسفة إيماناً قوياً ؟ هل أنتجت عزائم من حديد ؟ هل قادت إلى النصر ؟

وتأمل معى ملياً في أسباب نهضة أوربا في عصورها الحديثة .

إننا نعرف أن أوربا عاشت أزماناً متطاولة في جهل وهمجية وانحطاط ، ولقد عاشت كذلك لأنها كانت تبني نزعة أرسسطو أو منهج أرسسطو : أي أنها كانت تبني الجدل الفارغ الذي لا يؤدى إلى نتيجة ولا ينتهي إلى ثمرة ، اللهم إلا الفتور والتخاذل والشك .

ثم بدأت أوربا تتبّعه إلى منهج في الحياة آخر وبعدأ « بيكون » يعلن عن طريقة وأسلوب للمعرفة لا يعتمد على العقل النظري البحث ، وبعدأ منهج التجربة والملاحظة والاستقراء .

وأرخ هذا الاتجاه التجريبي بدء عصر النهضة الأوروبية . وكما أرخ بدء دخول الفكر الأرسطي ^(١) انحطاط الأمم الإسلامية - فقد أرخ بدء التخلّي عن هذا الفكر بدء النهضة الأوروبية الحديثة .

وإذا كان المسلمون قد بلغوا قمة مجدهم حينما كانوا يقرءون « باسم ربكم » وحده فإنهم ببلغوا قمة ضعفهم حينما بلغت هذه « باسم ربكم » حدتها الأدنى : أي حينما تخلوا أو كادوا عن أن يتخلّوا من منابع دينهم الصافية موجهاً وقادداً .

ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، أي العودة إلى « اقرأ ^(٢) باسم

(١) لا نقصد أسطرو بالذات ، أو أسطرو فقط ، وإنما نقصد الفكر النظري في مسائل ماوراء الطبيعة والأخلاق الذي لا يستند إلى وحي معمصون .

(٢) نعود فقول : إننا نعني بـ « اقرأ » رمزاً للحياة كلها في حركتها وسكنها في صمتها ونطقها .

ربك الذي خلق » .

ولكن هل يعني ذلك أن تمنع الترجمة ؟ هل يعني ذلك أن نعيش في عزلة عن الفكر العالمي ؟ هل يعني ذلك أن نمنع أنفسنا عن الاطلاع على الثمار التي أنتجتها عقول العباقرة أمثال أفلاطون وديكارت وأسبينوزا وبرجسون ؟ ليس إلى هذا قصدنا ، وإنما قصدنا إلى معنى يعلمه في وضوح كل من يتبع تاريخ الفكر البشري عبر القرون .

إن الظاهرة الواضحة في تاريخ الفكر البشري الذي لا يستند إلى التجربة أو الملاحظة أنه متغير باستمرار ، وأنه لا يستقر على رأى . وأنه في صيغة دائمة . وهذه الصيغة ليس من الحتم أن تسير دائماً في طريق الجديد ، بل يجوز أن تعود القهقري ، فترجع إلى مذهب تخلت عنه ، وتعود إلى ما كانت قد عزفت عنه ، ويأخذ القديم طريقه إلى الانتشار من جديد ، ثم يعنى عليه الزمن مرة ثانية أو ثالثة ، وهكذا يعيد التاريخ الفكري نفسه تارة ويتجدد أخرى .

ومن الملاحظ أيضاً أنه ليس من الحتم أن يكون الجديد ترقياً في الفكر أو سمواً في الآراء ، بل قد يكون على العكس من ذلك انتكاساً والحداراً !

وهذه الظاهرة البادية لكل دارس جعلت بعض المفكرين يقولون : إن الآراء النظرية البحثة مثلها كمثل أزياء النساء تستبدل كل عام ! وهذا التشبيه للآراء العقلية البحثة في جانب العقيدة وفي جانب الأخلاق بأزياء النساء في التبدل والتغيير والاختلاف والتطور من القديم إلى الجديد ومن الجديد إلى القديم - تشبيه في غاية الصدق : كادت فرنسا يوماً أن تؤله « أوغسط كومت » . وكان أتباعه ومریدوه يقدسونه ويضعونه على القمة .. ومضى الزمن وأصبحت آراء « أوغسط كومت » لا يقام لها وزن ، اللهم إلا أنها حلقة من حلقات التاريخ الفكري الذي عفى عليه الزمن .

ولقد كانت السوفسطائية يوماً ما أكثر المذاهب انتشاراً في اليونان ، ثم عفى عليها الزمن واندثرت وتبينت الأمة اليونانية أنها مذهب هدام ، بل يصل به الهدام إلى

هدم نفسه ، وانتهت الأمة اليونانية منه ودفنته وتعفن كمذهب ، تم بعثته طائفة من المنحرفين في العصر الحديث تحت اسم «الوجودية» وليس الوجودية إلا هذا المذهب المتعمق الذي تقايده بعض المنحرفين في اليونان منذ ما يقرب من خمسة وعشرين قرناً من الزمن .

ولقد طنطنت الدنيا لمذهب ديكارت ، وصفق العالم له ، وظن الديكارتيون أن منهج ديكارت سيحل كل مشكلة ، ويزيل النقاب عن كل محجوب ، ويكشف عن كل مخبأ . . وتمضي الأيام وإذا بالمشاكل هي المشاكل ، والمحجوب هو المحجوب ، والمخباً هو المخباً ب رغم استعمال منهج ديكارت وتحكيمه عن طريق ديكارت نفسه وعن طريق الديكارتيين . وتمضي الأيام كذلك وإذا بآراء ديكارت في الطبيعة – آراءه التي بناها متخذًاً منهجه فيصلًاً – قد انهارت رأساً على عقب ! ولتححدث الآن عن الفلسفة بصراحة .

إن من خصائصها – على مر الزمن – أنها تبدأ من الصفر : أي أن كل فيلسوف يأتي يعلن أن العالم منذ أن وجد لم يظهر على وجهه شخصية وصلت إلى الحق في محيط ماوراء الطبيعة وفي محيط الأخلاق ، وأن مجال العقائد ومجال الأخلاق ما زال بحاجة إلى نظرة من الأساس ، وأنه ما زال بحاجة إلى بناء يبدأ بوضع اللبنة الأولى تليها اللبنة الثانية إلى أن يتم الصرح . ويعلن الفيلسوف بذلك أن جميع الاصروح القديمة في تصميمها خلل ، وفي وضعها فساد ، وأنها خطأ في منهجها وفي وضعها ، وأن العالم الذي عاش بهذه الطريقة قد عاش – منذ أن وجدت هذه الاصروح – في أوهام . إنه يعلن بذلك أن آراء الفلاسفة السابقين . . . أوهام !

ومن خصائص الفلسفة أنه لا مقاييس لها تلجم إلينه عند الاختلاف . لقد أخفق منطق أرسطو عند أرسطو نفسه ، وأخفق عند كل المناطقة ، إنه لم يحسم الخلاف في مسألة ما .

وأخفق منهج ديكارت عند ديكارت وعند كل من استعمله . ومنهج أرسطو ومنهج ديكارت هما أشهر المناهج في الفلسفة القديمة والحديثة . كيف نصل إلى الحق إذا اختلفنا في مسألة ؟ كيف نحسم الخلاف إذا أردنا ذلك ؟ كيف نتفق ؟ إن ذلك

لا سبيل له في الجو الفلسفى !

إن العلم المادى إذا اختلف فيه العلماء فإن الفاصل في هذا الخلاف إنما هو التجربة أو الملاحظة . والتجربة فيصل في الجو العلمي المادى . ما هو الذي - في الجو الفلسفى - بمثابة التجربة في الجو العلمي ؟ لاشيء .

ومن هنا نشأ أمران هما من خصائص الفلسفة :
أما أحدهما فهو أن الفلسفة . في جميع آرائها - عقلياً - ظنية : ذلك أنه لا وسيلة فيها للفصل بين الخطأ والصواب .

أما الآخر فهو أن الخلاف في الفلسفة سيستمر أبداً الدهر : ستتجدد دائماً المؤيد لل فكرة - أي فكرة - والنافى للفكرة - أي فكرة - ستتجدد المثبت والمنكر .
ويتتجزء عن كل ما قدمناه نتيجة لازمة هي من خصائص الفلسفة أيضاً ، وهي أن الفلسفة لا تقدم فيها . إن مسائلها القديمية هي مسائلها الحديثة ، ومشاكلها مشاكلها في كل عصر وفي كل زمان . إن مسائل الفلسفة ومشاكلها في عهد أفلاطون هي مسائل الفلسفة ومشاكلها في عهد ديكارت . وهي مسائل الفلسفة ومشاكلها في الزمن المعاصر . حتى مضحكات الفلسفة - وللفلسفة مضحكات قد صورت بصورة مشاكل - حتى مضحكات الفلسفة لا تزال هي هي . إن برجسون يتحدث عن مشكلات الفيلسوف الساخر زينون الذي ابتدع في صورة طريفة من البدهيات مشاكل وحاول توريط الفلسفه فيها . ونجح في أن جرهم إلى البحث في البدهيات ، وإلى جعلها مشاكل ، وإلى الوقوف عاجزين أمامها مع بدايتها ، وسخر منهم زينون . وسخر منهم كل ذي بصر وبصيرة .

ومن كل ذلك أيضاً نتبين أن الفلسفة - وهذا من خصائصها أيضاً - لا رأى لها معيناً في أية مسألة من المسائل ، وذلك أن لها في كل مسألة رأيين متعارضين أو آراء متعارضة .

ولعله أصبح الآن سافراً أن من « يقرأ باسم الفلسفة » فإنما يقرأ باسم سراب .
أما التتيجة التي نريد أن نصل إليها من كل ما تقدم فهي أننا لو قرأتنا الآراء النظرية البحتة على هذا الوضع الذي أوضحتناه ، فلا بأس ، وتكون بذلك القراءة

باسم الفلسفة أو باسم الجاپ النظري من الفكر الإنساني مسلة وتسليه وسياحة في أجواء تختلف وتتعارض وتناقض ، ونستفيد منها عبرة فيما يتعلق بعجز الإنسان وقصوره . ونعود من هذه السياحة مقتنيين بوجوب :
 (اقرأ باسم ربك الذي خلق) .

(اقرأ باسم ربك الذي خلق) كيف ؟

إذا أراد إنسان أن يدخل في رحاب : (اقرأ باسم ربك الذي خلق) .
 إذا أراد إنسان أن يتأسى برسول الله ﷺ فيحاول أن يقترب ما استطاع من :
 (إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لاشريك له) الأنعام :
 ١٦٢ - ١٦٣ .

إذا أراد الإنسان أن يدخل في معنى « الإسلام » .
 فكيف يبدأ ؟

ما هي الخطوة الأولى ؟

ما الطريق ؟

إنه يبدأ بالدخول في النظام القرآني ، والدخول في النظام القرآني معناه العزم المصمم على التخلص مما ليس بقرآن . وهذا مايسمي في العرف الإسلامي أو في النظام القرآني : « التوبة » .

ولقد أمر الله في القرآن بالتوبة . وتحث عليها . وتحبب فيها . وأوجبها في بعض الأحيان .

والواقع أنها اللبنة الأولى في الطريق إلى الله . وهي اللبنة الأولى في طريق إسلام الوجه لله .

ولقد فتح الله باب التوبة على مصراعيه تفضلاً منه ورحمة . يقول سبحانه في حديث قدسي . وفي أسلوب كله رأفة : « يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار .

وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم » ويقول رسول الله ﷺ : « كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » .

ورسول الله ﷺ يخبر أن الله سبحانه وتعالى « يفرح » بتوبة عبده المؤمن ، ويعرفنا رسول الله ﷺ : أن ربنا ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا عند ثلث الليل الأخير فينادى : ألا هل من مستغفر فأغفر له ؟ ألا هل من تائب فأتوب عليه . . . ؟ ويقول الله سبحانه وتعالى في صورة من تجلی الرحمة ، وسعة من شمول الرأفة بالعباد ، يقول : (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنوطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم) ^(١) .

ويلي هذه الآية الكريمة ما بين الطريق إلى المغفرة والرحمة فيقول سبحانه وتعالى : (وأنبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ) ^(٢) أي ارجعوا إلى الله بالتوبة وإسلام الوجه له . ثم بين لهم الطريق الصحيح الذي يلي التوبة إذا صدقت بقوله تعالى : (واتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بُغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) ^(٣) .

والله سبحانه وتعالى في هذا يوجه الذين صدقوا في توبتهم إلى أن يتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم ، وإذا صدقت التوبة فإن هذا الصدق يستتبع كلام من لوازمه أن يستقيم الإنسان على الطريق . والله سبحانه وتعالى يسد على الذين يبين لهم الطريق بباب المعاذير فيما بعد مهدداً تهديداً يقصد به حتى الإنسان على أن يسارع بالتوبة الصادقة ، فهو تهديد من زحمن رحيم . يقول سبحانه : (أَنْ تقول نفسم بالتزكرة على ما فرطت في جنب الله وإن كنت من الساخرين . أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين . أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من الحسينين) ^(٤) .

فإذا ما قال الإنسان ذلك أو تعلل بأمثاله فإن الرد يأتيه من رب العزة حاسماً

(١) سورة الزمر آية : ٥٣ .

(٢) سورة الزمر آيات : ٥٦ - ٥٧ - ٥٨ .

(٣) سورة الزمر آية : ٥٥ .

قوياً : (بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت و كنت من الكافرين) ^(١) .
 ثم يبين الله سبحانه و تعالى حال الكافر يوم القيمة فيقول : (ويوم القيمة ترى
 الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين) ^(٢) .
 ويختتم سبحانه هذه الآيات التي ترسم طريق المؤمن بما يبشر من اتبع الطريق
 و سلك سواء السبيل فيقول سبحانه : (وينجى الله الذين اتقوا بمحاذيمهم لا يسمون
 سوء ولا هم يحزنون) ^(٣) .
 والآن قد وضح الطريق ، فهو أولاً : التوبة ، و آخرًا : اتباع أحسن مأذل
 الله ..

ولقد كان أسلافنا رضوان الله عليهم - متابعة للأوضاع الإسلامية - يبدعون
 أعمالهم الهامة بالتبوية الخالصة النصوح ، لقد كانوا يبدعون أول شهر رمضان
 بالتبوية ، و يبدعون الحج بالتبوية . ولعل الكثير من ذوى البصائر قد لاحظوا أن
 الرحلة المباركة ، رحلة الإسراء والمعراج بدأت بشق الصدر . وشق الصدر بالنسبة
 لنا : إنما هو التوبة الخالصة النصوح ؛ لأن التوبة تطهر و ظهر . وإذا تاب الإنسان
 فإن ذلك بمثابة إتيان ملائكة يشفان عن صدره و يغسلانه بالثلج والبرد أو بماء زمزم :
 أى يظهرانه .

إن التوبة تطهر الإنسان من المعصية . إنها تجنب ما قبلها : أى تزيله و تمحوه .
 والتوبة التي من هذا المفهوم لها شروط لا بد من توافرها حتى تهيئة الإنسان لشق
 الطريق إلى الله تهيئة موقفة .

يقول الإمام النووي من كتاب رياض الصالحين : قال العلماء : التوبة واجبة
 من كل ذنب .

فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي فالها ثلاثة
 شروط .

أحدها أن يقلع عن المعصية . والثاني : أن يندم على فعلها . والثالث : أن

(١) سورة الزمر آية : ٥٩ .

(٢) سورة الزمر آية : ٦٠ .

(٣) سورة الزمر آية : ٦١ .

يعزم على ألا يعود إليها أبداً . فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته . وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة : هذه الثلاثة وأن يبرأ من حق صاحبها . فإن كانت مالاً أو نحوه رده إليه . وإن كانت حد قذف ونحوه مكتنه منه أو طلب عفوه ، وإن كانت غيبة استحله منها . ويجب أن يتوب من جميع الذنوب : فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب . وبقي عليه الباقي .

أما اتباع أحسن ما أنزل الله فإنه يبدأ بما كان يبدأ به رسول الله ﷺ مع الداخلين في الإسلام : أعني مواد البيعة .

روى الإمام البخاري رضي الله عنه من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه - وكان عبادة شهد بدراً ، وهو أحد النقباء ليلة العقبة - أن رسول الله ﷺ قال وحوله جماعة من أصحابه :

« بایعونی علی ألا تشرکوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنا ، ولا تقتلوا أولادکم ، ولا تأتوا بهتان تفترونه بين أيديکم وأرجلکم ، ولا تعصوا في معروف . فن وفي منکم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله ، إن شاء الله عفا عنه ، وإن شاء عاقبه » . فبایعناه على ذلك .

وروى الإمام أحمد من حديث سلمى بنت قيس - وكانت إحدى خلات رسول الله ﷺ ، وقد صلت معه القبلتين . وكانت إحدى نساء بنى عدى بن النجاري - قالت : جئت رسول الله ﷺ نبايعه في نسوة من الأنصار ، فلما شرط علينا ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزن ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتي بهتان تفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف ، قال : « ولا تغششن أزواجكن » .

ولقد وردت بيعة النساء في القرآن الكريم . يقول تعالى : (يأيها النبي إذا جاءك المؤمنات ببايعنك على ألا يشرکن بالله شيئاً ، ولا يسرقن ، ولا يزنن ، ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين بهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن ، ولا يعصينك في معروف

فبائعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم)^(١) الممتحنة : ١٢ .
وَمَا يُفْصِلُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ قَوْلَهُ تَعَالَى .

(قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً
ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر
منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم
تعقولون ، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشدّه ، وأوفوا الكيل
والميزان بالقسط لأنكفل نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدولوا ولو كان ذا قربى ،
وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ، وأن هذا صراطى مستقيماً
فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقوون) .
الأنعام : ١٥١ - ١٥٣ .

وإذا أردنا إجمالاً للتعاليم الإسلامية من القرآن الكريم فهو قوله تعالى :
(إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر
والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) النحل : ٩٠ .
وأول عقد من عقود البيعة عدم الإشراك بالله ..

وحينما يسمع الناس الحديث عن « عدم الإشراك بالله » يتوجه ذهنيهم في الأغلب
الأعم منهم - إلى نفي تعدد الآلهة . إن الدهن يتوجه إلى أن هذه العقيدة التي كانت
عند اليونان في عهودهم القديمة من تعدد الآلهة وعند العرب في جاهليتهم من عبادة
الأصنام .. باطلة .

لقد جعل اليونان إلها لكل ظاهرة من ظواهر الكون الكبرى ، وكذلك فعل
قدماء المصريين في عامتهم وشعبهم ، وكذلك فعل وثنيو العرب .

بل إن الإنسانية - وقد بدأت بالتوحيد الحالص على يد آدم عليه السلام - قد
انحرفت سريعاً إلى التعدد ، فأخذت الأنبياء والرسل تنزل تباعاً مبشرة بالتوحيد
بمحاهدة في سبيل منع التعدد وفي سبيل القضاء على الوثنية المنتشرة .

ولقد كان عدد الأنبياء والرسل كثيراً كثرة تناسب الانحراف المتواتي من الإنسانية
منذ ظهورها . لقد نزل الأنبياء جميعاً يبشرون بالتوحيد ، وكان كل نبى يدعى أمه

إلى مثل مادعا محمد - ﷺ - الإنسانية جماء :

(ألا تعبدوا إلا الله إني لكم منه نذير وبشير) هود : ٢ .

وسمة يونس وسمة هود والكثير من سور القرآن على وجه العموم تتحدث عن دعوة الرسل قومهم إلى التوحيد .

يقول سبحانه : (ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه إني لكم نذير مبين . ألا تعبدوا إلا الله ، إني أخاف عليكم عذاب يوم الْحِجَّةِ) هود : ٢٥ ، ٢٦ .

ويقول سبحانه : (وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، إن أنت إلا مفترون) . هود : ٥٠ .

ويقول سبحانه : (وإلى ثمود أخاهم صالحًا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، هو أنساكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه . إن ربكم قریب مجیب) هود : ٦١ .

وهكذا نرى كل نبى يدعى إلى عدم الشرك بالله . إنه يدعو إلى عبادة الله وحده ، فإذا اتجه الذهن إلى عدم تعدد الآلهة ، وإلى الوحدانية - فإن هذا الاتجاه الطبيعي ، وهو اتجاه حق . . . وهذا النوع من الشرك هو الذى يقول الله سبحانه وتعالى عنه : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) . النساء ٤٨ .

وهو الذى ينفيه الله منطقيا بقوله : (لو كان فيها آلة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون) الأنبياء : ٢٢ .

وبقوله : (ما اتخد الله من ولد وما كان معه من إله ، إذن الذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون) . المؤمنون : ٩١ . ولكن التوحيد ليس معناه عدم التعدد فحسب ، كلا . وهو - وإن كان من معانيه عدم التعدد تتسع دائرة فتشمل أموراً أخرى :

يقول أبو سعيد الخراز : «فن شرح ذلك : أن يكون العبد يريد الله عز وجل بجميع أعماله وأفعاله ، وحركاته كلها ظاهرها وباطنها ، لا يريد بها إلا الله وحده ، قائماً بعقله وعلمه على نفسه وقلبه ، راعياً لهم » . قاصداً إلى الله تعالى بجميع أمره » .

وهذا الذي يقوله الإمام أبو سعيد الخراز رضي الله عنه هو بعض معانى : (اقرأ باسم ربك الذي خلق) .

إن (اقرأ باسم ربك الذي خلق) ، توحيد خالص ، والتوحيد الخالص لارياء فيه والله سبحانه وتعالى ، يقول : (ألا لله الدين الخالص) الزمر : ٣ . وأن المادة الأولى من البيعة الإسلامية تعنى - فيما تعنى من معان - تجريد القصد لله تعالى في كل عمل وإلا فلا ثواب ولا قبول للعمل : (فَنَّ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلَيَعْمَلْ صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) الكهف : ١١٠ .

ولقد تحدث القرآن عن الإخلاص والصدق ، وتحدث عنها رسول الله ﷺ فيما لا يكاد يخصى من النصوص والأحاديث . والتوحيد الخالص والشرك يبدأ بالنية : يقول رسول الله ﷺ مبيناً أن قيمة العمل في الحسن والثواب والقبول تتبع النية : «إِنَّمَا الْأَعْمَالَ بِالنِّيَةِ» (وف رواية باليتات) . «إِنَّمَا لَكُلَّ امْرَئٍ مَّا نَوَى، فَنَّ كَانَ هَجَرَتْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَ هَجَرَتْ لِدُنْنَا يَصِيبُهَا، أَوْ امْرَأَ يَنْكِحُهَا فَهَجَرَتْ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ» رواه البخاري ومسلم ، وأبو داود والترمذى والنمساني .

فإذا صدقَتْ النية استقام أمر المسلم فيها بعد ، وإذا هُنَّا إِنْسَانٌ هَفْوَةٌ فعليه أن يتداركَ الأَمْرَ بالتوبَةِ وَصَدَقَ النيةَ مِنْ جَدِيدٍ .

وصدقَ النية شرط من الشروط التي يترتب عليها قبول العمل : عن الصحاح بن قيس قال : قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ : «أَنَا خَيْرٌ شَرِيكٌ، فَنَّ أَشْرَكَ مَعِي شَرِيكًا فَهُوَ لَشَرِيكِي يَأْيَاهَا النَّاسُ أَخْلَصُوا أَعْمَالَكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يَقْبِلُ مِنَ الْأَعْمَالِ إِلَّا مَا خَلَصَ لَهُ، وَلَا تَقُولُوا هَذِهِ اللَّهُ وَلَلرَّحْمَنُ، فَإِنَّهَا لِلرَّحْمَنِ، وَلَيْسَ اللَّهُ فِيهَا شَيْءٌ؛ وَلَا تَقُولُوا : هَذِهِ اللَّهُ وَلَوْجُوهُكُمْ؛ فَإِنَّهَا لِوْجُوهِكُمْ، وَلَيْسَ اللَّهُ مِنْهَا شَيْءٌ» .

والواقع أن الإسلام يعلق أهمية كبيرة على إخلاص النية لله سبحانه وتعالى ، فإن في إخلاصها لله صدق السريرة وطهارة القلب ، وفيها انتفاء التملق والزلق ، وبها تتنفس الزلة ويتنفس الزيف والرياء . ومن أجل ذلك حذر رسول الله ﷺ من الرياء

تحذيراً شديداً ، وحث على الصدق والإخلاص في صور شتى .
ولقد قام رسول الله ﷺ وحيداً فريداً يدعو إلى التوحيد بكل معانيه ، ويعلن الحق في وجه الباطل ، ويدعو إلى الله في وسط كله شرك ، ويدعو إلى تحطيم الأصنام في بيئة تعبد الأصنام . ودعوته صلوات الله عليه وسلمه ، ورسالته إلى العالم أجمع : إنما كان أساسها التوحيد ، والإسلام إنما هو دين التوحيد ، وليس للتوحيد معنى إلا الإيمان الصادق اليقيني بأن المهيمن على الكون والمتصرف فيه إنما هو الله سبحانه . وأنه لواجتمع أهل السموات والأرض على أن ينفعوا أى إنسان بشيء مانفعوه إلا بشيء قد قدره الله له ، ولو اجتمع أهل السموات والأرض على أن يضروا أى إنسان بشيء ماضروه إلا بشيء قد قدره الله عليه .
وإذا كان الأمر كذلك - وهو كذلك لا محالة - فإنه لا يجتمع الإيمان الصادق والخوف في قلب المؤمن .

والتوحيد إذن هو الأساس الأول الأصيل للشجاعة الأدبية ؛ كما أنه الأساس الحافز لكثير من الفضائل أو لكل الفضائل .

وتشبيتاً للشجاعة الأدبية وحفظاً على استمرارها بين الله تعالى الأسباب التي تجعل الشخص يجبر على قول الحق ، ويتراجع في إعلان الصواب ، وترجع هذه الأسباب إلى أمرتين .

الأمر الأول : هو ما يمكن أن يعبر عنه بهم الرزق أو خوف الفقر .
وقد بين الله تعالى ، أن الرزق مقسوم ، وأنه محدود ، وأنه ما كان لك فسوف يأتيك ، وما كان لغيرك فلن تناه .

(وفي السماء رزقكم وما توعدون ، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنتظرون) الذاريات ٢٢ ، ٢٣ . (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل في كتاب مبين) . هود : ٦ .

ومن الحق أن الإسلام يبحث على العمل ويشجع على الأخذ بالأسباب وأن السماء لا تغطر ذهباً ولا فضة ، « ولأن يأخذ أحدكم حبه ، فيحتطب فيأكل ويتصدق خيراً له من أن يتکفف الناس واليد العليا خير من اليد السفلة » .

ومع ذلك فإن الرزق في يد الله . ولن يمنع الرزق مانع منها كان جبروتة وسلطانه ، والله غالب على أمره ، وهو سبحانه القوى العزيز القهار . وأما الأمر الآخر الذي يخجل بعض الناس عن الشجاعة الأدية فإنه خوف الموت . وهو خوف لا موضع له : فالله قد حدد الآجال ولو كان الناس في بروج مشيدة لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم التي يقتلون فيها : (إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدموه) الأعراف : ٣٤ . الآجال والأرزاق بيد الله . وكل فكرة أو رأي أو همس خافت في النفس يخالف ذلك فإما هو شرك .

والآن يأتي السؤال : إذا صدق النية واتبع الإنسان أحسن ما أنزل إليه من ربه في العمل فما هو السبيل إلى اتباع أحسن ما أنزل الله في القول ؟ ما هي القراءة باسم ربك في القول ؟ إن الله سبحانه وتعالى بين لنا الإحسان في القول : كما بين لنا الإحسان في العمل . يقول سبحانه في الجنين :

(ومن أحسن قوله من دعا إلى الله وعمل صالحاً ، وقال إني من المسلمين) فصلت : ٣٣ .

ويقول سبحانه :

(إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تخذلوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة . ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون . نزلا من غفور رحيم) فصلت : ٣٠ .

ولقد ضرب الله لنا المثل في الكلمة الطيبة . وفي الكلمة الخبيثة فقال سبحانه :

(ألم تركيف ضرب الله مثلاً : كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها . ويضرب الله الأمثال للناس . لعلهم يتذكرون . ومثل الكلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .

يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ويصل الله الظالمين ، ويفعل الله ما يشاء)^(١) .

وابداع أحسن ما أنزل الله في القول إنما هو الدعوة إلى الله بنص الآية الكريمة وإعلان الإسلام : (وقال إني من المسلمين)^(٢) . ومن ذلك الذكر والدعاء .

في الذكر

يقول سبحانه : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويزقه من حيث لا يحتسب)^(٣) وإن مما يعين على التقوى وهو في الوقت نفسه من ثمار التقوى : الذكر ، وحثنا الله سبحانه على الذكر في أسلوب أمر :

(يا يهود الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً) الأحزاب : ٤١ .

وقال : (واذذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال^(٤) ولا تكون من الغافلين) الأعراف : ٢٠٥ .

وتحثنا سبحانه على الذكر في أسلوب أخاذ : (فاذكروني أذكريكم) البقرة : ١٥٢ .

ولقد أخرج الإمام البخاري رضى الله عنه من حديث قتادة عن رسول الله عليه السلام ، فيما يرويه عن ربه قال : قال الله عز وجل : « يابن آدم ، إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي ، وإن ذكرتني في ملأ ذكرتك في ملأ خير منه ، وإن دنوت مني شبراً دنوت منك ذراعاً ، وإن دنوت مني ذراعاً دنوت منك باعاً ، وإن أتيتني تمشي أتيتك هرولة » (حديث قدسي) .

(١) سورة إبراهيم : الآيات ٢٤ - ٢٧ .

(٢) فصلت : ٣٣ .

(٣) سورة الطلاق من آيتها : ٣ - ٢ .

(٤) الأصال جمع أصليل وهو مابين العصر والمغرب .

ومن السبعة الذين يظلمهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله : رجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه من خشية الله .

وروى البيهقي في الشعب من حديث عمر بن الخطاب : قال . الله عز وجل : « من شغله ذكرى عن مسالى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » حديث قدسي . وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة ، فر على جبل يقال له جمدان ، فقال : « سيروا هذا جمدان ، سبق المغردون » قالوا : وما المغردون يارسول الله ؟ قال : « إلذاكرون الله كثيراً » .^(١) وعن أم أنس رضي الله عنها قالت : يارسول الله أوصني ، قال : « اهجرى العاصى ، فإنها أفضل الهجرة ؛ وحافظى على الفرائض ، فإنها أفضل الجهاد ، وأكثرى من ذكر الله ؛ فإنك لاتأتين الله بشيء أحب إليه من كثرة ذكره » .^(٢)

وف رواية لها عن أم أنس :

« واذكرى الله كثيراً فإن أحب الأعمال إلى الله أن تلقاه بها » .^(٣)
وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا مررت برياض الجنة فارتعوا » .

قالوا : وما رياض الجنة ؟

قال : « حلق الذكر » .

وأفضل الذكر إنما هو التعبد بتلاوة القرآن . ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يكتثرون من تلاوته بعيداً به ، وكانوا يقسمونه أقساماً . لقد كان القرآن لهم حزباً . وأول ما يرجع إليه في التقديرات قول رسول الله ﷺ : « من قرأ القرآن في أقل من ثلاثة لم يفقهه » .

وذلك لأن الزيادة عليه تمنعه الترتيل ، وقد قالت عائشة رضي الله عنها لما سمعت

(١) رواه مسلم واللقطى له ، والترمذى ، ولحظ . يارسول الله ، وما المغردون ؟

(٢) رواه الطبرانى بإسناد جيد .

(٣) قال الطبرانى : أم أنس هذه يعني الثانية - ليست أم أنس بن مالك .

(٤) عن إحياء علوم الدين .

رجالاً يهدر القرآن هذراً . إن هذا ما قرأ القرآن ولا سكت ! وأمر النبي ﷺ عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما أن يختم القرآن في كل سبع . وكذلك كان جماعة من الصحابة رضي الله عنهم يختمون القرآن في كل جمعة : كعثمان وزيد بن ثابت ، وابن مسعود ، وأبي بن كعب رضي الله عنهم . أما من ختم في الأسبوع مرة فيقسم القرآن سبعة أحزاب . فقد حزب الصحابة رضي الله عنهم القرآن أحزاباً : فروى أن عثمان رضي الله عنه كان يفتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة ، وليلة السبت بالأنعم إلى هود ، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم وليلة الاثنين بطه إلى طسم موسى وفرعون ، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى ص ، وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمن ، ويختم ليلة الخميس .

قيل : أحزاب القرآن سبعة : فالحزب الأول ثلاث سور ، والحزب الثاني خمس سور والحزب الثالث سبع سور ، والحزب الرابع تسع سور ، والخامس إحدى عشرة سورة ، والسادس ثلاث عشرة سورة ، والسابع المفصل من ق إلى آخره .

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يضعون أمام أيديهم قول رسول الله ﷺ : من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول «ألم» حرفا ، ولكن : ألف حرفا ، ولام حرفا ، وميم حرفا^(١) .

وقول رسول الله ﷺ : لا حسد إلا على اثنين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ورجل آتاه الله القرآن فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار^(٢) .

ولقد وردت الآثار في الحث على سور وآيات معينة ونورد هنا بعض ذلك ليكون كنموذج فقط . وذلك أننا توسعنا في الموضوع في كتابنا (ال العبادة) ونورده أيضاً ليكون فيه ترغيب في حفظ بعض السور القرآنية لمن لم يحفظ شيئاً من القرآن . ومن الذكر : الاستغفار .

(١) رواه الترمذى بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه ، وقال : «هذا حديث حسن صحيح .

(٢) رواه البخارى ومسلم ، ومعنى الحسد هنا : الغططة .

ونعود به مرة أخرى إلى التوبة في صورة أخرى من صورها ، أو في زاوية من أهم زواياها :

يروى علقة ويروى الأسود عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : في كتاب الله عز وجل آياتان ما أذنب عبد ذنبًا فقرأهما واستغفر الله عز وجل إلا غفر الله تعالى له : (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصرروا على ما فعلوا وهم يعلمون) ^(١) . قوله : عز وجل : (ومن يعمل سوءًا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيمًا) . النساء / ١١٠ .

ولقد قال ﷺ في شأن الاستغفار الخالص : « من أكثر من الاستغفار جعل الله عز وجل له من كل هم فرجا . ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب » .

وهذا الحديث الشريف يسير في انسجام مع قوله تعالى : (استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ، ويجعل لكم أهاراً) . نوح : ١٠-١٢ .

وقوله تعالى على لسان نبى الله هود : (ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين) ^(٢) . والاستغفار مستحب في كل الأوقات ، وإن لم يكن ذنب . يقول الله تعالى في إطلاق لا تحديد فيه : (فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً) النصر : ٣ . ومع هذا الإطلاق العام فإن الله سبحانه وتعالى ذكر الأحس哈尔 باعتبارها من الأوقات التي يستغفر فيها المتقوون . بقوله سبحانه : (وبالأحس哈尔 هم يستغفرون) الذاريات : ١٨ . ومن أجل ذلك فإن الذين يستيقظون في ثلث الليل الأخير يحرضون على انتهاز فرصة نزول ربنا إلى سماء الدنيا منادياً : « ألا هل من مستغفر فأغفر له؟ ألا هل من تائب فأتوب عليه؟ ألا هل من سائل فأعطيه؟ ... فيأخذون في الاستغفار .

(١) سورة آل عمران آية : ١٣٥ .

(٢) سورة هود آية : ٥٢ .

وسيد الاستغفار هو كما أخبر الصادق المصدق صلوات الله وسلامه عليه : « اللهم أنت ربِّي لا إِلَهَ إِلاَّ أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدي ووعدي ما استطعت ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صنعت ، أَبُوءُ لَكَ بِنَعْمَتِكَ عَلَيَّ ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي ، فَاغْفِرْ لِي ؛ فَإِنَّهُ لَا يغفر الذنوب إِلَّا أَنْتَ ». .

ويروى الإمام الغزالى عن بعض العلماء أنه قال : « العبد بين ذنب ونعة لا يصلحها إِلَّا الاستغفار والحمد ». .

ويروى عن قتادة رحمه الله قوله : « القرآن يدلّكم على دائنكم ودوائكم : أما دوائكم فالذنوب ، وأما دائنكم فالاستغفار ». .

ومن الذكر التهليل وهو الذكر بلا إِلَهَ إِلَّا الله . .

وما وصفت به الكلمة : لا إِلَهَ إِلَّا الله - أنها : « الكلمة التوحيد . وهي الكلمة الإخلاص ، وهي الكلمة التقوى ، وهي الكلمة الطيبة ، وهي دعوة الحق ، وهي العروة الوثقى . وهي ثمن الجنة » ^(١)

وقد روى الترمذى بسنده عن رسول الله ﷺ أنه قال : « خير ما قلت أنا والنبيون من قبل : أن لا إِلَهَ إِلَّا الله وحده لا شريك له . له الملك . وله الحمد ، وهو على كل شيء قادر ». .

وقد أخرج الإمامان - البخارى ومسلم رضى الله عنهم من حديث أبي هريرة نصر الله وجهه - أن رسول الله ﷺ قال :

« من قال لا إِلَهَ إِلَّا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قادر مائة مرة - كانت له عدل عشر رقاب ، وكتب له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إِلَّا أحد عمل أكثر من ذلك . .

ومن الذكر التسبیح والتحمید والتکبیر والحوکلة . يقول الله تعالى : (وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ، ومن الليل فسبحه وأدبار السجود) ^(٢) .

(٢) سورة ق من آيات ٣٩ - ٤٠ .

(١) إحياء علوم الدين .

ويقول تعالى : (وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم) ^(١) .

ويقول جل شأنه : (فسبح بحمد ربك واستغفره ، إنه كان تواباً) ^(٢) .
وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » ^(٣) .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله ؟ قلت : يا رسول الله أخبرني بأحب الكلام إلى الله . فقال : « إن أحب الكلام إلى الله : سبحان الله وبحمده » ^(٤) .

وعن حويرية رضي الله عنها : أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من عندها ، ثم رجع بعد أن أضحت وهي جالسة ، فقال : مازلت على الحال التي فارقتك عليها ؟ قالت : نعم . قال النبي ﷺ : « لقد قلت بعدك أربع كلامات ثلاثة مرات ، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنهن : « سبحان الله وبحمده عدد خلقه ، ورضاء نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته » ^(٥) .

وأن من الصيغ المباركة الجامدة التي تؤخذ من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والتي جربها الكثير من الصالحين ، فوجدوا لها نوراً وبركة : « سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم أستغفر الله » .

ومن الذكر الصلاة على النبي ﷺ .

يقول الله تعالى : (إن الله وملائكته يصلون على النبي ، يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً) . الأحزاب : ٥٦ .

ولقد روى الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :

(١) سورة الطور آيتا : ٤٨ - ٤٩ . (٢) سورة النصر آية : ٣ .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

(٤) رواه مسلم ، والنساف ، والترمذى .

(٥) رواه مسلم ، والنساف ، وأبي ماجه ، والترمذى .

«من صلَّى عَلَى صَلَاتَةٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بَهَا عَشَرًا» .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه - فيما رواه الترمذى وحسنه - أن رسول الله ﷺ قال :

أولى الناس بِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ عَلَى صَلَاتَةٍ .

وروى الأئمة : أحمد والترمذى والحاكم بسندهم عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«أَكْثُرُوا عَلَى مِن الصَّلَاةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَإِنَّهُ مَشْهُودٌ تَشَهِّدُهُ الْمَلَائِكَةُ . وَإِنْ أَحَدًا لَنْ يَصْلِي عَلَى إِلَّا عَرَضَتْ عَلَى صَلَاتِهِ حَتَّى يَفْرَغَ مِنْهَا» قال قلت : وبعد الموت ؟ قال : إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . ومن أفضل صيغ الصلاة على النبي ﷺ - الصيغة التي يقرؤها الإنسان في التشهد في الصلاة . وصيغ الصلاة على رسول الله ﷺ كثيرة . ويسعدني هنا أن أذكر أن الصيغة التي أضاءت حروفها وتلاؤت ، والتي ذكرت حروفها في كتاب «المدرسة الشاذلية» وهي لتفريج الكرب :

«اللَّهُمَّ صَلِّ صَلَاتَةَ جَلَالٍ ، وَسَلِّمْ سَلَامَ جَمَالٍ عَلَى حَضْرَةِ حَبِيبِكَ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ . وَاغْشِهِ اللَّهُمَّ بِنُورِكَ كَمَا غَشَيْتَهُ سَحَابَةَ التَّجَلِيلَاتِ ، فَنَظِرْ إِلَى وَجْهِكَ الْكَرِيمِ . بِحَقِيقَةِ الْحَقَائِقِ كَلِمَ مَوْلَاهُ الْعَظِيمِ الَّذِي أَعَادَهُ مِنْ كُلِّ سُوءٍ . اللَّهُمَّ فَرِّجْ كَرْبَلَاهُ كَمَا وَعَدْتَ : (أَمِنْ يَحِبُّ الْمُضْطَرُ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ) النَّلْ : ٦٢ وَعَلَى آللَّهِ وَصَاحِبِهِ . آمِينَ .

في الدعاء

إن القرآن الكريم يذكر لنا مجموعة من الأدعية تناسب ظروف الحياة المختلفة : فهو مثلاً يحدثنا عن صورة المؤمنين في الحروب سواء فيها يتعلق بالفعل أو بالقول ، وبين النتائج التي رتبها سبحانه على موقفهم ، فيقول تعالى :

(وَكَأْيَنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهْنَا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَمَا ضَعَفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ، وَاللَّهُ يَحِبُّ الصَّابِرِينَ) آل عمران : ١٤٦ .

(وما كان قوهم إلا أن قالوا : ربنا أغرر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا ، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب الحسنين)^(١) .

ويعلمنا الله سبحانه وتعالى ما يقال من دعاء عند نزغ الشيطان . فيقول سبحانه : (وإنما ينزعنك من الشيطان نزغ فاستعد بالله إلهه هو السميع العليم) . فصلت / ٣٦ .

ويقول سبحانه في ذلك : (وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ، وأعوذ بك رب أن يحضرنون) . المؤمنون : ٩٧ - ٩٨ .

ولقد أخذ كثير من الناس يتذمرون القرآن في مواطن الدعاء ، فاكتشفوا أسراراً من أسرار الدعاء ، صرحاوا ببعضها وتركوا لغيرهم أن يتذمر ويكتشف . ومن هؤلاء الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه الذي يقول متذمراً للقرآن ومستنجدًا منه : عجبت لأربع ، كيف يغفلون عن أربع :

١ - عجبت لمن اقتل بالخوف كيف يغفل عن : « حسبنا الله ونعم الوكيل » . والله سبحانه وتعالى يقول : (فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء) . آل عمران : ١٧٤ .

وأصل هذه القصة معروفة : يروى ابن هشام بخصوص موقف المسلمين في أحد بعد المعركة ثاني يوم فيها قال : مر بأبي سفيان - وكان حينئذ قائد المشركين - ركب من عبد القيس . فقال لهم أبو سفيان : أين تريدون ؟ قالوا : نريد المدينة . قال : ولم ؟ قالوا : نريد الميرة . قال : فهل أنتم مبلغون عن محمدًا رسالة أرسلكم بها إليه ، وأحمل لكل في مقابل ذلك زبيباً بعكافظ إذا وافيتمنا ؟ قالوا : نعم . قال : إذا وافيتكم محمدًا فأخبروه أنا قد جمعنا المسير إليه ، وإلى أصحابه نستأصل بقيتهم . ومر الركب برسول الله ﷺ . وهو بحمراء الأسد . فأخبروه بالذى قال أبو سفيان ، فكان رد الفعل عند رسول الله ﷺ وأصحابه ما صوره الله تعالى بقوله :

(١) سورة آل عمران آيتا . ١٤٧ - ١٤٨ .

(الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم . فاخشوهم فزادهم إيماناً ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم) آل عمران : ١٧٣ - ١٧٤ .
ويقول الإمام جعفر :

وعجبت لمن ابتلى بمكر الناس به كيف يغفل عن : (وأفوض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد) . غافر : ٤٤ .

والله سبحانه وتعالى يقول : (فوقاه الله سيئات مامكروا) غافر : ٤٥ .
وهذه القصة هي قصة مؤمن آل فرعون . (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه) . غافر : ٢٨ . فلما قال فرعون : « ذروني أقتل موسى » . غافر : ٢٦ .
قال المؤمن :

(أنتلون رجلاً أن يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم . وإن يك كاذباً فعليه كذبه . وإن يك صادقاً يصيّبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب . ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا) ^(١)

وأخذ يدعو قومه إلى الحق ، وأخذ يجادل ويناقش محاولاً جرهم إلى سواء السبيل تم انتهى به الأمر معهم أن قال : (فستذكرون ما أقول لكم . وأفوض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد . فوقاه الله سيئات مامكروا ، وحاق بالآل فرعون سوء العذاب) ^(٢)

لقد حفظه الله حينما فوض الأمر إليه حالاً ومقالاً . ويقول الإمام جعفر :
٣ - وعجبت لمن ابتلى بالضركيف يغفل عن : (أني مسني الضر ، وأنت أرحم الراحمين) الأنبياء : ٨٣ . والله سبحانه وتعالى يقول : (فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر) . الأنبياء : ٨٤ .

والحادية يرويها القرآن الكريم في سورة الأنبياء قائلاً : « وأيوب إذ نادى ربه أني

(١) سورة غافر آيتا . ٢٨ - ٢٩ .

(٢) سورة غافر آيتا : ٤٤ ، ٤٥ .

مسى الفسر ، وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له ، فكشفنا ما به من ضر ، وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين) الأنبياء : ٨٣ - ٨٤ .
ويقول الإمام جعفر :

٤ - وعجبت لمن ابتلى بالغم ، كيف يغفل عن : (لا إله إلا أنت ،
سبحانك ، إني كنت من الظالمين) الأنبياء : ٨٧ .

والله سبحانه وتعالى يقول : (فاستجبنا له ونجيناه من الغم) الأنبياء : ٨٨ .
والقصة كما يذكرها القرآن : (وذا النون إذ ذهب مغاضباً ، فظن أن لن نقدر
عليه ، فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين .
فاستجبنا له ، ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجي المؤمنين) ^(١)

وعلى غرار النسق الذي ذكره الإمام الصادق ، يمكن أن يقال : « عجبت لمن
أذنب كيف يغفل عن : (ربنا ظلمتنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكون من
الخاسرين) الأعراف / ٢٣ . والقصة كما يرويها القرآن عن آدم وحواء حينما أكلَا من
الشجرة : « وناداهما ربها ألم أنهما عن تلکما الشجرة ، وأقل لکما إن الشيطان لكم
عدو مبين . قالا : ربنا ظلمتنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكون من
الخاسرين) ^(٢) .

وعجبت لمن يخشى العذاب في الدنيا ، كيف يغفل عن الاستغفار ، والله
 سبحانه وتعالى يقول : « وما كان الله ليغذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم
وهم يستغفرون » ^(٣) .

ولقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بأن ندعوه وأن نلتجأ إليه ، وأن نتضرع له في
الرخاء وفي الشدة . وإن الإنسان وهو في حالة النقص الدائم يحتاج إلى الله سبحانه
وتعالى ، في كل لحظة ، فهو في حاجة إذن إلى الدعاء في كل فترات حياته يقول الله
 سبحانه وتعالى : (وإذا سألك عبادى عنى فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا
 دعان ، فليستجيبوا لي ، وليرؤمنوا بى لعلهم يرشدون) ^(٤) . ويقول سبحانه :

(١) سورة الأنبياء آيتا : ٨٧ - ٨٨ . (٣) سورة الأنفال آية : ٣٣ .

(٢) سورة الأعراف آيتا : ٢٢ ، ٢٣ . (٤) سورة البقرة آية : ١٨٦ .

(أَمْنٌ يُحِبُّ الْمُضطَرُ إِذَا دَعَاهُ ، وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَعْلَمُكُمْ خَلْفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًاً مَا تَذَكَّرُونَ) النَّفْل : ٦٢ .

ولقد التجأ إلى الله بالدعاء الأنبياء والمرسلون : لقد دعوه في كل وقت لاجئين إليه ، مستغثين به في جميع أمورهم . ومن أمثلة ذلك قوله سبحانه : (وَزَكَرِيَا إِذْ نَادَى رَبَّهُ ، رَبُّ لَا تَذَرْنِي فَرَدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارثَيْنِ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ . وَوَهْبَنَا لَهُ يَحْسَنَ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ، إِنَّمَا كَانُوا يَسْأَلُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ، وَيَدْعُونَا رَغْبًا وَرَهْبًا ، وَكَانُوا لَنَا خَائِشِينَ) ^(١) .

واستغاث به المسلمون متضرعين خائشين داعين . فاستجاب لهم : (إِذْ تَسْتَغْيِثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجِابَ لَكُمْ أَنَّى مَدْكُمْ بِأَلْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَرْدِفِينَ) ^(٢) .
وابتجه إليه رسول الله ﷺ حين عودته من الطائف بهذا الدعاء الرائع : « اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضُعْفَ قُوَّتِي . وَقُلَّةَ حِيلَتِي . وَهُوَنِي عَلَى النَّاسِ . يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعِفِينَ . وَأَنْتَ رَبِّي إِلَى مَنْ تَكَلَّمَنِي؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمْنِي . أَمْ إِلَى عَدُوِّ مَلْكَتِهِ أَمْرِي . إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَى غَضْبٍ فَلَا أَبَالِي . وَلَكَ عَافِيَّتِكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي . أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقْتَ لِهِ الظَّلَامَاتِ . وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مِنْ أَنْ تَنْزِلَ بِي غَضْبَكَ أَوْ يَحْلِ عَلَى سُخْطَكَ ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى ، وَلَا حُولَّ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ» .

والواقع أن في الدعاء تمثل العبودية لله سبحانه وتعالى واضحة جلية . أى أنه تمثل فيه العبادة في صورة من أصدق صورها . أما العزوف عن الدعاء فإنه عادة ينشأ عن نوع من عدم المبالاة بالدين . أساسه الكبرياء الذي ينشأ عن الكثير من المعاصي والبدع والانحرافات . والذى كان في جذور المعصية التي تورط فيها إبليس حينما أمره الله فيمن أمر بالسجود لآدم . لقد أبى واستكبر وقال : «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» ^(٣) .

ولقد حمله كبرياً وله على الخطأ في أيسر الأمور ، لقد جعل مناط الخيرية المادة :

(١) سورة الأنبياء آية : ١٢ .

(٢) سورة الأعراف آية : ٩٠، ٨٩ .

(٣) سورة الأنفال آية : ٩ .

مادة الجسم . ولم يهتد عقله في ساعة كبرىائه إلى أن المادة مجرد وعاء ، وأن الوعاء لا يكون مقياس التفضيل ، وأن ما في الوعاء هو الذي يكون نفيساً ساماً أو خسيساً لاقيمته له .

ومنعه كبرىاؤه أيضاً : من أن يرجع إلى الله بالتوبة الخالصة النصوح . وهي من مظاهر العبودية . ولذلك طرد من رحمة الله . أما آدم : فإنه بمجرد أن أكل من الشجرة شعر بالحياء من الله . فلجاً إليه مستغفراً تائباً منياً . وتمثل فيه مظهر العبودية جلياً واضحاً : الدعاء .

«ربنا ظلمتنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين»^(١) .

آيات في الدعاء :

بسم الله الرحمن الرحيم : (الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين . إهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) سورة الفاتحة .
 (واإذ قال موسى لقومه : إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ، قالوا أتتخذنا هزواً ،
 قال : أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين)^(٢) .

(واإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا ، إنك أنت التواب الرحيم)^(٣) .

(ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار)^(٤) .

(فلا فصل طالوت بالجنود قال : إن الله مبتليكم ببهر . فهن شرب منه . فليس مني . ومن لم يطعمه فإنه مني . إلا من اغتر غرفة بيده . فشربوا منه إلا قليلاً منهم . فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا : لاطاقة لنا اليوم بجالوت وجندوه .

(١) سورة الأعراف آية : ٢٣ ، ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٢) سورة البقرة آية : ٦٧ .

(٣) سورة البقرة آية : ٢٠١ .

قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله ، كم من فتة قليلة غلبت فتة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين . ولما بزوا الجالوت وجنوه . قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين)^(١) .

(آمن الرسول بما أنزل إلهه من ربه ، والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسليه ، وقالوا سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك المصير .

لَا يَكْلُفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسَعَهَا لَهَا مَا اكْسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ . رَبُّنَا لَا تَؤَاخِذنَا إِنْ نَسِيْنَا أَوْ أَخْطَلْنَا ، رَبُّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ، رَبُّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا . وَاغْفِرْ لَنَا . وَارْحَمْنَا . أَنْتَ مُوْلَانَا ، فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)^(٢) .

(ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب)^(٣) .

(الذين يقولون ربنا إننا آمنا ، فاغفر لنا ذنبينا وقنا عذاب النار)^(٤) .

(هنا لك دعا زكريا ربه ، قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء)^(٥) .

(ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول ، فاكتتبنا مع الشاهدين)^(٦) .

(وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا أغفر لنا ذنبينا وإسرافنا في أمرنا ، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين)^(٧) .

(ربنا ما خلقت هذا باطلًا سبحانك فقنا عذاب النار)^(٨) .

(ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنبينا وكفر عنا سيئاتنا ، وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسليك ، ولا تخزنا يوم

(١) سورة البقرة آيتا : ٢٤٩ ، ٢٥٠ آية : ٣٨ .

(٢) سورة البقرة آيتا . ٢٨٥ ، ٢٨٦ آية : ٥٣ .

(٣) سورة آل عمران آية : ٨ .

(٤) سورة آل عمران آية : ١٦٦ .

(٥) سورة آل عمران آية : ١٩١ .

(القيامة إنك لاتخلف الميعاد) ^(١)

(الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها . واجعل لنا من لدنك ولّيًّا واجعل لنا من لدنك نصيراً) ^(٢) .

(وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق . يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين) ^(٣) .

(قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وأخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين) ^(٤) .

(وإذا صرفت أبصارهم لقاء أصحاب النار . قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) ^(٥) .

(وماتنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا . ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين) ^(٦) .

(قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك . وأنت أرحم الراحمين) ^(٧) .

(فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) ^(٨) .

(رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ، ربنا وتقبل دعاء ، ربنا اغفر لي ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) ^(٩) .

(إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا : ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً) ^(١٠) .

(١) سورة آل عمران آية : ١٩٤ ، ١٩٣ .

(٢) سورة النساء آية : ١٥١ .

(٣) سورة المائدة آية : ٨٥ ، ٨٦ .

(٤) سورة إبراهيم آية : ٤٠ ، ٤١ .

(٥) سورة الكهف آية : ٤٧ ، ١٠ .

(٦) سورة الأعراف آية : ١٢٦ .

(٧) سورة النساء آية : ٧٥ .

(٨) سورة المائدة آية : ٨٣ .

(٩) سورة المائدة آية : ١١٤ .

(١٠) سورة الأعراف آية : ٤٧ .

(قال رب اشرح لي صدرى ، ويسرى أمرى ، واحلل عقدة من لسانى يفقهوا
قولى)^(١) .

(فتعالى الله الملك الحق ، ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ،
وقل رب زدني علما)^(٢)

وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلامات أن لا إله
إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين .

فاستجبنا له : ونجيئاه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين .

(وزكريا إذ نادى ربه ، رب لاتذرني فرداً وأنت خير الوارثين ، فاستجبنا له ،
ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ، إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعونا رغبا
ورهبا ، وكانوا لنا خاشعين)^(٣)

(قل رب إما تريني ما يوعدون ، رب فلا تجعلني في القوم الظالمين)^(٤)

(وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين . وأعوذ بك رب أن يحضرنون)^(٥) .

(إنه كان فريق من عبادى يقولون ، ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير
الراحمين)^(٦) .

(وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين)^(٧) .

(والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ، إنها
ساعت مستقرا ومقاما)^(٨) .

(والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين
إماما)^(٩) .

(رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين .
واجعل لي لسان صدق في الآخرين .

(٦) سورة المؤمنون آية : ١٠٩ .

(١) سورة طه الآيات : ٢٥ - ٢٨ .

(٧) سورة المؤمنون آية : ١١٨ .

(٢) سورة طه آية : ١١٤ .

(٨) سورة الفرقان آيتا : ٦٥ ، ٦٦ .

(٣) سورة الأنبياء الآيات : ٨٧ - ٩٠ .

(٩) سورة الفرقان آية : ٧٤ .

(٤) سورة المؤمنون آيتا : ٩٣ ، ٩٤ .

(٥) المؤمنون آيتا : ٩٧ ، ٩٨ .

واجعلنی من ورثة جنة النعيم .
واغفر لأبی إله کان من الصالین .
ولا تخزنى يوم يبعثون .
يوم لا ينفع مال ولا بنون .
إلا من آتى الله بقلب سليم)^(١) .

(فتبسم صاحکاً من قوله ، وقال رب أوزعنی أن أشکر نعمتك التي أنعمت
على وعلی والدى وأن أعمل صالحًا ترضاه ، وأدخلنی برحمتك في عبادک
الصالحين)^(٢) .

(قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لى ، فغفر له ، إنه هو الغفور الرحيم)^(٣) .
(فخرج منها خائفاً يتربّل ، قال رب نجني من القوم الظالمين)^(٤) .
(ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ،
وقهم عذاب الجحيم .

، ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آباءهم وأزواجهم ،
وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم)^(٥) .

(فستذکرون ما أقول لكم ، وأفوض أمری إلى الله ، إن الله بصیر بالعباد)^(٦)
(ربنا اكشف عننا العذاب إنا مؤمنون)^(٧)
(قال رب أوزعنی أن أشکر نعمتك التي أنعمت على وعلی والدى وأن أعمل
صالحاً ترضاه وأصلح لى في ذريتی إنى تبت إليك وإنى من المسلمين)^(٨)
(ليس لها من دون الله کاشفة)^(٩)

(والذین جاءو من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان
ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذین آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم)^(١٠)

(١) سورة التعراء الآیات ٠ - ٨٣ - ٨٩ . (٦) سورة غافر آیة : ٤٤ .

(٢) سورة الفل آیة : ١٩ . (٧) سورة الدخان آیة : ١٢ .

(٨) سورة الأحقاف آیة : ١٥ . (٣) سورة القصص آیة : ١٦ .

(٩) سورة الحجم آیة : ٥٨ . (٤) سورة القصص آیة : ٢١ .

(١٠) سورة الحشر آیة : ١٠ . (٥) سورة غافر آیة : ٧ ، ٨ .

(ربنا عليك توكلنا وإليك أنتا ، وإليك المصير
 (ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ^(١))
 (يُوْمَ لَا يَخْرُجُ اللَّهُ النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ، نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ، وَبِأَيْمَانِهِمْ
 يَقُولُونَ رَبُّنَا أَنْتَمْ لَنَا نُورُنَا وَاغْفِرْ لَنَا ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)^(٢)
 (قلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ : مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ . وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ . وَمِنْ شَرِّ
 النَّفَاثَاتِ فِي الْعَقَدِ . وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ)^(٣)
 (قلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ . إِلَهِ النَّاسِ . مِنْ شَرِّ الْوَسَاسِ الْخَنَاسِ .
 الَّذِي يُوْسُوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ – مِنْ الجَنَّةِ وَالنَّاسِ)^(٤)
 (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ، مَالِكُ يَوْمِ
 الدِّينِ . إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِنُ ، اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ
 عَلَيْهِمْ غَيْرَ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) آمِينَ.^(٥)

القرآن يرسم طريق النصر

يقول الله سبحانه وتعالى :

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ
 اللَّهِ ، فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَ اللَّهُ مَعْلُومًا حَقًّا فِي التُّورَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَ
 بِعِهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ، فَاسْتَبِشُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)^(٦).

آخر أبو حاتم ، وابن مردويه ، عن جابر رضي الله عنه قال : نزلت هذه الآية الكريمة على رسول الله ﷺ ، وهو في المسجد ، فكثير الناس في المسجد ، فأقبل رجل من الأنصار ثانية طرف ردائه على عاتقه . فقال يا رسول الله أنزلت هذه الآية ؟ قال : نعم فقال الأنصاري : بيع ربيع . لأن قبل ولا نقبل .

(٤) سورة الناس.

(١) سورة المتحف آية : ٤ ، ٥

(٥) سورة الفاتحة.

(٢) سورة التحرير آية : ٨

(٦) سورة التوبة آية : ١١١.

(٣) سورة الفلق.

وقد فرح المسلمون بهذه الآية حينما نزلت مفرحاً كثيراً ، وذلك أنها بنت لهم في صورة اليقين أن الجهاد جزاؤه الجنة ، سواء أكانت نتيجته النصر أم كانت نتيجته الاستشهاد .

إن الجهاد على أي وضع كانت نتيجته ثمنه الجنة . ورسول الله ﷺ يقول : «الجنة تحت ظلال السيف»

ولقد صور الله سبحانه وتعالى جهاد المؤمنين . وبذل أموالهم وأنفسهم فيه . وإثابة الله لهم على ذلك بالجنة . لقد صور الله ذلك بالبيع والشراء . والعقود عليه هو الجهاد ، والثمن هو الجنة ، والبائع هو المجاهد . والمشترى هو الله سبحانه ، ومكان البيع هو ميدان المعركة . وتسجيل العقد في عدة جهات موثوق بها هي الكتب السماوية .

والربع مؤكّد على أية حال كانت نتيجة الجهاد . لأنّه سبحانه لم يجعل العقود عليه كونهم مقتولين فقط . بل إذا كانوا قاتلين أيضاً لإعلاء كلامته ونصر دينه)١(. أما المؤمنون الذين باعوا أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة فقد ذكر الله صفاتهم وعدها واحدة واحدة : فهم التائدون .

وأول ما ذكر الله من الصفات التي لا يتأتى للمؤمن أن يستقيم في صلاته بالله إلا بها وهي صفة التوبة فهم التائدون والتوبة صفة يحبها الله سبحانه وتعالى : يقول سبحانه : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوْبَةَ) البقرة/٢٢٢ والله يفرح بها . يقول صلوات الله وسلامه عليه : إن الله يفرح بتوبة عبده المؤمن .

وهم العابدون : إنهم عابدون بجهادهم . وهم عابدون بعملهم . وهم عابدون بأقوالهم . لقد صيروا حياتهم في كفاحها وفي نضالها وفي قوها وصمتها وفي حركتها وسكنها إلى عبادة . فتحققوا بقوله تعالى :

(وَمَا خَلَقْتَ الْجِنَّةِ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ) الذاريات/٥٦
وهم الحامدون لله في السراء والمضراء . في العسر واليسر . في الرخاء والشدة :

(١) انظر تفسير الكشاف في ذلك .

لأنهم يعلمون أن حكمة الله فوق كل حكمة . وتصريه أحكم تصريف .
وهم السائرون : أى يطربون كل الوسائل في سبيل الرق الذاتي : بالسياحة في
مجال المعرفة . والسياحة في مجال العلم . والسياحة في مجال العبادة : وشعارهم أن
من استوى يوماً فهو معتبر . ومن لم يكن إلى زيادة فهو إلى نقصان . فالسياحة هي
الضرب في جميع المجالات تقرباً من الكمال الذي يحبه الله للمؤمن .

وهم الراکعون الساجدون . أى المصلون في خشوع وخضوع .

وهم الآمرؤن بالمعروف والناهون عن المنكر . بعد أن ائتمروا بالمعروف واتهوا
عن المنكر في أنفسهم . وذلك ما عبر الله عنه سبحانه بقوله : (والحافظون لحدود
الله) ^(١) .

وبعد : فإن الآية الكريمة تنتهي بقوله تعالى : (وبشر المؤمنين) .
والتبشير هنا للمؤمنين الصادقين علم مطلق . بشرهم بالفوز . بشرهم بالأمن .
بشرهم بالسعادة . وبشرهم بالنصر .
ونعود إلى الآية الكريمة من جديد :

(إن الله اشتري من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) ^(٢)
إن هذا العهد والتعاقد بين الله والمؤمنين إنما هو عهد الإيمان يبيع فيه المؤمن نفسه
وماله يقدمها إلى الله فلا يدخل بالمال في سبيله سبحانه . ولا يدخل بالنفس حينما
تقتضي الظروف البذل والتضحية والفدائية .

والإيمان إذن - ومن شرائطه الجود بالمال والنفس - وهو أول خطوة أساسية
جوهرية في طريق النصر بل هو خطوة بدونها لا يكون هناك أبداً أساس مستقيم ،
تعتمد عليه الأمم . ويعتمد عليه القادة في سبيل الخاذا مكان كريم بين الدول .
على أن القرآن لا يعده المؤمن مؤمناً صادقاً إلا إذا كان مجاهداً بماله وبنفسه في
سبيل الله .

(إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم

(١) سورة التوبة آية ١١٢ .

(٢) سورة التوبة آية ١١١

رأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون^(١)
أما إذا كان الإيمان ضعيفاً مزعزعاً متراجحاً فإن نتيجة ذلك تكون تباطؤاً عن
الخروج إلى الجهاد . بل تخلفاً عنه :

(لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم .
والله عالم بالمتقين : إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر . وارتبت
قلوبهم فهم في ربهم يترددون^(٢) .
بل إن وجود العناصر التي لا يملك الإيمان أفقدها في صفوف المجاهدين تضر
قضييهم .

(لخرجوا فيكم مازادوكم إلا خباءً . ولأضعوا خلالكم . يغونكم الفتنة
وفيكم ساعون لهم^(٣) .

وضعفاء الإيمان . ومن لا إيمان عندهم يستخفون حين يبدأ النضال ويتخلفون
عن الجهاد فرحين بذلك .

(فرح المخالفون بمعندهم خلاف رسول الله . وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم
 وأنفسهم في سبيل الله . وقالوا لاتنفروا في الحر . قل نار جهنم أشد حرّاً لو كانوا
يفقهون^(٤) .

ويأمر القرآن الرسول ﷺ أن يعزل هذه العناصر عن معسكر المؤمنين وألا يأذن
لهم بالمشاركة في الجهاد .

(إإن رجلك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج . فقل لن تخرجوا معى
أبداً . ولن تقاتلوا معى عدواً . إنكم رضيتم بالقعود أول مرة . فاقعدوا مع
الخالفين) التوبة/٨٣ .

هذا الإيمان إنما هو إيجابي : يستعد ويهب للامر عدته ولا يدع صغيرة ولا كبيرة
من أمر التعبئة للجهاد إلا يحكمها ، ومن هنا كانت الخطوة (الثانية) في طريق النصر
ممثلة في قوله تعالى :

(١) سورة الحجرات آية : ٤٧ .

(٢) سورة التوبه آيات : ٤٤ ، ٤٥ .

(٣) سورة التوبه آية : ١٥ .

(٤) سورة التوبه آية : ٨١ .

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) الأنفال/ ٦٠
وهذه القوة لا تقتصر على القوة المادية . وإنما تتضمنها وتسع دائريها فتشمل التعبئة الروحية .

وما لاشك فيه أن التعبئة الروحية قوة دافعة نحو الثبات في لقاء العدو والإقدام في شجاعة نحو تحقيق النصر .

.. (يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فتنة فاثبتوه ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) (١)
. والتعبئة الروحية إنما تثبت دعائهما وتؤقِّن ثمارها حينما يكون الهدف من الجهد واضحاً سافراً .

ومن هنا كانت الخطوة الثالثة التي رسماها القرآن في طريق النصر ، وهي وضوح الهدف والمدفُّع القرآني من الجهد ، ولا بأس من ذكره مرة (ثانية) - ليس عرضاً مادياً أو حظاً دنيوياً وما كانت هجارة المجاهد لدنيا يصيّبها ، أو امرأة ينكحها ؛ إنما هجرته إلى الله ورسوله . ومعنى ذلك : أن هدف الجهد إنما هو إعلاء كلمة الله ، وكلمة الله هي الحق . وهي العدالة . وهي الرحمة ، وهي الأخوة ، وهي السلام العالمي ، بالنسبة للفرد في نفسه ، ودمه وماله وعرضه ، أو بالنسبة للأمة في كرامتها وعزتها وكل مقدساتها .

.. (الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله) (٢) .
. والتعبئة الروحية كفيلة بأن تجعل الأمة في جهادها كالبنيان المرصوص ومن هنا كانت الخطوة الرابعة التي رسماها القرآن في سبيل النصر .

(إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) (٣)

(ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين) (٤)

(واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) (٥) .

فإذا ماوسوس الشيطان بنزاع أو خلاف . وإذا ماتحدث النفس بفرقة

(١) سورة الأنفال آية : ٤٥ . (٤) سورة الأنفال آية : ٤٦ .

(٢) سورة النساء آية : ٧٦ . (٥) سورة آل عمران آية . ١٠٣ .

(٣) سورة الصافات آية : ٤ .

وشقاق - فإن طريقة تسويه ذلك مرسومة واضحة :
 (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر
 ذلك خير وأحسن تأويلاً) ^(١) .
 إن الأمة التي تنصر الله باتباعها للدين الحالص قد ضمن الله لها النصر ووعدها
 به ، ووعد الله لا يخلف .

(إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) ^(٢) .
 (ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز) ^(٣) .
 أما الموقف الأخير فهو التفويف لله سبحانه ، والثقة فيه وحده والاعتماد عليه
 لأعلى النفس أو القوة المادية ، أو أي شيء آخر . وقد أعطى الله المسلمين درساً
 قاسياً حينما اعتمدوا على قوتهم وكثتهم ، وعلى تفوقهم وعدتهم وعتادهم وقالوا :
 « لن نغلب اليوم من قلة »
 كان ذلك في غزوة حنين ، ولقد صور الله الموقف تصويراً قوياً فقال سبحانه :
 (لقد نصركم الله في مواطن كثيرة . ويوم حنين . إذ أعجبتكم كثرتكم . فلم
 تغن عنكم شيئاً . وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم ولهم مدربين . ثم أنزل الله
 سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها . وعذب الذين كفروا وذلك
 جزاء الكافرين ، ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء ، والله غفور رحيم) ^(٤) .

(١) سورة النساء آية : ٤٥ .

(٢) سورة محمد آية : ٧ .

(٣) سورة الحج آية : ٤٠ .

(٤) سورة التوبة الآيات : ٢٥ - ٢٧ .

الكتابُ الشَّانِي

النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ، إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا، وَمُبَشِّرًا، وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًّا
إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ، وَسَرَاجًا مُنِيرًا، وَبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ
فَضْلًا كَبِيرًا، وَلَا تَطْعُمُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَدُعُّ أَذَاهُمْ وَتَوَكِّلْ
عَلَى اللَّهِ، وَكَفِيَّ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ الْأَحْزَاب / ٤٥ - ٤٨

تَحْمِيد

١

يتحدث القرآن الكريم عن رسول الله . صلوات الله وسلامه عليه . في كثير من سوره . يقول سبحانه :

(يأيها النبي . إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً) الأحزاب / ٤٥ . ٤٦ .

ويقول سبحانه :

(من يطع الرسول فقد أطاع الله . ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً) النساء / ٨٠ .

ويقول سبحانه :

(قل : إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) آل عمران / ٣١ .

ومن أجل هذه الصلة الإلهية برسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ - أرشدنا الله سبحانه وتعالى إلى اتخاذ الرسول أسوة . فقال سبحانه :

(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله . واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) الأحزاب / ٢١

بل أمرنا سبحانه . أن نأخذ ما آتانا . وأن ننتهي عما نهانا عنه . وهددنا إذا لم نلتزم ذلك . فقال سبحانه :

(وما آتاكم الرسول فخذلوه وما منهاكم عنه فانهوا . واتقوا الله إن الله شديد العقاب) الحشر / ٧

أما السر في ذلك فهو :

- ١ - أَنَّ الرَّسُولَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - لَا يُنْطِقُ عَنِ الْهُوَىِ . وَلَا يُنْحَرِفُ عَنْ صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ وَلَقَدْ أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ . فَقَالَ سَبِّحَانَهُ : (وَالنَّجْمُ إِذَا هُوَى . مَاضِلٌ صَاحِبُكُمْ وَمَاغُوَى . وَمَا يُنْطِقُ عَنِ الْهُوَىِ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) النَّجْم / ٤ .
- ٢ - كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ : حَرَكَةً وَسُكُونًا . إِشَارَةً وَنُطْقًا ، قَلْبًا وَقَالْبًا - يَمْثُلُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ . وَقَدْ كَانَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ . تَطْبِيقًا لِلْقُرْآنِ ، لَقَدْ لَبِسَ الْقُرْآنَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا . لَقَدْ كَانَ قُرْآنًا . وَلَقَدْ وَصَفَتْهُ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا . وَصَفَّا دَقِيقًا . حِينَما سُئِلَتْ عَنْ خَلْقِهِ ، فَقَالَتْ : «كَانَ خَلْقَهُ الْقُرْآنُ»
- وَمِنْ كَانَ خَلْقَهُ الْقُرْآنَ كَانَ أُسْوَةً . وَكَانَ قَدْوَةً . وَكَانَ عَلَى خَلْقِ عَظِيمٍ . وَمِنْ هَنَا وَصَفَ اللَّهُ سَبِّحَانَهُ وَتَعَالَى إِذْ يَقُولُ :
- (وَإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقِ عَظِيمٍ) الْقَلْمَنْ / ٤

٢

وَالْحَقُّ أَنَا حِينَما نَرِيدُ أَنْ نَكُونَ صُورَةً وَاضْعَافَةً تَامَّةً عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - فَإِنَّ الطَّرِيقَ الْوَحِيدَ لِذَلِكَ : إِنَّمَا هُوَ الْإِحْاطَةُ بِالْقُرْآنِ إِحْاطَةً وَاضْعَافَةً تَامَّةً : وَالْإِحْاطَةُ بِالْقُرْآنِ عَلَى هَذَا النَّسْقِ لَيْسَ مِنْ السَّهُولَةِ بِمَكَانٍ . بَلْ لَيْسَ بِمُمْكِنَةٍ : فَالْقُرْآنُ فِي كُلِّ يَوْمٍ يَتَفَتَّحُ عَنْ مَعَانِي جَدِيدَةٍ لِلإِنْسَانِيَّةِ . وَيَتَفَتَّحُ عَنْ مَعَانِي جَدِيدَةٍ لِلشَّخْصِ الْمُتَأْمِلِ الْمُتَدَبِّرِ . وَهَذِهِ الْمَعَانِي الْجَدِيدَةُ : إِنْسَانِيَّةٌ عَامَّةٌ أَوْ فَرْدِيَّةٌ شَخْصِيَّةٌ - إِنَّمَا هُوَ إِيَاضَاحٌ وَتَفْسِيرٌ لِلصُّورَةِ النَّبُوَيَّةِ الْكَرِيمَةِ .

وَالْعَكْسُ أَيْضًا صَحِيحٌ : إِنَّ الْمُتَدَبِّرَ الْمُتَأْمِلَ فِي الصُّورَةِ النَّبُوَيَّةِ الْكَرِيمَةِ عَنْ طَرِيقِ السِّيَرَةِ الصَّحِيحَةِ ، وَالْأَحَادِيثِ الْمُعْتَمَدةِ - يَفْهَمُهُ عَنِ الرَّسُولِ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ كُلَّ يَوْمٍ جَدِيدًا . وَهَذَا الْفَهْمُ إِنَّمَا هُوَ تَفْسِيرٌ وَإِيَاضَاحٌ لِجَوانِبِ مِنْ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ .

لَقَدْ امْتَرَجَ الرَّسُولُ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، بِالْقُرْآنِ - كَمَا قَدَّمَنَا - رُوحًا ، وَقَلْبًا .

وجسمًا ، وامتزج القرآن به عقيدة وأخلاقاً وتشريعاً ، فكان صلوات الله عليه قرآنًا يسير في الناس ، وكان القرآن روحًا ينتقل ، وكان قلباً ينبع ، وكان لساناً ينطق بالهداية والإرشاد .

ولقد كان صلوات الله عليه حريصاً كل الحرص على أن يكون خلق الأمة الإسلامية - القرآن . لقد عمل لذلك طيلة بعثته .

ويحدثنا القرآن الكريم عن موقف الرسول صلوات الله عليه من الأمة فيقول سبحانه :

(لقد جاءكم رسول من أنفسكم . عزيزٌ عليه ما عيتمْ حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) التوبة / ١٢٨ . صلوات الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله . ويتحدث . صلوات الله عليه ، عن حرصه الشديد على هداية أمته فيقول : « مثلي ومثلكم - كمثل رجلٍ أودى ناراً فجعل الجنادب والفراس يقعن فيها . وهو يذهب عنها . وأنا آخذ بمحزركم . عن النار . وأنتم تفعلنون من يدى » . هذه هي صلة الرسول - ﷺ - بربه وهذه هي صلته بأمته .

ولقد ارتفع صلوات الله عليه إلى السماء . بل تجاوزها إلى سدرة المنتهى . ورأى من آيات ربه الكبيرة . لقد ارتفع إلى الأفق الأعلى . وتجاوز بذلك النهايات الكونية . لقد كان فعلاً أدنى من قاب قوسين . فانعم في الأفق الأعلى . وتلقي عن الله مباشرة كيفية الصلة به . وهي الصلاة . ثم . ثم انبسط إلى الأرض سراجاً منيراً . رعوفاً رحيمًا هادياً يدعو إلى الله على بصيرة هو ومن اتبعه . يقول أحد الصالحين : « صعد رسول الله صلوات الله عليه إلى السماء . ثم عاد إلى الأرض . أقسم بالله لو صعدت إلى السماء لما حاولت العودة إلى الأرض مرة أخرى » .

بيد أن الرسول صلوات الله عليه نبي ورسول : فهو متصل بالله دائمًا : إنه في السماء على الدوام . وهو متصل بالبشر . و يؤدي رسالة السماء كاملة غير منقوصة . إنه كان على حد تعبير القرآن : (بشراً رسولاً) الإسراء / ٩٣ فهو ببشريته مع الناس . وهو بسره مع الله إنه مع الناس بإرادته الله وتوجيهه وأمره . إنه مع الناس

بكلمة الله ورسالته . إنه مع الناس رسول من قبل الله . وبهذه المعانى كلها يمكننا أن نقول : إنه دائمًا مع الله ، أو يمكننا أن نقول : إنه - منذ اللحظة الأولى للبعثة - لم ينزل إلى الأرض قط ، وإنما كان دائمًا مع الله سبحانه وتعالى ، فهو صلوات الله عليه يبيت عند ربه ، يقول ﷺ : «لست كهيتكم : أبیت عند ربٍ ..»

٣

(قل : إنما أنا بشرٌ مثلكم . يوحى إلٰي) الكهف / ١١٠
إنه ، صلوات الله عليه : «بشر» ، وما يحول في خلد مسلم أبداً أن يخرجه عن البشرية ، ولكنه صلوات الله عليه «بشر يوحى إليه» .
وما يتأتى أبداً أن يوحى الله إلى بشر إلا إذا أصبح وكأنه قطعة من النور : صفاء نفس ، وطهارة قلب ، وتركيبة روح .
ومنتهى القول فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كُلُّهم

٤

وبعض الناس - حينما يقرأ القرآن الكريم فتمر عليه الآية الكريمة : (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلٰي) - يقف عند كلمة : «بشر» فيحاول التركيز عليها ، وتوجيه الانتباه كلها إليها ، وتحويل الأنظار كلها نحوها ، فيتحدث عن خصائص البشرية العادلة ، ويزيلها ، ويندفع في هذا الاتجاه المنحرف اندفاعاً ، لا يتناسب أبداً وقوله تعالى : (يوحى إلٰي) . بل إنه في اندفاعاته الهوجاء ينسى (يوحى إلٰي) ويهملها إهماً .

إنه ليس بنادر في العصر الحاضر أن يخرب بعض الناس . فيتحدث عن الرسول صلوات الله عليه وعن خطئه - معاذ الله - في الرأى ، وعن إصابته فيه ، ويسير هذا البعض في حديثه أو في كتابته مستنبطاً وحاكمًا ، وينسى في كل ذلك :

(وما ينطق عن الهوى) النجم / ٣ وينسى في كل ذلك : (يوحني إلى) .
وينسى «لست كهشتم» وينسى : (لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم
بعضًا) النور / ٦٣ .

وينسى أن بعض المسائل يمكن أن تكون لها حلول مختلفة كلها صحيحة :
بعضها رفيق رحيم ، وبعضها عادل حاسم . وإن الله سبحانه وتعالى قد بين للأمة
الإسلامية أن رسوله صلوات الله عليه - وهو على صواب دائمًا - إنما يتخذ الحل
الذى يناسب مع ماحلاه الله به من الرأفة ، وما فطره عليه - سبحانه - من
الرحمة ، وهو الحل الذى يناسب طابع الرسالة الإسلامية العام .

(وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين) الأنبياء / ١٠٧

والله ، سبحانه بيشه ذلك في هذه الموضع التي كان من الممكن أن يقف فيها
الرسول - صلوات الله عليه - مع العدالة الحاسمة ، فعدل عن ذلك إلى الرأفة
الرحيمة . إن الله ، سبحانه وتعالى بيشه ذلك إنما يمدح الرسول ، صلوات الله
عليه . ويبين أن متزع الرحمة إنما هو الغالب عليه ، صلوات الله عليه .

ولم يلغ الله - سبحانه - اتجاهًا عامًا سار فيه الرسول . ولم ينقض قضية كلية
أقرها . صلوات الله عليه . ولم ينف مبدأ أثبته رسوله فما كان صلوات الله عليه يسير
إلا على هدى من ربها وعلى بصيرة من أمره . وقد شهد الله له بذلك حيث قال .
(وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله . .) الشورى / ٥٢ . ٥٣ .

وما فعل الله في كل ماتمسك به المنحرفون . وتحل محل فيه المتمحكون إلا بيان
رحمة الرسول . صلوات الله عليه ورأفته : أى أنه - سبحانه - كان يبين في هذه
المواطن فضله . صلوات الله عليه . وأنه - كما وصفه - سبحانه : على خلق
عظيم . والبيان شاسع بين هذه الوجهة الربانية وبين التحدث عن خطأ وصواب .
أوضاع بشرية يركز عليها ولا يلتفت لسواتها .

ولنضرب لذلك مثلا : إن الذين ديدنهم الجدل يتحدثون كثيراً عن قوله .
تعالى . (عفا الله عنك . لم أذنت لهم ؟) التوبة / ٤٣ . ويقدرون مباشرة بقولهم :
إن العفو لا يكون إلا عن خطأ .

وهلؤلاء نقول : إن الأساليب العربية فيها من أمثال هذا الكثير ، ومنه قوله مثلا : غفر الله لك ، لم تشق على نفسك كل هذه المشقة ؟
عفا الله عنك ، لم تعنى نفسك في سبيل هؤلاء ؟ وكان القائل يقول
رضي الله عنك ، لم ترهق نفسك كل هذا الإرهاق .
إن الآية القرآنية من هذا الوادى .

وبضم هذه الآية الكريمة إلى أختها التي في سورة النور : (فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذنْ لمن شئت منهم) آية : ٦٢ تجده المعنى واضحاً جلياً ، وهو أن الله - سبحانه - فوض الأمر لنبيه ، صلوات الله عليه ، في أن يأذن لهم أو لا يأذن .
ليس النبي إذن معايباً بهذه الآية - وحاشاه - بل كان عليه مخيراً ، فلما أذن لهم ، أعلمته الله أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا ، ولتخللوا بسبب نفاقهم ، وأنه مع ذلك لا حرج عليه في الإذن لهم إنها آية مدح للرسول غاية في الرقة . . . ومن غير شك قد صدر الإذن لهم عن قلب رحيم ، وعن هذا القلب الرحيم ، وعن هذه الرحمة الفياضة - كان الرسول صلوات الله عليه يصدر في أحکامه . وما كان في ذلك إلا متابعاً لقوله تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) الأنبياء / ١٠٧ .
وهكذا الأمر في كل ما يماري فيه المارون .

٥

ومع ذلك فإننا نزيد الأمر وضوحاً في الفرق بين من يركز على «بشر» ومن يركز على «يوحى إلى» لأهميته الكبرى ، فنقص القصة التالية ذات المغزى العميق ، والقصة يرويها ابن عطاء الله السكندري - رضي الله عنه - في شرحه لقصيدة ولي الله : «أبو مدين» رضي الله عنه ، يقول :
زار بعض السلاطين ضريح أبي يزيد - رضي الله عنه - وقال :
هل هنا أحد من اجتمع بأبي يزيد ؟
فأشير إلىشيخ كبير في السن كان حاضراً هناك .
فقال له : هل سمعت شيئاً من كلام أبي يزيد ؟

قال : نعم سمعته قال : «من زارني لاتحرقه النار»
فاستغرب السلطان ذلك الكلام . فقال : كيف يقول أبو يزيد ذلك .
وأبو جهل رأى النبي - ﷺ - وتحرقه النار ؟

قال ذلك الشيخ للسلطان : أبو جهل لم ير النبي - ﷺ - إنما رأى «يتيم أبي طالب» ولو رآه - ﷺ - لم تحرقه النار .

فهم السلطان كلامه ، وأعجبه هذا الجواب منه . أى أنه لم يره بالتعظيم والإكرام والأسوة .. واعتقد أنه رسول الله . ولو رآه بهذا المعنى لم تحرقه النار لكنه رآه باحتقار . واعتقد أنه «يتيم أبي طالب» : فلم تنفعه تلك الرؤية .
ولستنا هنا بقصد الحديث عن أبي يزيد - رضي الله عنه - وإنما نريد أن نتحدث عن كلمة الشيخ للسلطان من أن أبو جهل لم ير النبي - ﷺ - وإنما رأى «يتيم أبي طالب»

هذه النظرة لأبي جهل هي التي نريد أن يتزه المؤمنون عنها .
والمؤمنون يحمد الله لا يقعن في هذا الإمام متعمدين : وإنما يتسلل هذا الإمام إلى بعض النفوس في صورة لاشعورية عندما يركز بعضهم على بشريّة الرسول -- صلوات الله عليه -- وكأنه لاشيء فيه غير البشرية .

ومن العريب : أنه - حينما يتحدثون عن البشرية ، ويركزون عليها - يعتبرون أنفسهم تقدميين متطورين وفاثم أن هذه النظرة لأبي جهل إنما هي النظرة التي يتبناها المستشركون والمبشرون في العصر الحاضر . ليقللوا من شأن الرسول في نظر مواطنיהם .

وما كان المستشركون في تركيزهم على بشريّة الرسول إلا متابعين في ذلك زعيمهم الأكبر - في هذه الترعة - وهو أبو جهل . وكل من يركز على بشريّة الرسول من الكتاب المسلمين إنما هو بذلك يتبع المستشركون والمبشرون في هذه الترعة أو يتبع أبو جهل . وهم في ذلك ليسوا تقدميين ولا متطورين : وإنما هم من الرجعيين حيث ترجع فكرتهم إلى ما قبل ثلاثة عشر قرناً مضت يتزعمهم فيها أبو الحجل كله . وأبو الظلمة القلبية كلها !

ليس هناك إذن اجتهد وخطأ وصواب ، وإنما هناك تصرفات تصدر عن الكرم والرحمة ، فيتحدث الله مبيناً طبيعة رسوله الكريمة وفطرته الرحيمة ورأفته الواضحة ، ويبيّن في الوقت نفسه أن بعض هؤلاء الذين فاضت عليهم هذه الرحمة ليسوا جديرين بها ، وليسوا أهلاً لها لفساد فطتهم وسوء نوايهم .

ومن الحقائق المعروفة أن الإنسان يميل إلى التركيز على «بشر» أو على «يوحي إلى» على حسب قوة شعوره الديني وضعفه : فالذى لا إيمان له لا يرى إلا البشرية ، ومن ضعف إيمانه يرکز على البشرية . وينحى التركيز على البشرية كلها قوى الإيمان ، ويزداد التركيز على . «يوحي إلى» كلما ازداد الإيمان : حتى يصل الإنسان إلى ألا يرى أو لا يكاد يرى إلا «يوحي إلى» صلوات الله وسلامه عليك ، يا سيدى يارسول الله .

وهناك إذن طرفان يمثلان فريقين من الناس طرف : « بشراً » أو « قل : إنما أنا بشر مثلكم » .

وطرف : « يوحى إلى » أو « رسولًا » وبين الطرفين يتارجح عدد لا يحصى من المسلمين نزواً وارتفاعاً ، انخفاضاً وسمواً .

وإن مقاييس الإيمان قوة وضعفاً مقاييس درجة الإيمان الذي لا يخطئ . إنما هو ما وقفت في القلب أو غلب عليه ، من « البشرية » أو من : « يوحى إلى » إنما يمثلان ما يوضع في كفتي ميزان . .

دع ما ادعته النصارى في نبيهم
واحكِم بما شئت مدحًا فيه واحتكم

٦

ولعلك تسأله عن هذا الذى لا يرى . أو لا يكاد يرى إلا : « يوحى إلى ماذا يرى ؟ وكيف يرى ؟

ماهى النظرة التي تناهى بنا عن : « يتيم أبي طالب » لتقرينا من : « الأسوة » ؟
كيف ينبغي أن تكون نظرة المؤمن لرسول الله صلوات الله عليه ؟
والواقع أن الصورة الكاملة عن رسول الله - صلوات الله عليه - يلزمها أن

يصل الإنسان إلى مستوى - صلوات الله عليه - أو إلى ما يقرب من مستوى وذلك لا يتأتى .

بيد أنه إذا استحال ذلك فإنه من الميسور أن نورد صورتين : إحداهما جاهلية والأخرى إسلامية . والصورتان لسيدنا عمر رضي الله عنه :

أما الصورة الأولى : فإنها «يتيم أبي طالب» كان سيدنا عمر يراها قبل أن يهديه الله للإسلام . وأراد سيدنا عمر أن يقتل «يتيم أبي طالب» حتى لا تفرق كلمة القرشيين بسببه . ولكن دعاء رسول الله صلوات الله عليه : «اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجالين إليك» : عمرو بن هشام . أو بعمرو بن الخطاب «كانت قد استجابت لخير سيدنا عمر ، فهداه الله للإسلام . ولا زم الرسول صلوات الله عليه ، فناله من بركاته . ومن خيره ماهيأ لأن يكون الخليفة الثاني للأمة الإسلامية أجمع ، وأن يعز الله الإسلام به في حياة الرسول صلوات الله عليه . وبعد وفاته . إن سيدنا عمر ، هذا الذي لم يكن للشيطان عليه من سبيل ، والذي كان إذا سلك طريقاً سلك الشيطان طريقة آخر خشية منه ورعبه . والذي نزل القرآن أحيناً مصدقاً لما رأه سيدنا عمر ، صاحب : «ياسارية الجبل» - يرسم لنا صورة إسلامية لسيده . وحبيبه . وصديقه . ونبيه . صلوات الله عليه .

ولكن هذه الصورة هي صورة سيدنا عمر إنها تناسب مستوى سيدنا عمر . وهو من غير شك عظيم .

ماذا كان يمكن أن يقول سيدنا أبو بكر رضوان الله عليه ؟ وماذا كان يمكن أن يقول سيدنا علي . رضي الله عنه ؟ وماذا كان يمكن أن يكون وصف سيدنا جبريل لو وصفه ؟

إن الله سبحانه وتعالى يقول عنه صلوات الله عليه :

(وإنك لعلى خلق عظيم) القلم / ٤ .

وما كانت الكلمة السيدة عائشة - رضوان الله عليها - «كان خلقه القرآن» إلا تفسيراً لما أشارت إليه الآية الكريمة . أيمكنك أن تتصور المدى الذي تبلغه الآية الكريمة ، وتفسير السيدة عائشة لها ؟ أيتاً لك أن تخيط بالقرآن ؟ أستغفر الله وأتوب إليه .

ولنعد إلى الصورة التي حاول رسماها صاحب : « ياسارية الجبل » لنعد إليها لتبهـا شارحين لبعض حوادثـها ، موضحين لبعض أنبـتها ، وسنـجعل الإيـضاح بين أقوـاس .

بعد موـت رسول الله - ﷺ - سمعـ سيدـنا عمرـ يـبكيـ ويـقولـ : « بـأـيـ أـنتـ وـأـمـيـ يـارـسـولـ اللهـ ، لـقـدـ كـانـ جـذـعـ تـخـطـبـ النـاسـ عـلـيـهـ . فـلـمـ كـثـرـ النـاسـ اـتـخـذـتـ منـبـراـ ، لـتـسـمـعـهـمـ فـحـنـ الجـذـعـ لـفـرـاقـكـ حـتـىـ جـعـلـتـ يـدـكـ عـلـيـهـ فـسـكـنـ ، فـأـمـتـكـ كـانـتـ أـوـلـىـ بـالـخـنـينـ إـلـيـكـ لـمـ فـارـقـتـهاـ : يـرـوـيـ الـبـخـارـىـ وـمـسـلـمـ وـكـتـبـ السـنـةـ كـالـهـاـ تـقـرـيـبـاـ وـكـتـبـ السـيـرـةـ » « حـادـثـ حـنـينـ الجـذـعـ » بـعـدـ رـوـاـيـاتـ وـنـقـلـ هـنـاـ إـحـدىـ رـوـاـيـاتـ الـبـخـارـىـ . عنـ اـبـنـ عـمـ رـضـىـ اللـهـ عـنـهـاـ - قـالـ : « كـانـ النـبـيـ ﷺ ، يـخـطـبـ إـلـىـ جـذـعـ ، فـلـمـ اـتـخـذـ المـنـبـرـ تـحـولـ إـلـيـهـ ، فـحـنـ الجـذـعـ ، فـأـتـاهـ ، فـسـحـ يـدـهـ عـلـيـهـ بـأـيـ أـنتـ وـأـمـيـ يـارـسـولـ اللهـ ، لـقـدـ بـلـغـ مـنـ فـضـيـلـتـكـ عـنـهـ - أـنـ جـعـلـ طـاعـتـكـ طـاعـتـهـ ، فـقـالـ عـزـ وـجـلـ » .

(من يـطـعـ الرـسـولـ فـقـدـ اـطـاعـ اللـهـ) النـسـاءـ / ٨٠ .

بـأـيـ أـنتـ وـأـمـيـ يـارـسـولـ اللهـ ، لـقـدـ بـلـغـ مـنـ فـضـيـلـتـكـ عـنـهـ أـنـ بـعـثـكـ آخـرـ الـأـنـبـيـاءـ ، وـذـكـرـكـ فـيـ أـوـلـهـمـ ، فـقـالـ عـزـ وـجـلـ :

(وـإـذـ أـخـذـنـاـ مـنـ الـنـبـيـنـ مـيـثـاقـهـمـ وـمـنـكـ وـمـنـ نـوـحـ وـإـبـرـاهـيمـ) الـأـحـزـابـ / ٧ .
بـأـيـ أـنتـ يـارـسـولـ اللهـ ، لـقـدـ بـلـغـ مـنـ فـضـيـلـتـكـ عـنـهـ - أـنـ أـهـلـ النـارـ يـوـدـونـ أـنـ يـكـوـنـواـ قـدـ أـطـاعـوـكـ وـهـمـ بـيـنـ أـطـبـاقـهـاـ يـعـذـبـونـ .

(يـقـولـونـ يـاـلـيـتـنـاـ أـطـعـنـاـ اللـهـ ، وـأـطـعـنـاـ الرـسـوـلـ) الـأـحـزـابـ / ٦٦ .

بـأـيـ أـنتـ وـأـمـيـ يـارـسـولـ اللهـ ، لـئـنـ كـانـ مـوـسـىـ بـنـ عـمـرـانـ أـعـطـاهـ اللـهـ ، حـجـراـ تـسـفـجـرـ مـنـ الـأـنـهـارـ لـيـسـ ذـلـكـ بـأـعـجـبـ مـنـ أـصـابـعـكـ حـيـنـ نـبـعـ مـنـهـاـ الـمـاءـ ، صـلـىـ اللـهـ عـلـيـكـ .

إـنـ نـبـعـ الـمـاءـ مـنـ بـيـنـ أـصـابـعـهـ الشـرـيفـةـ صـلـوـاتـ اللـهـ عـلـيـهـ ، لـمـ يـحـدـثـ مـرـةـ وـاحـدـةـ : وـإـنـمـاـ حـدـثـ عـدـدـ مـرـاتـ ، رـوـاهـ الـبـخـارـىـ وـمـسـلـمـ وـغـيـرـهـمـ مـنـ كـتـبـ السـنـةـ ، وـرـوـتـهـ كـتـبـ السـيـرـةـ بـرـوـاـيـاتـ عـدـدـ فـيـ ظـرـوفـ مـخـلـفـةـ : مـاـ يـدـلـ عـلـىـ كـثـرـةـ جـدـوـثـهـ .

: وتنقل هنا إحدى روايات الإمام البخاري :

عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنها - قال : « عطش الناس يوم الحديبية . والنبي - عليه السلام - بين يديه ركوة . فتوضاً فجهش الناس (فأسرعوا وتکاثروا) نحوه فقال : مالكم » ؟

قالوا : ليس عندنا ماء نتوضاً ولا نشرب إلا ما بين يديك . فوضع يده في الركوة . فجعل الماء يثور بين أصابعه . كأمثال العيون . فشرينا وتوضاً .

قلت : كم كنتم ؟

قال : لو كنا مائة ألف لكفانا . كنا خمس عشرة مائة) .

بأي أنت وأمي يارسول الله : لئن كان سليمان بن داود أعطاه الله الريح غدوها شهر ، ورواحها شهر ماذا بأعجب من البراق حين سررت عليه ثم وصلت إلى السماء السابعة ، ثم صليت الصبح من ليلتك بالأبطح ، صلى الله عليك : (ستتحدث ، في فصل خاص عن الإسراء والمعراج) .

بأي أنت وأمي يارسول الله : لئن كان عيسى ابن مريم ، أعطاه الله إحياء الموتى - ماذا بأعجب من الشاة المسمومة حين كلمتك ، وهي مشوية فقالت لك الدراع : (لا تأكلني فإني مسمومة) .

يروى ابن سعد في طبقاته :

آخرنا سعيد بن محمد الثقفي . عن محمد بن عمرو . عن أبي سلمة قال : « كان رسول الله - عليه السلام - لا يأكل الصدقة . ويأكل المدية . فأهدت إليه يهودية شاة مصلبة . فأكل رسول الله - عليه السلام - منها هو وأصحابه . فقالت : إني مسمومة ، فقال لأصحابه : ارفعوا أيديكم . فإنها قد أخبرت أنها مسمومة » قال : فرفعوا أيديهم ، قال : فات بشر بن البراء ، فأرسل إليها الرسول - عليه السلام - فقال : « ماحملك على ما صنعت؟ » فقالت : أردت أن أعلم : إن كنتنبياً لم يضرك . وإن كنت ملكاً أرحت الناس منك ! قال : فأمر بها فقتلت » اهـ .
بأي أنت وأمي يارسول الله . لقد دعا نوح . على قومه فقال :

(رب لاتذر على الأرض من الكافرين دياراً) نوح / ٢٦

ولو دعوت علينا بمثابها هلكنا كلنا : فلقد وطى ظهرك : تروي كتب السيرة أن عقبة بن أبي معيط وطى على رقبته الشريفة وهو ساجد عند الكعبة حتى كادت عيناه تبرزان - وأدمى وجهك ، وكسرت رباعيتك ، فأبىت أن تقول إلا خيراً ، فقلت : «اللهم اغفر لقومي ، فإنهم لا يعلمون» .

(لقد دمى وجهه . صلوات الله عليه . وكسرت رباعيته في (غزوة أحد) .
روى ذلك البخاري ومسلم . أما حديث :

(اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون) فقد رواه البيهقي في دلائل النبوة ، بأبي أنت وأمي يارسول الله ، لقد اتبعتك في قلة سنك . وقصر عمرك مالم يتبع نوحاً . في كثرة سنه . وطول عمره . ولقد آمن بك الكثير وما آمن معه إلا القليل .
بأبي أنت وأمي يارسول الله ، لو لم تجالس إلا كفشاً لك ماجالستنا . ولو لم تنكح إلا كفشاً لك مانكحت إلينا .

ولو لم تواكل إلا كفشاً لك ما واكلتنا ، فقد والله جالستنا ونكحت إلينا وواكلتنا . ولبس الصوف ، وركبت الحمار ، وأردفت خلفك . ووضعت طعامك على الأرض تواضعاً منك - عَزِيزُهُ !

ومن الطريف : أن نذكر صورة أخرى استنتاجية . استنتاجها رجل لم يكن يعرف الرسول - صلوات الله عليه ، ولكنه رجل واسع الأفق رحب الخيال . دقيق التفكير .

وقد اتخذ الاحتياط اللازم حتى لا يشوب الصورة أى مطعن .
هذا الرجل هو : «هرقل» .

أثار كتاب رسول الله صلوات الله عليه - يدعوه إلى الإسلام . فلم يحمل الكتاب ، ولم يزقه ؛ وإنما قرأه في عناء وانتباه ، ثم أراد أن يكون صورة صحيحة عن صاحب الخطاب . فسأل هل كان بالمدينة بعض العرب الذين يعرفون الرسول ؟
فقيل له : إن في المدينة تجاراً من مكة . يعرفون محمدًا باعتباره من مواطنهم . فأمر بإحضارهم . وكان منهم أبو سفيان :

وسائل هرقل عن أقربهم نسبياً إلى الرسول . فكان أبو سفيان ، فقربه منه . . .
وأدنىه . وقال لهم : إنني سائله عن أمور فإن كذبتي فكذبوه
يقول : أيوه سفيان . فوالله لولا الحياة من أن يأثروا على كذباً ، لكذبت عليه .
وسئل المقدمات والأسئلة الأولى لأنها واضحة من النتائج التي انتهى إليها
هرقل .

إن هرقل بعد أن انتهى من الأسئلة بدأ - عن طريق الترجمان - يقول
لأبي سفيان على مشهد من الملأ الحاضر من أصحاب هرقل . ومن أصحاب أبي
سفيان : سألك عن نسبة :
فذكرت أنه فيكم ذو نسب .

فكذلك الرسل : تبعث في نسب قومها .

وسألك : هل قال أحد منكم هذا القول ؟

فذكرت : أن لا

فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت : رجل يأتسي يقول قبله .

وسألك : هل كان من آبائه من ملك ؟

فذكرت : أن لا

قلت : فلو كان من آبائه من ملك قلت : رجل يطاب ملك أبيه .

وسألك : هل كنتم تتهمنه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

فذكرت : أن لا

فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكتذب على الله

وسألك : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاءهم ؟

فذكرت : أن ضعفاءهم اتبعوه .

وهم : أتباع الرسل .

وسألك : أيزيدون أم ينقضون ؟

فذكرت : أنهم يزيدون .

وكذلك أمر الإيمان حتى يتم .

وسائلك : أيرتد أحد سخطةً لدینه بعد أن يدخل فيه ؟

فذكرت : أن لا

وكذلك الإيمان حين تختلط بشاشته القلوب .

وسائلك : هل يغدر ؟

فذكرت : أن لا

وكذلك الرسل : لاتغدر .

وسائلك : بم يأمركم ؟

فذكرت : أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً . وينهاكم عن عبادة الأوثان . ويأمركم بالصلوة ، والصدق ، والعفاف . .

فإن كان ماتقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين !

وقد كنت أعلم أنه خارج . لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أني أعلم أنني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه .

هذه - الصورة التي كونها هرقل بمنطقه ، ويمكن أن يكون مثيلات لها كل إنسان اتسع أفقه ، ورحب تفكيره ، وكل إنسان يصدق الله والحق : لابد أن ينتهي بما انتهى إليه هرقل ، من قوله « لو كنت عنده لغسلت عن قدمه » ، وإنما يغسل عن قدمه من أجل : « يوحى إلى » إذ أن من اصطفاه الله لرسالته جدير بأن يكون أهلاً لذلك :

بيد أن هذه النهاية التي انتهى إليها هرقل إنما هي الشعار الدائم الذي لا ينتهي بانتقال الرسول إلا الملا الأعلى : فالرسول حتى يبينا الآن برسالته وهديه وتعاليمه ، والغسل عن قدمه الآن ، أو بتعبير آخر : احترامه - إنما هو باتباع هديه ، والتزام رسالته ، وتقديره تقديرأً يناسبُ اصطفاء الله له . عليه.

ولقد ركز هرقل نوعاً ما على الصدق والإخلاص ، والواقع أن صورة الصدق والإخلاص كان يراهما كل من عرف الرسول عليه . ولم تعممه عصبية . أو حسد أو هوى .

على أن صورة الصدق والإخلاص كانت سمة من السمات التي اتصف بها

الرسول قبل بعثته . وبعد بعثته . صلوات الله عليه ، لقد لازمه طيلة حياته . لقد كان مجرد الخبر يلقى صلوات الله عليه ، يأخذه أعدى أعدائه على أنه واقع لا محالة : فهذا أمية بن خلف - عدو لدود - يتلاحمي هو وسعد بن معاذ رضي الله عنه ، يريده أن يمنعه من الطواف بالكعبة . فيقول له سعد بن معاذ في حدة مناقشة : لقد سمعت رسول الله . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهِ وَسَلَّمَ يقول : إنه قاتلك ويضطرب قلب أمية بن خلف . ويسأل في لفحة وضعف وتخاذل : أهو قال ذلك حقاً ؟ فلما أكد له سعد بن معاذ الخبر أسقط في يده . وقال : لئن كان قال ذلك لقد صدق . وقتل أمية بن خلف يوم بدر . على أن هذه الصورة تمثل في وضوح بين حينها أعلن رسول الله . صلوات الله عليه إلى قريش نبوته . فقال لهم :

«أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً وراء هذا الوادي تريد أن تغير عليكم . أكنتم تصدقونى ؟»

لقد كانت إجابتهم عن هذا السؤال تعبر عن الحقيقة التي لمسوها فيه . لقد قالوا : «نعم . أنت عندنا غير متهم . وما جربنا عليك كذباً قط » . . . وصورة أخرى ، صورة لم يرتب لها ترتيب مروي ، ولم يؤد إليها منطق محكم ، صورة لم تكن نتيجة عشرة طويلة ، ولا رفقة قريبة ، وإنما جاءت على البدية ، وأوحت بها الملاحظة السليمة .

إنها الصورة التي كونتها عنه . صلوات الله عليه أم معبد الحزاوية . وهي صورة لا تخص الجانب المعنى منه ، وإنما تتصل - على الأخص - بالجانب الظاهر . وأردنا أن نشيها هنا . لثبت بها : «هيئة» وظاهراً بعد أن ثبتنا زوايا من المعنيات . وجوانب من التقدير والإجلال . إن الصورة التي نشيها الآن مجرد وصف إنها تعبير عن ملاحظة .

هاجر رسول الله صلوات الله عليه من مكة إلى المدينة يرافقه أبو بكر رضي الله عنه . وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر ودليلهم : عبد الله بن أريقط . مرروا بخيمة أم معبد الحزاوية ، وكانت امرأة . قوية الأخلاق عفيفة . تقابل الرجال . فتححدث إليهم وتستضيفهم . وسألها الركب عن تمر أو لحم يشترونه . فلم

يصيروا عندها شيئاً من ذلك . فقد كانت سنة من السنين العجاف .

فقالت لهم :

والله لو كان عندنا شيء ما أعزكم القرى ؛ فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في ركن الحنمة فقال :

«ما هذه الشاة ، يا أم عبد؟» قالت :

هذه شاة خلفها التعب عن الغنم .

فقال صلوات الله عليه : «هل بها من لبن؟» قالت :

هي أجهد من ذلك .

قال : «أتاذنين أن أحليها؟»

قالت : نعم . بأبي أنت وأمي إن رأيت حلبًا .

فدعى رسول الله ﷺ بالشاة ، فسخن ضرعها ، وذكر اسم الله وقال :

«اللهم بارك لها في شاتها»

فامتلا ضرع الشاة ، ودر لها ، فدعى ياناء لها كبير ، فحلب فيه حتى ملأه

فسقى أم عبد ، فشربت حتى رويت ، وسقى أصحابه حتى رووا ، وشرب ،

عليه آخرين ، وقال :

«ساق القوم آخرهم»

فسربوا جميعاً مرة بعد مرة .

ثم حلب فيه مرة أخرى عوداً على بدء ، فغادروه عندها . ثم ارتحلوا عنها . فما

لبثت أن جاء زوجها يسوق أعزآ عجافاً هزلي ، فلما رأى اللبن عجب واستغرب

وقال :

«من أين لكم هذا ولا حلوبة في البيت؟»

قالت : لا ، والله ، إلا أنه من بنا رجل مبارك كان من حديثه ، كيت وكيت .

قال : والله إني لأراه صاحب قريش الذي يطلب ، صفيه لي يا أم عبد؟

قالت : رأيت رجلاً ظاهروضاءة ، متبلج (شرق) الوجه ، حسن الخلق ،

لم تعبه ثجالة (ضخامة البطن) ولم تزر به صعلة (لم يشنه صغر الرأس) وسم قسم .

في عينيه دَعَجْ ، وفي أشفاره وطف (طويل شعر الأجنان) وفي صوته صحل (رخجم الصوت) أحور أكحل أزج أقرن ، شديد سواد الشعر ، في عنقه سَطَحْ (ارتفاع وطول) ، وفي لحيته كثافة ، إذا صمت فعليه الوقار ، وإذا تكلم سما وعلاه الباء ، وكان منطقه خرزات نظم يتهدرون ، حلو المنطق فصل ، لائزرا ولا هذر (لاعى فيه ولاثررة في كلامه) أجهر الناس ، وأجملهم من بعيد ، وأحلاهم وأحسنهم من قريب ، ربعة (وسط ما بين الطول والقصر) لاشتئه (تبغضه) من طول ، ولا تقتسمه عين (تحقره) من قصر ، غصن بين غصين فهو أنضر الثلاثة منظراً ، وأحسنهم قدرأً ، له رفقاء يحفون به ، إذا قال استمعوا لقوله ، وإذا أمر تبادروا إلى أمره ، محفود (يسرع أصحابه في طاعته) ، محشود (يحتشد الناس حوله) لا عايش ولا منفذ (غير محرف في الكلام)

قال أبو معبد : هذا والله صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر . ولو كنت وافقته يا أم معبد لتلمست أن أصحابه . ولأ فعل إن وجدت لذلك سبيلاً . هذه هي الصورة التي حاولت أم معبد رسماها .

أما سيدنا عمرو بن العاص . فإنه يقول . في صراحة وصدق – عندما حضرته الوفاة وعندما تذكر الماضي فخنقته العبرات وتحدثت مع ابنه عن أشياء عده في صورة مؤثرة : «ما كان أحد أحب إلى من رسول الله ، عليه السلام ، ولا أجل في عيني منه ، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له ، ولو سئلت أن أصفه ما أطبق ؟ لأنني لم أكن أملأ عيني منه !» .

٧

والآن نريد أن نتساءل : ماهي الصورة التي نريد أن نرسمها في هذا الكتاب ؟ ونريد أن نقول : إن هذه الصورة التي نحاول رسماها ليست صورة مبتدعة ولا مخترعة ، إنها صورة نحاول جاهدين ، أن تكون مستمددة من التاريخ الصحيح . بيد أننا نعود فنقول : إننا لانرسم صورة كاملة : فالصورة الكاملة لايتأنى لمثلنا أن يرسمها ، ونحن هنا إنما نحاول رسم جملة من الروايا شاعرين بتقصيرنا معرفين

بعجزنا : ولكن أملنا كبير في أن تكون هذه الصورة باعثة لتصحيح بعض الأوضاع ، وأن تكون على مافيها من عجز وقصور ممثلاً لبعض مانكته لسيد ولد آدم : من حب وإيمان . وأن تكون بذلك شفيعة لنا عند الله ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

ومع هذه الزوايا التي نحاول رسماها ، فإنه لا يعزب أبداً عن بالنا قول إمامنا البوصيري - رضي الله عنه ، عن الرسول ، صلوات الله عليه - هذه الأبيات التي تعبّر عن الحقيقة تعبيراً صادقاً :

للقرب والبعد فيه غير مُنْفَحِّم صغيرة وتُكِلُ الطرف من أمر قوم نیام تسلا عنده بالْحُلْم وأنه خير خلق الله كلهم	أعيَا الورى فهم معناه فليس يرى كالشمس تظهر للعينين من بعد وكيف يدرك في الدنيا حقيقته فيبلغ العلم فيه أنه بشر
-------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------	-----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------

الفصل الأول

النسب الشريف

أبان مولده عن طيب عنصره عن طيب مبتدأ منه وختتم
يقول صلوات الله عليه فيها رواه الإمام مسلم :
« إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة ،
واصطفى من بنى كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفاني من بنى
هاشم » .

وهو صلوات الله عليه : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن
عبد مناف ، بن قصى ..

ويصل نسبة إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام :
ولا نريد هنا أن نتحدث عن النسب الشريف من إبراهيم ، عليه السلام إلى
محمد صلوات الله عليه ، وإنما نريد أن نتحدث عن نسبة القريب بادئين من
قصى .

قصى :

كان قصى عظيم الشرف كثير المال ، وكانت خزاعة في عهده ، وبنو بكر يتولون
البيت الحرام وأمر مكة . ورأى قصى أن قريشاً إنما هي الوراث الشرعى لـ إسماعيل
فهي فرعته^(١) وصريح ولده ، فكلم رجالاً من قريش وبنى كنانة ، ودعاهم إلى
إخراج خزاعة وبني بكر من مكة ، وقال : نحن أولى بهذا منهم .
وأخذ قصى في تدبير الأمر وإحكامه ، ولم تكن المسألة سهلة ميسرة ، وكان
لا مفر من الحرب فيها ، وقتل الطرفان قتالاً شديداً ، وكانت الغلبة في النهاية
لقصى .

ولما فرغ من نفي خزاعة وبني بكر عن مكة تجمعت إليه قريش - على حسب

(١) سلالاته

ما يروى ابن سعد في «طبقاته الكبرى» فسميت يومئذ قريشاً^(١) لحال تجمعها.

ومما يروى عن ابن عباس رضي الله عنها أنه قال :

«كان قصى بن كلاب أول ولد كعب بن لؤي ، أصاب ملكاً ، أطاع له به قومه ، فكان شريف أهل مكة لا ينزع فيها ، فابتلى دار الندوة ، وجعل بابها إلى البيت ، ففيها يكون أمر قريش كلهم ، وما أرادوا من نكاح أو حرب ، أو مشورة ، فيما ينوبهم : حتى إن كانت الحاربة تبلغ أن تدرع ، فما يشق درعها إلا فيها ، ثم ينطلق بها إلى أهلها ، ولا يقدرون لواء حرب لهم ولا في قوم غيرهم إلا في دار الندوة : يعقده لهم قصى . ولا يُعذر^(٢) لهم غلام إلا في دار الندوة ، ولا تخرج غير^(٣) من قريش فيرحلون إلا منها ، ولا يقدمون إلا نزلوا فيها تشريفاً له . وتيمناً برأيه ، ومعرفة بفضله : ويتبعون أمره كالذين المتبوع : لا يعمل بغیره في حياته . وبعد موته . وكانت إليه الحجابة^(٤) ، والسباية^(٥) والرفادة^(٦) ، واللواء^(٧) ، والندوة^(٨) ، وحكم مكة كلهم . وكان ي عشر^(٩) من دخل مكة سوى أهلها . قال : وإنما سميت دار الندوة ، لأن قريشاً كانوا فيها : أى يجتمعون للخير وللشر . والندي : مجتمع القوم : إذا اجتمعوا^(١٠) .

ووسم قصى مكة أحياء . وخصص كل قوم من قريش بمحى ، وضاقت مكة بأهلها ، وكانت كثيرة الشجر في الحرم . وكانت قريش تهاب قطع الشجر في الحرم ، فأمرهم قصى بقطعه ، وقال : إنما تقطعونه لمنازلكم ولخططكم ؛ بهلة^(١١) الله على من أراد فساداً . وقطع هو بيده . وأعوانه . فقطعت - حيثذا - قريش . وسمته : « مجمعاً » لما جمع من أمرها . وتيمنت به وبأمره .

وقبل موته أعطى مناصب الشرف كلها - دار الندوة ، والحجابة ، والسباية .

(١) قبل في سبب التسمية آراء غير ذلك .

(٢) لا يحيتن .

(٣) قافلة .

(٧) للحرب .

(٨) للمشورة .

(٩) يأخذ منهم العشر .

(٤) سدانة البيت .

(٥) سقما الحجيج .

(٦) إطعام الحجيج .

(١٠) انظر طبقات ابن سعد ص ٥٠ .

(١١) أى لعنته .

واللواء ، والرفادة - أكابر أبنائه سنا ، وهو : عبد الدار .
وكان من أبنائه : عبد مناف .

عبد مناف :

وما يذكر بالنسبة لعبد مناف - أن رسول الله - ﷺ اقتصر عليه حين أنزل الله تعالى ، عليه :
(وأنذير عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) الشعراً / ٢١٤ .

فإنه حينما نزلت هذه الآية الكريمة ، واجتمع إليه بنو عبد مناف تلبية لندائهم .
قال لهم :

« إن الله قد أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين ، وأنتم الأقربون من قريش ، وإن
لا أملك لكم من الله حظاً . ولا من الآخرة نصيباً ، إلا أن تقولوا :
لا إله إلا الله ، فأشهد بها لكم عند ربكم ، وتدينون لكم بها العرب ، وتذل
لهم بها العجم » .

هاشم :

وولد عبد مناف بن قصى ستة نفر ، وست نسوة ، وكان من بينهم ، هاشم بن عبد مناف . واسمها : عمرو وهو الذي عقد الحلف لقريش من هرقل . من أجل أن تختلف إلى الشام آمنة مطمئنة .

وهاشم هو صاحب إيلاف قريش . وإيلاف قريش هو دأبه وعادتها : لقد
كان هو أول من سن الرحلتين . لقريش . ترحل إحداهما في الشتاء إلى اليمن . وإلى
الحبشة : إلى النجاشي فيكرمه ويهدى إليه المدابيا ; ورحلة الصيف إلى الشام وإلى
غزة وربما بلغ : أنقرة . فيدخل على قيصر . فيكرمه ويهدى إليه المدابيا ^(١)
ثم أصابت قريش سنوات جدب عجاف ذهبت بالأموال . فخرج هاشم إلى
الشام . فأمر بخبيز كثير . فخبيز له . فحمله في الغرائر على الإبل . حتى وافى مكة .

(١) انظر طبقات ابن سعد .

فهم ذلك الخبز : يعني : كسره ، وترده ، ونحر تلك الإبل ، ثم أمر الطهاة ، فطبوخوا ، وقدم الطعام لأهل مكة ، فأشبعهم وكان ذلك أول الحياة بعد السنة التي أصابتهم ، فسمى بذلك : هاشماً .

وكان هاشم رجلاً شريفاً طموحاً ذكياً ، ولم يكن يرضيه فقط أن يستأثر بنو عبد الدار بمناصب الشرف في مكة : من الحجابة ، واللواء ، والرفادة ، والسقاية ، والندوة ، فحمل اللواء ضد بنى عبد الدار ، وتهيأ الفريقان وأحلافهم للقتال ، وعشت كل قبيلة لقبيلة ، ثم سعى الناس بينهم للصلح . واصطلحوا يومئذ على أن يُولى هاشم بن عبد مناف السقاية والرفادة ، وكان رجلاً عريضاً الثراء ، وكان إذا حضر الحج قام في قريش ، فقال :

« يا عشر قريش ، إنكم حيران الله ، وأهل بيته ، وإنه يأتيكم في هذا الموسم زوار الله يعظمون حرمة بيته ، فهم ضيف الله وأحق الضيف بالكرامة . ضيفه ، وقد خصكم الله بذلك ، وأكرمكم به ، وحفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره ، فأكرموا ضيفه وزوره . »

وكان هاشم يأمر بحياض من أدم^(١) ، فتجعل في موضع زرم ، ثم تستقي فيها الماء من البثار^(٢) التي بمكة ؛ فيشربه الحاج ؛ وكان يطعمهم أول ما يطعم قبل التروية بيوم عرفة ؛ وكان يترد لهم الخبز واللحم والخبز والسمن والسوق والتمر ؛ ويجعل لهم الماء ، فيسقون بما يومند قليل في حياض الأدم إلى أن يصدروا من مني فتنقطع الضيافة ويترق الناس لبلادهم .

عبد المطلب :

وولد هاشم بن عبد مناف : أربعة نفر . كان منهم شيئاً الحمد ، وهو : عبد المطلب . وتولى عبد المطلب بن هاشم الرفادة ، والسقاية ، فلم يزل ذلك بيده : يطعم الحاج ويسقيه في حياض من أدم إلى أن حفر زرم ، فأصبح . يسوي الحاج من زرم . ويحمل الماء من زرم إلى عرفة . فيسقيهم به .

(١) حياض الأدم . هي حياض من حلد . (٢) الآبار

وَكَانَ زَمْرَمْ سَقِيًّا مِنَ اللَّهِ .
لَقَدْ أَتَى عَبْدُ الْمُطَلَّبِ فِي الْمَنَامِ مَرَاتٍ . فَأَمْرَ بِحْفَرِهَا ، وَوُصِّلَ لِهِ مَوْضِعَهَا .
فَقَبِيلَ لِهِ :

« احْفَرْ طَيْبَةً » .

فَقَالَ . وَمَا طَيْبَةً؟

فَلِمَّا كَانَ الْغَدْ أَتَاهُ . فَقَالَ : احْفَرْ بَرَةً .

قَالَ : وَمَا بَرَةً؟

فَلِمَّا كَانَ الْغَدْ أَتَاهُ وَهُوَ نَائِمٌ فِي مَضْجِعِهِ ذَلِكَ . فَقَالَ : احْفَرْ الْمَضْنُونَةَ .

قَالَ : وَمَا الْمَضْنُونَةَ؟

أَبْنَ لِي مَا تَقُولُ .

فَلِمَّا كَانَ الْغَدْ أَتَاهُ فَقَالَ : احْفَرْ زَمْرَمْ .

قَالَ وَمَا زَمْرَمْ؟

قَالَ : لَا تَنْتَرِحْ وَلَا تَذَمْ تَسْقِي الْحَجَيجَ الْأَعْظَمَ ، وَهِيَ بَيْنَ الْفَرْثِ وَالدَّمِ عِنْدَ نَقْرَةِ الْغَرَابِ الْأَعْظَمَ .

فَلِمَّا عَيْنَ مَوْضِعَهَا غَدَا عَبْدُ الْمُطَلَّبِ بِمَعْوِلِهِ وَمَسْحَاتِهِ . وَحَفَرَ هُوَ وَابْنُهُ الْخَارِثُ حَتَّى وَصَلَ إِلَى الْمَاءِ . فَكَانَتْ : زَمْرَمْ .

وَكَانَ عَبْدُ الْمُطَلَّبِ مِنْ حُكَّامِ الْعَرَبِ ، وَمِنْ حُكَّامِ قَرِيشٍ ، وَتَؤَثِّرُ عَنْهُ سُنُنُ جَاءَ الْقُرْآنَ بِأَكْثَرِهَا . كَالْمَنْعُ مِنْ نَكَاحِ الْمَحَارِمِ . وَقَطْعُ يَدِ السَّارِقِ . وَنَهْيُ عَنْ قَتْلِ الْمَوْءُودَةِ^(١) .

وَيَصِفُ الْمُؤْرِخُونَ عَبْدَ الْمُطَلَّبَ . فَيَقُولُونَ :

« كَانَ أَحْسَنُ قَرِيشٍ وَجْهًا ، وَأَمْدَهُمْ جَسْمًا ، وَأَحْلَمَهُمْ حَلْمًا ، وَأَجُودُهُمْ كَفَّاً ، وَأَبْعَدُ النَّاسَ مِنْ كُلِّ مُوبِقَةٍ تَفْسِدُ الرِّجَالَ . لَمْ يَرِهِ مَلِكٌ قَطُّ إِلَّا أَكْرَمَهُ وَشَفَعَهُ وَكَانَ سَيِّدَ قَرِيشٍ حَتَّى مَاتَ^(٢) » .

(١) التَّهِيدُ لِلشِّيخِ مُصطفَىِ عَبْدِ الرَّازِقِ .

(٢) انْظُرْ طَبَقَاتَ ابْنِ سَعْدٍ .

عبد الله :

أما عبد الله والد الرسول صلوات الله عليه - فقد كان صورة طبق الأصل من جده ، ولو أمهله الزمن لتولى مناصب الشرف التي كانت بيد عبد المطلب وكان شعاره الذي التزم طيلة حياته ما عبر عنه هو بقوله :
« أما الحرام فالمهات دونه » .

وتقول له فاطمة الختعمية : « إني لأعرف فيك نسك أبيك ». وإذا نظرنا إذن إلى رسول الله ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ناحية والده وأسلافه ومن ناحية والدته وأخواله - فإننا نجدهم - خُلُقاً وعراقة أصل - من أشرف بيوت مكة وأكرمتها ، وأسماءها بشهادة المؤرخين جميعاً ، فكان صلوات الله عليه ، كما يقول ابن هشام :
« أوسط قومه نسباً ، وأعظمهم شرفاً من قبل أبيه وأمه » .

مولده :

لما حملت به أمه آمنة بنت وهب كانت تقول :
« ما شعرت أني حملت به ، ولا وجدت له ثقلة كها تجد النساء ، إلا أني قد أنكرت رفع حيضتي ، وربما كانت ترفعني وتعود . وأتاني آت وأنا بين النائم واليقظان ، فقال :

« هل شعرت أني حملت ؟ فكأني أقول : ما أدرى .
قال : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ونبيها ، وذلك يوم الاثنين .
قالت : فكان ذلك مما أيقن عندي الحمل ، ثم أمهلني حتى إذا دنت ولادتي
أتاني ذلك الآتي ، فقال :

« قولي : أعيذه بالواحد الصمد من شر كل حاسد ».
قالت : فكنت أقول ذلك ، فذكرت ذلك لنسائي . فقلن لي : تعلقين حديداً
في عضديك ، وفي عنقك ، قالت : فعلت .

قالت : فلم يكن ترك على إلا أياما فأجده قد قطع فكنت لا أتعاقبه .
ويقول : أبو جعفر محمد بن علي : « أمرت آمنة وهي حامل برسول الله . عليهما السلام
أن تسميه : « أحمد »

ورأت أمه ، حين ولدته كان نوراً سطع منها أضاءت له قصور الشام .
وولد صلوات الله عليه ، فأرخ ميلاده ابتداء التهيد . لما أرادته الحكمة الإلهية :
من إخراج البشرية من الظلمات إلى النور .

كان ميلاده تهيداً للذلك بمعنى : أن الله . سبحانه وتعالى في هذه الفترة التي
سبقت الرسالة أحاط رسول الإسلام بعناته ورعايتها . ليكون أهلاً . لأن يحمل
أعظم رسالة . ولأن يبشر بالدين العام . ولأن يبين للإنسانية أجمع المعنى الصحيح
فيما يتعلق بأمر الصلة بينها وبين الله . وفيما يتعلق بأمر سلوك كل شخص بالنسبة لنفسه
وبالنسبة للآخرين . وليحدد مسؤولية كل شخص في المجتمع : حاكماً كان أو
محكوماً . وزوجاً كان أو أباً أو ابناً ، أو أخاً . أو رئيساً في العمل أو عاملًا . . إلى
غير ذلك مما يشتمل على بعضه الحديث الشريف :

« كلكم راع ومسئول عن رعيته : فالإمام راع ومسئول عن رعيته . والرجل في
بيته راع ومسئول عن رعيته ، والمرأة في بيت زوجها راعية ومسئولة عن رعيتها .
والخادم في مال سيده راع ومسئول عن رعيته . فكلكم راع ومسئول عن رعيته » .
ومنذ ميلاده صلوات الله عليه . بدأت تتزول جميع أسس الضلال
والانحراف . وترمز إلى ذلك كتب السيرة النبوية ، برموز جميلة فتحديثنا :
« إنه في ليلة ميلاده عليه السلام - غاضت بحيرة ساوي . وتصدع إيوان كسرى .
وخبت نار الفرس » .

أما الأصنام التي كانت على ظهر الكعبة فإن مصيرها المحروم وتحطيمها المؤكد قد
تحدد موعده بالسنين والأيام .

إن عمدة الشرك هذه والضلال والانحراف . والظلم والاستعباد - بدأت تتهاوى
وتنهار ، منذ ميلاد الرسول عليه السلام . وأصبح أمر النور . والهدى . والرشاد -- وشيخ
الظهور والانتشار .

وسئى المولود : « محمدًا » .

أما سبب هذه التسمية فإنه حينما جاء جده عبد المطلب ليراه قيل له :
 « ما سميت ابنك ؟ »
 فقال : « محمدًا » .

فقيل له : كيف سميته باسم ليس لأحد من أبنائك وقومك ؟
 فقال : إنني لأرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم بذلك - على حسب ما يرى السهيلي لرؤيا كان قد رأها عبد المطلب - وقد ذكر حديثها على القิرواني . في كتاب : « البستان » .

قال : كان عبد المطلب قد رأى في نومه كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره لها طرف في السماء . وطرف في الأرض . وطرف في الشرق . وطرف في الغرب . تم عادت كأنها شجرة على ورقة منها نور . وإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها . فقصصها ، فعبرت له بمولود يكون من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب ، ويحمسه أهل السماء والأرض » .

فلذلك سماه محمدًا . وسمته أمه من قبل : أحمد . فهو أحمد وهو محمد .

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

ولقد تحدث الرسول . صلوات الله عليه . فيما بعد عن أسمائه . فقال فيها رواه الإمام أحمد :

« إن لي أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الحاشر الذي يخسر الناس على قدمي . وأنا الماحي الذي يحيى به الكفر . وأنا العاقب »
 وقال فيها رواه الإمام أحمد أيضا :

« أنا محمد ، وأنا أحمد ، ونبي الرحمة ، ونبي التوبة . والحاشر ، والمقنٰى ، ونبي الملاحم » .

وكان من عادة العرب ، أن يرضعوا أبناءهم خارج مكة ، فيرضعوهم في الصحراء المنطلقة مكاناً وجواً ، ليشبوا في صحة تامة . جسماً وعقلاً . ومن أمثلهم : « العقل السليم في الجسم السليم » .

وجاءت المرضعات يلتمسن الرضاع في مكة ، وهنا نترك السيدة حليمة السعدية تتحدث عن الرحلة ، وعما صادفت فيها ذهابا وإيابا ، وعما رأته من برّكات رسول الله ، صلوات الله عليه ، لقد كانت تقول :

« إنها خرجت من بلد़ها مع زوجها وأبنَها صغير ترضعه في نسوة من بنى سعد ابن بكر . تلتمس الرضاع ، قالت : وهى في سنة شهباء لم تبق لها شيئاً ». قالت : فخرجت على أتان لى قرماء معنا شارف لنا ، والله ما تبض بقطرة وما ننام ليتنا أجمع من صبينا الذي معنا من بكائه من الجوع ، وما في ثديي ما يغنى به ، وما في شارفنا ما يغذيه وكلنا كنا نرجو الغيث والفرج .

فخرجت على أتافى تلك ، فلقد أذمت^(١) بالركب حتى شق عليهم ضعفاً وعجزاً حتى قدمنا مكة ، تلتمس الرضاع ، فما من امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله محمد ﷺ . فتاباه إذا قيل لها : « إنه يتيم » وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي : فكنا نقول : يتيم ! وما عسى أن تصنع أمه وجده ؟ فكنا نتركه لذلك ؛ فما بقيت امرأة قدمت إلا أخذت رضيعاً غيري .

فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي : والله إنما لأكره أن أرجع من بين صواحي ولم آخذ رضيعاً ، والله ، لأذهب إلى ذلك اليتيم فلا أخذنه .

قال : لا عليك أن تفعل ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة .

قالت : فذهبت إليه فأخذته ، وما حملني على أخذه إلا أن لم أجده غيره .

قالت : فلما أخذته رجعت به إلى رحلي ، فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى ، وشرب معه آخره حتى روى ثم ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك .

وقام زوجي إلى شارفنا تلك ، فإذا بها حافل . فحلب منها ؛ وشرب وشربت معه حتى انتهينا رياً وشبعاً فبتنا بخير ليلة .

قالت : يقول صاحبي حين أصبحنا : تعلمين والله يا حليمة . لقد أخذت نسمة مباركة .

(١) جامت بها ندم عليه .

فقلت : والله إني لأرجو ذلك .
 قالت : ثم خرجنَا وركبَتْ أثافِي وحملتهُ علَيْها معي ، فوالله لقطعت بالركب
 ما يقدر علَيْها شَيْءٌ من جمِّرهم حتَّى أن صواحي ليقلنْ لِي :
 يا ابنة أبي ذؤيب ويحك أربعَيْ علَيْنا . أليست هذه أثافَكِ الَّتِي كنْتَ خرجت
 علَيْها !

فأقول هنَّ : بلى ، والله إِنَّهَا هَذِهِ هِيَ .
 فيقلنْ : والله إِنَّهَا لَشَائِنًا .

قالت : ثم قدمتنا منازلنا من بلاد بنى سعد ، وما أعلم أرضاً من أرض الله ،
 أجدب منها ، فكانت تروح على حين قدمتنا بهم معنا شباعاً لبناً فتحلب وتنشرب ،
 وما يحلب إنسان قطرة لبن ، ولا يجدها في ضرع ، حتَّى كان الحاضرون من قومنا
 يقولون لرعاياهم : ويلبكم ! اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب ، فتروح
 أغناهمم جياعاً ما تبض بقطرة لبن ، وتروح غنمى شباعاً لبناً ، فلم نزل نتعرف من
 الله الزيادة والخير حتَّى مضت ستاه وفصليه .

وكان يشب شباباً لا يشبه العلامان ، فلم يبلغ ستاه حتى كان غلاماً جفراً ولكنه
 صلوات الله عليه لم يمكث عندها عامين فقط ؛ ذلك أنها على رأس العامين ذهبت
 به إلى مكة ، لزراه أمه وليراه جده تم عادت به أشد ما تكون حرضاً عليه وعلى
 العودة به .

أخذت حليمة السعدية رسول المستقبل إلى بادية بنى سعد مرة أخرى ، وليس
 هناك من غرابة في أن يكون رسول النور هذا قد ملا رحلتها من مكة إلى البادية
 بالبهجة والنشاط ، وبالأمل والتفاؤل .

إن الأبحاث الحديثة نفسها ، وتجابُ الإنسانية منذ أن وجدت الإنسانية تؤيد
 أن هناك إشعاعات عند بعض الناس تضفي على المراقبين لهم بهجة ونشاطاً .
 فلا غرابة إذن أن تنشط حليمة وينشط زوجها ، وتنشط دوابهما ، وأن تسير
 الرحلة في رخاء وأن يكون محمد في براعته وطهارته وفي طفولته الباسمة ونصرته
 المتألقة - هو سبب ذلك كله .

ويلاً محمد بيت حليمة بهجة وسروراً . ويدب النشاط في جميع أرجاء البيت
وعند جميع سكانه ، ويبارك الله في كل شيء فيه . وتنعم هذه الأسرة بحياة هنية .
فيزيد عطفها على محمد . ويزيـد حنانها عليه . فينموا في جو من الرحمة والود
والحنان . وينغرس كل ذلك في نفسه . ويكتـل قلبه الناشئ . ببذور من أسمى
العواطف والشمـم .

ويتحقق مـنـذـطـفـولـته - بل وإلى أن تنتهي به الحياة ما روـيـ عنـ ابنـ عـباسـ
رضـيـ اللـهـ عـنـهـاـ منـ أـنـ لـاـ تـوـفـيـ عـبـدـ اللـهـ قـالـتـ الـمـلـائـكـةـ :ـ
ـ إـلـهـنـاـ وـسـيـدـنـاـ .ـ بـقـيـ نـبـيـكـ يـتـيمـاــ
ـ فـقـالـ اللـهـ تـعـالـىـ :ـ أـنـاـ لـهـ حـافـظـ وـنـصـيرــ .ـ

الفصل السادس

نهاية التوبة

عن حذيفة ، رضي الله عنه ، قال فيها رواه الإمام أحمد : إن رسول الله ،
صلوات الله عليه عليه ، قال عن نفسه : « إنه نبي التوبة » .

وللتوبة عند الرسول صلوات الله عليه ، وفي الجو الإسلامي على وجه العموم - شأن كبير : ذلك أن التوبة إنما هي تصفية للنفس ، وتركية للروح ، و نتيجتها الإخلاص .

وأهمية الإخلاص إذا نظرنا إلى الفرد ، أو نظرنا إلى المجتمع - لا تخفي على أحد .

وإذا نظرنا إلى حياة الرسول صلوات الله عليه من زاوية التوبة والإخلاص ، وصفاء النفس ، وتركية الروح - فإن أول ما يفجئنا من ذلك : إنما هو هذا الحادث الذي ترويه كتب السيرة تحت عنوان « شق الصدر » .

وهذا الحادث وقع لرسول الله صلوات الله عليه منذ الطفولة المبكرة .
لقد كان صلوات الله عليه إذ ذاك في بادية بني سعد عند مرضعته ، وبينما هو يلعب مع الغلمان - على ما يروى الإمام مسلم - أتاه جبريل ؛ فأخذه فضبعه ، فشق عن قلبه ؛ فاستخرج منه علقة ، فقال :
« هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ثم أعاده إلى مكانه » .

وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعني مرضعته : أن محمداً قد قتل ، فاستقبلوه وهو متყع اللون ، كان ذلك وهو ابن أربع سنوات تقريباً .

فليا كان ابن عشرين تكرر حادث شق الصدر : فقد روى الإمام أحمد وابن حبان ، والحاكم ، وابن عساكر ، عن أبي بن كعب - أن أبو هريرة رضي الله عنه ، كان جريئاً على أن يسأل رسول الله ، صلوات الله عليه عليه ، عن أشياء ، لا يسألها عنها غيره ، فقال :

« يا رسول الله ، ما أول ما رأيت في أمر النبوة » فاستوى رسول الله ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، جالساً وقال :

« لقد سألت أبا هريرة » .

إني لفي صحراء ابن عشر سنين وأشهر ، وإذا بكلام فوق رأسي ، وإذا رجل يقول لرجل : « أهو هو » ؟ قال : نعم .

فاستقبلاني بوجوه لم أرها لخلق قط ، وأرواح لم أجدها من خلق قط ، وثياب لم أرها على أحد قط ، فأقبلنا إلى يمشيان حتى أخذ كل واحد منها بعنصري لا أحد لأحد هما مسا .

فقال أحدهما لصاحبه أضجعه ، فأضجعاني بلا قصر ^(١) ولا هصر ^(٢) وقال أحدهما لصاحبه :

« افلق صدره »

فهو أحدهما إلى صدرى فقلقه ، فيما أرى بدون دم ولا وجع . فقال له : « أخرج الغل ، والحسد ؛ فأخرج شيئا ، كهيئة العلقة ، ثم نبذها فطرحها فقال له :

« أدخل الرأفة والرحمة » فإذا مثل الذي أخرج يشبه الفضة ، ثم هز إبهام رجل اليمنى ، فقال : أغد وأسلم .

« فرجعت بها أغدو رقة على الصغير ، ورحمة للكبير ». فلما جاوز صلوات الله عليه الخمسين أتاه آت ، على حين كان في الحطيم أو في الحجر مضطجعاً بين النائم واليقظان ، أتاه ، فشق عن صدره على حسب ما يروى البخاري ومسلم – واستخرج قلبه :

« ثم أتى بطست من ذهب مملوء إيماناً ، فغسل قلبي ثم حشني ثم أعيد ». وتكرر المعراج ، فتكرر شق الصدر ، فعن أبي بن كعب – فيما رواه الإمام

(١) القصر: الإجبار.

(٢) الهصر: ثني العمود من رأسه ، والمعنى : لم يثنينا ظهرى ولم يكرهنا .

أحمد ، والإمام مسلم – أن رسول الله – ﷺ قال : « فرج سقف بيتي وأنا بعكة ، فنزل جبريل ، ففوج صدرى ، ثم غسله من ماء زمم ، ثم جاء بطبست من ذهب ممتلى حكمة وإيماناً ، فأفرغه في صدرى ، ثم أطبقه ». .

ولا يعنينا هنا لا في قليل ولا في كثير أن نجاري الماديين في جدهم ، فيما يتعلق بشق الصدر . فالامر أسمى بكثير من المراة في الشكل ، والكيف ، والزمان ، والمكان . .

ومالمغزى : أعمق من أن نتجاوزه إلى المحاكمات التي تشعر بضعف الإيمان أكثر مما تشعر بنور اليقين .

لقد رویت في كتب السنة بالأسانيد الصحيحة ، وروت أيضاً كتب السيرة .. هذه الحادثة التي توجه النظر إلى عناية الله – سبحانه وتعالى – برسوله ﷺ منذ طبولته المبكرة ، وأن من مظاهر هذه العناية أن يستخرج الله حظ الشيطان من قلبه منذ سنيه الأولى حتى لا يكون للشيطان عليه من سبيل .

إن الله سبحانه وتعالى – وقد شاعت إرادته منذ الأزل أن يكون محمد خاتم الأنبياء والمرسلين – أراد سبحانه أن يجعل منه المثل الكامل للإنسان الكامل . والإنسان يبدأ السير نحو الكمال : بطهارة القلب ، وتصفية النفس ، والتوبة ، والإخلاص أو – بتعبير آخر – بشق الصدر واستخراج حظ الشيطان منه وأرسل الله ملائكته ، فشقوا عن صدر الرسول – صلوات الله عليه واستخرجوا حظ الشيطان منه . .

ثم أرسلهم ، فشقوا عن صدره ، وملئوه رأفة ورحمة . فكان صلوات الله عليه رقة على الصغير ، ورحمة للكبير .

ثم أرسلهم فشقوا عن صدره ، فملئوه إيماناً .

ثم شقوا عنه فملئوه حكمة وإيماناً .

وإذا كان رسول الله – ﷺ – هو المثل الكامل للإنسان الكامل فإن لنا فيه أسوتنا ، والأسوة في شق الصدر إنما هي : التوبة .

. وَتُوبَتْنَا إِلَى اللَّهِ إِذْنَ تُوبَةِ نَصْوَحٍ إِنَّمَا هِيَ بِثَابَةٍ شَقِ الْصَّدْرِ وَاسْتِخْرَاجٌ حَظَّ
الشَّيْطَانِ مِنْهُ .

وَالْتُّوبَةُ النَّصْوَحُ تُخْرِجُنَا مُبَاشِرَةً عَنْ جُوَّ الْخَطَائِينَ ، بَلْ وَعْنْ جُوَّ الَّذِينَ خَلَطُوا
عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئًا ، هُؤُلَاءِ الَّذِينَ يَقُولُ اللَّهُ فِيهِمْ : (عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ
عَلَيْهِمْ) التُّوبَةُ / ١٠٢ .

إِنَّ اللَّهَ يَعْرِفُ شَأْنَهُمْ بِكَلْمَةٍ (عَسَى) وَالْتُّوبَةُ النَّصْوَحُ تُخْرِجُنَا مِنْ جُوَّ (عَسَى)
لَتَضْعَنَا فِي جُوَّ : (مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَعَ النَّبِيِّنَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشَّهِداءِ
وَالصَّالِحِينَ) النَّسَاءُ / ٦٩ .

وَالْتُّوبَةُ النَّصْوَحُ ، التُّوبَةُ الصَّادِقَةُ مِنَ الْآثَامِ وَالْمُعَاصِي : حَدْ فَاصِلٌ ، وَفِي صَلْ،
حَاسِمٌ بَيْنَ عَهْدَيْنِ ، عَهْدٌ سِيَطْرَةُ الشَّيْطَانِ سِيَطْرَةٌ كُلِّيَّةٌ أَوْ سِيَطْرَةُ جُزِئِيَّةٍ ، سِيَطْرَةٌ
دَائِمَّةٌ أَوْ سِيَطْرَةٌ مُؤْقَتَةٌ ؛ وَعَهْدٌ الْأَنْطَوَاءِ تَحْتَ لَوَاءِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَقُولُ اللَّهُ فِي
حَقِّهِمْ مُخَاطِبًا الشَّيْطَانَ :

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لِكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) الإِسْرَاءُ / ٦٥ .

وَبِمِجْرِدِ أَنْ يَتَرَعَّزَ الْإِنْسَانُ سُلْطَانُ الشَّيْطَانِ فِي صُورَةٍ مِنَ الْعَزْمِ الْمُصْسَمِ ،
وَيَنْطَوِي تَحْتَ لَوَاءِ اللَّهِ فِي صُورَةٍ مِنَ الْيَقِينِ الْمُطْمَئِنِ فَإِنَّ اللَّهَ سَبَّحَهُ وَتَعَالَى يَتُولَّهُ
وَيَتَكَفَّلُ بِهِ .

بَلْ إِنْ رِعَايَةَ اللَّهِ سَبَّحَهُ وَتَعَالَى : تَبَدَّأُ مَعَ الْإِنْسَانِ مِنْذَ أَنْ يَبْدُأُ فِي الاتِّجَاهِ إِلَيْهِ
سَبَّحَهُ وَتَعَالَى مُبَاشِرَةً وَبِدَءَ الْإِنْسَانُ فِي الاتِّجَاهِ إِلَى اللَّهِ إِنَّمَا يَكُونُ بِالاستغفارِ ، فَإِذَا
بَدَأَ الْإِنْسَانُ بِالاستغفارِ بَدَأَتْ رِعَايَةَ اللَّهِ لَهُ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى :

(اسْتَغْفِرُوكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَارًا ، يَرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مَدْرَارًا ، وَيَمْدُدُكُمْ
بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ، وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا) (١) .

وَكَلَّا ازْدَادَ الْإِنْسَانَ اتِّجَاهًا إِلَى اللَّهِ ، وَإِقْبَالًا عَلَيْهِ ، وَتَقْرِبًا مِنْهُ ، وَحَبَّا فِيهِ -
ازْدَادَتْ رِعَايَةَ اللَّهِ لَهُ :

مِنْ تَقْرِبٍ إِلَى شَبَرٍ تَقْرَبَتْ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَمِنْ تَقْرِبٍ إِلَى ذِرَاعٍ تَقْرَبَتْ إِلَيْهِ

(١) سُورَةُ نُوحٍ : ١٠ - ١٢ .

باعا ، ومن أثافي يمشي أتيته هرولة ^(١)
إن حياة النفوس والعمل الصالح أهم عنصر لسعادة الإنسان في حياته الدنيا
وسعادته في الحياة الآخرة . والله سبحانه وتعالى يبين ذلك في أكثر من آية في القرآن
ال الكريم :

(من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيئه حياة طيبة ولنجزىهم
أجرهم بأشد ما كانوا يعملون) النحل / ٩٧ .
(ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض .)
الأعراف / ٩٦ .

(ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكلا على الله
 فهو حسبي) الطلاق / ٢ - ٣

النحوى والعمل الصالح نتيجتها : السعادة وعناية الله ورعايته واللبنة الأولى في
أساس كل ذلك إنما هي : التوبة أو هي شق الصدر ، واستخراج حظ الشيطان
منه . وقد فتح الله بابها على مصراعيه ، إنه سبحانه وتعالى – فيها رواه الإمام مسلم –
« يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل » .
ويقول سبحانه :

(قل : يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله إن الله
يغفر الذنوب جميعاً : إنه هو الغفور الرحيم ، وأنبوا إلى ربكم وأسلموه) الزمر /
٥٣ - ٥٤ .

وتوبة العوام إنما هي من الذنوب والآثام ، أما الخواص فإنهم لا يتوبون من
الآثام والمعاصي : فذلك ميدان قد تطهروا منه ، وزرهم الله برحمته عن أن يقعوا
فيه . ومع ذلك فإنهم يتوبون إلى الله ويستغفرونله مصلحين ويستغفرونله سبحانه ،
ويتوبون إليه ممسين ، بل يستغفرونله ويتوبون إليه تعالى في كل وقت وحين خصوصاً له
وبخشية منه ، وتقرباً إليه ، وخوفاً من الكبر الحق ، أو الغرور المستتر ، أو الغفلة التي
قد لا يشعر بها الإنسان .

(١) جديـث قدسي .

لقد كان رسول الله ، صلوات الله عليه ، في ترقية الدائم ، وفي أنواره التي تزداد كل لحظة ضياء - يستغفر الله ويتوسل إليه استغفار عبادة ، وتبوية إنابة وقربى . يقول صلوات الله عليه - فيها رواه البخارى :

« والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » . ويقول صلوات الله عليه - فيها رواه الإمام مسلم :

« يأيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه : فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة » .
بيد أن ما نريد أن نؤكده لطلاب المعرفة الصحيحة - عن عالم الغيب -
ونؤكده لطلاب الإيمان المطمئن - هو أن وسيلة ذلك - إنما هي التوبة النصوح .
إنها تستخرج حظ الشيطان . ثم تأتي بالسكينة .

والتبوية النصوح سبب مباشر - بتوفيق الله - ملء القلب إيماناً ، بعد أن امتلاه رأفة ورحمة ، ثم إنها السبيل لتنزيل الحكمة - وهي المعرفة اللدنية - إرسالاً إرسالاً ، فيفيض بها القلب هداية وإرشاداً : (واتقوا الله ويعلمكم الله) البقرة/٢٨٢ .
وإن من التزم العبودية - واللبنة الأولى فيها إنما هي التوبة - فإن الله سبحانه يأتيه برحمة من عنده ، ويعلمه من لدنها علمًا .

استخرج جبريل حظ الشيطان من قلب رسول الله ، صلوات الله عليه ، في سن مبكرة فكان ، صلوات الله عليه - كما تقول السيدة آمنة :
« والله ما للشيطان عليه من سبيل » .

وحقيقة أنه لم يكن للشيطان عليه من سبيل فقد عصمه الله عصمة تامة عن الرجس خياته كلها .

لقد كانت مكة - حينما كان رسول الله - ﷺ شاباً فتياً قوياً تعج بمختلف الملاذ الشهوانية الدنسة :

لقد كانت حانات الخمر متشرة فيها ، وكذلك البيوت المريبة ، وفي هذه وتلك المغنيات ، والراقصات ، والمجانات ؛ وكان الشباب يهالكون على كل ذلك ويتهافتون عليه ، وأراد الله أن يكون رسوله بمنأى عن كل ذلك : ذكر البخارى عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال :

« ما هممت بشيء من أمر الجاهلية إلا مرتين » .

أما هاتان المرتان : فإن سيدنا علياً رضي الله عنه يتحدث عنها - على ما يروى ابن كثير - فيقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به إلا ليلتين كلتاها عصمني الله عز وجل فيها : قلت ليلة لبعض فتيان مكة : نحن في رعاه غنم أهلها - فقلت لصاحبى :

« ألا تبصري غنمى حتى أدخل مكة أسر فيها كما يسمى الفتىان » !
فقال : بلى .

قال : فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة ، سمعت عزفًا بالغرابيل والمزامير ، فقلت : ما هذا !

قالوا : تزوج فلان فلانة .

فجلست أنظر ، وضرب الله على أذني ، فوالله ما أيقظنى إلا مس الشمس ، فرجعت إلى صاحبى . فقال ماذا فعلت !

فقلت : ما فعلت شيئاً ثم أخبرته بالذى رأيت . ثم قلت له ليلة أخرى : أبصر لي غنمى حتى أسر ، ففعل ، فلما جئت مكة ، سمعت مثل الذى سمعته تلك الليلة .
فسألت :

فقيل : نكح فلان فلانة .

فجلست أنظر ، وضرب الله على أذني ، فوالله ما أيقظنى إلا مس الشمس .

فرجعت إلى صاحبى فقال : ما فعلت ؟ فقلت :

لا شيء ثم أخبرته الخبر ، فوالله ما هممت ولا عدت بعدها لشيء ، من ذلك حتى أكرمى الله عز وجل بنبوته .

هذا ما كان من أمر عبث الفتىان .

أما ما كان من أمر عبادة الأصنام فإن القصة التالية توضح الأمر : عن ابن عباس قال : حدثني أم أيمن قالت : كانت بوابة صنماً تحضره قريش تعظمها ، وتنسأ لها النسائك ، ويحلقون رءوسهم عنده ، ويعكفون عنده يوماً إلى

الليل وكان ذلك يوماً في السنة .

وكان أبو طالب يحضره مع قومه ، وكان يكلم رسول الله ﷺ أن يحضر ذلك العيد مع قومه ، فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك ، حتى رأيت أبا طالب غضب عليه .

ورأيت عماته غضباً عليه يومئذ أشد الغضب وجعلن يقلن :

ما تزيد يا محمد أن تخضر لقومك عيداً ولا تكثر لهم جمعاً .

قالت : فلم يزالوا به حتى ذهب ، فغاب عنهم ما شاء الله . ثم رجع إلينا مرجعوااً . فقالت له عماته :

ما دهاك ؟ قال :

«إني أخشى أن يكون بي لم ^(١)»

فقلن : ما كان الله ليبيتيلك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك . فما الذي رأيت ؟

قال :

«إني كلما دنوت من صنم منها تمثل لي رجل أبىض يصبح بي وراءك ^(٢) يا محمد : لا تمسه» قالت .

«فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ» .

لقد كانت حياته ، صلوات الله عليه ، شرحاً مستفيضاً وتوضيحاً كاملاً . وتعبيرأً تماماً لما ذكره ابن خلدون وما يتفق عليه العقلاة ، ويجمع عليه أصحاب البصائر المستنيرة من أن ذلك من علامات الأنبياء :

«إنه يوجد له قبل الوحي خلق الخير والزكاء ، وبمحابية المذمومات والرجس أجمع ، وهذا هو معنى العصمة . وكأنه مفطور على التتره عن المذمومات والمنافرة لها وكأنها منافية لجلته» .

ويضرب ابن خلدون بعض الأمثلة من حياة الرسول صلوات الله عليه مبينة لهذه القاعدة فيقول :

(١) مس من الجنون .

(٢) ارجع وراءك .

« وفي الصحيح أنه حمل الحجارة ، وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة ، فجعلها في إزاره فانكشف ، فسقط مغشيا عليه حتى استر بإزاره . ودعى إلى مجتمع ولعنة فيها ، عرس ولعب . فأصابه غنى النوم إلى أن طلعت الشمس ولم يحضر شيئاً من شأنهم » .

ومضت فترة الشباب برسول الله ، صلى الله عليه وسلم وهو طاهر ذكي : ظاهر من الآثام التي تدنس الشباب في مجتمعاتهم ، وزكي لأنه بعيد عن الشرك ، لم يسجد لصنم قط . صلوات الله عليه وسلم .

الفصل الثالث

الوحى

ما قبل الوحي

إن كتب السيرة لا تحدثنا عن حياة الرسول صلوات الله عليه قبل بعثته إلا بالتلزير القليل - القليل جداً - ويمكن تلخيص ذلك - في صورة مجملة - كما يلى : بعد أن استكمل الرسول الرضاع ، وبلغ حوالي أربع السنوات عادت به حليمة رضي الله عنها - إلى أمه : آمنة بنت وهب ؛ فلما بلغ ست سنين خرجت به إلى أخواله : بنى عدى بن النجاشي بالمدينة تزورهم به ، ومعه أم أيمن ، تحضنه ، وهم على بعيدين ، فنزلت به في دار النابغة ، فأقامت به عندهم شهراً . ثم رجعت به إلى مكة ؛ فلما كانت بالأبواء توفيت ، ودفنت هناك ولم ينس الرسول ﷺ - المكان الذي دفنت فيه أمه ، فلما مر في عمرة الحديبية بالأبواء قال : « إن الله قد أذن لي في زيارة قبر أمي » .

ثم أتاه فأصلحه ، ويكي عنده ، ويكي المسلمين لبكاء رسول الله ﷺ . فقيل له ، فقال : أدركتني رحمتها فبكيت .

ورجعت به أم أيمن ، على البعيرين اللذين كانوا معها . واستمرت أم أيمن تحضنه بعد وفاة أمها ، وعندما وصل مكة قبضه إليه جده عبد المطلب وضممه ، ورق عليه رقة لم يرقيها على ولده ، وكان يقربه منه ، ويدينيه ويدخل عليه إذا خلا ، وإذا نام ، وكان الرسول يجلس على فراش جده ، فيريدون منعه ، فيقول عبد المطلب حينما يرى ذلك « دعوا ابني ، إنه ليؤنس ملكاً » . ورأه مرة عبد المطلب بعيداً عن رعاية أم أيمن فقال لها : « يا بركة ، لا تغفل عن ابني ، فإني وجدته مع غلاماً قريباً من السدرة ، وإن أهل الكتاب ، يزعمون : أن ابني هذا نبي هذه الأمة .

ولما توفي عبد المطلب قبض أبو طالب رسول الله ﷺ . فكان يكون معه : « وكان أبوه طالب لا مال له . وكان يحبه حباً شديداً لا يحبه لولده . وكان لا ينام

إلا في جنبه . وينحرج فيخرج معه . وصبا به أبو طالب صباة لم يصب مثلها بشيء فقط : وكان يخصله بالطعام . وكان إذا أكل عيال أبي طالب جميعاً أو فرادي لم يشعروا . وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا . فكان إذا أراد أن يغذيهم . قال : كما أنتم حتى يخصر ابني . فيأتي رسول الله ﷺ . فيأكل معهم . فكان يفضل من طعامهم وإن لم يكن معهم لم يشعروا . فيقول أبو طالب : « إنك مبارك » .

واستمر أبو طالب في رعاية الرسول . صلوات الله عليه . لم يسلمه قط . ولم يخذله إلى أن توفي للنصف من شوال في السنة العاشرة ، من حين نبأ رسول الله ﷺ ، وهو يومئذ : ابن بضم وثمانين سنة .
ومما يروى . بقصد أبي طالب : أن العباس قال .
يا رسول الله . أترجو لأبي طالب ؟ فقال . صلوات الله عليه :
« كل الخير أرجو من ربِّي » .

وفي هذه الفترة التي قبل البعثة - كان يتحاكم إلى الرسول ﷺ :
يقول الريبع بن خثيم : « كان يتحاكم إلى رسول الله . ﷺ في الجاهلية قبل الإسلام ، ثم اختص في الإسلام » .

ومن الأمثلة المشهورة في ذلك - قضاوه ﷺ في الخلاف الذي كان بين قريش ، بشأن وضع الحجر الأسود فإنه حينما انتهوا في بناء الكعبة إلى حيث يوضع الركن من البيت قالت كل قبيلة : نحن أحق بوضعه : وانختلفوا حتى خافوا القتال .
ثم جعلوا بينهم أول من يدخل من باب بنى شيبة ، فيكون هو الذي يقضى بينهم .
وقالوا . رضينا وسلمتنا بذلك ، فكان رسول الله . ﷺ أول من دخل من باب بنى شيبة ، فلما رأوه قالوا : هذا هو الأمين . قد رضينا بما قضى بيننا . ثم أخبروه الخبر ، فوضع رسول الله ﷺ رداءه وبسطه على الأرض . ثم وضع الركن فيه .
ثم قال . ليأت من كل ربع من أرباع قريش رجل ، فكان في ربع بنى عبد مناف عتبة بن ربيعة ، وكان في الربع الثاني أبو زمعة . وكان في الربع الثالث أبو حذيفة ابن المغيرة ، وكان في الربع الرابع قيس بن عدی : ثم قال رسول الله ﷺ :

لأخذ كل رجل منكم بزاوية من زوايا الشوب ، ثم ارفعوه جميعاً ، فرفعوه ، ثم وضعه رسول الله ﷺ بيده في موضعه ذلك .

وفي سن الخامسة والعشرين تم زواجه صلوات الله عليه ، وهنا نترك مجال الكلام لنفيسة بنت منية تقص علينا النبأ بصورته الواقعية ، قالت :

«كانت خديجة بنت خويلد امرأة حازمة شريفة مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير ، وهي يومئذ أوسط قريش نسباً ، وأعظمهم شرفاً ، وأكثرهم مالاً . وكل قومها كان حريضاً على الزواج منها لو قدر على ذلك ، ولقد طلبوها ، وبذلوا لها الأموال فأرسلتني دسيساً إلى محمد بعد أن رجع في عيرها من الشام ، فقلت : يا محمد ، ما يمنعك أن تتزوج ؟ فقال : ما يبيدى أن أتزوج به قلت : فإن كفيت ذلك ، ودعيني إلى الجبال والمال والشرف والكفاءة لا تجib ؟ قال . «فهن هى !» قلت : خديجة ، قال : «وكيف لي بذلك ؟» قالت : قلت : على قال : «فأنا أفعل» ، فذهبت . فأخبرتها ، فأرسلت إليها : أن أئت ساعة كذلك وأرسلت إلى عمها فحضر ، وتزوجها رسول الله ﷺ ، وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وخدية يومئذ بنت أربعين سنة ، ولدت قبل عام الفيل بخمس عشرة سنة . وفي ظل الحياة الزوجية عاش صلوات الله عليه عيشة هادئة وديعة ، فيسر الله له بذلك ما كان يشغل به نفسه من العبادة والتقوى وهكذا نشأ ﷺ طاهر النفس .

كريم الخلق ، مجانباً للمذمومات ، مجانباً للرجس .

لقد سارت به الحياة نقية طاهرة . فكانت شرحاً وتفسيراً لما سبق أن تحدثنا عنه من شق صدره الشريف ، واستخراج حظ الشيطان منه .

ولقد تمثل فيه طور الشباب النضج الكامل والرجلة الرشيدة .

لقد كان صادقاً في حديثه ، عطوفاً على من حوله ، معيناً للضعفاء ، يكتب ثقة كل من يحالطه .

ولكل ذلك أحبته السيدة خديجة ، رضوان الله عليها .

ولكنها رضي الله عنها - أحبته لشئ آخر هو السمو الروحي ، وهو العزوف عن اللذائذ المادية الفاشية ، والاتجاه إلى الحالد من معالي الأمور .

إن عنابة الله رافقته ولاحظته ووجهته ، فكان خيراً زكياً ، وكان أمةً وحده
وسط هذا الضلال الديني والأخلاقي الذي كان يملاً على رجال مكة جميع
أقطارهم .

لقد أحبته السيدة خديجة من أجل ذلك .

ومن أجل ذلك سماه قومه : « الأمين » .

لقد كان أميناً على نفسه : فلم يسلّمها إلى مهاوى الشرك أو الشهوة أو الرجس .
وكان أميناً على الناس : فلم ينْتَهِ عرضاً ، ولم يقع بعض الناس في بعض
بالنفيمة ، ولم يغتب .

وكان أميناً على الحديث إذا تحدث : فلا كذب ، ولا مغالاة .

وكا أميناً على الأسرار . فلم يفشها ، ولم يذعها .

إنه . « الأمين » .. أجمع عليها القرشيون ، وقالوها حينما اختلفوا في رفع الحجر
الأسود ، ووضعه في الكعبة ، وأوشكت الحرب أن تقع بينهم - كما قدمنا - . ثم
استقر رأيهم على الاحتکام لأول داخل عليهم ، فغمّرتهم الفرحة . حينما رأوا
محمدًا ، ﷺ ، وصاحوا : إنه : « الأمين » رضينا ، إنه محمد !

الوحى : ولقد حبب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه ، أى
« يتبعد » الليلى ذوات العد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويترود لذلك ، ثم يرجع إلى
خدیجة ، فيترود لملائتها .

كان صلوات الله عليه يغادر مكة متغمسة في الضلال ؛ ليعتكف في غار حراء
متبعداً ، حتى قالت العرب : « إن محمدًا قد عشق ربه » !
ولكن أما آن لهذا الضلال الذي يخيم على مكة أن ينقشع ؟
أما آن لهذه الظلمة أن تنجل ؟

أما آن لهذه الأصنام أن تتحطم ؟

أليس هناك أمل في قبس من نور ، أو أثارة من علم ، أو رحمة من عند الله ، أو
هدایة من لدن مانح المهدى والرشاد ؟
ويليجاً رسول الله ﷺ إلى الله يستغيث به . ويستعيذه ويرجوه . ويلج في

الرجاء ، ويتذلل ، ويطلب منه الرحمة له ، ولقومه .
 وتمضي الأيام وهو في كفاح المستميت ، ووجهاد المستبسيل . يتجه إلى الله في الصباح ، ويتوجه إليه في الظهر ، ويتوجه إليه في الآصال ، ويتوجه إليه في مغيب الشمس ، ويتوجه إليه حينما تلمع الكواكب .
 إنه مهاجر إلى الله في كل لحظة ، وفي كل نفس من أنفاسه ، وفي كل طرفة عين ، وفي كل نبضة قلب ، وفي كل همسة من همسات الضمير .
 إن حياته كلها لله ، ومع ذلك فإن الأيام تمر والسنين تمضي ، ولا يزال الظلم مخيماً فوق أرجاء مكة ، ولا تزال الأصنام فوق بيت الله . شارة الفضلال وعلم الانحراف !

ويضاعف الرسول ﷺ خصوصه وتدلله ، ويضاعف رجاءه وأمله . وينجاور الأمل المؤف والقلق ، فيضاعف التذلل والخضوع . والالتجاء إلى الله . حتى أصبح صلوات الله عليه وسلامه في النهاية وكأنه صفاء من الصفاء ، ونور من النور . فلما استوت على الجودى .. ولما كاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار .. وفي ليلة من الليالي بينما كان الرسول ﷺ معتكفاً في غار حراء كعادته كل عام ، وفي شهر رمضان المبارك .. تحطم نهائياً ذلك الحاجز الذي يفصل بين الكسب البشري الموقق من جانب ، والاصطفاء الإلهي . والاجتباء الرباني من جانب آخر ، أو - بتعبير آخر - ذلك الحاجز الذي يفصل بين الولاية والنبوة .

حديث بدء الوحي

لقد جاءه الحق ، وهو في غار حراء ، فجاءه الملك ، فقال :
 (اقرأ) .

قال : (ما أنا بقارئ) .

قال : فأخذني فغطني . حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال :
 (اقرأ)

قلت : ما أنا بقارئ فأخذنى فغطى الثانية ، حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ،
قال :

(اقرأ)

فقلت : ما أنا بقارئ فأخذنى فغطى الثالثة . ثم أرسلني ، فقال :
(اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم)
العلق / ١ - ٣ .

لرجوع بها رسول الله ﷺ يرجف قواه ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي
الله عنها فقال : زملوني فزملوه ؛ حتى ذهب عنه الروع فقال خديجة وأخبرها الخبر :
« لقد خشيت على نفسي » فقلت خديجة ..

« كلا ، والله ما ينجزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكتب
المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ... »

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم
خديجة ، لقد كان ورقة عربياً أصيلاً من ذروة بيوتات قريش .

وهو كما يروى صاحب الأغاني - : « أحد من اعتزل عبادة الأواثان في
الجاهلية ، وطلب الدين ، وقرأ الكتب ، وامتنع من أكل ذيائع الأواثان ». طلب ورقة الدين ، ولم يكتف في طلبه باللغة العربية ، بل لعل اللغة العربية ،
إذا ذاك : لم تكن تسعفه بما يريد من معرفة ، فتعلم العبرانية .

يقول الإمام البخاري عنه :

« وكان امراً تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، يكتب من
الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب » .

وهو القائل هذه الآيات الشائعة في الأوساط المؤمنة .

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته يبقى الإله ويودي المال والولد
لم تغن عن هرمز يوماً خزائنه . والخلد قد حاولت عاد فما خلدوها
ولا سليمان ، إذ دان الشعوب له والجن والإنس تجري بينها البرد^(١)

(١) البرد : جمع بريد وهو الرسول .

ولقد سئل عنه رسول الله صلوات الله عليه فما بعد ، فقال : « قد رأيته في المنام : كان عليه ثياباً بيضاءً ، فقد أظن : أن لو كان من أهل النار لم أر عليه البياض ».

وقد كان ورقة معروفاً بالعقل الناضج ، والمعرفة الواسعة ، والإخلاص الخالص ، وقد كان في فترة بدء الوحي . هذه . « شيخاً كبيراً قد عمى » : أى أنه مر بالتجارب الكثيرة في الدين والدنيا ، وأصبح لا يرجو إلا حسن الخاتمة ، والعمل ما استطاع - في سبيل الله .

من أجل كل ذلك انطلقت السيدة خديجة بالرسول ، صلوات الله عليه إليه وقالت له :

« يا ابن عم ، اسمع من ابن أخيك ». . .
فلياً أخبره رسول الله ، ﷺ ، خبر ما رأى قال ورقة دون تردد ولا تلعم
ولا انتظار :

« هذا هو الناموس الذي نزل الله على موسى ». .
قال ذلك في يقين جازم وفي إيمان مؤمن .

أما الأسباب التي دعت ورقة إلى هذا القول فإن منها لا شك : معرفته بحياة الرسول صلوات الله عليه لقد كانت حياة ظاهرة عفة ، كان صلوات الله عليه عازفا عن طلب المجد الزائف ، والجاه المفتعل ؛ وكان بعيدا عن أن يكون عبداً للدنيا .

ولقد سمع ورقة حديثاً يعكس صورة صحيحة ملخصة للصدق الصادق ، وسمع هذا التعبير البريء عن عنصر المفاجأة في الموضوع . إن الحديث لا يتسم بمنطق مروي ولا بتفكير مدبر ، ولا بمحاولة ، أيا كانت ، للتلبيس والزيف إنها البراءة المطلقة .

لقد فاجأه الملك على غير انتظار وعلى غير توقع ، وفاجأه في خلوة يرجو فيها رحمة الله ، ويأمل فيها رضاه وفاجأه بأمر لم يكن له على بال :

« أقرأ »

« ما أنا بقارئ »

ففاجأه الملك بأمر غريب آخر ، لقد أخذه فغطه حتى بلغ منه الجهد ، ثم

أرسله ، وقال له ، من جديد : « أقرأ » وتكرر ذلك . . .

ورجع رسول الله ﷺ « يرجف فؤاده » .

فلقد غمره الروع ، وما إن وصل إلى المنزل حتى صاح : « زملوني زملوني » .

فليما ذهب عنه الروع قص على السيدة خديجة رضي الله عنها - ما رأى ثم قال :

« لقد خشيت على نفسي » .

إن كل ذلك برهان واضح على الصدق ، وعلى الإخلاص ، فإذا ما أضيف

ذلك إلى ما يعرفه ورقة من حياة الرسول ﷺ فإن ثمرة ذلك : التصديق والإيمان ،

بيد أن النور الذي غمر ورقة ، إنما كان إشعاع قوله تعالى :

(أقرأ باسم ربك الذي خلق) .

حيينا سمع ورقة أول آية من القرآن :

(أقرأ باسم ربك الذي خلق . . .)

لم يملك أن آمن بأن ، هذا الذي يتلى - إنما هو : وحى من السماء ، إن :

(أقرأ باسم ربك) . تنص على أن القراءة لا تكون باسم وزير ، ولا أمير ، ولا باسم

منفعة شخصية ، ولا باسم مصلحة إقليمية ، ولا باسم غاية مادية أيا كانت ، ولا

باسم وطن أو بيئة ، وإنما هي : باسم الله ، وإذا كانت باسم الله فإنها تفيد الشخص

باعتباره فرداً ، وتفيد المجتمع الخاص الذي نسميه : « وطناً » وتفيد المجتمع

الإسلامى العام ، بل وتفيد الإنسانية جموعاً .

وإذا ما تجردت القراءة لله تعالى ، وكان هدفها الأول والأخير هو : الله مصدر

الخير والنور كانت خيراً ، وكانت نوراً في جميع الأرجاء وفي جميع الأزمان .

وهكذا وضعنا الإسلام منذ : « أقرأ باسم ربك » : أى منذ اللحظة الأولى من

تارikhه على قمة الإخلاص ، وعلى قمة الإحسان ؛ وفي خضم من التقوى ، وعلى

الستان من الصدق . فما دامت الحياة كلها لله فليس هناك مجال للذنب ،

والرياء ، والتفاق ، والخدية ، وإرادة غير الله بالأعمال .

وحينا سمع ورقة هذه الكلمة الأولى . . . لم يملك أن آمن ، وماذا يمكن أن

تقول لشخص تجرد إلى الله ، ويدعوك أن تتجرد إليه سبحانه ، شخص لم يطلب

مala ، ولا جاهاً ، ولا زعامة ، ولا ملكاً ، إنه يريد أن تقرأ الإنسانية كلها باسم ربها ، وأن تقوم في كيائها كلها على أساس من تربية ربها . لماذا يمكن أن يقول له : يمكن أن يقول : إنك كذاب ، فما هو الصدق إذن ؟ يمكن أن يقول له : إنك منافق ، فما هو الإخلاص ؟ إن هذه الكلمة الأولى قادت ورقة فور سماها إلى الإيمان .

أسطورة التعارض بين الإسلام والعلم :

إن مشكلة التعارض بين الدين والعلم – إنما نشأت في أوربا بعيدة كل البعد عن الروح الإسلامية التي حث الإنسانية على التعليم ، والتي ولد المنهج العلمي الذي يسمونه : « المنهج الحديث » بين ربواعها ، والتي أنشأت على أساس من هذا المنهج حضارة ضخمة ، لا نزال نكشف كل يوم الكثير من أphanاتها العميقـة ، وما من شك في أن الحضارة الإسلامية هي التي قد قدمت للحضارة الغربية الحديثة منهاجاً ، وقدمت لها الكثير من الحقائق العلمية في كثير من المجالات المختلفة .

إن المنهج العلمي الحديث في أوربا – يرجع إلى : (روجر بيكون) فهو الذي أذاعه ونشره في أرجاء أوربا .

ويتحدث الأستاذ : (بريفولت) في كتابه : « بناء الإنسانية » فيقول عن روجر بيكون : إنه درس اللغة العربية ، والعلوم العربية في مدرسة : أكسفورد على خلفاء العرب في الأندلس ، وليس لروجر بيكون ولا لسميه الذي جاء بعده – الحق في أن ينسب إليها الفضل في ابتكار المنهج التجاري ، فلم يكن روجر بيكون إلا رسولاً من رسول العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا المسيحية ، وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحق والمناقشات التي دارت حول واضعي المنهج التجاري طرف من التحرير الهائل لأصول الحضارة الأوربية .

وقد كان منهج العرب التجاري في عصر « بيكون » قد انتشر انتشاراً واسعاً ،

وانكب الناس في لفف على تحصيله في ربع أوربا^(١).
ويقول : (بريفولت) أيضاً :

لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث ، ولكن
ثماره كانت بطيئة النضج .

إن العبرية التي ولدتها ثقافة العرب في إسبانيا لم تنهض في عنفوانها إلا بعد
مضي وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام ، ولم يكن العلم
وحده هو الذي أعاد إلى أوربا الحياة ، بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات
الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية^(٢) ١ هـ .
وإذا كان الإسلام ، هو الذي أنشأ هذا المنهج وهذا العلم فمن الطبيعي ألا
يعارضه .

على أن مسألة التعارض بين الدين والعلم إنما هي مسألة وهمية ، إذا نظرنا إلى
حقيقة الأمر :

وذلك أن العلم دائنته المادة والمحس ، أما الدين فدائته : (ما وراء الطبيعة) ،
والخير والفضيلة ، فهما لا يلتقيان في الموضوع ، فكيف يتعارضان ؟
إن ملاحقة العصر الحاضر يتوهمن مشاكل لا أساس لها ، ثم يضعونها على
بساط البحث ، ويتناقشون فيها ويتجادلون ، وعلى مر الزمن : يضفي الإلتف عليها ،
وهي وهمية - صورة من ظلال الحقائق ، فيظن بعض الناس أنها مشاكل جديرة
بالبحث والنظر ومن ذلك مسألة التعارض بين العلم والدين مع أنه لا اتحاد بين
موضوعيهما .

العلم في الإسلام أوسع دائرة :

وإذا اقتصرت أوربا على العلم المادي فإن الإسلام لا يقف عند ذلك ! وإنما
يوجه الإنسانية إلى مصدر آخر للعمل والمعرفة : هو القلب أو الروح وال بصيرة .

(١) تجديد التفكير الديني في الإسلام ، تأليف محمد إقبال ، ترجمة الأستاذ عباس محمود .

(٢) المصدر السابق .

إن الإسلام يوجه الإنسان إلى المعرفة الإشراقية ، أو الكشفية ، أو الإلهامية ؛ ويجمع الإسلام الاتجاه العلمي الحديث إلى الاتجاه البصيري في قوله : (إن السمع ، والبصر ، والفؤاد : كل أولئك - كان عنه مسئولا)^(١). فالسمع ، والبصر هما أساس العلم المادي : علم التجربة ، والللاحظة ؛ أما القلب فإنه أساس العلم الإلهامي .

إن الله سبحانه وتعالى يوجه المسلم إلى الملاحظة والتجربة ، ويوجه أيضاً إلى الاستشراف للهداية والتور القلى عن طريق الخلق الكريم والتقوى والإخلاص وحب الإنسانية والمساعدة في الخير .

وإذا كان الإسلام أوسع نظرة في الجانب العلمي عن الحضارة الحديثة ، وأدق وأشمل فإنه يخالفها اختلافاً جذرياً حاسماً في مسألة الإرادات والنوايا ، وفي أمر الأسباب والبواعث ، وفي اتجاه الغايات والأهداف .

إن الحضارة الحديثة تقول : العلم لا صلة له بالأخلاق ، أو تقول : العلم لا أخلاق والعلم في نظرها - لا شأن له بالخير والشر .

ولكن الإسلام يجعل أساس العلم متسمة بالخير ، ويجعل غايته منخمسة في الخير ، ويجعل من العلم قربى إلى الله ، ويجعل منه عبادة الله ، إنه سبحانه يجعله باسمه الكريم ، إن العلم في الجو الإسلامي قراءة باسم الله .

ومن هنا كانت حضارة الإسلام حضارة رحمة وهداية لا حضارة تدمير وتخريب :

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) الأنبياء / ١٠٧
تلك حقيقة في الدين الإسلامي ، سواء نظرنا إلى أساسه أو نظرنا إلى غايته .
أما الرسول ، صلوات الله عليه فإنه :
(رحمة مهداة) .

(١) الإسراء آية : ٣٦ .

الجهر بالدعوة وإثبات الرسالة :

مكثت الدعوة الإسلامية سريةً ثلاثة سنوات ، ثم أمر صلوات الله عليه بالجهر بها . فصعد على الصفا فقال : يا معاشر قريش ، فقالت قريش : محمد على الصفا يهتف ، فأقبلوا واجتمعوا ؛ فقالوا مالك يا محمد ؟

قال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل أكنتم مصدق ؟

قالوا : نعم ، أنت عندنا غير متهم . وما جربنا عليك كذباً قط .

قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، يابني عبد المطلب ، يا بني عبد مناف ، يا بني زهرة . . . حتى عدد الأفخاذ من قريش - إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين . وإنني لا أملك لكم من الدنيا منفعة . ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا : « لا إله إلا الله » .

وإذا كان رسول الله ، صلوات الله عليه قد طرح الثقة على قريش برفعه علم الأمانة هذا في وجوههم فإنه كان مطمئناً واثقاً من أن حياته من الصفاء بحيث لم يشبهها ما يجعل رأى قريش فيه قبيحاً .

لقد كانت حياة البراءة الكاملة ، والطهر التام وهذا مما دعاه إلى أن يتحدى في صراحة ، وأن يعلن في وضوح أن حياته ثبت صدق ما يقول .

ولو تمثلت الأمانة - الصدق والإخلاص - في كل من يحيطون به لما كان في حاجة إلى رفع علمه هذا ؛ فقد كان يمكن الإخبار بأنه رسول فتكون الاستجابة .

وقد آمن بمجرد هذا الإخبار كثيرون لما توفر فيهم من الصدق والإخلاص لأنفسهم وللآخرين : أى لما توفر فيهم من الأمانة . لقد آمنت خديجة ، وأمن أبو بكر ، وأمن ورقة وغيرهم بمجرد أن أخبرهم بأمره . آمنوا لما يعرفونه فيه وما يعلمونه من حياته ، ولقد أقر بهذه الصفة - صفة الأمانة - أبو سفيان في وقت كان فيه من أشد أعداء الرسول : سأله هرقل قائلاً : هل كنتم تتهمنوه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فقال أبو سفيان : لا ، وكان استنتاج هرقل : أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكتذب على الله .

وسائل هرقل أبا سفيان أيضًا هل قد أتى عن محمد غدر؟ فأجاب أبو سفيان بالنفي؛ فقال له هرقل: سألك هل يغدر فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر.

أما إثبات الرسالة فقد تحدث القرآن الكريم عن المعجزة الكبرى. وهي القرآن، وتحدى العرب به، لقد تحداهم به في عنف، وتحداهم متدرجاً بهم؛ إذ طلب إليهم أولاً: أن يأتوا بمثله فقال الله، تعالى، (قل: لئن اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) ^(١).

فليا عجزوا طلب إليهم أن يأتوا بعشر سور مثله:
 (أم يقولون افتراء؟ قل: فأتوا بعشر سور مثله مفتريات، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) ^(٢)

فليا عجزوا طلب إليهم أن يأتوا بسورة من مثله:
 (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم تفعلوا، ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) ^(٣).

عن كل ذلك عجز المشركون؛ فثبتت: أن هذا الكتاب من لدن الله.
 أما عن حياته صلوات الله عليه فإن القرآن تحدث عنها من زوايا مختلفة: لقد تحدث عنها في صراحة لا لبس فيها، وتحدث عنها في إشارات ذات مغزى، وتركنا فضلاً عن ذلك نستنتج من الأخبار الكثيرة التي قصها عنه - جوانب لا تختص من السمو الأخلاقية الكريمة:

١ - لقد تجرد صلوات الله عليه من كل مطمح دنيوي:
 (قل: ما سألكم من أجر فهو لكم، إن أجري إلا على الله، وهو على كل شيء شهيد) ^(٤).

(١) سورة الإسراء آية: ٨٨.

(٣) سورة البقرة آية: ٢٣ - ٢٤.

(٢) سورة هود آية: ١٣.

(٤) سورة سباء آية: ٤٧.

٢ - ولقد لبّثُتْ فِيهِم مِّن قَبْلِ ذَلِكَ أَرْبَعِينَ عَامًا ، فَلَمْ يُحَدِّثُهُمْ بِنَبْوَةِ وَلَا بِرِسَالَةٍ :
 (قُلْ : لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوَتْهُ عَلَيْكُمْ ، وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ، فَقَدْ لبّثَتْ فِيهِمْ عُمْرًا مِّنْ
 قَبْلِهِ أَفْلَا تَعْقِلُونَ) يُونُس / ١٦ .

٣ - ويطلب إِلَيْهِمُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ : أَنْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَمْرِ صَاحِبِهِمْ هَذَا ، الَّذِي
 نَشَأَ بِيَهُمْ ، وَتَرَعَّرَ عَلَى مَرْأَى وَمَسْمَعٍ مِّنْهُمْ :
 « قُلْ : إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ : أَنْ تَقْوُمُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفَرَادِيٍّ ، ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا
 مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ ، بَيْنَ يَدِي عَذَابٍ شَدِيدٍ ^(١) »
 وَيَشْرِحُ الزَّمْخَشْرِيُّ هَذِهِ الْآيَةَ شَرْحًا لَطِيفًا فَيَقُولُ مَا مُلْخَصُهُ :
 إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ إِنْ فَعَلْتُمُوهَا أَصْبَمْتُ الْحَقَّ وَتَخَلَّصْتُمْ ، وَهِيَ . أَنْ تَقْوُمُوا لِوَجْهِ
 اللَّهِ خَالِصًا ، اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ ، أَوْ وَاحِدًا وَاحِدًا (ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا) فِي أَمْرِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَمَا
 جَاءَ بِهِ .

أَمَا الْإِثْنَانُ فَيَتَفَكَّرُانِ ، وَيُعَرَّضُ كُلُّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مُحَصَّلُ فَكْرِهِ عَلَى صَاحِبِهِ ،
 وَيَنْظَرَانِ فِيهِ مُتَصَادِقِينِ ، مُمْتَنَاصِفِينِ ، لَا يَمْلِلُ بَهُمَا اتِّبَاعُ الْهَوَى وَلَا يَنْبَضُ لَهُمَا عَرْقٌ
 عَصَبِيَّةٌ ، حَتَّى يَهْجُمَ بَهُمَا الْفَنَرُ الصَّالِحُ وَالنَّظَرُ الصَّحِيحُ ، عَلَى جَادَةِ الْحَقِّ وَسَنَتِهِ ،
 وَكَذَلِكَ الْفَرَدُ يَفْكِرُ فِي نَفْسِهِ بَعْدَ وَنَصْفَةٍ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكَابِرُ ، وَيُعَرَّضُ فَكْرِهِ عَلَى
 عَقْلِهِ وَذَهْنِهِ ، وَمَا اسْتَقَرَّ عَنْهُ : مِنْ عَادَاتِ الْعُقَلَاءِ وَمُجَارِيِ الْأَحْوَالِمِ .
 وَالَّذِي أَوْجَبَ تَفْرِقَهُمْ مَثْنَى وَفَرَادِيًّا : أَنَّ الْاجْتِمَاعَ مَا يَشُوشُ الْخَوَاطِرَ ، وَيَمْنَعُ
 مِنَ الرُّوْيَا ، وَمَعَ ذَلِكَ يَقْلُلُ الْإِنْصَافُ ، وَيَكْثُرُ الْاعْتِسَافُ .

وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا بِهِ مِنْ جَنَّةٍ ، بَلْ عَلِمْتُمُوهُ أَرْجُحَ قُرْبَشَ عَقْلًا .
 وَآصْلَهُمْ رَأْيًا ، وَأَصْدَقُهُمْ قَوْلًا ، وَأَنْزَهُمْ نَفْسًا ؛ فَكَانَ مَظْنَةً لَأَنْ تَظْنُوا بِهِ الْخَيْرَ .
 وَإِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ كَفَاكُمْ أَنْ تَطَالِبُوهُ بِأَنْ يَأْتِيَكُمْ بَآيَةً .

٤ - ويصف القرآن الكريم جانباً من جوانب حياته، ويصف دعوته أيضاً
 فيقول .

(وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ ، وَلَا تَنْخُطُهُ بِيَمِينِكَ ، إِذْنَ لَارْتَاب

(١) سورة سباء آية : ٤٦

المبطلون ، بل هو : آيات بینات في صدور الدين أتوا العلم وما يحمد بآياتنا إلا الظالموں) (۱) .

وإذا وقفنا قليلاً عند هاتين الآيتين فإننا نجد أن الآية الأولى تريد أن تقول : إنه حتى لو فرضنا أن محمدًا صلوات الله عليه عليه كان يقرأ ويكتب ، وأنه كان يتلو من قبله كتاباً ، أو كان يخطه بيمنيه لا تقتصر الارتياب على المبطلين فحسب : ذلك أن معانى الكتاب ومفاهيم الدعوة التي أتى بها والقواعد والمبادئ التي يبشر بها - كل ذلك آيات بینات في صدور الدين أتوا العلم ، لا ينفيها ، ولا يمحوها إلا الظالموں ، والظالموں في كل آونة يمحدون الحق ، وينكرون المنطق السليم .

هـ - ويتوج القرآن الكريم تحدثه عن الرسول ، صلوات الله عليه ، بهذه الكلمة العميقة :

(وإنك لعلى خلق عظيم) القلم / ٤ .

إن الدعوة الإسلامية آيات بینات في منطق الحق ، وفي منطق العقول المستنيرة .
وها هو ذا (أكثم بن صيف) أحد حكماء العرب ينتهي بفطنته السليمة هذا

النهج من الاستدلال على صدق الرسول ﷺ بدعوته :

يدرك (الألوسي) أنه لما ظهر النبي ﷺ بمكة ودعا إلى الإسلام فبعث أكثم بن صيف ابنه « حبيشاً » ، فأتاه بخبره ، فجمع بنى تميم وقال لهم فيما قال : « إن ابني شافه هذا الرجل مشافهة ، وأتاني بخبره ، وكتابه يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو إلى توحيد الله تعالى ، وخلع الأوثان ، وترك الحلف بالنيران ، وقد حلف (عرف) ذوو الرأى منكم أن الفضل فيها يدعوه إليه ، وأن الرأى ترك ما ينهى عنه » .

ثم يقول هذه الكلمة الرائعة :

« إن الذي يدعو إليه محمد لم يكن ديناً لكان في أخلاق الناس حسناً ». وقد كان الاستدلال بصدق الدعوة على صدق الرسول صلوات الله عليه هو المنحى الذي أرسار فيه جعفر بن أبي طالب رضوان الله عليه حينما سأله النجاشي

(۱) العنكبوت آيتا : ٤٨ - ٤٩ .

عن أمر دينه : وذلك أنه لما فر المسلمون بدينهم إلى الحبشة مهاجرين إليها بسبب ما ناهم من تعذيب أئم ، وأرسل القرشيون وفداً إلى النجاشي فيه عبد الله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص - لرد المهاجرين إلى مكة ، ليعدبواهم من جديد ولما التقى الوفد والنحاشي قال له عمرو بن العاص :

« إنه قد جأ إلى بلدك منا غلاب سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك . وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آباءهم ، وأعمامهم ، وعشائرهم ؛ لتردّهم عليهم ، فهم أعلى بهم عينا (أى أبصر بهم) وأعلم بما عابوا عليهم » .

فلما سمع النجاشي كلامهم رأى أن من الحكمة لا يسلم إليهم المهاجرين ، دون أن يسمع كلامهم وحجتهم ، فأرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ ، فدعاهم ، فلما جاءوا قال لهم : ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا في ديني ، ولا دين أحد من هذه الملل ؟ فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب ، فقال له : « أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية : نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأكل الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الصعيف .. فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته وعفافه ؛ فدعانا إلى الله ؛ لتوحده ، ونبعده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه : من الحجارة والأوثان ..

وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء .

ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحسنات . وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلوة ، والزكاة ، والصيام ، (وعدد عليه أمور الإسلام) فصدقناه ، وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ولم نشرك به شيئاً . وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا .

فعدا علينا قومنا ، فعدبوا وفتونا عن ديننا ، ليبردونا إلى عبادة الأوثان من

عبادة الله تعالى ، وأن نستحلل ما كنا نستحلل من الخبائث . فلما قهرونا ، وظلمونا
وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا - خرجنا إلى بلادك ..
ولما قرأ عليه صدراً من سورة مريم بكى النجاشي . ثم قال :
إن هذا ، والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، تم التفت إلى
عبد الله بن أبي ربيعة . وعمرو بن العاص . فقال لها :
(انطلقا : فلا ، والله لأسلمهم إليكما) .

لقد علم النجاشي فور سماعه المبادئ الإسلامية « أن هذه المبادئ حق ، وأنها
آيات بيّنات ، لا يتحقق صدقها على أصحاب الفطر السليمة ، وعلم أن ما أتى به
محمد صلوات الله عليه ، إنما يصدر من المنبع الذي كانت تصدر عنه رسالة عيسى
عليه السلام » .

وبعد فإن سيرة الرسول صلوات الله عليه والمبادئ الإسلامية - من أهم الرسائل
التي ينبغي أن يتوجه إليها المبشرون بالدين الإسلامي لنشر الإسلام .

على أن هذا النهج من الاستدلال بالدعوة على الصدق ، وجعل النظر في
الدعوة إحدى الوسائل التي تسلم - مع غيرها من الملابسات - إلى اليقين بصدق
الداعى - هذا النهج الذى اخذه هرقل والنحاجي - هو النهج الذى أقره الإمام
الغزالى ، فإناك إذا « أكثرت النظر فى القرآن والأخبار يحصل لك العلم الضرورى
بكونه ، ﷺ على أعلى درجات النبوة » .

وأعتصد ذلك بتجربة ما قاله فى العبادات ، وتأثيرها فى تصفية القلوب ، وكيف
صدق في قوله ﷺ :

« من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم » .

وكيف صدق في قوله ﷺ ؟

« من أعن ظالما سلطه الله عليه » .

وكيف صدق في قوله ﷺ ؟

« من أصبح وهممه هم واحد - هو التقوى - كفاه الله هموم الدنيا والآخرة » .

إذا جربت ذلك في ألف ، وألفين ، وآلاف - حصل لك علم ضروري لا تماري فيه » بأنه صلوات الله عليه على أعلى درجات النبوة . « إن النظر إلى الدعوة الإسلامية في نظر الإمام الغزالى هو أحد الوسائل التي ثبتت صدق الرسول ﷺ .

وقد تابع هذا الاتجاه في الاستدلال العالم الاجتماعي الكبير : ابن خلدون وهو يستوعب - في نظرة عامة - الكثير من الاتجاهات المستقيمة في شأن النبوات ، ونقل هنا ما كتبه خاصاً بموضوع الاستدلال بالدعوة - حينما تكون الدعوة خيراً محضاً : كالدعوة الإسلامية - على صدق الرسول فيها يدعوه إليه ، يقول : ومن علامتهم أيضاً :

دعاؤهم إلى الدين والعبادة : من الصلاة ، والصدق ، والعفاف ؛ وقد استدللت خديجة على صدقه ﷺ بذلك ، وكذلك أبو بكر ، ولم يحتاجا في أمره إلى دليل خارج عن حاله وخلته ، وفي الصحيح :

أن هرقل حين جاءه كتاب النبي ﷺ يدعوه إلى الإسلام - أحضر من وجد في بلده من قريش ، وفيهم أبو سفيان : يسألهم عن حاله ، فكان فيما سأله أن قال : بم يأمركم ؟ فقال أبو سفيان : بالصلاحة ، والزكاة ، والصلة ، والعفاف . . . إلى آخر ما سأله ، فأجابه فقال :

« إن يكن ما تقوله حقاً فهو نبي ، وسيملئ ما تحت قدمي هاتين » .

والعفاف الذي أشار إليه هرقل هو : العصمة .

« فانظر كيف أخذ من العصمة ، والدعاء إلى الدين ، والعبادة دليلاً على صحة نبوته ، ولم يحتاج إلى معجزة فدل ذلك على أن ذلك من علامات النبوة . . . وشيء آخر له مجاله الكبير في إثبات الرسالة : ذكره السيدة عائشة ، رضي الله عنها في حديث : « بدء الوحى » وهو : أن الله ، سبحانه ، حب إلى رسوله ﷺ الخلاء ، فكان قبيل الوحى يغادر مكة ، ويبتعد عن حياتها الصالحة التي كان يرى فيها من الضلال الشيء الكثير . . .

يتركها ؛ ليخلو بغار حراء فريداً يتأمل ويرجو ويسجد لله متبعداً ، خاشعاً طالباً

رضاه ، آملا في هدایته . كان يتحنث في هذا الغار : أى يتبعد فيه الليلى ذوات العدد قبل أن يتزع إلى أهله ، ويتوود ليعود من جديد إلى النسك ، وإلى العبادة . لم يكن إذن يتطلب مالاً أو ثراءً أو لذة مادية أو جهازاً أو مجدًا عند الناس ؛ إنه يتطلب الهدایة ويبحث عنها .

ولقد وضح عزوفه عن زخارف الحياة وضوحاً بينما في قوله وسلوكه ، وتذكر السيرة النبوية نبأين لها مغزى واحد عميق : أما النبأ الأول فهو أن عتبة بن ربيعة - وكان سيداً في قومه - قال يوماً ، وهو جالس في نادى قريش ، ورسول الله ﷺ ، جالس في المسجد وحده : يا معاشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد ، فأكلمه وأعرض عليه أموراً ، لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ؟

وذلك : حين أسلم حمزة ، ورأوا أصحاب رسول الله ، ﷺ ، يزيدون ويكررون ، فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، قم إليه فكلمه . فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ ، فقال :

« يا بن أخي ، إنك منا حيث قد علمت : من البسطة في العشيرة ، والكمال في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جاعتكم ، وسفهت به أحلامهم ، وعابت به آهاتهم ، وكفرت من مضى من آباءهم ، فاسمع مني . أعرض عليك أموراً .. تنظر فيها لعلك تقبل مني بعضها .

قال رسول الله ، ﷺ ، « قل يا أبا الوليد أسمع » .

قال : « يا بن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالاً ؛ وإن كنت إنما تريد به شرفاً سودناك علينا ؛ حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت ت يريد به ملكاً ملكتناه علينا . وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب . وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل ، حتى يداوى منه ». حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال : لقد فرغت يا أبا الوليد .

قال : نعم

قال : فاسمع مني .

قال : افعل

قال : (بسم الله الرحمن الرحيم ، حم تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ، وقالوا : قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ...) فصلت / ١ - ٥ ثم مضى رسول الله ، ﷺ ، يقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها يسمع منه .

ثم أنهى رسول الله ﷺ إلى السجدة ، ثم قال : « قد سمعت يا أبو الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك ». .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نخلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به .

فلا جلس إليهم قالوا : « ما ورائك يا أبو الوليد؟ » قال : « ورأي أني سمعت قوله ، والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة . يا معاشر قريش ، أطيعوني واجعلوها بي ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه . فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتهم بغيركم ، وإن يظهر على العرب فلكه وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به . قالوا : « سحرك والله ، يا أبو الوليد بسانه ». .

قال : « هذا رأي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم ». .

قد يقول قائل : إنه لو عرض على محمد ﷺ هذا العرض من هيئة تستطيع تنفيذه لقبل . هذا القول ينقضه : أن عتبة كان مفوضاً من زعماء قريش ، وينقضه أيضاً الخبر الآخر الذي ترويه كتب السيرة .

لقد اجتمع عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، والنضر ابن الحارث - أخو بن عبد الدار - وأبو البختري بن هشام ، والأسود بن المطلب ابن أسد ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام عليه لعنة الله ، وعبد الله بن أبي أمية ، والعاص بن وائل ، ونبيه ومنبه ابن الحاجاج

السهميان ، وأمية بن خاف - اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم

قال بعضهم لبعض :

«ابعثوا إلى محمد فكلموه : ونخاصمه ، حتى تذدرروا فيه» .

«فبعثوا إليه ، أن أشراف قومك قد اجتمعوا ليكلموك فأتهم» .

فجاءهم رسول الله ، ﷺ سريعاً وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلامهم فيه «وكان عليهم حريضاً : يحب رشدهم ويعز عليه عنهم ، حتى جلس إليهم فقالوا له : «يا محمد : إننا قد بعثنا إليك لنكلمك ، وإنما والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك : لقد شتمت الآباء ، وعبدت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فما بقي أمر قبيح إلا جئته فيها بيتنا وبينك» .

فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا ، وإن كنت تريده ملكاً ملكتناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً ، تراه قد غالب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن رئياً - فربما كان ذلك - بذلك لك أموالنا في طلب الطلب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك ! » فقال لهم رسول الله ، ﷺ : «ما بي ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً ، وأنزل على كتاباً ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله ، حتى يحكم بيبي وبينكم» .

هذا العزوف عن المجد والجاه عند الناس ، وعن المال والثراء ، وعن الدنيا كلها - تؤيده حياته ، صلوات الله عليه ، من أولها إلى آخرها ، و يؤيده القرآن تأييداً حاسماً :

(من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يحسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحيط ما صنعوا فيها وباطل ما

كانوا يعملون ^(١) .

(من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلها مذموماً مدحوراً) ^(٢) .

(اعلموا أنما الحياة الدنيا : لعب ولهو ، وزينة ، وتفاخر بينكم ، وتکاثر في الأموال والأولاد : كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفرأً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ، ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) ^(٣) .

وعن جبير بن نفير رضي الله عنه قال : « دخلت على عائشة ، رضي الله عنها ، فسألتها عن خلق رسول الله ﷺ ، فقالت : القرآن » .

وحقيقة الأمر : أن رسول الله ﷺ كان في كل ما يأتيه وفي كل ما يدعه قرآنًا مطبقاً ، ومن هنا كان قول الله سبحانه وتعالى : (وإنك لعلى خلق عظيم) .

القلم / ٤ .

كانت تأتيه الدنيا فينفقها وهو جالس : « أتى إليه صلوات الله عليه سبعون ألف درهم ، فوضعها - كما يروى هارون بن رباب - على حصیر ، ثم قام إليها يقسمها ، فما رد سائلاً حتى فرغ منها » .

« وبينما هو عائد من حنين تکاثرت الأذاب عليه يسألونه ، وخطفوا رداءه ، فوقف رسول الله ﷺ وقال : اعطوني ردائی ، لو كان لي عدد هذه العضاة : - شجر عظيم له شوك - نعماً لقصمتها بينكم ، ثم لا تجدوني بخيلاً ، ولا كذاباً ، ولا جباناً » .

ويقول ، صلوات الله عليه ، لأصحابه .

« مالي وللدنيا ؟ » .

ويقول ﷺ :

« عرضت على الدنيا فأبىتها » .

(٣) سورة الحديد آية : ٢٠ .

(١) سورة هود آيتا : ١٥ - ١٦ .

(٢) سورة الإسراء آية : ١٨ ،

«ولقد كان رسول الله ﷺ كما يروى عن أنس رضي الله عنه : أحب إنسان إلى الأنصار والمهاجرين ، ولكنهم كانوا إذا رأوه لا يقumen له لما يعرفون من كراهيته له : «أى القيام له» ويقول ﷺ لأصحابه :

«إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله تعالى مستخلفكم فيها ، فينظر كيف تعملون؟ فاتقوا الدنيا واتقوا النساء» ويقول ﷺ لأصحابه وهم جالسون حوله : «إن مما أخاف عليكم من بعدي - ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها» إن الرسول صلوات الله عليه ما كان ليتطلع إلى الدنيا في مختلف جوانبها وهو يقرأ قوله تعالى :

(زين للناس حب الشهوات : من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعمان والحرث ، ذلك متع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب ^(١))

عزوفه ﷺ عن الدنيا إذن : قضية هي من البداهة : بحيث تفجأ في النظرة الأولى كل دارس لسيرته ﷺ .

وحيثما رفعه الله إليه لم يترك الصياع والمعارات والبساتين ، ولم يترك الآلاف المؤلفة من الذهب والفضة ؛ وإنما ترك وراءه مبادئ الحق التي أوحاها الله إليه ، والتي مكث طوال حياته يجاهد بقوله وعمله في سبيل إقامتها ونشرها ، ويكافح كفاحاً لا يهدأ ولا يفتر في سبيل تدعيمها ، وترك وراءه رجالاً يومئون بهذه المبادئ ، ويتحققون بأنهم مكلفوون - باعتبارهم من المسلمين - بنشرها وإذاعتها بين أرجاء العالم أجمع ، وترك عبيراً يتضوّع رحمة ويشع نوراً ، منها طالت القرون وتطاولت الأزمنة .

إنه ﷺ - هو تلك الصورة الحية للتطبيق القرآني ، فكان ﷺ عازفاً عن الدنيا ما في ذلك من شك ، وكان عازفاً عن الدنيا لسعيه وراء الآخرة ، وعزم المصم على أن يكون فيما يأتي وفيما يدع مرضياً لله تعالى ، ومن كان كذلك كان صادقاً حتماً .

(١) سورة آل عمران آية : ١٤ .

وعزوفه عن الدنيا من أقوى الأدلة على صدقه وعلى إخلاصه صلوات الله وسلامه عليه .

بيد أن هذا العزوف عن الدنيا ، لا يعني إلا عدم تعلق القلب بها ، ولكن السيطرة عليها وامتلاكها وتسخيرها في سبيل مرضاته الله : من واجبات كل مسلم ، والمسلم مكافح دائمًا في سبيل الله ، ومن أجل مرضاته ، وقد امتلك المسلمين الأول الدنيا ، ودانت لهم المعمورة ، وخضعت لهم المادة ، فاستخدموها كل ذلك في الخير وإسعاد الإنسانية .

وقد تحدثنا فيما سبق عن الإسلام والعلم ، وعن الإسلام وتسخير المادة ، وقلنا : إن ذلك عبادة .

الفصل الرابع

الإسراء والمعراج

وترقى به إلى قاب قوسين
ن وتلك السيادة للعمساء
رتب تسقط الأمانى حسرى
دونها ما وراءهن وراء
ثُمَّ وافى يحدث الناس شكرًا
إذ أتته من ربِّ النعماء
يقول الله تعالى :

(سبحان الذي أسرى بعده ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي
باركتنا حوله؛ لزيره من آياتنا : إنه هو السميع البصير^(١)).

ويقول تعالى :

(والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن
هو إلا رحى يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ،
ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين ، أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ما كذب
الفؤاد ما رأى ، فأفтарونه على ما يرى ، ولقد رأه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى
عندَها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى
من آيات ربِّ الكبرى^(٢)).

. هذه هي الآيات القرآنية عن الإسراء والمعراج .

أما الأحاديث النبوية فإنها كثيرة مستفيضة ، ولقد رويت عن أكثر من ستة
عشرين صحابياً يكمل بعضها بعضاً .

ونحن هنا لا نعنينا أن نذكر الموضوع بكل تفصيلاته فإنه معروف عادة
مسلمين ؛ وإنما الذي يعنينا أن نذكر على الخصوص الجانب الأخلاقى فيه ،
جانب المغزى منه .

ولقد قدم ابن إسحاق - على حسب ما يروى ابن هشام - لحديث الإسراء
كلمة جميلة يقول فيها :

(١) سورة الإسراء آية : ١

(٢) سورة النجم الآيات . ١٨ - ١

« وكان في مسراه وما ذكر منه : بلاء وتخيس ، وأمر من أمر الله ، في قدرته وسلطانه فيه عبرة لأولى الألباب ، وهدى ورحمة ، وثبات لمن آمن بالله وصدق ، وكان من أمر الله على يقين .

فأسري به كيف شاء ، وكما شاء ؛ ليريه من آياته الكبرى ما أراد ، حتى عاين ما عاين من أمره ، وسلطانه العظيم ، وقدرته التي يصنع بها ما يريد ». وبحمل الأمر : أن رسول الله ﷺ - بينما كان نائماً أتاها جبريل ، فايقظه ، وخرج معه ، فإذا أمامها دابة بيضاء هي البراق ، وركبها رسول الله ﷺ ، وسارت الدابة وجبريل . معه - على حد تعبيره - ﷺ : « لا يفوتنى ولا أفوته » حتى انتهى إلى بيت المقدس .

فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء ، فأمهم رسول الله ﷺ ، وصلى بهم ، ثم أتى بپاناعين : بأحدهما خمر ، وبالآخر لبن ، فأخذ رسول الله ﷺ إناء اللبن ، وشرب منه ، وترك إناء الخمر فقال له جبريل : « هديت للفطرة ، وهديت أمتك ، وحرمت عليكم الخمر ». .

وتروى كتب السيرة : أن رسول الله ، صلوات الله عليه : أتاها ليلة الإسراء آتٍ ففرق صدره ، ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بقطن من ذهب ممتليء حكمة وإيماناً ، فأفرغه في صدره الشريف ، ثم أطبقه .

ولما انتهى صلوات الله عليه من بيت المقدس عرج به إلى السماء ، وأنخذ يرتقي سماء سماء ، ثم تجاوزها جميعها إلى سدرة المنتهى ، وإلى قاب قوسين أو أدنى ، وهناك حيا الرسول صلوات الله عليه ربه :

(التحيات لله ، والصلوات والطيبات)

وحياه الله سبحانه وتعالى :

(السلام عليك : أيها النبي ورحمة الله وبركاته) .

وقال الرسول ، صلوات الله عليه :

(السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ،أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله) .

وفي هذه اللحظات الخالدة التي لا يتأتى أن توصف فرض الله سبحانه وتعالى الصلاة على الأمة الإسلامية .

عن ابن عباس رضي الله عنهم - فيما رواه الإمام أحمد ، قال : قال رسول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

«لما كانت ليلة أسرى بي ، وأصبحت بمكة فظعت أمرى ، وعرفت : أن الناس مكذبى» .

قال : فر عدو الله أبو جهل ، فجاء حتى جلس إليه ، فقال له أبو جهل كالمستهزئ :

هل كان من شيء !

فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : نعم .

قال : ما هو ؟

قال : إنه أسرى بي الليلة .

قال : إلى أين !

قال : إلى بيت المقدس ..

قال : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟

قال : نعم .

قال : فلم ير أنه يكذبه مخافة أن يححد الحديث ، إذا دعا قومه إليه !

قال : أرأيت إن دعوت قومك تحدثهم ما حدثني !

فقال رسول الله ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : نعم .

فانطلق أبو جهل إلى قريش ، فقال :

هيا يا معاشر بنى كعب بن لؤى .

قال : فانقضت إليه المجالس ، وجاءوا حتى جلسوا إليها .

فقال أبو جهل : حدث قومك بما حدثني .

فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إنى أسرى بي الليلة .

قالوا : إلى أين ؟

قال : إلى بيت المقدس .

قالوا : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟

قال : نعم .

إذا بالقوم بين مصفق ، وبين واضح يده على رأسه متعجبًا للكذب فيما زعم .

قالوا : وهل تستطيع أن تنتن لنا المسجد ؟ وفي القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد .

فقال رسول الله ، ﷺ : « فذهبت أنت ، فما زلت أنت حتى التبس على بعض النعوت » .

قال : فجئ بالمسجد ، وأنا أنظر ، حتى وضع دون دار عقيل ، فنعته وأنا أنظر إليه .

قال : فقال القوم : « أما النعوت فوالله لقد أصاب » .

وعن الحسن : أنه في يوم الحديث عن الإسراء ارتد كثير من كان أسلم ، وذهب الناس إلى أبي بكر ، فقالوا له : هل لك يا أبو بكر في صاحبك ؟

يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس ، وصلى فيه ، ورجع إلى مكة !

فقال لهم أبو بكر : إنكم تكذبون عليه .

قالوا : لا ، ها هو ذاك في المسجد يحدث به الناس .

قال أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ؟

فوالله إنه ليخبرني : أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار ، فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه ؛ ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله

ﷺ ، فقال :

يا نبى الله ، أحدثت هؤلاء القوم أنك أتيت بيت المقدس هذه الليلة ؟ قال :

نعم :

قال : يا نبى الله ، فصفه لي فإني قد جئت !

قال الحسن : فقال رسول الله ، ﷺ : فرفع لي حتى نظرت إليه ، فجعل

رسول الله ﷺ يصفه لأبي بكر ، ويقول أبو بكر : صدقت ، أشهد أنك رسول الله ﷺ ، وكما وصف له منه شيئاً قال : صدقت ، أشهد أنك رسول الله ، قال : حتى انتهى .

قال ، رسول الله ، ﷺ لأبي بكر :
وأنت يا أبي بكر : « الصديق ». فيومئذ سماه : « الصديق » .

هذا هو المهيكل الذي ترويه الكتب لهذا النبأ الجليل ، يسمعه قوم فلا يصل إلا إلى الجوانب الظاهرة منهم ، فيأخذون في الجدل الشكلي : أكان ذلك في اليقظة أم كان ذلك في النوم ؟ أكان ذلك بالروح والجسد ، أم كان بالروح فقط ؟ وهل كان ليلاً أو كان نهاراً ؟

وهذه كلها صور من الجدل الذي يثور حيناً يخف وزن الإيمان في النفوس .
ويسمع هذا النبأ قوم ، فيصل إلى أعماق قلوبهم ، فيتجهون في صورة طبيعية إلى مغزاه العميق ، وإلى روحانيته السامية ، ويرون أن هذا النبأ : ينطوى على توجيهات لا ينبغي أن يمر عليها الناس مر الكرام . . من هذه التوجيهات . .
١ - لقد كان رسول الله صلوات الله عليه خاتمة سلسلة من الأنوار التي يرسلها الله إلى العالم بين الفينة والفينية ؛ لتهدى إلى الرشاد ، ولتقوى إلى الله ، ولتسمو بالمؤمنين درجات في معارج القدس ؛ لتصل بالجديرين منهم إلى الكمال المرجو عن طريق الإرشاد الإلهي ، وكان الكتاب الذي أنزل عليه ، صلوات الله عليه ، وهو القرآن خاتم الكتب ، وأكمتها ومهيمناً عليها .

ولأن الرسول ، صلوات الله عليه تخلق بأخلاق أكمل كتاب رباني ، فهو إذن أكمل رسول ﷺ

ومن هنا كانت إمامته صلوات الله عليه بالرسل والأنبياء في بيت المقدس ،
ولأنه صلوات الله عليه أكمل رسول - كان من أجل ذلك أقرب المقربين إلى الله سبحانه وتعالى لقد تخطى الأرضين والسموات ، وتجاوز الكون كله ، ووصل إلى مالم يصل إليه بشر ، بل إلى ما لم يصل إليه جبريل نفسه عليه السلام ، لقد وصل صلوات الله عليه إلى « قاب قوسين أو أدنى » وكما أن المعنى الذي يدل عليه نبا

المعراج من وجود الأنبياء والرسل في السموات ، ومن أن الرسول صلوات الله عليه أخذ يتجاوز هذه السموات واحدة بعد الأخرى ، ويتجاوز الأنبياء واحداً بعد الآخر ، نقول : كما أن المعنى الذي يدل عليه النبأ معنى مكاني ، فإنه أيضاً - بل وبطريق أولى - معنى روحي : أي أن الرسول صلوات الله عليه في تسامي الروحى في كل لحظة من اللحظات قد بلغ في معراجة درجات تجاوزت - في روحانيتها - آدم في سمائه الأولى ، ثم تجاوزت يحيى وعيسى عليهما السلام في سمائهما الثانية ، ثم تجاوزت يوسف عليه السلام في سمائه الثالثة .

وهكذا حتى تجاوزت روحياً إبراهيم عليه السلام في سمائه السابعة ، ولقد تجاوزت كل ذلك وتجاوز الكون كله إلى سدرة المنتهى ، إلى شجرة النهاية ، إلى حيث لا يبلغ ملك مقرب ولا نبى مرسى .

لقد رأى من آيات ربِّه الكبيرة ، هذا هو مقام الرسول صلوات الله عليه ! ولكن بعض الناس نزل بنا من هذه الآفاق العليا والسموات السامية ومن الرحاب الإلهي . . ينزل بنا منحدراً ، فيجادل في الإسراء والمعراج ، أكان رؤية أم كان يقظة . . . !

* * *

استغفر الله ، وأتوب إليه !

إن ذلك الجدل . إن دل على شيء - فإنما يدل على ضعف الإيمان في قلب المجادل .

وإذا كانت التوجيهات السابقة إنما كانت لتدلنا على مقام رسول الله صلوات الله عليه ، فترداد بذلك تقديرأً وحباً واتباعاً - فإن من هدى الله سبحانه وتعالى وتوجيهاته في نبأ الإسراء والمعراج - هذه الرمزيات الأخلاقية التي تربط ربطاً محكماً بين الدين والأخلاق .

والواقع أن الأخلاق في جو الإسلام مرتبطة بالدين ارتباطاً لا ينفصل : منه تنبع ، وعلى أساسه تقوم . وعنه تصدر ، إنها جزء من الدين الإسلامي . لا يتجزأ . مصدرها هو مصدره . إلهي رباني .

وبعض الناس في العصر الحديث يريد أن يجعل للأخلاق مصادر أخرى .

يريد بعضهم أن يجعل أساس الأخلاق الضمير ، بيد أن ذلك خطأ بين ؛ فالضمير يربى ويكون ، وتربيته ولونه هما شكله ، ونزعته واتجاهه الذى يتکيف بحسب الثقافة والبيئة ، والعصر ، والوسط .

إن الضمير يصنع كما تصنع المزيفات ، وهو إذن مقياس للأخلاق خاطئ . وبعض الناس يريد أن يرجع بالأخلاق إلى المصلحة العامة ، ولكن المصلحة العامة كلمة غير محددة ، وكل من يتحدث باسم المصلحة العامة إنما يتحدث باسم فكرته هو منحرفة كانت هذه الفكرة أو غير منحرفة .

والمصلحة العامة إذن كأساس للأخلاق – إنما هي أساس غير مضمون . وبعض الناس يريد أن يرجع بالأخلاق إلى المصلحة الشخصية ، أو إلى اللذة أو إلى المنفعة . وكل هذا وارد الغرب الأوربى ، أو الغرب الأمريكى عندما انحرف هذا الغرب وألحد !

أما وارد الشرق الإسلامي أو بتعبير أدق ، وارد الإسلام الإلهى – فإن مقياس الأخلاق فيه : إنما هو المبادئ الدينية ؛ إنما هو : آيات القرآن ؛ وإنما هو الفضائل التي أوحها الله سبحانه وتعالى ، هذه الفضائل التي حددتها القرآن في أسلوب عربى مبين ، وتحدى عنها نبأ الإسراء والمعراج في صور رمزية دالة هادفة مؤثرة ، وبينها السنة النبوية الشريفة .

سار رسول الله ﷺ في مسراه ، فر على قوم يزرعون ويحصدون في يوم كلما حصدوا عاد كما كان :

فقال ﷺ لجبريل عليه السلام : ما هذا ؟

قال : هؤلاء هم المجاهدون في سبيل الله تضاعف لهم الحسنة إلى سبعيناتة ضعف ، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه ، وهو خير الرازقين . ثم أتى على قوم تذعن رءوسهم بالصخر ، كلما أذعنوا عادت كما كانت ، لا يفتر عنهم من ذلك شيء .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هؤلاء هم الذين تثاقل رءوسهم عن الصلاة المكتوبة .

ثُمَّ أَتَى عَلَى قَوْمٍ عَلَى أَقْبَالِهِمْ رِقَاعٌ ، وَعَلَى أَدْبَارِهِمْ رِقَاعٌ ، يَسْرُحُونَ كَمَا تَسْرِحُ
الْأَنْعَامُ ، يَأْكُلُونَ الضَّرِيعَ وَالرِّزْقَ ، وَرَضْفُ جَهَنَّمَ !

فَقَالَ : مَا هُؤُلَاءِ ؟

قَالَ : هُؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ لَا يُؤْدُونَ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ ، وَمَا ظَلَمُهُمُ اللَّهُ ، وَمَا رَبَّكَ
بِظَلَامٍ لِلْعَيْدِ .

ثُمَّ أَتَى عَلَى قَوْمٍ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ : لَحْمٌ نَضِيجٌ طَيِّبٌ فِي قَدْرٍ طَيِّبٍ ، وَلَحْمٌ خَبِيثٌ .
نَفِئَ فِي قَدْرٍ خَبِيثٍ فَجَعَلُوا يَأْكُلُونَ مِنَ الْخَبِيثِ النَّفِئِ وَيَدْعُونَ النَّضِيجَ الطَّيِّبَ .

قَالَ : مَا هُؤُلَاءِ يَا جَبَرِيلَ ؟

قَالَ جَبَرِيلَ : هَذَا مِثْلُ الرَّجُلِ مِنْ أَمْتَكَ : تَكُونُ عَنْهُ الْمَرْأَةُ الْحَلَالُ الطَّيِّبُ ،
فَيَأْتِي اِمْرَأَةٌ خَبِيثَةٌ ، فَيَبِيتُ عَنْهَا حَتَّى يَصْبِحَ ، وَمِثْلُ الْمَرْأَةِ : تَقْوَمُ مِنْ عَنْدِ زَوْجِهَا
حَلَالًا طَيِّبًا ، فَتَأْتِي رَجُلًا خَبِيثًا ، فَتَبِيتُ عَنْهُ حَتَّى تَصْبِحَ .

ثُمَّ أَتَى عَلَى رَجُلٍ قَدْ جَمَعَ حَزْمَةً حَطَبٍ عَظِيمَةً لَا يُسْتَطِعُ حَمْلَهَا ، وَهُوَ يَرِيدُ
عَلَيْهَا .

فَقَالَ : مَا هَذَا يَا جَبَرِيلَ ؟

قَالَ : هَذَا مِثْلُ الرَّجُلِ مِنْ أَمْتَكَ : يَكُونُ عَلَيْهِ أَمَانَاتُ النَّاسِ لَا يَقْدِرُ عَلَى
أَدَائِهَا ، وَهُوَ يَرِيدُ أَنْ يَزِيدَ عَلَيْهَا .

ثُمَّ أَتَى عَلَى قَوْمٍ تَقْرَضُ أَسْنَتَهُمْ ، وَشَفَاهُمْ بِمَقَارِيبِهِمْ مِنْ حَدِيدٍ ، كَلَّا قَرْضَتْ
عَادَتْ كَمَا كَانَتْ ، لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ !

قَالَ : مَا هَذَا يَا جَبَرِيلَ ؟

قَالَ : هُؤُلَاءِ خَطَبَاءُ الْفَتْنَةِ .

قَالَ : ثُمَّ أَتَى عَلَى جَحْرٍ صَغِيرٍ يَخْرُجُ مِنْهُ ثُورٌ عَظِيمٌ ، فَجَعَلَ الثُّورُ يَرِيدُ أَنْ يَرْجِعَ
مِنْ حَيْثُ خَرَجَ ، فَلَا يُسْتَطِعُ !

فَقَالَ : مَا هَذَا يَا جَبَرِيلَ ؟

قَالَ : هَذَا مِثْلُ الرَّجُلِ يَتَكَلَّمُ بِالْكَلْمَةِ الْعَظِيمَةِ ، ثُمَّ يَنْدَمُ عَلَيْهَا ، فَلَا يُسْتَطِعُ أَنْ
يَرْدِهَا !

ثم أتى على وادٍ فوجد فيه ريحًا طيبة باردة كريح المسك ، وسمع صوتاً فقال :
ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا صوت الجنة تقول : رب آتني ما وعدتني ، فقد كثرت غرف ،
وإستبرق ، وحريري ، وسندسي ، وعقبري ، وثلوثي ، ومرجانى ، وفضى ،
وذهبى ، وأكوابى ، وصحافى ، وأباريقى ، ومراكبى ، وعسلى ، ومائى ، ولبني ،
وخمرى ، فآتني ما وعدتني !

قال : لك كل مسلم ومسلمة ، ومؤمن ومؤمنة ، ومن آمن بي ويرسلى ، وعمل
صالحاً ، ولم يشرك بي شيئاً ، ولم يتخذ من دوني أنداداً ، ومن خشينى ، فهو آمن ،
ومن سأله فقد أعطيته ، ومن أقرضنى جازيته ، ومن توكل على كفيته ، إنني أنا الله
لا إله إلا أنا : لا أخلف الميعاد ، قد أفلح المؤمنون ، وتبارك الله أحسن الخالقين !

قالت : قد رضيت .

ثم أتى على وادٍ ، فسمع صوتاً منكراً ، ووجد ريحًا متنعة !
قال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا صوت جهنم تقول : رب آتني ما وعدتني ؛ فقد كثرت سلاسلى ،
وأغلالى ، وسعيرى ، وحمىمى ، وضرىعى ، وغساق ، وعدايبى ، وقد بعد
قعرى ، واشتد حرى ؛ فآتني ما وعدتني .

قال : لك كل مشرك ومشاركة ، وكافر وكافرة ، وكل جبار لا يؤمن يوم
الحساب .

قالت : قد رضيت .

فسار حتى أتى بيت المقدس .

ومن المثار التي جنتها الأمة الإسلامية ، والتي كانت من مقاصد إذاعة النبأ :
انفصال ضعاف النفوس ، والشاكين والمرتددين : انفصال كل هؤلاء عن
الأمة الإسلامية الناشئة :

لقد كفر - عند سماع النبأ - من كفر بعد إسلامه ، وارتدى من ارتد بعد إيمانه ،

وما كان هؤلاء لو بقوا إلا عاملًا من عوامل الضعف أكثر من أن يكونوا عاملًا من عوامل القوة .

إن هؤلاء المكينين الذين آمنوا ، وصبروا على الحوادث القاسية - على التعذيب وعلى الآلام ، وعلى الفتنة في جميع مظاهرها - إن هؤلاء المكينين الذين صبروا وصابروا ، وتخلصت أنفسهم من جميع التزغات المادية ، ومن جميع الأهواء ، فأصبحت خالصة لله وحده ، إن هؤلاء المكينين الذين كان في تقدير الله سبحانه وتعالى أن تقوم عليهم الدولة في نشأتها ، والذين من أجل ذلك ، يجب أن يكونوا مهنيين لأن يصدموا بكل ما يمكن أن يتعرض لهم من عقبات ، نقول : إن هؤلاء المكينين : يجب أن يصفوا تصفية تامة كاملة .

ومن وسائل هذه التصفية إذاعة نبأ الإسراء والمعراج ؛ ليتتسك من ينتكس ولبيق من يبقى عن بصيرة وبينة ، وعن إيمان لا يتزعزع منها كانت الحوادث ، إيمان يصدق الرسول صلوات الله عليه في كل ما يأتي به ، يصدقه بمجرد إنبائه . والمثل الأعلى في كل ذلك إنما هو سيدنا أبو بكر حينما يعلن في غير تردد ولا فتور :

« لَئِنْ كَانَ قَالَهُ : لَقَدْ صَدَقَ ؛ فَايُعْجِبُكُمْ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَوَاللَّهِ إِنَّهُ لِيُخْبِرُنِي أَنَّ الْخَبْرَ لِيَأْتِيهِ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ فِي سَاعَةٍ مِنْ لَيلٍ أَوْ نَهَارٍ فَأَصْدِقُهُ ، فَهَذَا أَبْعَدُ مَا تَعْجَبُونَ مِنْهُ » .

هذا الإيمان المطلق بالرسول هو الذي جعله صلوات الله عليه - يطلق على أبي بكر رضوان الله عليه « الصديق » . و « الصديقية » مرتبة من مراتب الإيمان لا ينالها إلا من جاهد نفسه جهاداً تخطى به إيمان العامة ، وسما في إيمانه درجة إلى أن أصبح قائماً بالله متوجهًا إليه ، عملاً على مرضاته في جميع ما يأتي وما يدع . والأمة الإسلامية بأكملها مطلوب منها بالنسبة إلى أخبار رسول الله صلوات الله عليه - أن تكون على غرار الصديق رضوان الله عليه ، تتلقى بقيادتها إلى أخباره وتسليم نفسها إلى أنبيائه ، مصدقة تصديقاً كاملاً ، تصديقاً يحملها على العمل ، وعلى اتباع كل ما جاء به ، وعلى الانتهاء عن كل ما نهى عنه ، تصديقاً إيجابياً يحقق للأمة

الإسلامية المجد الذي ترجوه ، تصديقاً ينفي عن وجودها هؤلاء الذين انحرفو مع المنحرفين ، واستجابوا لنداء أعداء الإسلام ، فأخذوا يشكّون الناس في أقوال الرسول ، صلوات الله عليه : في أحاديثه ، وفي سنته زاعمين أنهم من المحدثين وما هم في الواقع إلا أبواق من أبواق المستشرقين والمبشرين .

إن هذه الأقلام التي تشكيك في السنة ، وفي الأحاديث النبوية – ليست إلا أقلاماً مقلدة للمستشرقين : لا تحمل طابع الأصالة ، ولا طابع التجديد ، إنما تحمل طابع التقليد ، وطابع الشك والتردد الذي ينافي الإيمان ، وينافي الصدقية .

أما ثمرة الإسراء والمعراج ، وأما هدية الإسراء والمعراج ، وأما أعظم المنح الإلهية في الإسراء والمعراج أعظمها على الإطلاق . أما النعمة العظمى ، والتجلى الإلهى الأكبر في الإسراء والمعراج – فإنه الصلاة .

ولا يتأتى لنا – عجزاً وقصوراً – أن نتحدث عن الحمد ، وعن الشكر على هذه النعمة التي أنعم الله بها على الأمة الإسلامية في هذه الليلة المباركة .

فالصلة هي : الصلة به سبحانه ، وهي الكيفية ، وهي الطريقة ، وهي الوسيلة ، وهي اللحظات الجليلة التي تم فيها الصلة وتتحقق . إنها فترة مناجاة ، فترة انقطاع كامل – ويجب أن يكون كاملاً – عن عالم المادة ، وعن عالم الشهوات ، عالم الفتنة : لتخلص النفس إلى المنعم ، حتى تنعم في رحابه بسعادة الصلة به والقرب منه !

ومن أقام الصلاة فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين . إن إقامة الصلاة أو إقامة الدين إنما هي : إقامة الصلة بالله وتحقيق ذلك : هو المثل الأعلى والغاية العظمى ، والسعادة الكاملة التي يحرى وراءها المؤمنون ، ليتحققوا بها مراجاتهم نحو الله تعالى ، وما من شك في أن الصلاة يقيمهما الإنسان . كما أراد الله ورسوله – من أنجح الوسائل في القرب من الله ، إنها البراق الذي يمتاز به المؤمن في سرعة سريعة طبقات البعد عن الله سبحانه ؛ ليصل إليه تعالى ، فينعم في رحابه . هذه الزوايا ، وغيرها من عبر الإسراء والمعراج ، ومن توجيهات الله فيها – هي

الى يجب أن تتبه إليها ، وأن تأخذ في تأملها والانسجام معها . إن الله سبحانه وتعالى أخذ يتحدث في سورة النجم عن الآفاق العليا وعن أجواء إلهية جليلة ، وعن مشارف من السمو ترتد عنها الأمانى حسرى ذاهلة ، لقد أخذ سبحانه يتحدث عن سدرة المنتهى ، وعن جنة المأوى ، وعن آياته سبحانه الكبرى ، لقد أخذ سبحانه ، يتحدث عن :

رتب تسقط الأمانى حسرى دونها ما وراءهن وراء .
ثم . . ثم هوى بنا سبحانه ، في عنف عنيف ، هوى بنا في سرعة سريعة دون سابق إنذار ليفتح أعيننا على مهازل ومهماو من الشرك يصل فيها هؤلاء الذين هم كالأنعام أو أضل سبيلا ، فقال : سبحانه بعد أن ذكر هذه التجليات الإلهية : (أرأيتم اللات والعزى ، ومنا الثالثة الأخرى ؟) النجم / ١٩ - ٢٠ .
لقد أرانا سبحانه بهذه الكلمات البشرية المسكينة في ضلالها الدينى ، وفي انحرافها الذهنى .

إن كل من يترك هذه الآفاق العليا ، ويتجاوزها ليتحدث عن أن الرسول ﷺ ، أسرى به بجسمه وبروحه أو بروحه فقط ، أو أسرى به يقظة ، أو مناماً - إنما هو بذلك يتحدث بنفسه مختاراً من التجلى الإلهي ؛ ليهوى بها منتكساً إلى جو اللات والعزى ، وينحدر بها منتكساً من جو سدرة المنتهى إلى الجو المادى ، ومن مجالات النور الساوى المتلائى إلى ظلمة الجدل وزيف المماراة في الدين .
فلننصرف عنه ، ولنتركه وما اختار مبتعدين عن الجدل مع المارين ، ولندع الله قائلين : (ربنا لا تزعغ قلوبنا ، بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب) آل عمران / ٨ .

الفصل الخامس

الهجرة

يالجلال الإيمان وثباته وقوته !

إن التاريخ : نادراً ما يحدثنا عن هجرة خالصة ملخصة لله ولرسوله ، هجرة إلى مكان مجهول ، هجرة لا يسأل المهاجر : هل مهجره سيستقبله مرحباً ويؤويه في ألفة أو أنه سيقابلها بالجفوة والعداوة ؟ هجرة لم يهد لها الجو من قبل ، ولم يعبد لها المكان . . إن التاريخ لا يكاد يحدثنا عن الهجرة بالإيمان ومن أجل الإيمان . ولكن التاريخ الإسلامي حافل بهذه الأنواع من الهجرة ، فإنه لما كثر المسلمين بمكة وظهر الإيمان ، وكثير الحديث عنه - ثار ناس كثيرون من المشركين من كفار قريش بمن آمن من قبائلهم ، فعدبواهم ، وسجنوهم ، وأرادوا فتنتهم عن دينهم ، وتحمل المؤمنون العذاب ألواناً في سبيل الله .
ولما استمر الأمر دون فتور قال لهم رسول الله ، ﷺ ، شفقة عليهم ورحمة : « تفرقوا في الأرض » .

قالوا : أين نذهب يا رسول الله ؟

فأشار إليهم : إلى الحبشة ؛ فهاجر إليها في بادي الأمر طائفة من المسلمين : منهم من هاجر مع أهله ، ومنهم من هاجر منفرداً .
وأخذوا يعبدون الله مطمئنين آمنين على دينهم من الفتنة .
ثم قدم بعضهم إلى مكة معتقداً أن الأمور قد هدأت فيها بين رسول الله والمشركين ، فلما قدموا إلى مكة اشتد عليهم قومهم ، وسطت بهم عشائرهم ، ولقوا منهم أذى شديداً .

فأذن لهم رسول الله ، ﷺ بالخروج إلى أرض الحبشة مرة أخرى فكانت هجرتهم الأخرى مشقة ، ولقوا من قريش تعيناً شديداً . ونالوهם بالأذى ، وقال سيدنا عثمان ، رضي الله عنه مخاطباً رسول الله ﷺ :
يا رسول الله ، فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة إلى النجاشي ولست معنا !
فقال رسول الله ، ﷺ هذه الكلمة المؤثرة :

«أَنْتُمْ مَهَاجِرُونَ إِلَى اللَّهِ وَإِلَيْهِ، لَكُمْ هَاتَانِ الْهُجْرَتَانِ جَمِيعاً».

قال سيدنا عثمان : «حسبنا يارسول الله» .

وكان عدد هؤلاء المهاجرين من الرجال ثلاثة وثمانين رجلاً ، وكان عدد النساء ثمان عشرة امرأة .

ولم يرق لقريش أن يعبد الله هؤلاء القوم آمنين مطمئنين ، لم يرقها أنهم تخلصوا من التعذيب والفتنة ، فأرسلت وفداً من ساسة العرب الدهاة ، مزوداً بالهدايا إلى النجاشي ، ليعيدوا هؤلاء الموحدين إلى مكة ، ليتزلوا عليهم العذاب من جديد ! (ومَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) ^(١) .

ولم يفلح الوفد وعاد إلى مكة بخفي حنين .

ولما علمت قريش بذلك ثارت ثائرتها ، وزاد غضبها ، وأقدمت على عمل يتناقض تناقضاً تماماً والإنسانية : فقد كتبوا كتاباً تعاهدوا فيه على ألا ينكحوا بنى هاشم ولا يبايعوه ، ولا يخالطوهم . وكان الكاتب للصحيفة هو : منصور بن عكرمة العبدري ، وكان من تقدير الله تعالى أن شلت يده !

وبهذه الصحيفة ، وهذا العهد - حصروا بنى هاشم في شعب أبي طالب . وكان ذلك في أول المحرم سنة سبع من نبوته صلوات الله عليه ، واستمر بنو هاشم منعزلين محصورين لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم ؛ حتى بلغ بهم الجهد مبلغاً خطيراً ، وكانت قريش تسمع أصوات صبيانهم ي يكون جوعاً ومسحة ، فلا ترق قلوبهم ، ولا يتأثرون واستمر ذلك سنوات ثلاث .

وبينا هذه الأمور من الشدة والقسوة تجري تحت سمع الرسول وبصره كانت قريش ترسل له صلوات الله عليه من يعرض عليه . المال والغنى والسلطان والجاه والملاذ بجميع ألوانها ، على أن يترك دعوته ، فلا يجدون إلى غايتهم سبيلاً . وما ترك رسول الله ﷺ الدعوة قط ، كان يدعوا ليلاً ، وكان يدعو نهاراً ، وكان يدعوا في كل لحظاته . يروى الإمام أحمد عن ربيعة بن عباد ، وكان جاهلياً أسلم يقول :

(١) سورة آل عمران آية : ٥٤ .

«رأيت رسول الله ﷺ بصر عيني بسوق ذي الحجاز يقول : «يأيها الناس ، قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا». ويدخل فجاجها والناس متقصضون^(١) عليه ، فما رأيت أحداً يقول شيئاً . وهو لا يسكت يقول : يأيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا .

أقام رسول الله ﷺ ، بمكة ثلاثة سنين ، من أول نبوته ، مستخفياً ، ثم أعلن في الرابعة : فأخذ يدعو الناس إلى الإسلام عشر سنين ، يوافي المواسم كل عام يتبع الحاج في منازلهم في المواسم بعكاظ وبمحنة وذى الحجاز ، يدعوهם إلى أن يمنعوه ، حتى يبلغ رسالات ربه وعلم الجنة ، فلا يجد قبيلة تنصره أو تجيهه ؛ حتى إنه ليسأل على القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة ويقول :

«يأيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب ، وتذل لكم العجم ، وإذا آمنتم كنتم ملوكاً في الجنة».

واستمر الأمر كذلك : لا يكف رسول الله عن الدعوة إلى الله ، ولا يكتفى المشركون عن المعارضة والإيذاء ؛ حتى كانت السنة الحادية عشرة من نبوته ، صلوات الله عليه ، وكان الإسراء والمعراج فارتدى من ارتد ، وثبت من ثبت ، وكان حادث الإسراء والمعراج هو حادث التصفيية الكاملة ، وكان الفيصل بين طائفتين : طائفة مؤمنة ثابتة على إيمانها ، لا تزعزعها الأعاصير ، تميد الجبال ولا تميد . وطائفة مشركة قد أحكت أمرها ، ووربت شؤونها ، وجزمت العزم على أن تقضى على الإسلام منها طال الزمن .

ولم يكدر يعتنق الإسلام في هذه الفترة - فترة السنوات الثلاث التي سبقت الهجرة - مشرك من أهل مكة ، وفيها ثبت المسلمون على إيمانهم ثبات أولى العزم ، كانت هذه الفترة تربية للمؤمنين وصقلاؤهم ، وهي - وإن كان الرسول صلوات الله عليه لم يكتف فيها عن الدعوة لحظة من اللحظات - كانت مع ذلك تربية قرآنية لرجال يؤهلهم الله ورسوله لحمل راية الإسلام ونشر دعوته .

وإذا كانت المعسكرات قد تحددت : في مكة ، وإذا كانت الفترة من الإسراء

(١) يجتمعون ويزدحمون .

إلى هجرة الرسول صلوات الله عليه - كانت فترة تربية وصقل وتعليم وتهذيب - فإن الإسلام في هذه الفترة لم يكن قد وقف راكداً ، بل بالعكس قد هيأ الله له وسيلة الانتشار خارج مكة ، لقد ضم الرسول في معسكره المكى كل عناصر الخير بمكة ، ولم يبق فيها - في الطرف المقابل - إلا من لا ينحسم أمره عن طريق الدعوة ، وإنما عن طريق آخر . وما كان هناك من مناص من مغادرة مكة للعودة إليها من جديد في ظروف مهيبة ، وبوسائل غلابة ، لقد هيأ الله الأمر لانتشار الإسلام خارج مكة .

ويقول ابن سعد في الطبقات :

« أقام رسول الله ، صلى الله عليه وسلم بمكة ما أقام يدعو القبائل إلى الله ويعرض نفسه عليهم كل سنة بمحنة وعكاظ ومني - أن يأوهه حتى يبلغ رسالة ربه ولهم الجنة ، فلم تستجب له قبيلة من العرب ، وبيؤذى ، ويُشتم ، حتى أراد الله إظهار دينه ، ونصر نبيه ، وإنجاز ما وعد ، فساقه إلى هذا الحى من الأنصار لما أراد الله بهم من الكرامة » .

وكانوا ستة نفر ، فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فأسلموا ووعدوه أن يُلاقوه في العام القادم .

وما عادوا إلى المدينة بشروا بالإسلام في قومهم . فأسلم من أسلم ، وكثير في المدينة الحديث عن الإسلام .

فلما كان العام الذى يليه حضر اثنا عشر رجلاً ، فبايعوا الرسول - كما تحدثوا بذلك عن أنفسهم - : « على ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزن ولا نقتل أولادنا ، ولا نؤى بهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا . ولا نعصيه في معروف » . قال : فإن وفيكم فلكم الجنة ، ومن غنى من ذلك شيئاً كان أمره إلى الله : إن شاء عذبه ، وإن شاء عفا عنه » .

إن هذه البيعة بيعة فضيلة وخير . إنها بيعة على العمل بالمثل الأخلاقية العليا ونشرها . ”

وانظر إلى الدقة في قوله ولا نعصيه في معروف . إنه لم يقل : ولا نعصيه ويسكت ، وإنما قيد ذلك بقوله : « في معروف » وحاول أن تتأمل وثيقة البيعة

هذه ، فستقر - لا مناص - بأنها وثيقة إلهية .

وعاد المسلمون إلى المدينة بأخلاق أخرى ، وبوجوه عليها نور الإسلام ، وبقلوب انعمت في محيط الرحمة ، وأخذوا يدعون إلى الله مبشرين ومنذرين . ثم .. ثم عادوا في العام التالي ، وهم سبعون أو يزيدون رجلاً أو رجلين ومعهم امرأتان .. والتقدوا برسول الله ، صلوات الله عليه ، ومعه العباس بن عبد المطلب ، ليس معه أحد غيره .

قال أسعد بن زرارة : فكان أول من تكلم العباس بن عبد المطلب فقال : يامعشر الخزرج ، إنكم قد دعوتم محمداً إلى ما دعوتموه إليه ، ومحمد من أعز الناس في عشيرته : يمنعه والله منا من كان على قوله ، ومن لم يكن منا على قوله ، يمنعه للحسب والشرف ، وقد أبي محمد الناس كلهم غيركم فإن كنتم أهل قوة وجلد وبصر بالحرب واستقلال بعضاوة العرب قاطبة ، ترميكم عن قوس واحدة فارتدوا رأيكم وأتمروا أمركم ، ولا تفرقوا إلا عن ملأ منكم واجتمع ، فإن أحسن الحديث أصدقه .

فقال البراء بن معروف : قد سمعنا ما قلت ، وإنما والله لو كان في أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه ، ولكننا نريد الوفاء والصدق وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله ، عليه صلوات الله .

قال : وتلا رسول الله عليه صلوات الله عليهم القرآن ، ثم دعاهم إلى الله ورغبهم في الإسلام وذكر الذي اجتمعوا له .

فأجابه البراء بن معروف بالإيمان والتصديق ثم قال : يا رسول الله ، بايعنا فنحن أهل الحلقة^(١) ورثناها كابرًا عن كابر ..

فقال العباس بن عبد المطلب وهو آخذ بيد رسول الله ، عليه صلوات الله : أخفوا جرسكم^(٢) ؛ فإن علينا عيوناً وقدموا ذوى أسنانكم ، فيكونوا هم الذين يلون كلامنا منكم ، فإننا نخاف قومكم عليكم ، ثم إذا بايعتم فتفرقوا إلى محالكم . فتكلم البراء بن معروف . فأجاب العباس بن عبد المطلب ، ثم قال : أبسط يدك

(٢) كلامكم وصوتكم

(١) أهل السلاح

يا رسول الله ، فكان أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ - فيما يقال - البراء ابن معروف .

ثم ضرب السبعون كلهم على يده وبايعوه ، فقال رسول الله ، ﷺ : إن موسى أخذ من بنى إسرائيل اثنى عشر نقيباً ، فلا يجدن أحد منكم في نفسه أن يؤخذ غيره ؛ فإنما يختار لي جبريل » .

ف لما تخيرهم قال للنبي : « أنت كفلاء على قومكم ككفالات الحواريين لعيسى ابن مريم ، وأنا كفيلي « على قومي » .

قالوا : نعم . . .

فقال رسول الله ﷺ : « انفضوا إلى رحالكم » .

فقال : العباس بن عبدة بن نضلة ، يا رسول الله ، والذى بعثك بالحق لئن أحببت بنيلن على أهل مني بأسيافنا ، وما أحد عليه سيف تلك الليلة غيره .

فقال رسول الله ﷺ : « إنما لم تؤمر بذلك ، فانفضوا إلى رحالكم » .
ولما صدر السبعون من عند رسول الله ﷺ - طابت نفسه ، وقد جعل الله له

منعة وقماً : أهل حرب وعدة ونجدة .

وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين ، فلما ضاقوا بالأمر ذرعاً ، شكوا إلى رسول الله ﷺ ، واستأذنوه في الهجرة ، فقال لهم : « قد أخبرت بدار هجرتكم ، وهى : « يثرب » فمن أراد الخروج فليخرج إليها .

وأخذ المسلمون يهاجرون سراً بادية عليهم آثار تربية الرسول ﷺ : من الثقة بالله ، والصبر ، وتحمل المشاق في سبيل دينهم ، وتوطين النفس على أن يكونوا في جميع أحوالهم من جنود الله ، مهاجرين إليه للعمل على إعلاء كلامته ، ونشر دينه ، ولو كره الكافرون .

وما كانت الهجرة قط في نظر الرسول ﷺ ولا في نظر أصحابه - ركوناً إلى الدعوة والهدوء ، أو ميلاً إلى الراحة والسكن ، وإنما كانت محاولة مصممة على قيادة المعركة في سبيل الله من جهة أخرى .

وأخذ المسلمون يهاجرون إلى الله ورسوله : يهاجرون سراً : جماعات أو فرادى ؛

حتى لم يبق بمنطقة منهم إلا رسول الله ﷺ ، وأبوبكر ، وعلي ، رضي الله عنهم ، أو مريض ، أو عاجز عن الخروج .

وغمدئن آن لرسول الله ﷺ أن يهاجر .

ها هو ذا رسول الله ﷺ على مشارف مكة ينظر إليها على أمل واثق من أنه سيعود إليها مبشرًا بدين الله عملاً على أن يعم كل بيت فيها .

ولما أوشكت أن تغيب عن بصره ودعها بهذه الكلمات المؤثرة :

« والله ، إنك لأحب البلاد إلى نفسي ، ولو لا أن أهلك أخرجوني ما خرجت » .

ثم مضى هو والصديق إلى غار ثور فدخلاه ، ولما علم المشركون بالأمر ثارت ثائرتهم ، ووطنوا العزم على ألا يفلت المهاجران إلى الله من تنكيلهم .

لقد كانوا قد دبروا قتل الرسول ﷺ ، وما كانوا يبالون قط بقتل رجل أن يقول : رب الله !

ولقد كانوا أحکموا التدبير لقتله قبل أن يخرج ، ووضع مشروع المؤامرة أبو جهل ، وعرضها على الوضع التالي :

أرى أن نأخذ من كل قبيلة من قريش غلاماً نهداً جلداً ، ثم نعطيه سيفاً صارماً ، فيضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه في القبائل جميعاً فيقبلوا الديمة فتعطيمهم إياها .

(ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين)^(١) .

دخل رسول الله ﷺ هو وأبوبكر الغار مختلفين ، وكان سيدنا أبو بكر حزينًا خوفاً على الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فجاء النداء الإلهي على لسان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يملؤه ثقة وتفاؤلاً : (لا تَحْزُنْ ؛ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) ^(٢) .

ولما سمع سيدنا أبو بكر خفق نعال المشركين أمام الغار وأصواتهم الصاحبة التي تعلن عن سخطهم وغيظهم المكبوت قال : لو نظر أحدهم إلى موضع قدميه

(١) سورة آل عمران آية : ٥٤ .

(٢) سورة التوبه آية : ٤٠ .

لأبصراً ويبتسم رسول الله صلوات الله عليه ، ويقول : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ ». .

ولما انتهى الطلب ، وعاد المشركون من حيث أتوا - خرج رسول الله ﷺ هو ورفيقه ، وكان خروجها من الغار ليلة الاثنين لأربع ليالٍ خلون من شهر ربيع الأول .

وبينما هما في الطريق لحق بهما سراقة بن مالك مدججاً بالسلاح على فرس تسبق الريح ؛ ليأسرها حتى يفوز بالجائزة التي وعد بها المشركون من يأتي بالرسول ﷺ قتيلاً أو أسيراً .

فلا دنا منها دعا عليه رسول الله ﷺ ، فساخت قوائم فرسه ، فقال : يا محمد ادع الله أن يطلق فرسى وأرجع عنك وأرد من ورائي ؛ ففعل ، فأطلق ورجع فوجد الناس يتتمسون رسول الله ﷺ ، فقال : ارجعوا فقد استبرأت لكم ما هاهنا ، وقد عرفتم بصرى بالأثر فرجعوا عنه .

وسار الركب تحفه رعاية الله وعنائه ، حتى وصل إلى المدينة ، حيث استقبل

بـ :

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ ثَنَيَاتِ الْوَدَاعِ
وَجَبَ الشَّكْرُ عَلَيْنَا مَا دَعَا اللَّهُ دَاعِ
إِلَيْهَا الْمَبْعُوثُ فِينَا جَتَّ بِالْأَمْرِ الْمَطَاعِ

وكان من أوائل الأعمال التي قام بها رسول الله صلوات الله عليه في المدينة :

- ١ - بناء المسجد ، المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم .
- ٢ - المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، تحقيقاً لمبدأ من مبادئ الدين الإسلامي

يتمثل في قوله تعالى :

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْرَوٌ) ^(١) .

وَيَعْ قَوْمٌ جَفَوْ نَبِيَا بِأَرْضٍ أَلْفَتَهُ ضَبَابَهَا وَالظَّباءِ
وَسَلَوَهُ وَحْنَ جَذَعَ إِلَيْهِ وَقَلَوَهُ وَوَدَهُ الْغَرَباءِ

^(١) سورة الحجرات آية : ١٠ .

أخرجوه منها وآواه غار
وحمته خامة ورقاء
وكفته بنسجها عنكبوت
ما كفته الحمامه الحصداء
واختفى منهم على قرب مرا
ه ومن شدة الظهور الخفاء
ونحا المصطفى المدينة واشتا
قت إليه من مكة الأنحاء

الهجرة من زاوية أخرى

الهجرة حقيقة تاريخية . ورمز روحي جميل يعبر خير تعبير عما يجب أن يكون عليه المسلم في كل فترة من فترات حياته ، بل في كل نفس من أنفاسه ونريد أن نتحدث الآن عن الهجرة كرمز عن الهجرة الروحية ، عن الهجرة التي لا ترتبط بزمان ولا بمكان . والهجرة بهذا المعنى الذي يتجاوز الواقع التاريخي ، ويتجاوز الزمان والمكان – قد وردت في الأحاديث النبوية الشريفة وفي القرآن الكريم .

يقول رسول الله صلوات الله عليه فيها رواه البخاري رضي الله عنه :
« المسلم من سلم المسلمين من لسانه ويده ، والهاجر من هجر ما نهى الله عنه »
هذا المعنى الروحي تبيّنه من وضوح سافر فيها يلي :

يقول الله تعالى :

(إلا تتصرون فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما في الغار
إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم
تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز
حكيم) (١) .

وفي هذه الآية الكريمة : يصور الله تعالى إخراج الكفار للرسول ، صلوات الله عليه ، من مكة ، وهجرته مستخفياً في جنح من الليل مفارقاً البلد التي ولد بها ،
والتي بها عشيرته وقومه ، إلى بلد يجد فيها حرية الدعوة إلى الله . .
يصور الله ذلك بأنه انتصار ، ومن الطريف أن الله تعالى يصوره بأنه انتصار في

(١) سورة التوبه آية : ٤٠ .

الوقت الذى كان فيه الرسول صلوات الله عليه ، مختبئاً في الغار هو والصديق رضوان الله عنها ، والشركون بخيتهم ورجلهم وعدتهم وعثادهم منتشرون في كل مكان يبحثون عنها جاهدين للشكيل بها .

وما من شك في أن الهجرة كانت انتصاراً مبيناً ؛ لأنها فرار إلى الله ، والفرار إلى الله انتصار ، حتى لو أنهى بالموت أو القتل .

(والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقهم الله رزقاً حسناً ، وإن الله هو خير الرازقين^(١)).

ونحن مأمورون بالفرار إلى الله ، أى بالهجرة إليه (ففروا إلى الله ، إني لكم منه نذير مبين^(٢)) . وسيدنا إبراهيم عليه السلام قال : (إني مهاجر إلى رب إني هو العزيز الحكيم)^(٣) وقال (إني ذاهب إلى رب سيدين)^(٤) والفرار إلى الله ، والهجرة إليه ، والذهب إليه ، من صفات المؤمنين الصادقين : إنهم يفرون إلى الله ويهاجرون إليه (يومياً) فهو هدفهم وغايتها في جميع أعمالهم ، وإذا كانت هجرة بعض الناس إنما هي إلى دنيا يصيّبها ، أو إلى امرأة ينكحها فهجرة المؤمن الصادق خالصة لله وحده . متمحضة لوجهه الكريم ، وإذا ما كانت كذلك كان الله معه ، يقول صلوات الله عليه للصديق : (لا تحزن إن الله معنا) التوبية/٤٠ ذلك أن هجرتها كانت لله رب العالمين لا شريك له . ومن كان كذلك فإن الله يتزل عليه السكينة : أى طمأنينة النفس والرضا ، ويؤيده بجند لا تراها الأعين ؛ فيدخله في نطاق رعايته ، ويشمله بجميل عنائه ، ويضفي عليه من توفيقه ورضاه ما يجعله قرير النفس ، هادئ البال سعيداً ولو ألقى في النار لأنه لم يشعر بها إلا برداً وسلاماً .

وقد نظم الله للمؤمنين أمر الهجرة إليه تعالى :

وأول مرحلة في سبيل الهجرة إليه سبحانه - إنما هي النيمة الحالصة لوجهه الكريم ، يقول صلوات الله عليه :

«إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ مانوي : فمن كانت هجرته إلى الله

(٣) سورة العنكبوت آية : ٢٦.

(١) سورة الحج آية : ٥٨.

(٤) سورة الصافات آية : ٩٩.

(٢) سورة الداريات آية : ٥٠.

رسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيغها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» .

فإذا ما توجهت النية بالأعمال إلى الله تعالى كانت الأعمال هجرة إليه ، أما إذا لم تتجه النية إليه فإن الأعمال - ولو كانت خيراً في ظاهرها؟ تكون هباءً مثوراً ، ومن هنا يتبين المؤمنون حقيقة فساد الأفكار التي يروجها الحائدون عن النهج الديني الصحيح من أمثال قوله : إن العلم للعلم ، أو الفن للفن ، أو الخير للخير ، أو الخير لإرضاء الصمير ! إن كل ذلك يدل على عدم الفهم السليم للروح الدينية الصحيحة ، وهو أيضاً خطراً على المجتمع ، لأن العلم والفن إذا لم يتوجهاً بها أصحابها إلى الله أنسياً وغایيات انحرفت بها الإرادات والنباتات إلى الشر والإفساد ، فشققت بها الإنسانية بدل أن تسعد .

أما الخير فإن معرفته معرفة حقيقة لا يأتي إلا عن طريق الدين ، وقد حاولت العقول - مستقلة عن الدين - تحديده فتعارضت وتضاربت ولم تصل إلى نتائج ، والمؤمن إذن يهجر إلى الله بعلمه ، ويهاجر إليه بفنه ، ويهاجر إليه بعمله الخير . على أن العبادات الإسلامية على تعددها واختلافها إنما هي تنسيق وتنظيم لأنواع وألوان من الهجرة إلى الله تسمى بالمؤمن صعداً إلى الصلة بالله ، وإلى النعيم في رضوانه ، وإلى السعادة في رحابه : فالصلاوة فرار من البيئة والجحود والمادة إلى الوقوف بين يدي الله - ومناجاته - لحظة من الزمن - فهي هجرة إلى الله .

والزكاة انفصال عن المادة تقرباً إلى الله فهي ذهباب إليه .
والصوم ابتعاد عن المادة فترة من الزمن ، تركية للنفس ، وقربى إلى الله ، فهو ذهباب إليه .

أما مناسك الحجج فإنها صور من التجدد لله بلغت الذروة والستان ، وتبليورت في النداء الروحي الكريم «لبيك اللهم لبيك» .

وختاماً فإن الصورة التامة الكاملة للهجرة الإسلامية الكبرى - إنما تتمثل في أروع مظاهرها في قوله تعالى :

(قل إن صلاتي ونسكي وحياتي ومامي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك

أمرت وَإِنَا أَوْلُ الْمُسْلِمِينَ)^(١) .

يقول صلوات الله عليه : « لا هجرة بعد الفتح ولكن بجهاد ونية » جهاد في كل ميادين الجهاد ، ونية خالصة ظاهرة متمحضة لله ورسوله .
فإلى هذه الهجرة الكبرى أيها الإخوة المؤمنون فإن فيها الخير كله .
وبالله التوفيق . .

(١) سورة الأنعام آيتا : ١٦٢ - ١٦٣ .

الفصل السادس

الجهاد

إن رسول الله ﷺ الذي كان يقوم من الليل حتى تنفتر قدماه ، والذى كان في كثير من الأحيان يواصل في الصيام هو الذى يقول : «والذى نفس محمد بيده ، لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ». وهو القائل : «من مات ولم يغز ، ولم يحدث نفسه بالغزو – مات على شعبة من النفاق » .

إن النبي العابد هو النبي المكافح ، وإن نبى الرحمة هو نبى الجهاد ، وما كان الجهاد قط في الإسلام إلا في سبيل الله ، فإذا ما خرج عن سبيل الله لم يكن إسلامياً ، وكل ما في سبيل الله إنما هو رحمة . وليس من شأننا أن نتحدث عن الغزوات سرداً وترتيباً وتفصيلاً ، وإنما نذكر منها عبراً ، حتى ننتهي إلى فتح مكة .

وأول ملاحظة هي أن الرسول العابد لم يتراجع في غزوة قط ، وكان الأبطال يتراجعون والصادقين من المهاجرين والأنصار يفرون أحياناً ، ولكنه صلوات الله عليه ثبت ثبات الجبال الراسيات ، لا يتزحزح عن موقفه ، ولا يزول عن مكانه ، وقد ثبت في مكانه في غزوة أحد التي غالب فيها المسلمين ، وكان المشركون فيها يودون بكل ما استطاعوا – أن يقضوا عليه ، صلوات الله عليه .

وقف ثابتًا في غزوة حنين ، وقد فر المسلمون ، على كثريهم إذ ذاك ، وكيف يمكن أكمل رجل في الوجود أن يفر وأن يتراجع وهو أوثق الناس بالله وبرسالته ؟ ولقد كان واضحاً فيه صلوات الله عليه ما ي قوله سيدنا علي ، وهو من هو – بطولة وفروسية : «كنا إذا حمى الوطيس أى الحرب – اتقينا برسول الله ﷺ : أى احتمنا به وفيه ، فيكون أقربنا إلى العدو» .

وكان صلوات الله عليه مع التجائه إلى الله تعالى – يدعوه ويستغيث به ؛ ويستنجذه وعده بالنصر – يحكم الأمر إحكاماً ، بحيث لا يدع فيه ثغرة : هكذا كان أمره في جميع أموره : لقد نظم الجيش في غزوة بدر تنظيماً محكماً ، ثم اتجه إلى

الله يدعوه ، وكان دائمًا متفائلًا ؛ حتى لو كان العدو عشرة أمثال المسلمين .
لقد كان المشركون في غزوة بدر ثلاثة أمثال المسلمين ، فهزهم المسلمون بإذن الله .

وكان انهزام المسلمين في غزوة أحد شذوذًا في القاعدة ، وما كان ذلك إلا لأنهم خالفوا - متأولين - أوامر الرسول ﷺ ، غير أن تفاؤله صلوات الله عليه - لم يفارقه لحظة ، إذ إنه بعد أن انهزم المسلمون في غزوة أحد مباشرة أمرهم صلوات الله عليه بلم شعّهم ، وتضميده جراحهم ، والاستعداد فوراً لخوض المعركة من جديد .
ومن مظاهر تفاؤله صلوات الله عليه أنه في غزوة الأحزاب ، وقد تجمع الشرك من جميع أرجاء الجزيرة ، يسانده اليهود والغادرون ؛ ليقضوا على الإسلام في المدينة : ليقضوا عليه ديناً ، وليقضوا عليه دولة ، وليقضوا عليه عقيدة ، وليقضوا عليه رجالاً ، وقد كان المسلمون يعملون في حفر الخندق حماية لهم ، ومنعاً من وصول العدو إليهم في هذه اللحظة الحرجة - يروى البراء بن عازب رضي الله عنه القصة التالية ، على حسب ما رواه الإمام أحمد :

«أمرنا رسول الله ، ﷺ بحفر الخندق ، فعرضت لنا صخرة في مكان من الخندق لا تأخذ فيها المعاول ، فشكونا إلى رسول الله ﷺ ، فجاء ثم هبط إلى الصخرة فأخذ المعلول ، وقال :

باسم الله ، ضرب ضربة ، فكسر ثلث الحجز وقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح الشام ، والله إنني لأبصر قصورها الحمر من مكان ، هذا ثم ، قال باسم الله ، ضرب ثانية ، فكسر ثلث الحجر ، فقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح فارس ، والله إنني لأبصر المدائن ، وأبصر قصرها الأبيض من مكان هذا ، ثم قال : باسم الله ، ضرب ضربة ثالثة فقلع بقية الحجر ، فقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إنني لأبصر أبواب صنعاء من مكان هذا .
وأشاع هذا التفاؤل الثقة والاطمئنان في المسلمين ، وإن كان قد دعا إلى السخرية في وسط المشركين والوثنيين الذين قالوا : إن محمداً يعدهم وينيهם وهم لا يؤمنون على أنفسهم الآن .

هذا التفاؤل وهذه الثقة في الله لم تفارق الرسول قط في كفاحه الطويل الدائب
الذى استمر إلى نهاية حياته الشريفة .

وغزوة فتح مكة ترتبط بآيات مباركات هي :

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ، لِيغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقْدِمُ مِنْ ذَنْبٍ وَمَا تَأْخُرُ ، وَيَمْ نَعْمَتَهُ عَلَيْكَ ، وَيَهْدِكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ، وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا)^(١) .

إن آيات الفتح هذه - نزلت في أثناء عودة رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد صلح الحديبية ، نزلت تسلية للمسلمين ، وقد حزنوا لصدتهم عن دخول مكة حاجين ومعتمرين ، مع أنهم كانوا على أبوابها . وقد نزلت تشير إلى فتح مكة وتبشر به . ولقد أوحاهها الله إلى رسوله ليلاً ، فلما أصبح صلوات الله عليه قال : لقد نزلت على الليلة سورة هي أحب إلى ما طلت عليه الشمس ، ثم قرأ قوله تعالى : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا) .

وهذه الآيات الكريمة : لا تكاد تبين عن فتح مادى حربى ؛ وإنما هي تشير - على المخصوص - إلى الآفاق العليا من الرضوان الإلهي . إنها وثيقة تسجل الثقة المطلقة التي شملت الماضي ، والحاضر ، والمستقبل ؛ والتي سمت برسول الله ، صلوات الله عليه إلى مستوى الرضا عن كل ما يأتي وما يدع . إنها بشرى من الله بفتح مبين ، وغفران شامل ، وإهمام كامل للنعمـة ، وهداية وقيادة دائمة مستمرة ، ونصر عزيز . وهذه منح إلهية عامة ، لا تفسر بالماديات وحسب ، وإنما تفسر أيضاً ومن باب أولى - بالمعنى الروحية في أسمى صور التجليات الإلهية - اللهم لك الحمد والشكر - ولذلك فإننا حينما نتحدث عن فتح مكة لا نختزل المسائل الحرية المكانة الأولى من الموضوع ؛ وإنما الذي يختزل ذلك إنما هو المثل العليا : من الصور الأخلاقية النبوية ، والسمو النفسي الممثل في الرحمة المهدأة من الله تعالى إلى الإنسانية : أى في سيدنا رسول الله صلوات الله عليه . ومما يكن من شيء فإن قريشاً نقضت عهد الحديبية الذي كان يفرض الهدنة

(١) سورة الفتح الآيات : ١ - ٣ .

بينها وبين رسول الله صلوات الله عليه ، وكانت الفرصة مواتية لأن يركز الله تفكير رسول الله عليه ، في أمر قريش :
أما آن لقريش أن تسلم وجهها لله ، وأن توحده ، ولا تشرك به شيئاً ؟
(إنَّ الشَّرْكَ لِظُلْمٍ عَظِيمٍ) ^(١) .

أما آن لقلوبهم أن تخشع لذكر الله ، وما نزل من الحق ؟ .
لقد دعا سيدنا إبراهيم - في رحاب مكة - ربه مبتهلاً ضارعاً قائلاً :
(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ، يَتلو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ، وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
وَيَزَكِّهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) ^(٢) .
وها هو ذا رسول الله ، عليه السلام قد بعثه الله إليهم بالهدى السماوى ، فهل استجابت
قريش هدى السماء ؟

وهذا البيت العتيق الذى رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل قائلين : (ربنا تقبل منا
إنك أنت السميع العليم) ^(٣) هذا البيت الذى عهد الله لإبراهيم وإسماعيل أن
يظهره للطائفين والعاكفين والركع السجود هذا البيت قد احتلته الأصنام ، والتفت
حوله ، وارتقت على جوانبه معلنة - في وقاحة سافرة - الشرك بالله .
لابد من تحطيم الأصنام ، وتطهير البيت ، لابد من أن تسلم قريش وجهها إلى
الله .

وصمم رسول الله ، عليه السلام في عزم لا يلين على أن يمحو الشرك وأثاره من معقله
الحسين : (أعني مكة) وأن يظهر البيت من جديد للطائفين والعاكفين والركع
السجود . وعيثاً حاول أبو سفيان - الذى أرسلته قريش سفيراً بينها وبين الرسول -
أن يجدد العهد الذى نقضته قريش ، ولم يجد أبو سفيان - برغم دهائه ولباقةه -
عوناً من أحد ، حتى ولا من ابنته أم حبيبة زوجة رسول الله التى بلغ بها النفور من
الشرك أن طوت فراش رسول الله عليه السلام ، حتى لا يجلس عليه أبوها - زعيم المشركين
وحامى الشرك في مكة - فلما سألاها مستفسراً : أرغبت به عن الفراش أم رغبت

(١) سورة لقمان آية : ١٣ .

(٣) سورة البقرة آية : ١٢٧ .

(٢) سورة البقرة آية : ١٢٩ .

بالفراش عنه؟ قالت هو فراش رسول الله ، وأنت مشرك نجس ! فانصرف مغضباً قائلاً : « والله لقد أصابك من بعدى شر» وأخطأ أبو سفيان ، فما أصابها شر ، ولكنها كراهية الشرك .

وعبأ رسول الله . صلوات الله عليه القوى وخرج يوم الأربعاء بعد العصر لعشرين ليال خلون من شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة ، حتى إذا كان بالكديد ، واجتمع الناس إليه - أخذ إماء فشرب منه ثم قال : « أيها الناس ، من قبل الرخصة ، فإن رسول الله ، عليه السلام : قبلها . ومن صام فإن رسول الله عليه السلام - صام . حتى إذا بلغ صلوات الله عليه « مر الظهران » - وهو مكان بالقرب من مكة - أمر الجيش بالإفطار ، لأنه فيما يبدو يوشك أن يخوض المعركة الفاصلة بين الشرك والإيمان .

وعسكر الجيش في مر الظهران ، ولما رأه أبو سفيان وكان قد أسلم منذ ساعات ، قال ، بعقليته الجاهلية ، للعباس : يا أبا الفضل ، لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً ؛ فقال العباس ، بعقليته الإسلامية : ويحك ! إنه ليس بملك ، ولكنها نبوة ، قال أبو سفيان ، فنعم ، وتوجه رسول الله نحو مكة محذراً من إراقة الدماء . ولما قال سعد بن عبادة ، وهو أحد قادة الجيش : « اليوم يوم الملحمة ، اليوم نستحل الحرمات » . عزله النبي عليه السلام ، فقد كان رسول الله صلوات الله عليه يريد أن يكون اليوم يوم المرحمة .

ودخل رسول الله صلوات الله عليه مكة دون مشقة ، وكان أول ما فعل أن طاف بالبيت سبعاً ، ودخل البيت ، فرأى فيه صور الملائكة بهيئة النساء ، ورأى إبراهيم عليه السلام مصورةً في يده الأزلام يستقسم بها ، فقال : - قاتلهم الله ، جعلوا شيئاً يستقسم بالأزلام ! ما شأن إبراهيم والأزلام ؟ .

(ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصريانيا . ولكن كان حنيفاً مسلماً . وما كان من المشركين)^(١) .

وأمر بطممس الصور كلها ، واتجه إلى الأصنام ، فحطمتها مردداً قوله تعالى :

(١) سورة آل عمران آية : ٦٧ .

(جاء الحق و زهق الباطل ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهْوًا)^(١) .

وإذا كان رسول الله ، ﷺ قد حطم الأصنام المادية فإنه من قبل ذلك ومن بعد ذلك : قد حطم كل صنم يعبد من دون الله ، وبين أن الرياء شرك ، والموي شرك ، والخضوع للشهوات شرك ، وكل عمل لا يقصد الإنسان به وجه الله فإنما هو من أعمال الشرك . وفي هذا اليوم تملكت أريحية العفو رسول الله ، صلوات الله عليه :

فإنه حينما اجتمعت قريش إليه نظر إليهم وقال : يامعشر قريش ، ما ترون أني فاعل بكم ؟ فقالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال وهو يبكي : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

أقول لكم ما قاله أخي يوسف لأخوه :

(لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين)^(٢) .

فكان هذا اليوم حقيقة يوم المرحمة .

وبالله التوفيق .

(١) سورة الإسراء آية : ٨١ .

(٢) سورة يوسف آية : ٩٢ .

الفصل السابع

النبي العايد

أَلِفَ النُّسْكَ وَالْعِبَادَ وَالْخُلُدُ سَوَّا طَفْلًا وَهَكُذا النُّجَباءُ
وَإِذَا حَلَّتِ الْهَدَايَةُ قُلْبًا نَشَطَتِ فِي الْعِبَادَةِ الْأَعْصَاءُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن أول آية نزلت من القرآن الكريم إنما هي :

(اقرأ باسم ربك الذي خلق) العلق آية ١ ولقد كانت هذه الآية الكريمة -
بوضعها ومفهومها وجوها - شعاراً عاماً وتوجيهها شاملة ، فما كانت تعنى بروحها
القراءة فحسب ، وإنما كانت تعنى : أنه - منذ هذه اللحظة - يجب أن يكون كل
أمر باسم الله : فعلاً كان هذا الأمر أو تركاً .

ولقد تأكد هذا الاتجاه ، وأصبح سافراً فيما بعد ، بل لقد أصبح من الأوامر
المفروضة على المسلم ، يقول الله تعالى لرسوله ، ﷺ :
(قل : إن صلاتي ونسكي ومحبتي ومكانتي لله رب العالمين ، لا شريك له ،
وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) ^(١) .

على أن المسألة أشمل من ذلك وأعم إذا كان يتأتى الشمول والعموم بعد هذا .

إن الله سبحانه قد أخبر في قرآنـه الكريم - أنه ما خلق الجن والإنس إلا للعبادة
يقول سبحانه .

(وَمَا خَلَقْتَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ) ^(٢) .

فغاية الخلق العبادة ، وسبب الخلق العبادة ، والثمرة التي يجب أن يعمل الإنسان
على تحقيقها إذن إنما هي العبادة ، ومن هنا كانت التوجيهات المتواالية للعبادة :
(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدَلْوِكَ الشَّمْسِ إِلَى غَسْقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنْ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ
مَشْهُوداً . وَمَنْ الْلَّيْلَ فَتَهْجُدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَعْثُكْ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً) . وَقَلْ

(١) سورة الأنعام آيتا : ١٦٢ - ١٦٣ .

(٢) الذاريات : ٥٦ .

رب أدخلنی مدخل صدق وأخرجنی مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا
نصيرا)^(١).

(واسجد واقرب)^(٢).

(واعبد ربک حتى يأتك اليقين)^(٣).

(واصبر لحكم ربک فإنک بأعيننا وسبح بحمد ربک حين تقوم ، ومن الليل
فسبحه وإدبار النجوم)^(٤).

وما من شك في أن الله سبحانه لا تضره معصية ، ولا تنفعه طاعة ، إنه سبحانه
الغنى المطلق ، والمانع المطلق ، والمعطى المطلق ، إنه سبحانه الوهاب ، الرزاق
المغنى إنه القائم بنفسه ، وغيره هو المحتاج ..

وما كانت العبادة إلا لأجل تكليل الإنسان : فمن فضل الله على عباده - أن
فتح لهم باب الكمال على مصراعيه عن طريق العبادة ، ففائدة العبادة راجعة إلى
العبد نفسه ، فضلا من الله ورحمة ، إنها راجعة إليه في الدنيا ، وراجعة إليه في
الآخرة ، ويشمل الوجهين قوله تعالى :

(من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيئه حياة طيبة ولنجزيهم
أجرهم بحسنه ما كانوا يعملون)^(٥).

ومن عناية الله بالأمة الإسلامية ، وبرسوله الكريم - أن أول كلمات من الوحي
كانت توجيهها للرسول وللمسلمين بأن تكون أعمالهم كلها عبادة ، لأن ما كان باسم الله
كان عبادة ، ولو كان أكلًا أو شربًا مثلًا .

واستجابة الرسول صلوات الله عليه لهذا التوجيه السامي الذي توالي منذ الأيام
الأولى للرسالة ، واستمر طيلة الوحي .

إن الرسول صلوات الله عليه حينما فاجأه الوحي ، فعاد يرجف قواده إلى منزله
الظاهر ، وقال : زملوني زملوني - نزل عليه قوله تعالى :

(١) سورة الإسراء الآيات : ٧٨ - ٨٠.

(٤) سورة الطور آيتا ٤٨٠ ، ٤٩ .

(٢) سورة العلق آية : ١٩

(٥) سورة الطور آيتا ٤٨ ، ٤٩ .

(٣) سورة الحجر آية : ٩٩ .

(يأيها المزمل ، قُمِ الليل إِلَّا قليلاً ، نصفه أو انقص منه قليلاً ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلًا) ^(١).

لم يقل له سبحانه : يأيها المزمل ، لا تخش بأساً ، أو يأيها المزمل ، لا ترع فإن ذلك من عند الله ، وإنما كان الرد على رجفة الفؤاد أمراً بالعبادة . وكذلك الشأن في كل ما يعرض المسلم من ضيق أو كرب – أمر بالعبادة مثل : (فاصبر على ما يقولون . وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار : لعلك ترضى) ^(٢) .

وهنا علق سبحانه الرضا وطمأنينة النفس ، وسكونية الفؤاد : على التسبيح والذكر والعبادة ، ويشير الله إلى ذلك أيضاً فيقول : (فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ، ومن الليل فسبحه وأدبار السجود) ^(٣) .

واستجابة الرسول صلوات الله عليه استجابة كاملة للتوجيه الإلهي : فجعل من كل أعمال الحياة عبادة ؛ إذ أنه كان يعملها باسم الله : لقد جعل صلاته ، ونسكه ، وجعل حياته بأكملها ، بل ومهاته أيضاً لله رب العالمين ، لقد جعل كلامه ، وصيته ، وجعل حركته وسكنه ، وجعل نومه ويقظه ، بل جعل أنفاسه عبادة لله سبحانه ، فكان ذلك توجيهًا به إلى الله ، فكان عبادة له ، وهذه الاستجابة الكاملة هي التي جعلت من رسول الله صلوات الله عليه – أول المسلمين» :

أولهم منذ أن خلق الله العالم إلى أن يطوى الله الأرض وما عليها ، باعتبار أن الدين عند الله – منذ الأزل إلى الأبد – إنما هو الإسلام .

لقد صير الرسول صلوات عليه الحياة كلها عبادة لا تفتر .

وإذا استحالت إلى عبادة فقد استحالت إلى قوة ، أرأيت حينما تجعل من الجهد عبادة ، ومن العمل عبادة ، ومن العلم عبادة ، ومن الكفاح عبادة ، ومن السعي

(١) سورة المزمل الآيات : ٤-٦.

(٢) سورة ق آيات : ٣٩ ، ٤٠ .

(٣) سورة طه آية : ١٣٠ .

على المعاش عبادة ، ومن ، ومن . . ؟ هل يضعف المجتمع أو يقوى ؟ » وهل يأمن أهله أو يخافون ؟ وهل يسعدون أو يشقون ؟

مهمها يكن من شيء فقد استجاب الرسول صلوات الله عليه استجابة تامة لما أراد الله سبحانه وتعالى ، ولقد تحدث الله عن هذه الاستجابة ذاكراً لها فقال سبحانه :

(إن ربك يعلم أئك تقوم أدنى من ثلث الليل ونصفه وثلثه) ^(١).

ونذكر الآن بعض الأحاديث التي تصور هذا الجانب من حياة الرسول ، صلوات الله عليه ، ومن وراء إيضاح هذا الجانب من حياته صلوات الله عليه أهداف :

١ - تأسى المسلمين به قدر الاستطاعة .

٢ - رضاء النفوس وطمأنينة الأفئدة ، من الناحية النفسية ، فليس هناك من علاج للشك والخيرة والتردد يعادل في نفاسته العبادة والنصيحة المحربة التي تسدى للشك إنما هي « صل » .

فالصلوة خير علاج للأضطراب الديني . بل للأضطراب النفسي أيًا كان . وبمئى وجدت النفس المطمئنة - والنفس المطمئنة لا وسيلة لوجودها إلا بالعبادة فإن الكثير من الأمراض الجسمية نفسها يزول بإقرار أطباء الأجسام أنفسهم ، ثم إنه - بإقرار أطباء الأجسام أيضاً - لا يكون الإنسان المطمئن عرضة لما يتعرض له غير المطمئن من أمراض جسمية .

٣ - وهذه الأسوة بالرسول ، صلوات الله عليه ، التي نرجوها - ستكون أيضاً سبباً في تفريح الضيق المادى :
 (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض . .) ^(٢) .

(من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزيهم أجرهم بحسن ما كانوا يعملون) ^(٣) .

(١) سورة النحل آية : ٩٧.

(٢) سورة الزمر آية : ٢٠.

(٣) سورة الأعراف آية : ٩٦.

وهذه الأحاديث التي نذكرها ليس فيها حديث ضعيف ومع أن الأحاديث الضعيفة يعمل بها في فضائل الأعمال ، فإننا قد تحرينا تحريراً كاملاً لا نذكر فيما يلي - إلى آخر الكتاب - حديثاً ضعيفاً .

الصلوة :

عن السيدة عائشة رضي الله عنها : « أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَفَطَّرَ قَدْمَاهُ » .

فقلت له : لماذا تصنع هذا يا رسول الله ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟

قال : أَفَلَا أَحُبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا؟» .

أَعْمَا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقد قال :

« صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةً فَأَطَّالَ الْقِيَامَ حَتَّى هَمَتْ بِأَمْرِ سَوَءٍ .

قَيْلَ : وَمَا هَمَتْ بِهِ؟

قَالَ : هَمَتْ أَنْ أَجْلِسَ وَأَدْعُهُ» .

ولعل لابن مسعود ، رضي الله عنه عذرها فقد كان صلوات الله عليه يقرأ في الركعة الأولى مثلاً سورة البقرة ، وفي الثانية آل عمران ، وفي الثالثة سورة النساء ، وكان يطيل القيام ويطيل الركوع ، ويطيل السجود . كان يطيل كل ذلك حينما كان يفعله منفرداً في جوف الليل .

أما إذا كان مع الناس فإنه يخفف .

وقد ورد في السنة الصحيحة : أطال الرسول صلوات الله عليه القراءة في الركعات التي يصلحها في الليل ، وبسبب هذه الإطالة كانت هذه الركعات لا تتجاوز إحدى عشر ركعة .

« عن عائشة رضي الله عنها : كان النبي ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصْلِي مِنَ اللَّيْلِ إِحْدَى عَشْرَ رَكْعَةً ، إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتِينِ ، ثُمَّ اسْتَطَعَ عَلَى شَقَّهُ الْأَيْمَنِ حَتَّى يَجْعَلَ الْمَوْذِنَ فَيَؤْذِنَهُ » .

وكان الرسول صلوات الله عليه ، يستغرق في صلاته الليلية ويبكي .

ويقص مطرف بن عبد الله عن أبيه قال :

«أتيت النبي ﷺ وهو يصلى ، وجلوفه أزيز كأزيز الرجل : يعني يبكي» .

وللصلوة أهمية أكبر يوضحها الرسول صلوات الله عليه بقوله :

«إن بين الرجل وبين الشرك والكفر : ترك الصلاة» .

وكان صلوات الله عليه يتوضأ لكل صلاة .

عن أنس رضي الله عنه قال :

«كان رسول الله ﷺ يتوضأ لكل صلاة قيل له : كيف كنتم تصنعون ؟ قال يجزى أحدنا الوضوء ما لم يحدث» .

والأحاديث التالية : تبين بعض أحوال الرسول صلوات الله عليه في الصلاة :

كان عند الإقامة يقول :

«أقامها الله وأدامها» .

«وكان ﷺ إذا قام إلى الصلاة طأطأ رأسه» .

قالت عائشة ، رضي الله عنها : «لم يكن ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعى الفجر» .

عن سماك بن حرب قال : «قلت لجابر بن سمرة : أكنت تجالس رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ، كثيراً . كان لا يقوم من مصلاه الذى يصلى منه الصبح حتى تطلع الشمس فإذا طلعت قام» .

«وكان ﷺ : يدخل في الصلاة ، فيريد إطالتها ، فيسمع بكاء الصبي ، فيتجوز في صلاته مخافة أن يشق على أمه» .

وكان ، ﷺ : يقرأ سورة «الجمعة» في الركعة الأولى و «إذا جاءك المنافقون» في الثانية .

عن جبير بن مطعم قال : «سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب (والطور) .

«وكان صلوات الله عليه » يقرأ في المغرب : (والمرسلات عرفا) وإنها لآخر ما سمعته من رسول الله ، ﷺ .

وَعَنْ أُمِّ هَاشِمَ بَنْ حَارِثَةَ بْنَ الْعَمَانِ قَالَتْ : « مَا أَخْدَتْ « ق ، وَالْقُرْآنُ
الْمَجِيد » إِلَّا عَنْ لِسَانِ رَسُولِ اللَّهِ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، يَقْرُئُهَا كُلُّ جَمِيعَةٍ عَلَى الْمِنْبَرِ إِذَا خَطَبَ
الْأَنْسَابُ » .

« وَكَانَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقْرَأُ فِي صَبَّحِ الْجَمِيعَةِ : « أَمْ تَنْزِيلُ » السَّجْدَةُ ،
وَ« هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مِنَ الدَّهْرِ » رَوَاهُ الشِّيْخَانُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ،
وَإِنَّمَا كَانَ يَقْرُئُهُمَا كَامِلَتِينَ وَقِرَاءَةً بَعْضُهُمَا خَلَافُ السَّنَةِ .

كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقْرَأُ فِي الْعِدَيْنِ وَفِي الْجَمِيعَةِ : « سَبْعَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » وَ« هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ » .

وَكَانَ « يَكْثُرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ : سَبَحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبُّنَا وَبِحَمْدِكَ ،
اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِنِي » .

« وَكَانَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقُولُ بَيْنَ التَّشْهِيدِ وَالتَّسْلِيمِ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِنِي مَا قَدَّمْتُ
وَمَا أَخْرَيْتُ ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ ، وَمَا أَسْرَفْتُ ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي ، أَنْتَ
الْمَقْدِمُ وَأَنْتَ الْمَؤْخِرُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ » .

« وَفِي السُّجُودِ يَقُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرَضَاكَ مِنْ سُخطِكَ ،
وَبِعِفَافِكَ مِنْ عَقْوبَتِكَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ ، لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ
عَلَى نَفْسِكَ » .

« وَعَنْ حَذِيفَةَ كَانَ يَقُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي رُكُوعِهِ : سَبَحَانَ رَبِّ الْعَظِيمِ ، وَفِي
سُجُودِهِ : سَبَحَانَ رَبِّ الْأَعْلَى » .

« وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، يَكْثُرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ
وَسُجُودِهِ : سَبَحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِنِي يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ ،
وَمَعْنَى يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ يَعْمَلُ بِمَا بَهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ،
إِنَّهُ كَانَ تَوَابًا) ^(١) فَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ هَذَا الْكَلَامُ الْبَدِيعُ فِي الْحَزَالَةِ ، الْمُسْتَوْفُ مَا أَمْرَ
بِهِ فِي الْآيَةِ » .

(١) سُورَةُ النَّصْرَ آيَةُ : ٣

الصيام

أما إذا جئنا إلى رمضان وإلى الصيام على وجه العموم - فالآحاديث التالية توضح بعض الأمر ، كما أن آحاديث الصلاة التي رويناها إنما بيّنت إشارات ومحات فقط ، فكذلك الأمر في آحاديث الصيام .

فرض رمضان في السنة التالية من الهجرة ، فتوفى سيدنا محمد رسول الله ﷺ وقد صام تسع رمضانات .

عن عائشة رضي الله عنها : « كان رسول الله ﷺ : إذا دخل العشر الأواخر من رمضان أحياناً الليل ، وأيقظ أهله وجد وشد المتر » وعنها قالت « كان . ﷺ ، يجتهد في رمضان مالا يجتهد في غيره ، وفي العشر الأخيرة مالا يجتهد في غيرها » .

« كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان ، حتى تفاه الله تعالى » .

« كان النبي ﷺ يعتكف في كل رمضان عشرة أيام ، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين يوماً » .

« إذا دخل العشر الأخيرة طوى فراشه ، واعتزل النساء ، واغتنس بين الأذانين ، وجعل العشاء سحوراً » .

« روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنها أنه صلوات الله عليه واصل ، فواصل الناس ، فشق ذلك عليهم ، فنهاهم رسول الله ﷺ أن يواصلوا ؛ قالوا : إنك تواصل : قال : لست كهيشتكم إني أظل أطعم وأنسق » .

عن ابن عباس رضي الله عنها قال : « كان رسول الله ﷺ لايفطر الأيام البيض في حضر ولا سفر ، وهي ثلاثة عشرة ، وأربع عشرة ، وخمس عشرة » .

وعن حفصة رضي الله عنها : « أربع لم يكن النبي ﷺ يدعهن : صيام عاشوراء ، والعشر - أي تسع ذي الحجة - والأيام البيض من كل شهر ، وركعنا الفجر » .

«كان صلوات الله عليه يتحرى صيام يوم الإثنين والخميس» .

«كان النبي ﷺ يصوم ثلاثة أيام من غرة كل شهر» .

الذكر .

«لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده» .

وعن عائشة رض الله عنها ، قالت : «كان صلوات الله عليه يذكر الله على كل أحيانه» .

«مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره - مثل الحى والميت» .
وأفضل الذكر : قراءة القرآن .

«ومن قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول : ألم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولا م حرف ؛ وميم حرف» .

«إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن - كالبيت الخرب» .

«اقرءوا القرآن ؛ فإنه يأتي يوم القيمة شيئاً لأصحابه» .

وبينما جبريل عليه السلام قاعدًا عند النبي ﷺ سمع نقيضًا من فوقه ، فرفع رأسه ، فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم ولم يفتح قط إلا اليوم . فنزل منه ملك ، فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض ، ولم ينزل قط إلا اليوم ، فسلم ، وقال : أبتر بنورين أوتتهما لم يؤتها نبى قبلك : فاتحة الكتاب ، ونحواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته» .

ولأن لا إله إلا الله أساس التوحيد ، وتعبير عن التوحيد . وقد ذكرت بالفظها وبمعناها في القرآن على أنحاء شتى - قال صلوات الله عليه : «أفضل الذكر لا إله إلا الله» .

عن أبي موسى ، رضى الله عنه قال : «قال لى رسول الله ﷺ : ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟» .

فقلت : بلى ، يا رسول الله .

قال : لا حول ولا قوة إلا بالله .

« قال رسول الله ﷺ : لقيت إبراهيم عليه السلام ليلة أسرى بي . فقال : يا محمد ، أقرئ أمتك مني السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيungan ، وأن غرسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ». وكان ، صلوات الله عليه يقول بأعلى صوته : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قادر ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل ، وله الثناء الحسن الجميل ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » .

« من قال لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قادر في يوم مائة مرة – كانت له عدل عشر رقاب ، وكتب له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى ي sis ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه » . وقال : « من قال – سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة – حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر » .

« إذا دخل الرجل بيته فذكر الله تعالى عند دخوله وعنده طعامه قال الشيطان لأصحابه : لا مبيت لكم ولا عشاء ؛ فإذا دخل فلم يذكر الله تعالى عند دخوله : قال الشيطان : أدركتم المبيت . وإذا لم يذكر الله تعالى عند طعامه : قال : أدركتم المبيت والعشاء » .

« الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله ، والحمد لله تملآن أو تملأ مابين السموات والأرض ، والصلوة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس تغدو : فبائع نفسه فعتقها أو موبقها » .

« إن أحب الكلام إلى الله : سبحان الله وبحمده » .

« لأن أقول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر – أحب إلى ما طلعت عليه الشمس » .

«كلمتان خفيتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيثتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » . . .

الدعاء :

وقال صلوات الله عليه وسلم : « الدعاء هو العباده ».
أما أحسن أوقات الدعاء فإن الأحاديث التالية تذكر بعضها :ـ
ـ « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فاكثروا الدعاء ، فقمين أن يستجاب لكم » .

ـ « قيل لرسول الله ، ﷺ : أي الدعاء أسمع ؟ قال : جوف الليل الآخر ، ودبر الصلوات المكتوبة » :

ـ « دعوة المرء المسلم لأنجيه بظهور الغيب مستجابة ، وعند رأسه ملك موكل كلما دعا لأنجيه بخير ، قال الملك الموكل به : آمين ، ولك بمثل » .

ـ « لا يزال يستجاب للعبد مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم ، مالم يستعجل ؛ قيل : يا رسول الله ، ما الاستعجال ؟ قال : يقول : قد دعوت ، وقد دعوت فلم أر يستجيب لي فيستحرسر عند ذلك ويترك الدعاء » .

ـ « ما على الأرض مسلم يدع الله تعالى بدعاوة إلا آتاه الله إياها ، أو صرف عنه من السوء مثلها ، مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم ؛ فقال رجل من القوم : إذن نكث ؟ قال : الله أكثر » .

ـ « كان صلى الله عليه وسلم يحب الجماع من الدعاء ، ويدع ماسوى ذلك » .

ـ ومن جوامع دعائه ما يلى :

ـ « آتاه رجل فقال : يا رسول الله ، كيف أقول حين أسأله ربى ؟ قال : قل : اللهم اغفر لي ، وارحمني ، وعافني ، وارزقني ؛ فإن هؤلاء : تجمع لك دنياك وأخرتك » .

ومن جوامعه عليه السلام :

« اللهم إني أسألك موجبات رحمتك ، وعزم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنية من كل بُر ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار ». عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : دعا رسول الله عليه السلام بدعاء كثير لم يحفظ منه شيئاً .

قال : ألا أدلّكم على ما يجمع ذلك كله ؟ تقول : اللهم إنا نسألك من خير مسائلك منه نبيك محمد ، ونعود بك من شر ما استعاذه منه نبيك محمد ، عليه السلام ، وأنت المستعان ، وعليك البلاغ ، ولا حول ولا قوّة إلا بك » اه . اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق ، والأعمال والأهواء ». اللهم أهمني رشدي ، وأعذني من شر نفسي » .

عن شهر بن حوشب ، قال : « قلت لأم سلمة رضي الله عنها : أيام المؤمنين ، ما كان أكثر دعاء رسول الله عليه السلام إذ كان عندك ؟ قال : كان أكثر دعائه : يامقلب القلوب ، ثبت قلبي على دينك » اه . « اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشى ، وأصلح لي آخرتى التي إليها معادى ، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير ، واجعل الموت راحة لي من كل شر ». « اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك » .

« اللهم اجعل في قلبي نوراً ، وفي بصري نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وعن يميني نوراً ، وعن يسارى نوراً ، وتحتى نوراً ، وأمامى نوراً ، وخلفى نوراً ؛ واجعل لي نوراً ». « ربنا آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار ». ومن أدعيته ، صلوات الله عليه في الصلاة :

« عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه - أنه قال لرسول الله عليه السلام : علمتني دعاء أدعو به في صلاته .

قل : قال : اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنب إلا أنت ،

فاغفر لي مغفرة من عندك ، وارحمني ؛ إنك أنت الغفور الرحيم ». « وكان صلوات الله عليه يقول بين السجدين : اللهم اغفر لي ، وارحمني ، واهدني ، وعافني ، وارزقني » .

عن معاذ رضي الله عنه أن الرسول ﷺ أخذ بيده وقال : يامعاذ والله إنما لأحبك ، ثم أوصيك : يامعاذ ، لاتدعن في دبر كل صلاة أن تقول : اللهم أعني على ذكرك ، وشكرك ، وحسن عبادتك » .

وعند الإفطار في الصوم :

« الحمد لله الذي أعانتي فصمت ، ورزقني فأفطرت » .

« اللهم لك صمت ، وعلى رزقك أفطرت ، فتقبل مني ؛ إنك أنت السميع العليم » .

عند الكرب :

« ياحي ياقيوم برحمتك أستغيث » .

وعند الكرب أيضاً :

« لا إله إلا الله العظيم الخليم ، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم » .

أما إذا كان الكرب شديداً فيحسن أن يكرر الإنسان دعاء الرسول ﷺ عند عودته من الطائف ، وهو من روائع بيانيه ، ودقيق مناجاته :

« اللهم ، إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهوانى على الناس . يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتوجهمى ، أم إلى عدو ملكته أمري ، إن لم يكن بك على غصب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعود بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة – من أن تنزل بي غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

وإذا خاف قوماً قال : « اللهم إنا نجعلك في نحورهم . ونعود بك من شرورهم »

سداد الدين .

« ألا أعلمك كلامات علمنيهن رسول الله ﷺ لو كان عليك مثل جبل ديناً أداء الله عنك ؟ قل اللهم اكفني بحالتك عن حرامك ، واغنني بفضلك عمن سواك ». وعند الخروج من البيت .

« عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من قال إذا خرج من بيته : باسم الله ، توكلت على الله . لا حول ولا قوة إلا بالله – يقال له : هديت وكفيت ووقيت ، وتنحى عنه الشيطان ». وعند النوم واليقظة .

« إذا أخذ أحدكم مضجعه من الليل وضع يده تحت خدّه ثم يقول : اللهم باسمك أموت وأحيَا .

وإذا استيقظ قال : الحمد لله الذي أحياناً بعد ما أماتنا وإليه النشور ». وعند الأكل :

« الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة ». وعند الملبس الجديد :

« اللهم لك الحمد أنتكسوتنيه . أسألك خيره وخير ما صنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له ». وإذا رأى الھلال :

« اللهم أهلنا علينا بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام ، رب وربك الله هلال رشد وخير ». وعندما ينتهي المجلس ، ويفرق الحاضرون يقول :

« سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ». وعندما يودع شخصاً :

« كان رسول الله ﷺ ، يودعنا فيقول : استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك ». .

الفصل السادس

إِنَّمَا بَعَثْتَ لِأَنْتَمُ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ

من هديه صلوات الله عليه في سبب بعثته .

«إنما بعثت لأتم حسن الأخلاق» .

«إنما بعثت لأتم مكارم الأخلاق»

«إنما بعثت لأتم صالح الأخلاق»

«بعثت بالحنفية السمحنة» أـهـ .

أما هو صلوات الله عليه فإنه رحمة مهداة إلى العالم .

«أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة» .

«تعلمون أنى رحمة مهداة ، بعثت برفع قوم ، ووضع آخرين » رفع من اتبعوه عند الله ، ووضع أمثال أبي جهل وأتباعه من المشركين والملحدين ، وضعهم عند الله وفي ميزان التقوى . . على أنه :

«ما من شيء أثقل في ميزان العبد المؤمن يوم القيمة من حسن الخلق ، وإن الله يبغض الفاحش البذلة»

والأخلاق لا وزن لها بدون الإخلاص ، ومن هديه صلوات الله عليه في ذلك ! «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى : فن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيغها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» .

«إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ، ولكن إلى قلوبكم» .

«دع ما يربيك إلى مالا يربيك ، فإن الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة» .

قوله : يربيك : هو بفتح الياء وضمها ، ومعناه : أترك ماتشك في حله واعدل إلى ماتشك فيه» .

«إن أول الناس يقضى يوم القيمة عليه - رجل استشهد فأتي به . فعرفه نعمه فعرفها .

قال فما عملت فيها ؟

قال : قاتلت فيك حتى استشهدت .

قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : جرىء . فقد قيل : ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار .

ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن . فأتي به فعرفه نعمه ، فعرفها : قال : فما عملت فيها ؟

قال : تعلمت العلم ، وعلنته ، وقرأت فيك القرآن .

قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال : عالم . وقرأت القرآن ليقال : قارئ ، فقد قيل : ثم أمر به ، فسحب على وجهه حتى ألقى في النار .

ورجل وسع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال . فأتي به فعرفه نعمه ، فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟

قال : ماتركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال : جواد ، فقد قيل : ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار .

ومن هديه في موقف المسلم بالنسبة للمنكر يراه :

«من رأى منكم منكراً فليغیره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فقبله ، وذلك أضعف الإيمان» .

ومن المنكر : السبع الموبقات :

اجتنبوا السبع الموبقات :

قالوا : يا رسول الله ، وماهن ؟

قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقدف الحصنات ، المؤمنات الغافلات » متفق عليه . الموبقات : المهلكات .

ومن هديه صلوات الله عليه فيها يتعلق بصلة المسلم بأخيه المسلم :

«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» .

«لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولن تؤمنوا حتى تhabوا ، ألا أدلّكم على شيء
إذا فعلتموه تhabيتم ؟ افشو السلام بينكم »

«مثل المؤمنين في توادهم ، وترحّمهم ، وتعاطفهم : كمثل الجسد : إذا
اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ». .

«المؤمن للمؤمن كالبنيان : يشد بعضه بعضاً »

«كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه ، وماليه ». .

«عن أبي بكر ، رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ ، قال في خطبته يوم النحر
يُمْنَى ، في حجة الوداع : إن أموالكم وأعراضكم ودماءكم حرام عليكم كحمرة
يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ؟ »
«باب المسلم فسوق ، وقتله كفر ». .

«إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار قلت : يا رسول الله ، هذا
القاتل ، فما بال المقتول ؟

قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه ». .

«المسلم أخو المسلم : لا يخونه ، ولا يكذبه ، ولا يخذله ، كل المسلم على المسلم
حرام : عرضه ، وماليه ، ودمه ، التقوى ه هنا ، بحسب أمرئ من الشر أن يحقر
أخاه المسلم ! »

«المسلم أخو المسلم : لا يظلمه ، ولا يسلمه ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في
حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيمة ، ومن
ستر مسلماً ستره الله يوم القيمة »

«المسلم من سلم المسلمين من لسانه ويده ، والهاجر من هجر مانع الله عنه ». .

«من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم
القيمة ، ومن يسر على معاشر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره
الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه »

«ومن سلك طريقاً يتمنى فيه علمًا سهل الله له به طريقاً إلى الجنة ». .

«وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسوه بينهم

إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشتهم الرحمة ، وحفظهم الملائكة . وذكرهم الله في مين عنده » .

« ومن بطا به عمله لم يسرع به نسبة » ١ . هـ .

« من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيمة فلينفس عن معسر أو يضع عنه » .

« كان رجل يداين الناس ، وكان يقول لفتاه : إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه لعل الله يتتجاوز عنا ، فلئن الله فتجاوز عنه » .

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : « أن رجلاً زار أخيه في قرية أخرى . فأරصد الله تعالى له على مدرجته ملكاً ، فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخيَّاً لي في هذه القرية ؟ قال : هل لك عليه من نعمة تربها عليه ؟ قال : لا ، غير أني أحببته في الله تعالى ؛ قال : فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه » .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله : « إن الله عز وجل يقول يوم القيمة : يا ابن آدم ، مرضت فلم تدعني ، قال : يارب ، كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلاناً : مرض فلم تدعه ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عندك ؟

يا ابن آدم ، استطعتمتك فلم تطعمنى ! قال : يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ؟

يا ابن آدم ، استسقتك فلم تسقنى ؟ قال : يارب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدى فلان ، فلم تسقه ! أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى ؟

ومن هديه صلوات الله عليه في العلم :

« من سلك طريقاً يتغى فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما صنع . وإن العالم ليستغفر له من في السموات : ومن في الأرض ؛ حتى الحيتان في الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر على

سائر الكواكب ، وان العلماء ورثة الأنبياء ، وان الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر» .

«من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع»
وبالنسبة للمرأة :

«لا يخلون رجل بأمرأة إلا ومعها ذو محرم ، ولا تسافر المرأة إلا مع ذى محرم .
فقال له رجل : يارسول الله ، إن امرأتي خرجت حاجة ، وإنى كتبت في غزوة
كذا وكذا ، قال : انطلق فحج مع امرأتك » .

«لا يخلون أحدكم بأمرأة إلا مع ذى محرم » .

ومن هديه صلوات الله عليه وسلم في الجهاد :

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «أفضل الجهاد :
كلمة عدل عند سلطان جائز»

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من مات ولم يغز
ولم يتحدث نفسه بالغزو - مات على شعبة من النفاق» .

«قال رسول الله ﷺ : تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في
سبيل ، وإيمان بي وتصديق برسلني ، فهو ضامن أن أدخله الجنة ، أو أرجعه إلى
مترله الذي خرج منه بما نال من أجر وغنيمة ، والذى نفس محمد بيده ، مامن كلام
يُكلّم في سبيل الله إلا جاء يوم القيمة كهيئته يوم كلام : لونه لون دم ، وريشه : ريح
مسك ، والذى نفس محمد بيده لو لا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلف سرية
تغزو في سبيل الله أبداً ، ولكن لأجد سعة فأحملهم ، ولا يهدون سعة ، ويشق
عليهم أن يتخللوا عنى ، والذى نفس محمد بيده لو ددت أن أغزو في سبيل الله .
فأقتل ، ثم أغزو فأقتل»

«والكلم الجرح»

الفصل التاسع

من توجيهات القرآن الكريم

يقول الله تعالى في كتابه العزيز :

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ : إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ : يَتَلَوُ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ، وَيُزَكِّيهِمْ وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحَكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَنِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) وآيات القرآن كثيرة في هذا المعنى تؤكد كلها أن بعثة الرسول ﷺ كانت نعمة من نعم الله العظمى من الله سبحانه على جميع المؤمنين ، وأن هذا الفضل من الله سبحانه وتعالى إنما هو منه كريمة من لدن رب كريم :

ذلك أن هذا الرسول ، ﷺ إنما هو لسان صدق في تبليغ آيات الله . فهو يتلوها على المؤمنين ، إنه يتلوها عليهم بعد أن تلها على نفسه ، ووعاها وتشريتها روحه ، فانطبع بها وعاشرها ، ومن أجل ذلك كان هذا الرسول ﷺ مصدر تزكية لهم . إنه وقد أصبح طابعه آيات الله أصبح - من أجل ذلك - مصدر تزكية بالمثال والقدوة والتأسي للمؤمنين .

لقد تزكى بآيات الله ، ولقد زكته آيات الله ، وإنه يتلوها ، ويحييها : فهو يبشر بها بقوله ، أو يتلاوتها ، ويبشر بها بمسلكه . فهو بقوله يتلوها ، وهو بمسلكه يرسمها .

ويعلمهم الكتاب : إنه لا يتلو فحسب ، وإنما يعلم أيضاً ، إنه يشرح ويفسر ، ويطبق ، ويقوم تطبيق الآخرين إذا انحرفوا ، إنه يعلم القرآن . وهو يعلم القرآن بعد أن انطبع به ، وبعد أن أصبح هو قرآنًا ، لقد أصبح فكره قرآنًا ، وأصبحت عواطفه قرآنًا ، وأصبحت إرادته قرآنًا !

ولقد عبرت عن ذلك السيدة عائشة رضوان الله عليها خير تعبير وأخصره حينما سئلت عن خلق رسول الله ﷺ ، فقالت رضوان الله عليها : «كان خلقه القرآن» .

(١) سورة آل عمران آية : ١٦٤ .

وما كان يتّأى أن يكون غير ذلك ، وكلمة السيدة عائشة رضوان الله عليها - إنما هي كلمة بديهية عند كل متبصر : فالقرآن كان يظل مبادئ يعتقد الناس أنها مجرد مبادئ نظرية يستحيل تحقيقها في الخارج لو لم تطبق فعلاً ، ولو لم تتحقق واقعياً ، وكان لابد من أن تتحقق بالفعل ، وكان لابد من صورة حية تمثل فيها هذه المبادئ : تمثل فيها ذاتياً . وتتمثل فيها من جهة تطبيقها على الغير ، وقيادة الغير إلى الأخذ بها في صورة تقارب منها بقدر الاستطاعة .

ولو لم يكن الأمر كذلك لظل الناس يؤمنون بأنها مجرد مبادئ .

بيد أن هذه الصورة الخالدة للأخلاق - كما يحب الله سبحانه له ولبني الإنسان - قد تحققت بالفعل : حققها رسوله الكريم ﷺ ، وحققها في ذاته ، وحققها في مجتمعه : حققها سلوكاً ، وحققها واقعياً هو في نفسه على أكمل ما يمكن التحقيق تطبيقياً في مجتمعه على الصورة التي استطاعها هذا المجتمع .

ونقول : على الصورة التي استطاعها هذا المجتمع ؛ لأن لكل نظام من النظم حدّاً أدنى لا يتّأى أن يكون النظام بدونه ، وحدّاً أسمى يتسامي نحوه المخلصون . ولقد تحققت الصورة الإسلامية في حدّها الأسمى في الرسول ﷺ ، وكان بذلك - بنص القرآن - أول المسلمين . وترسم الآيات القرآنية .

كيف ؟ ولم كان الرسول ﷺ أول المسلمين ؟ يقول الله تعالى :

(قل : إن صَلَاتِي ونُسُكِي ، ومحبّاتِي وهماتِي ، لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين)^(١)

لقد كانت أفعاله ، وحياته كلها ، بل وماته ، لقد كان كيانه كله - حركة وسكنناً ، حياة وموتًا ، لله رب العالمين ، فكان بذلك أول المسلمين .

ولقد تحققت الصورة على تفاوت لا ينزل عن حدّها الأدنى في آلاف من الصحابة رضوان الله عليهم .

لقد وجد المجتمع الإسلامي بالفعل :

ولقد انتهى بذلك فكرة هؤلاء الذين رأوا في الماضي ، أو يرون في الحاضر أن الإسلام مبادئ لاتطبق . مبادئ نظرية . مبادئ خيالية يستحيل تطبيقها . لقد تحقق الإسلام بالفعل : فوجد مجتمعاً أسلم نفسه لله . وإن مجتمعًا يسلم نفسه لله لا يتأتى أن تتم شخص الإنسانية عن خير منه .

هذا المجتمع الذي وجد إنما كان ثماراً جهاد الرسول ﷺ وكفاحه في أن يخرج بالفعل الصورة التي أوحاها الله إليه : لقد كان أثراً لتلاوة الرسول ﷺ آيات الله ولتزكية الرسول ﷺ لمن حوله . بمثله القرآني . ولتعليميه صلوات الله عليه القرآن لمن حوله .

وتشيرت روح رسول الله ﷺ القرآن . وامتلأت به . وصفت بصفاته وتركت به ، واستنارت بنوره ، ففاضت بالحكمة : أثراً من آثار المداية التامة . ونتيجة للنور يغمر القلب . وللسناء يتلألأ في الفؤاد : فكان الرسول ﷺ يعلم الكتاب . ويعلم الحكمة . وما الحكمة إلا أحاديث الرسول ﷺ ينير بها قلوبًا . ويرشد بها عقولاً . ويقود بها عباد الله إلى الله . وكما أن الكتاب من عند الله فإن الحكمة أيضاً من عند الله . يقول الله تعالى :

(وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة . وعلمه ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظياً) ^(١)

وما كان رسول الله . ﷺ ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى : فآيات الله يتلوها . وكتاب الله يعلمه . والحكمة التي أنزلها على قلبه يعظ بها .

يقول الإمام الشافعى رضى الله عنه :

فذكر الله الكتاب . وهو القرآن وذكر الحكمة . فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول : الحكمة سنة رسول الله . وهذا يشبه ما قال : والله أعلم .

- لأن القرآن ذكر وأتبعته الحكمة ، وذكر الله منها على خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة فلم يجز - والله أعلم - أن يقال : الحكمة هاهنا إلا سنة رسول الله .

(١) سورة النساء آية ١١٣ .

وذلك أنها مقرونة مع كتاب الله ، وأن الله افترض طاعة رسوله ، وحتم على الناس اتباع أمره ، فلا يجوز أن يقال لقول : فرض إلا لكتاب الله ثم سنة رسوله . لما وصفنا من أن الله جعل الإيمان برسوله مقروناً بالإيمان به .

وسنة رسول الله مبينة عن الله معنى ما أراد دليلاً على خاصه وعامه ، ثم قرن الحكمة بها بكتابه فأتبعها إياه ، ولم يجعل هذا لأحد من خلقه غير رسوله . هذه الصورة التي ترسمها الآية الكريمة - التي صدرنا بها هذا المقال - هي الصورة التي تمناها سيدنا إبراهيم ودعا الله ، سبحانه حينما كان يرفع القواعد من البيت وإسماعيل فقال عليه السلام .

(ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلّمهم الكتاب والحكمة
ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) ^(١)

ولقد صادفت دعوة سيدنا إبراهيم مقدر الله أولاً ، لقد وافقت التقدير الإلهي الأزلى الذي أراد سبحانه به أن يكمل الدين ، ويتم النعمة على المؤمنين ، وأن يكون خاتم الأديان هو الدين الأزلى الخالد الذي لا دين سواه ، والذي يرضاه الله ولا يرضى غيره وهو الإسلام :

(اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام
ديننا) ^(٢)

(إن الدين عند الله الإسلام) ^(٣)

ولايتأتى في عرف المنطق ، وفي منطق الحق ، وفي بداهة العقول – أن يكون الدين الخالد شيئاً آخر غير إسلام الوجه لله .

ومadam الرسول ﷺ أول المسلمين ، ومadam الدين عند الله هو الإسلام – فالرسول إذن أول المتدينين على الإطلاق : إنه وصل إلى الدرجة التي سبق بها جميع من مضى ، وسبق بها جميع أبناء عصره ، وسبق بها من سيأتي بعد ، إنه أول المسلمين في الماضي البعيد ، والماضي الذي يبتدىء منذ بدء الإنسانية .

(١) سورة البقرة آية : ١٢٩ .

(٢) سورة المائدة آية : ٣ .

(٣) سورة آل عمران آية : ١٩ .

وما من شك في أن آدم عليه السلام كان مسلماً . ولكن لم يكن أول المسلمين . ولقد كان نوح مسلماً ، ولكنه لم يكن أول المسلمين . وهكذا كان الأنبياء جمِيعاً . صلوات الله وسلامه عليهم من المسلمين ، ولكن لم يكن أحد منهم أول المسلمين : وما كان يتَّقى أن يكون أحدهم أول المسلمين : لأن الدين الذي جاءوا به صلوات الله عليهم وسلامه - وإن كان إسلاماً - إن الصورة الكاملة التامة للإسلام إنما هي القرآن :

(وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه) ^(١)
ويقول سبحانه : (وابتعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم) ^(٢)
وهو أول المسلمين في الحاضر . وهو أولهم في المستقبل إلى أن تتبدل الأرض غير الأرض والسموات . وإلى ما بعد ذلك من أيادي الله السرمدية . صلوات الله
سلامه عليك يا سيدى يارسول الله .

٢

يقول الله تعالى عن طابع الرسالة الإسلامية وعن طابع الرسول ﷺ :
(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ^(٣)
لقد كان إرسال الرسول ﷺ رحمة إذا نظرنا إلى الرسالة الإسلامية وكان إرساله رحمة إذا نظرنا إلى شخصيته يقول صلوات الله وسلامه عليه :
(إنما أنا رحمة مهداة)

لقد كان رحمة مهداة من حيث الرسالة ، وكان رحمة مهداة من حيث الذات .

لقد كان ينتمي صلوات الله وسلامه عليه إلى الرحمن رساله ، وينتمي إلى الرحمن صفات ، وكان ينتمي إلى الرحيم رساله ، وينتمي إلى الرحيم صفات ،

(٣) سورة الأنبياء آية : ٩٧.

(١) سورة المائدة آية : ٤٨.

(٢) سورة الرمر آية : ٥٥.

إنه رسالة وصفات يسير في حياته بسم الله الرحمن الرحيم مبشرًا الله الرحمن الرحيم .
إنه بني الرحمة وإنها رسالة الرحمة . والله سبحانه وتعالى قد ربي رسوله على عينيه .
وأصطبغه لنفسه . فنشأه على الرحمة . فهو صلوات الله عليه وسلم رحمة منذ
ميلاده .

وإننا إذا أردنا تعبيرًا بجملًا ملائقي الرحمة التي اتصف بها بني الرحمة فإننا
نجد في وصف السيدة خديجة رضوان الله عليها للرسول ﷺ حينما فاجأه الوحي
وحدها به وقال لها : «لقد خشيت على نفسي» .
فقالت رضي الله عنها فوراً :

كلا ، والله ما يغريك الله أبداً : إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكتب
المعدم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نواب الحق .

إن هذا الوصف الصادق للرسول ﷺ إنما يعبر في كل جملة من جمله عن
الرحمة وهو وصف اتسم به الرسول ﷺ طيلة حياته والآية القرآنية :
(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ^(١) لاتخفيص فيها . لا من ناحية نوع
الرحمة ، ولا من ناحية موضوع الرحمة . ويشرح هذه الآية في شمولها وعمومها .
يشرحاها في دقة وف عميق موقف كريم من مواقف التوجيه النبوى : لقد كان
الرسول ﷺ . يتحدث عن الرحمة ، ويدعو إليها ، ويعرف بممتلئها من الدين .
فقال بعض الصحابة رضوان الله عليهم : «إنا نرحم أزواجنا وأولادنا وأهليينا»
فلم يرض هذا القول رسول الله ﷺ لأنهم فهم قاصر محدود لما ينبغي أن يكون
عاماً شاملًا ، إنه تقدير للمطلق . ولذلك رد عليه الرسول ﷺ . بقوله :
«ما هذا أريد إنما أريد الرحمة العامة»

وما من شك في أن من الرحمة - رحمة الأزواج . والأولاد . والأهل وقد
حدث على ذلك رسول الله صلوات الله عليه وسلم عليه .

بيد أن مآرآده الرسول ﷺ إنما هو أن تتغلغل الرحمة في الكيان الإنساني كله :
حتى تصبح . وكأنها من فطرته وطبيعته وجبلته . فيكون الإنسان وكأنه قبس من

(١) سورة الأنبياء آية : ١٠٧

الرحمة الإلهية : ينثرها إذا سار . وينثرها إذا جلس . وينثرها أينما كان ، وينثرها حينما حل .

وإذا كان كذلك فإنه يكون قد حقق الطابع العام للرسالة الإسلامية : رحمة العالمين .

ولقد حقق الرسول ﷺ ، هذا الطابع بقوله ، وحققه بفعله ، ولقد كانت الرحمة ، وهى طابع للرسالة الإسلامية هي طابع تصرفاته . وانظر إلى الحادثة التالية الحادثة التي نزل فيها قوله تعالى (ما كان النبي أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّىٰ يَشْخُنَ فِي الْأَرْضِ تَرِيدُونَ عَرْضَ الدِّنِيَا وَاللَّهُ يَرِيدُ الْآخِرَةَ) ^(١) وهي لما هزم الله المشركين يوم بدر . وقتل منهم سبعون وأسر سبعون استشار النبي ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً فقال أبو بكر : يانى الله هؤلاء بنو العم . والعشيرة والإخوان . وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية . فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار . وعسى أن يهدىهم الله فيكونوا لنا عضداً . فقال رسول الله ﷺ : ماترى يابن الخطاب ؟ قال : قلت : والله ما أرى ما رأى أبو بكر ، ولكنني أرى أن تمكنت من فلان (قريب لعمر) فأضرب عنقه ، وتمكّن علياً من عقيل ، فيضرب عنقه ، وتمكّن حمزة من فلان أخيه : يعني العباس ، فيضرب عنقه ؛ حتى يعلم الله أنه ليس في قلوبنا هوادة : « أى ميل للمشركين » .

أما رأى الرسول ﷺ فقد كان معروفاً . يعرفه كل من عرف رسول الله وعرف طابعه . وعرف صلة هذا الطابع بطابع الرسالة الإسلامية . إنه أخذ الفدية . ولقد كان أبو بكر . رضى الله عنه أمثل الناس في الاقتداء برسول الله ﷺ . فكان اتجاهه من اتجاه رسول الله ﷺ .

وهذا الاتجاه لرفيق الغار أいで الله سبحانه . بل زاد عليه حينما خير رسوله . فيما بعد بأنه - إذا وضعت الحرب أوزارها - له أن يمن وله أن يأخذ الفداء : (فإما منا بعد وإما فداء) ^(٢)

^(١) سورة الأنفال آية . ٦٧ .

^(٢) سورة محمد آية : ٤ .

و قبل بدر أخذ الرسول ﷺ الفداء . فقد فادى في سرية عبد الله بن جحش قبل بدر بنحو عام .

ف لما كانت بدر سار الرسول ﷺ على سنته . و تصرف مستلهماً طابع الرسالة التي أرسله الله بها ، ولكن بعض الصحابة رضوان الله عليهم نظر إلى موضوع الفداء نظرة مادية ، وأخذ في تقدير الفدية وزناً وكيلًا وقيمةً ومقداراً وكماً وكيفاً . وأخذ في تكيف الفدية بحسب الغنى والفقير . إن بعض الصحابة نظر إلى المسألة نظرة مادية ، فنزل قول الله ، سبحانه وتعالى مصححاً الوضع هؤلاء الذين لم يضعوا الأمور في وضعها الصحيح ، ولم يزنوها بميزان التوجيه الإلهي .

يقول الخطيب القسطلاني في كتابه « المواهب اللدنية » في ذلك : « فيه بيان ما خص به وفضل من بين سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فكانه قال : ما كان لبني غيرك » ١ - هـ .

ويقول القاضي بكر بن العلاء : « أخبر الله تعالى نبيه في هذه الآية أن تأويله وافق ما كتب له من إحلال الغنائم والفاء » ١ - هـ .

والتوجيه الإلهي في خاتمة رسالات السماء أنها رسالة رحمة ، ولرسالة الرحمة ميزات وخصوصيات تفيض عن الرحمة نفسها ، وما كان لنبي من قبل نبى الرحمة أن يكون له أسرى حتى يشنخ في الأرض فلما كانت رسالة الرحمة ، ولما كان نبى الرحمة - أباح الله له التصرف بحسب الرحمة ، وهو الفداء ، ثم زاده تكريماً على تكريم حيث زاده رحمة على رحمة ، فجعل له الخيار بين المن والفاء .

وإن كل نظرة تفيض عن هذه النظرة وتصدر عنها لاترى ولا تحسن ولا تشعر بالجانب المادي ، ولكنكم يا هؤلاء الذين نظرتم النظرة المادية تريدون عرض الدنيا وتتخليونه مقاييساً ، إنه ليس بمقاييس : إن المادة ليست في موازين الله مقاييساً ، فإن الله يريد الآخرة ، ويريد للذين آمنوا به وبرسوله أن تكون مقاييسهم مستمددة من كتاب الله . ومن توجيهات رسوله ﷺ : (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) ^(١) وإنه من افضال الله على رسوله أنه سبحانه لم يقل : « أسوة »

(١) سورة الأحزاب آية : ٢١ .

وحسب إنما قال : «أسوة حسنة» ، وقال سبحانه .
 (أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) ^(١)

ثم إن الله سبحانه لم يأمر المسلمين برد الفدية ، وما كان أيسراً ذلك ، ولم ينقض الله سبحانه . ما أبربه رسوله المبرأ عن أن يسير إلا على بصيرة ، والمتره عن أن يهدى إلا إلى الصراط المستقيم صراط الله .

هذه الفطرة الرحيمة حملت الرسول ، ﷺ ، على أن يكافح طيلة حياته في غير قبور ، ولا هوادة هداية الإنسانية وإسعادها ، لقد كان ﷺ ، يشق على نفسه في سبيل ذلك وتحملها من الأمور مالا تطيق .

حتى لقد قال الله له :

(فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) ^(٢)
 وقال سبحانه : (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث
 أسفًا) ^(٣)

ولقد رسم الرسول صلوات الله وسلامه عليه موقفه من الناس . ومثله بموقف رجل يحاول ما استطاع أن يمنع الناس عن التردى في نار يتهاونون على الاحتراق فيها ، ولعل الحادثة التالية تصور بعض جوانب التربية الرحيمة التي كان يستعملها الرسول ﷺ في سلوكه مع الناس . وهي - وإن كانت خاصة برجل معين . ليست بمحض صورة عليه بل لها صفة العموم .

جاءه أعرابي يوماً يطلب منه شيئاً فأعطاه ﷺ . ثم قال له مستفسراً متودداً :
 أحسنت إليك ؟ فقال الأعرابي : لا . ولا أجملت : فغضب المسلمون ، وقاموا إليه : فأشار إليهم الرسول ، ﷺ ، أن كفوا . ثم قام . ودخل منزله ، وأرسل إلى الأعرابي ، وزاده . ثم قال : أحسنت إليك ؟

(١) سورة الأحزاب آية : ٦ .

(٢) سورة الكهف آية : ٢١ .

(٣) سورة فاطر آية : ٨ .

فقال الأعرابي : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً ، فقال له النبي ﷺ : إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي شيء من ذلك . فإن أحبت فقل بين أيديهم : ما قلت بين يديك حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك . وتحدث الأعرابي إليهم ، وطابت أنفس أصحاب رسول الله ، ﷺ ، يقول الأعرابي . فقال صلوات الله وسلامه عليه هذا التعقيب الرائع :

«إن مثلى ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه ، فاتبعها الناس ، فلم يزيدها إلا نفوراً ، فناداهم صاحب الناقة أن خلوا بيئي وبين ناقتي : فإني أرفق بها وأعلم ، فتوجه إليها صاحب الناقة بين يديها فأخذ لها من قام الأرض ، فردها هوناً هوناً ، حتى جاءت واستناخت . وشد عليها رحلها ، واستوى عليها .

وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار» أ.هـ .
لقد كانت نفس رسول الله ﷺ رحيمة حتى مع الأعداء
لقد قيل له يوم أحد ، وهو في أشد المواقف حرجاً : لو لعنهم يارسول الله !
فقال صلوات الله وسلامه عليه : «إنما بعثت رحمة ، ولم أبعث لعاناً»

وكان إذا سُئل أن يدعوا على أحد عذر عن الدعاء عليه إلى الدعاء له بالهدية والصلاح .. وكان يريد باستمرار أن يشعر المسلمين بل الناس على وجه العموم - بالتعاطف فيما بينهم : سُئل مرة : أى الناس أحب إليك ؟ فقال : أفع الناس للناس . وسئل : أى الأعمال أفضل ؟ فقال : إدخال السرور على المؤمن . وقال : أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً . وألطفهم بأهله .

وكانت رحمته صلوات الله وسلامه عليه عامة . شاملة : حتى لقد تناولت الحيوان الأعجم لقد قال - يبحث على الشفقة بالحيوان - : «بيهـا رجل يمشي فاشتد عليه العطش . فنزل بئراً فشرب منها . ثم خرج منها . فإذا هو بكلب يلهث الثرى (ياكل الثرى من شدة العطش) فقال : لقد بلغ بهذا الكلب مثل الذي بلغ بي . فلأ خفه . ثم أمسكه بفيه . ثم رق : فسوق الكلب . فشكر الله له فغفر له قالوا

يا رسول الله : وإن لنا في البهائم أجراً ؟ قال : (نعم) لكم في كل ذات كبد رطبة
أجر .

وقال ﷺ : «دخلت النار امرأة في هرة حبسها ، فلا هي أطعمتها وسقتها .
ولما هي تركتها تأكل من خشاش الأرض »
لقد كان ﷺ رحمة وكان رحمة للعالمين .

الكتابُ الثالث

السنة الشريفة ومكانها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين

يقول الله تعالى : (من يطع الرسول فقد أطاع الله) ^(١)
ويقول سبحانه : (وما آتاكم الرسول فخذلوه . وما نهاكم
عنه فانهوا) ^(٢)

ويقول : (فلا ، وربك لا يؤمرون حتى يحكموك فيها شجر
بيهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم برجاً مما قضيت ، ويسلموا
تسليماً) ^(٣) .

وفى حديث صحيح يقول المقدام بن معدى كرب : «حرم
النى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ أشياء يوم خير ، منها الحمار الأهلى وغيره ، فقال
رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ : يوشك أن يقعد الرجل منكم على أريكته
يحدث بحديثى ، فيقول : بينى وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه
حللاً استحللناه ، وما وجدنا فيه حراماً حرمناه . وإن ما حرم
رسول الله كما حرم الله» .

(١) سورة النساء آية : ٨٠ .

(٢) سورة الحشر آية : ٧ .

(٣) سورة النساء آية : ٦٥ .

تَسْهِيد

يحب القراء عادة أن يعرفوا شيئاً عن ظروف تأليف الكتب التي يقرءونها . لأن ذلك يضعهم في حوصلة لهم تقدير الكتاب في صورة أعمق : حيث عرفوا الظروف والملابسات . وأن ذلك يقربهم من جو الكاتب النفسي . ويدخلهم نوعاً ما في محيطه الخاص . فتكون بينهم وبينه - على بعد - بعض أسباب الألفة . ومن أجل توضيح ذلك أكتب هذه المقدمة^(١) : إن السنة : دعوة بالحسنى إلى الرق الأخلاقى الذى تجرى وراءه الإنسانية المذهبية ، إنها دعوة إلى التاجر أن يكون صدوقاً ، فيحضر مع النبىين والصديقين والشهداء .

· وإلى العامل أن يتقن عمله ؛ لأن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتلقنه . · وإلى الصانع أن يؤدى العمل كما يحب حيث أخذ الأجر ، ومن أخذ الأجر ملخصه الله على العمل .

وهى دعوة إلى الأب باعتباره أباً ، وإلى الأم فى وضعها كأم ، وإلى الأخ فى مهمته كأخ ، وإلى غيرهم من أفراد المجتمع : أن يرعى كل منهم ما وكل إليه من أمر رعيته ؛ لأنه مسئول عن رعيته ، وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . وهي دعوة للناس إلى الأمانة ، حيث إنه لا إيمان لمن لا أمانة له .

· وإلى الصدق ، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً · وإلى الرحمة ، الرحمة العامة الشاملة ، وصلوات الله وسلامه على من قال : «إنا أنا رحمة مهدأة» .

· ومن قال : «ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء» · وخذ أى خلق كريم تمنى أن يسير عليه المجتمع - فستجد في السنة دعوة إليه بوسيلة ما

(١) كان هذا الباب رسالة مستقلة طبعت في كتب مستقلة .

وهي في هذه الدعوة تنبه دائمًا إلى دور الأمة الإسلامية في الأخلاق العالمية : إن دورها : إنما هو دور الرائدة الراعية ، وعلى الرائد دائمًا أن يكون المثل الأعلى والأسوة . الكريمة ، والقدوة الصالحة .

ولقد كان رسول الله ، ﷺ ، الصورة الحية الناطقة التي طبقت كمبادئ إنسانية ممكنة - الخلق الذي رسّمه الله وأحبّه للإنسانية جمّعاء ، والذى عبرت عنه السنة أجمل تعبير وأبلغه .

ومن أجل هذا التقدير الكبير للسنة الشريفة كان العلماء المستنيرون في كل عصر - يجاهدون من أجلها ، ومن أجل مكارم الأخلاق التي تعبر عنها ، وكان هؤلاء العلماء - علماء السنة - يعرفون بسيّاهم ؛ فقد كانوا من الزهد في حطام الدنيا بحيث لا ينزعون الناس في دنياهم :

لقد كانوا مشغولين عن جمع المال بخدمة الدين ، وكانوا مشغولين عن الجاه بغرس الخلق الصالح الكريم ، وكانوا مشغولين عن السلطان بنى بيده السلطان يؤتى به من يشاء ويترعرعه من يشاء مالك الملك ذي الجلال والإكرام .

وكانوا صادقين ، لقد كان الصدق ديدنهم وفطرتهم .

وكانوا صابرين على الحياة ، وصابرين على العمل : لقد أقاموا نهارهم وأسهروا ليلهم عملاً على مرضاعة الله ورسوله ﷺ .

والمثل الذي نحب أن نسوقه - كصورة هؤلاء القوم - هو : الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه ، إنه المحدث الذي حاول أن يكون صورة صادقة لما كان عليه الرسول ﷺ في الزاوية الأخلاقية .

وسيرة الإمام رضوان الله عليه مثل أعلى في التمسك بما يراه حقاً وفي الصبر على ما يناله في سبيل التمسك بالحق .

على أن كل من تشبع بالسنة حقاً إنما هو صورة قريبة بقدر المستطاع من الإمام أحمد .

ولقد كان الإمام البخاري وغيره من أشرفت نفوسهم حب السنة أمثلة كريمة للخلقية البارزة .

والأمثلة الكريمة للخلق الكريم هدف داعماً لسهام الخادج الأئمحة التي استواها
الشيطان في قليل أوفى كثير ، إنها النزاع الدائم بين الفضيلة وأصحابها ، وبين الممثلين
لتراثات الهوى والضلالة .

ولولا وجود هذه المثل العليا لمكارم الأخلاق في كل عصر لفقدت الإنسانية
الثقة بنفسها ، ولما اطمأن إنسان لإنسان ، ولما وثق شخص بأخر !
لقد ربّت السنة رجالاً . وخصائصها التي ربّت بها الرجال قائمة فيها : لأنها من
طبيعتها ومن ذاتها . ولقد شاهدت الإنسانية واعترفت بسمو هؤلاء الرجال ، وأولئك
ثقلتها وتقديرها :

إن الإمام أحمد بن حنبل . وإن الإمام البخاري . وإن أمير المؤمنين في
الحديث الإمام سفيان الثوري . وأمثال هؤلاء رضى الله عنهم منارات يهتدى بهم
عشاق المثل العليا الأخلاقية .

لابد إذن من العمل على نشر السنة وإذاعتها ، ومحاولة الإكثار من النفوس التي
تشعرها وتحققها وتمثلها وتحياها .
لابد من نشرها وطنية .

ولابد من نشرها إنسانية ؛ لأنها تعبّر عن أرق مستوى إنساني .
ولابد من نشرها ديناً .

ولابد من نشرها ذوقاً أدبياً

ولابد من نشرها للثروة اللغوية . . ومن أجل ذلك تكونت «دار الحديث» .
وهي دار أسست على التقوى من أول يوم .

ولقد دعا إليها السيد / حسن عباس زكي : (وزير الاقتصاد) واستجابت له
طائفة من العاملين في المجال الديني .

ولقد ظفرت الدار من أول أمرها بتشجيع ولاة الأمور : لقد ظفرت بوعد من
السيد نائب رئيس الوزراء للثقافة والإرشاد : أن يفسح لها مجالاً في «التليفزيون»
لبرنامج أسبوعي بعنوان : «من هدى الرسول عليه السلام» .

وبوعد من السيد نائب رئيس الوزراء للأوقاف - أن يساعدها المساعدة الفعالة

التي تجعل الدار في سعة من حيث طبع ماتراه صالحًا لنشر السنة ، وتدعم جوها الفكرى والروحي واللغوى :

ومامن شك في أن للسنة جوًّا فكريًّا : فالرسول ﷺ يتحدث عن إصلاح المجتمع ، وعن عوامل المدم التي تعمل على تقويضه وعن عوامل البناء التي تعمل على إقامته على قواعد سليمة ؛ ويتحدث عن النظم التي ينبغي أن تسود المجتمع الإنساني ، وعن الأوضاع التي يجب أن تستقيم .

وللسنة جو لغوى : فالرسول ﷺ قد أوى جوامع الكلم ، وكلامه ﷺ أبلغ الكلام البشري ، ونشر السنة عامل من أهم العوامل على ترقية اللغة التي يكتب بها الكتاب ، وعلى وضع الناشئين والمثقفين في وضع أدبي ممتاز من حيث اللغة ، ومن حيث الأسلوب .

وللسنة جو روحي : إنها تهذيب للنفس ، وتربيه للروح وسمو بالأخلاق إلى درجة لاتجاري ، و ﷺ على من قال :

«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» .

ورحم الله (شوق) إذ يقول :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبا
ومن أجل ذلك كله كان نشر السنة واجباً دينياً ، و عملاً اجتماعياً كريماً ،
وواجبأً وطنياً حتمياً ، وإصلاحاً أخلاقياً ساماً .

وهو على كل حال ضرورة وطنية ملحة في عصر تحاول الرذيلة فيه أن تعمم الانحلال الخلوي في كل أسرة وفي كل بيت ، وتحاول الفساد أن يأتي على مقدرات الأمة ومقوماتها : من عرض وشرف وكرامة .

ومن أجل كل هذه المعانى أيضاً تكونت «دار الحديث» .

ونعود فنقول - زيادة في الإيضاح - : إن «دار الحديث» لم تكون كدار للبحث العلمي فحسب - وما من شك في أن البحث العلمي في السنة من أهم أغراضها - وإنما تكونت من أجل :

الفن في السنة : أى بلاغتها وجهها .

ومن أجل الأخلاق في السنة

ومن أجل التشريع وبيان التشريع .

وتكونت حبًّا في صاحب السنة صلوات الله وسلامه عليه الذي رسم بسلوكه
وبقوله أسمى ما يمكن أن تصل الإنسانية إليه في مختلف عصورها .
لقد أحب الله للإنسانية مثلاً أخلاقياً كريماً رسمه سبحانه في القرآن الكريم قوله .
فكان الرسول ﷺ الصورة التطبيقية الكاملة للرسم الإلهي ، وكان بذلك الإنسان
الكامل .

لقد كان المثل الأعلى في الرحمة ، والمثل الأعلى في الكفاح والمثل الأعلى في
الصبر ، والمثل الأعلى المحايد المتفائل ، والمثل الأعلى في الصدق ، في الإخلاص ،
في الوفاء ، في البر ، في الكرم .

ولقد وصفه الله سبحانه وتعالى بقوله :

(وإنك لعلى خلق عظيم) القلم / ٤ .

ولاريب في أن الأمة الإسلامية حينما تقتدي بالرسول ، ﷺ ، إنما تقتدي
بأعظم البشر رحولة وإنسانية .

وتقىدى بمن أحب الله سبحانه وأن تقتدى به : (لقد كان لكم في رسول الله
أسوة حسنة ، من كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيراً) الأحزاب / ٢١ .
وإن العمل على نشر السنة إنما هو توجيه للاقتداء بالرسول ﷺ .

الفصل الأول

(وما أرسلناك إلّا كافية للناس بشيراً ونذيراً)

«سورة سباء من آية ٢٨»

خاتم الأنبياء :

يقول الله تعالى لرسوله الكريم ، ﷺ :

(وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً) سباً / ٢٨

وما كانت هذه الرسالة العامة لأحد من الرسل من قبله : فوسى عليه السلام : أرسل لبني إسرائيل خاصة . لقد اقتصرت دعوته على بني إسرائيل لدرجة أنه حينما ذهب هو وهارون عليهما السلام إلى فرعون قال له :

(إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل) طه / ٤٧

فوسى ذهب إلى فرعون ليرسل معه بني إسرائيل . ولم يكافح سيدنا موسى الشعوب ؛ أو الأمم في سبيل دعوته .

وعيسى عليه السلام إنما أرسل إلى .. «خراف بني إسرائيل الضالة» . على حد تعبيرهم القديم ولم يحاول سيدنا عيسى أن يبشر بدعوته خارج فلسطين ، ولم يحاول أن ي jihad من أجلها .

أما رسول الله ، ﷺ فإنه أرسل إلى الناس جمِيعاً : إنه أرسل إلى الناس جمِيعاً من حيث المكان ، وأرسل إليهم جمِيعاً من حيث الزمان فهو الرسول الدائم زماناً ومكاناً . «قل يأيها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً»
وقد تكفل الله تعالى بحفظ الكتاب الذي أنزله على رسوله ﷺ ضماناً لهذا العموم في الزمان وفي المكان وتحقيقاً له . (إنا نحن نزلنا الذكر وإنما له لحافظون)
الحجر / ٩ .

ومن أجل هذا الوعد بحفظ الوحي كاملاً غير منقوص صحيحًا غير مزيف - كانت الحكمة الإلهية في أن الإنسانية لا تحتاج إلى رسول بعد الرسول ، ولا إلى نبى بعد النبي ، إنه صلوات الله وسلامه عليه خاتم الرسل ، وخاتم الأنبياء . ولقد امترج رسول الله ﷺ برسالته الخالدة ، فكان هو هي شرحاً وتفصيلاً . وكانت هي هو بياناً لمعدنه وجواهره ، وخلافة له ، ونيابة عنه .

تقول السيدة عائشة رضى الله عنها : « لقد كان خلقه القرآن ». وهذه الكلمة من السيدة عائشة رضوان الله عليها تحتاج إلى تحديد وبيان : ذلك أن القرآن يحدد الخلق الكريم في حده الأدنى ، ثم لا يقتصر على ذلك ، وإنما يرسم القمم من مكارم الأخلاق ، ويوجه إلى السفاسف منها ، ويقود إلى المشرف العلية من درجات المقربين .

فهل تريده السيدة عائشة رضوان الله عليها حينما تصفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن خلقه القرآن – هل تريده الخلق الكريم في حده الأدنى أو تريده في حده الأوسط أو تريده في حده الأسمى ؟

إن القرآن يحدد الدرجة التي وصل إليها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : من الخلق القرآني : فيقول ، سبحانه لرسوله ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (وإنك لعلى خلق عظيم) القلم / ٤ . هذه الآية القرآنية الكريمة تحدد درجة الأخلاق القرآنية التي وصل إليها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنها ذروتها وستامها .

أول المسلمين :

ولقد قال صلوات الله وسلامه عليه :
 « إنما بعثت لأتم مكارم الأخلاق »
 إنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث ليتمم المكارم الأخلاقية ليتممها بذاته : بسلوكيه ولитетممتها بقوله برسالته .

إنه لم يبعث لينشر الأخلاق الكريمة فحسب ، وإنما بعث ليتمم مكارمها . ومكارم الأخلاق : لم تكن – قبل الرسول صلوات الله وسلامه عليه – قد تمت : إن أول المسلمين لم يكن قد وجد بعد ، وكانت بذلك مكارم الأخلاق ناقصة ، كان ينقصها أكمل صفة لمكارم الأخلاق ، وهي إسلام الوجه لله إسلاماً تاماً . إن الكائنات لم تكن قد وصلت – لا في نبي مرسل ، ولا في ملك مقرب – إلى الذروة من إسلام الوجه لله .

والذروة من إسلامنا الوجه لله ، أو أول المسلمين – والتعبيران سواء – إنما هي الذروة من مكارم الأخلاق .

إنه الكائن الرباني ، إنه أول المسلمين ، أو لهم بإطلاق ، أو لهم بالنسبة للملائكة ، وأولهم بالنسبة لبني آدم ، أو لهم قد يأبى إلى الأبد .. إن أول المسلمين لم يكن قد وجد بعد .

وكانت الإنسانية بذلك ناقصة ، وكانت الكائنات كلها بذلك ناقصة .
كان الكون مادة ومعنى ، كان ينقصه أن تتعطر أرضه بأذكى الأجساد ، وأن يتغطى جوهه بأذكى الأرواح ، وكان لا بد من وجود كائن بهذه المثابة يكمل الله به الدين ، ويتم به النعمة ، ويرضى رسالته ديناً عاماً خالداً للإنسانية جموعه : هو إسلامه الوجه لله

وينزل القرآن محدداً إسلام الوجه لله وسائل ، ومحدداً إسلام الوجه لله غaiات
محدداً إسلام الوجه لله طرقاً وأساليب ، ومحدداً له بواعث وأهدافاً ومن هنا كان من
يتبغى غير الإسلام ديناً لا يقبل منه . يقول الله تعالى : (وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ إِسْلَامَ دِينِنَا فَلَنْ يَقْبُلْ مِنْهُ) ^(١) وكيف يقبل منه ما ينافي إسلام الوجه لله ؟

إن إسلام الوجه لله هو الذروة من مكارم الأخلاق ، وهو جوهر التدين ، إنه
الدين القيم ، إنه الدين الخالد ، والنص الوحيد ، النص الإلهي الفريد في العالم كله
الذى يبين كيفية إسلام الوجه لله – إنما هو القرآن . وإذا وصل الإنسان إلى إسلام
الوجه لله كان بذلك في ذروة الإنسانية ، وفي الذورة من مكارم الأخلاق .
ويتفاوت الناس في إسلام وجههم لله ، ولا بد من أن يكون أحدهم أول
المسلمين ، فكان رسول الله ، ﷺ أو لهم بإطلاق مطلق .

(فَلَمَنْ صَلَّتِ وَنَسَكَتِ ، وَمَحَيَّا وَمَمَّا ، لَهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، لَا شَرِيكَ لَهُ ،
وَبِذَلِكَ أَمْرَتُ وَأَنَا أَوْلُ الْمُسْلِمِينَ) ^(٢) .

ولم يصف القرآن بأول المسلمين شخصاً آخر غير الرسول ﷺ .
ومكارم الأخلاق لا يجدها – من حيث التبشير بها – مكان ، ولا يجدها زمان ،

^(١) سورة آل عمران آية : ٨٥ .

^(٢) سورة الأنعام آيتا : ١٦٢ - ١٦٣ .

بل لا يحدها عالم من عوالم الله في الأرض أو السماء ، ومن أجل ذلك كانت رسالته ، صلوات الله عليه وسلم رحمة للعالمين .
بقوله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) . الأنبياء / ١٠٧

من مكانة الرسول ﷺ عند ربه :
رسول الله ، ﷺ - لأنّه يمثل الأخلاق القرآنية في ذروتها وسماها - جعل الله سبحانه وتعالى له مكانة خاصة بين المسلمين : فهو صلوات الله وسلمه عليه - لأنّه تمثل القرآن وحقّه ، وأصبح قرآنًا - أصبح بذلك يمثل الحق بقوله ، ويتمثل الحق بعمله ، فلا ينطق عن الهوى ، ولا يعمل بالهوى .

يقول الله تبارك وتعالى له معبراً عن هذه الحقيقة أروع تعبير : (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطَ اللَّهِ) الشورى / ٥٢ - ٥٣ .
ويقول الله تعالى لرسوله ، ﷺ : (قُلْ إِنِّي هُدَافٌ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، دِينًا قِيمًا) الأنعام / ١٦ .

بل إن طريق الدعوة نفسه كان صلوات الله وسلمه عليه يسير فيه معصوماً ، وكل من يسير في الدعوة على نسقه إنما يسير معصوماً بعصمة الرسول ، ﷺ التي منحها الله تعالى إياه : (قُلْ : هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوكُمْ إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي) يوسف / ١٠٨ .

ودعوته إذن وطريق دعوته : يسير فيها على هدى ، وعلى نور من ربه ، ولذلك فإن : (مَنْ يَطِعُ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) النساء / ٨٠

ويعمم الله سبحانه الحكم عموماً ، ويطلقه إطلاقاً ، فيقول سبحانه :
(وَمَا أَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) ، الحشر / ٧ .
ويقول تعالى : (وَإِنْ تَطِعُوهُ تَهْتَدُوا) النور / ٥٤

. واتباع الرسول ﷺ علامة على محبة الله تعالى لمن يتبعه وسبب في حبه تعالى له :

(قل : إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله . . .)^(١)
 إن حب العبد لله لا يفيد مالم يتخذ العبد الوسيلة الناجعة لذلك ، وهذه الوسيلة
 هي : اتباع رسول الله ﷺ .

ولقد قال الله سبحانه وتعالى في حديث قدسي ، رواه الإمام البخاري : «من عادى لي ولِيًّا فقد آذنته بالحرب . وما يزال عبد يقترب إلى التوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سأله أعطيته ولئن استعاذه لأعدهنه» .
 وهذه التوافل التي ذكرت في الحديث الشريف ، والتي إذا أكثر الإنسان منها بعد أداء الفرائض أحبه الله - إنما هي سلوك رسول الله ﷺ ، إنها طريق رسمه صلوات الله عليه وسلم بقوله وبعمله ، إنها سنته صلوات الله عليه وسلم على التي سنتها ؛ لينال الإنسان بها محبة الله سبحانه .

من مكانة رسول الله ﷺ عند ربه أيضاً :
 وأحب الله سبحانه رسوله ﷺ ، وكان هذا الرسول بعبيديته لله سبحانه حبيب الله ، وبلغ الرسول صلوات الله عليه وسلم بعبيديته التامة درجة أول المسلمين ؛ كما سبق أن ذكرنا .

ولما كان أول المسلمين ، وكان حبيب الله ونبيه ورسوله - مizer الله ، سبحانه وتعالى على بقية البشر بكونه خيرهم ، وهذا التمييز لا يخرجه صلوات الله عليه وسلم عن البشرية : فهو بشر وهو خير البشر . ومنتهى القول فيه أنه بشر - وأنه خير خلق الله كلهم ، ولأنه خير البشر يقول الله تعالى مخاطباً المؤمنين .

(لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً) النور / ٦٣ .

إن الإنسان الذي خصه الله بالوحى ، واجتباه لرسالته ، واصطفاه ليكون - باسمه ، سبحانه - بشيراً ونذيراً - إن هذا الإنسان الذي فضل الله على العالمين يجب أن نعرف له مكاناته وننزله في الشرف الذي أنزله الله فيه . إن هذا السراج المنير . إن

هذا الرءوف الرحيم - ينبغي ألا يدعى كما يدعى زيد وعمرو : « يعني لاتنادوه باسمه : فتقولوا . يا محمد ، ولا بكتنيه فتقولوا : يا أبا القاسم . بل نادوه وخطابوه بالتعظيم ؛ والتكرير والتوقير بأن تقولوا : يا رسول الله ، يانى الله ، يا إمام المرسلين ، يا رسول رب العالمين ، ياخا تم النبيين ، وغير ذلك ..

وастفید من هذه الآية - كما يقول الشيخ الصاوي في حاشيته على تفسير الجلالين - أنه لا يجوز نداء النبي بغير ما يفيد التعظيم ، لا في حياته ، ولا بعد وفاته ، ففي هذا يعلم أن من استخف ببناته عليه الله فهو كافر ملعون في الدنيا والآخرة أهـ .
ويقول الله سبحانه في أول سورة الحجرات :

(يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) أى لا تقدموا بأمر من الأمور قولًا كان أو فعلًا إلا إذا أذن الله ورسوله : وكل أمر قولًا كان أو فعلًا أتاهم الإنسان بدون إذن الله ورسوله فإنه لا يقع على السنن المستقيم .
يقول الصحاح عن ذلك : هو عام في القتال وشرائع الدين : أى لا يقطعوا أمراً دون الله ورسوله .

(واتقوا الله إن الله سميع عليم) الحجرات / ١ .

(يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم البعض) الحجرات / ٢ .

واحدروا إن فعلتم ذلك : (أن تجبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) الحجرات / ٢ .

(إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتفوي ، لهم مغفرة وأجر عظيم) الحجرات / ٣ .

أما هؤلاء الذين أساءوا الأدب دون أن يقصدوا فأخذوا ينادونك من وراء الحجرات مناداة الأعراب الأجلاف فإن عقوبهم - في الأغلب الأعم - ناقصة : (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم ، والله غفور رحيم) الحجرات / ٤ - ٥ !

على أن مجرد الرغبة في الحديث إلى رسول الله عليه الله يحتاج تنفيذها إلى تقديم صدقة ، يقول الله تعالى في سورة المجادلة :

(يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواتكم صدقةً ، ذلك خير لكم وأطهر ، فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم) الجادلة / ١٢ .
وتدل الآية الكريمة على أن ترك تقديم الصدقة إثم ؛ لأن من لم يجد الصدقة فإن موقف الله سبحانه منه - لعدم قدرته - المغفرة والرحمة ، ولا تكون المغفرة والرحمة إلا على إثم أثاء الإنسان .

وعدم توفر الاستطاعة سبب في مغفرة الله سبحانه :

(أشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواتكم صدقات) الجادلة / ١٣ .
وإذا حملتم خوف الفقر على ألا تفعلوا ، وإذا قادكم الضعف الإنساني إلى ألا تنفذوا ذلك ، ثم ندمتم واستغفرتم - فتداركوه حتى يتوب الله عليكم ، وأثبتوا حسن نيتكم ، وصفاء سريرتكم ، بأن تقيموا الصلاة على الوجه الأكمل ، وتؤتوا الزكاة طيبة بها نفوسكم ، وتطيعوا الله ورسوله في الصغير والكبير ، ومامن ريب في أن الله سبحانه خبير بكل ماتعملون .

يقول تعالى : (أشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواتكم صدقات ، فإذا لم تفعلوا .
وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأطاعوا الله ورسوله ، والله خبير بما تعملون) ^(١)

وبعد : فيقول رسول الله ، ﷺ : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » .

ويقول الله تعالى :

(يأيها النبى إنما أرسلناك شاهداً وبشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً) ^(٢) .

هذا جانب من مكانة الرسول ﷺ التي أحبها الله له ، والتي نبه عليها سبحانه في كتابه العزيز .

طاعة رسول الله من طاعة الله :

وجانب آخر أحبه الله تعالى لرسوله نريد أن نبينه : وهو أن الله سبحانه وتعالى قد

(٢) الأحزاب الآيات : ٤٥ - ٤٧ .

(١) سورة الجادلة آية : ١٣ .

فرض طاعة رسوله ﷺ مقرونة بطاعته ، بل لقد ذكرها الله سبحانه وتعالى وحدها باعتبارها فرضاً .

ويقول الله تعالى : (وما كان المؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً) ^(١) .

ويقول الله تعالى : (يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحببكم) ^(٢) .

ويقول سبحانه : (قل أطِيعُوا الله وأطِيعُوا الرسول ، إِن تَوْلُوا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْكَافِرِينَ) ^(٣)

وفي هذه الآية الكريمة إشارة إلى أن الإعراض عن طاعة الله أو عن طاعة الرسول كفر . ومامن شك في أنه كفر : ذلك أن الإيمان من أركانه : الإيمان برسول الله ﷺ ، وبأن كل ما أتى به صدق ، فالتوبيخ عنه استخفافاً أو جنحوداً وإنكاراً ، أو عناداً وماراة - ذلك كله كفر يخرج به المعرض عن دائرة الإسلام .

يقول الله تعالى في طاعة الرسول صلوات الله وسلامه عليه حينما يفرد بال الحديث :

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يَحْكُمُوكُمْ فِيهَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لَا يَمْدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرْجاً مَا قَضَيْتُ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيْمًا) ^(٤) .

ويقول تعالى : (فَلَيَحْذِرُ الَّذِينَ يَخْالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصَبِّهِمْ فَتْنَةً ، أَوْ يُصَبِّهِمْ عَذَابَ الْآيَمِ) ^(٥) .

ويجعل سبحانه وتعالى ، طاعة الرسول ﷺ طاعته فيقول سبحانه :

(مَنْ يَطِعُ الرَّسُولَ فَقَدْ أطَاعَ اللَّهَ) ^(٦) ويجعل بيته صلوات الله وسلامه عليه بيعة الله ، فيقول سبحانه :

(٤) سورة النساء آية : ٦٥.

(١) سورة الأحزاب آية : ٣٦.

(٥) سورة التور آية : ٦٣.

(٢) سورة الأنفال آية : ٢٤.

(٦) سورة النساء آية : ٨٠.

(٣) سورة آل عمران آية : ٣٢.

(إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يَبَايِعُونَ اللَّهَ ، يَدَ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَنَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكِثُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا) ^(١) .
وطاعة رسول الله ﷺ إنما هي فيها افترضه الله سبحانه أو سنه ، وفيما افترضه رسوله صلوات الله عليه وسلمه أو سنه .

وقد تابع الرسول ﷺ القرآن الكريم في بيانه لمزلة السنة ووجوب اتباعه ﷺ
فيها سنه ، فلقد حث رسول الله ﷺ على تبليغ السنة ونشرها ، فقال فيها رواه أبو داود والترمذى عن زيد بن ثابت : «نضر الله وجه امرئ سمع مقالتى ، فحفظها ووعاها ، فأدأها كما سمعها ؛ فرب مبلغ أوعى من سامع» .
وروى في معناه من طريق آخر : «رحم الله امرأ سمع مقالتى فأدأها كما سمعها ؛ فرب مبلغ أوعى من سامع» .

وكان رسول الله ﷺ يأمر الصحابة أن يبلغ الشاهد منهم الغائب فيقول فيها رواه أبو بكر : «ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب» .
ولقد روى الحكم والبيهقي أن رسول الله ﷺ قال : «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنتى» .

ويقول رسول الله ، ﷺ ، في خطبة الوداع : «إن الشيطان قد يشأن أن يعبد بأرضكم ، ولكن رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم فاحذروا ، إني تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لن تضلوا أبداً : كتاب الله وسنتى» .
ويبين رسول الله ، ﷺ ، فيما رواه البخاري عن أبي هريرة أن المسلمين سيدخلون الجنة إلا من لا يرغب منهم في ذلك :
يقول ﷺ : «كل أمتي يدخل الجنة إلا من أبي» قالوا : يارسول الله ومن يأبى ؟ قال : «من أطاعنى دخل الجنة ، ومن عصانى فقد أبى» .

مكانة السنة من القرآن :

وستة رسول الله ، ﷺ ، لها مكانتها بالنسبة إلى القرآن ولها مكانتها بالنسبة إلى التشريع .

إنها المصدر الثاني - بعد القرآن - للإسلام ، إنها المصدر الثاني للإسلام باعتباره عقيدة ، والمصدر الثاني للإسلام باعتباره تشريعاً ، والمصدر الثاني للإسلام باعتباره أخلاقاً ،

أما منزلتها بالنسبة إلى القرآن فإنها على حسب ما يقول الإمام الشافعى : « وسنن رسول الله ﷺ مع كتاب الله وجهان : أحدهما : نص كتاب ، فاتبعه رسول الله كما أنزل الله .

والآخر : جملة بين رسول الله فيها عن الله معنى ما أراده بالجملة ، وأوضح كيف فرضها عاماً ، أو خاصاً ، وكيف أراد أن يأتي به العباد . وكلاهما اتبع فيه كتاب الله .

وفي كلمة أخرى يبين الإمام الشافعى الوجهين فيقول : « أحدهما ما أنزل الله فيه نص كتاب ، وبين رسول الله مثل مانص الكتاب . والآخر : مما أنزل الله فيه جملة كتاب ، وبين رسول الله معنى ما أراد » وهذا الوجهان لم يختلف فيما أحدهما أحد من الفقهاء ولا من المحدثين ، يقول الإمام الشافعى : « وهذا الوجهان اللذان لم يختلف فيما » .

والوجه الأول بين بنفسه :

إنه من الواضح أن رسول الله ﷺ كان يبين القرآن عقيدة ، وشريعة وأخلاقاً على وجوه شتى ، وعلى أنحاء مختلفة ، وعلى أساليب تختلف في الإيجاز والإسهاب . بحسب حالة المخاطب ، يقول الله تعالى :

(وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نزل إليهم) التحل / ٤٤ .

رسول ﷺ كان يبين للناس مانزل إليهم بسلوكه ويقوله ، وباقراراته ، يقول :

صلوات الله عليه وسلامه : « ما تركت شيئاً مما أمركم الله به إلا وقد أمرتكم به ، ولا تركت شيئاً مما نهاكم الله عنه إلا وقد نهيتكم عنه ». ولكن بيان رسول الله ، ﷺ كان يشتمل أيضاً على بيان ما أجمل في كتاب الله ، وهذا الوجه كثير في السنة .

يقول الإمام الشافعى ، رضى الله عنه : قال تبارك وتعالى :
 (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) النساء / ١٠٣ .
 وقال : (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) البقرة / ٤٣ .
 وقال : (وأنمو الحج ، وال عمرة لله) البقرة / ١٩٦ .

ثم بين على لسان رسوله عدد ماقرر من الصلوات ، ومواعيدها ، وسنها ، وعدد ركعاتها ، والزكاة ومواعيدها ، وكيف عمل الحج والعمرة ، وحيث يزول هذا ويثبت ، وتحتختلف سنته وتفق ، وهذا أشباه كثيرة في القرآن والسنة » اهـ . وقد كان رسول الله ، ﷺ بين كيفية الصلاة بقوله وعمله ، كان بين أوقاتها ، وأركانها ، وعدد ركعاتها ، وافتتاحها ، وترتيب حركتها بعد الافتتاح . ويقول ﷺ : « صلوا كما رأيتموني أصلى » .

وبين رسول الله ، ﷺ مناسك الحج : أركانه ، وواجباته ، وستنه ، ويقول « خذوا عنى مناسككم » .

وفرض الله ، سبحانه وتعالى الزكاة ، ولم يبين مقاديرها ، ولم يذكر بالتفصيل الزروع والثمار والأموال التي تجب فيها الزكاة ، فيبين رسول ﷺ ذلك كله وطبقه . ولقد بينت السنة أن القاتل لا يرث ، وأن الوصية لا تكون في أكثر من الثالث ، وأن الدين يقدم على الوصية ، هذا وكثير غيره مما بيته السنة .

عن عمران بن حصين رضى الله عنه : أنه قال لرجل يريده أن يقتصر على القرآن دون السنة : إنك امرؤ أحمق ! أتجد في كتاب الله الظهر أربعاً لا يجهر فيها بالقراءة ، ثم عدد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا ثم قال : أتجد ذلك في كتاب الله مفسراً ؟ إن كتاب الله أبهم هذا ، قال والسنة تفسر ذلك . ولقد قيل لمطرف بن عبد الله بن الشخير : لاتحدثونا إلا بالقرآن .

فقال : والله مانبغى بالقرآن بدلًا ، ولكن نريد من هو أعلم منا بالقرآن . ويقول الإمام الشافعى رضى الله عنه : « ومن قبل عن رسول الله فعن الله قبل ؛ لما افترض الله من طاعته ». .

مكانة السنة من التشريع :

ورسول الله ، ﷺ ، يشرع – عن الله تعالى – فيما لانص فيه من كتاب الله : روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذى وغيرهم : أن رسول الله ﷺ بعث معاذ بن جبل رضى الله عنه إلى اليمن فقال له : « كيف تقضى إذا عرض لك قضاء؟ ». .

قال : أقضى بكتاب الله .

قال : « فإن يكن في كتاب الله؟ »

قال : فيسنة رسول الله .

قال : فإن لم يكن في سنة رسول الله؟

قال : أجهد رأي ولا آلو .

فضرب رسول الله ﷺ على صدره وقال : « الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ﷺ لما يرضى رسول الله ». .

وسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه في رسالته في القضاء إلى أبي موسى الأشعري رضى الله عنه التي بدأها بقوله : « سلام عليك ، أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ». .

يقول سيدنا عمر في هذه الرسالة : « الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ». .

يجعل سيدنا عمر السنة مصدراً من مصادر التشريع .

ولقد سئل سيدنا أبو بكر رضى الله عنه عن ميراث الجدة فقال : « مالك في كتاب الله من شئ ولكن اسأل الناس » ، فسألهم فقام المغيرة بن شعبة ، ومحمد بن مسلمة ، فشهادا : أن النبي ﷺ أعطياها السادس .

ولم يكن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعلم سنة الاستئذان حتى أخبره بها أبو موسى رضي الله عنه^(١).

ولم يكن يعلم أن المرأة ترث من دية زوجها حتى كتب إليه الصحاحي بن سفيان أمير رسول الله ، عليهما السلام ، على بعض البوادي يخبره أن رسول الله عليهما السلام : «ورث امرأة أشيم الضبابي من دية زوجها».

ولم يكن يعلم حكم المحسوس في الجزية حتى أخبره عبد الرحمن بن عوف : أن رسول الله عليهما السلام قال : «سنوا بهم سنة أهل الكتاب».

ولما قدم «سرغ» وبلغه أن الطاعون بالشام واستشار المهاجرين الأولين الذين معه ، ثم الأنصار ، ثم مسلمة الفتح ، فشار كل عليه بما رأى ولم يخبره أحد بسنة حتى قدم عبد الرحمن بن عوف ، فأخبره بسنة رسول الله عليهما السلام في الطاعون ، وأنه قال : «إذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخربوا فراراً منه ، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه».

وهذا عثمان رضي الله عنه لم يكن عنده علم بأن المتوف عنها زوجها تعتد في بيت زوجها حتى حدته الفريعة بنت مالك أخت أبي سعيد الخدري بقضيتها لما توفي زوجها وأن النبي عليهما السلام قال لها :

«امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله» فأخذ به عثمان .

ولقد روى الحاكم مايلي :

«حرم رسول الله عليهما السلام أشياء يوم خير منها الحمار الأهل وغیره». فقال رسول الله عليهما السلام : «يوشك أن يقعد الرجل منكم على أريكته ، فيحدث بمحديّي فيقول : بيني وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه وما وجدنا فيه حراماً حرمناه . وإن ماحرم رسول الله عليهما السلام كما حرم الله».

ويقول رسول الله عليهما السلام فيما رواه أبو داود عن عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه : «لا ألفين أحدكم متكتأ على أريكته يأتيه الأمر من أمرى ، مما أمرت به ، أو نهيت عنه فيقول : لا أدرى ، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه».

(١) فبين له الاستئذان ثلاثة ، فإذا لم يؤذن له انصرف :

روى أبو داود والترمذى وابن ماجه عن المقدام بن معد يكرب قال : قال رسول الله ﷺ : «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ، ألا وإن ماحرم رسول الله ﷺ كما حرم الله ». .

وعن حسان بن عطية أنه قال : «كان جبريل عليه السلام ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة كما ينزل عليه القرآن ، ويعلمه إياها كما يعلمه القرآن » وعن مكحول قال : قال رسول الله ﷺ : «آتاكم الله القرآن ومن الحكمة مثلية » أخرجها أبو داود في مراسيله .

وقيل لمطرف بن عبد الله بن الشخير : لاتحدثونا إلا بالقرآن ؟ فقال : والله مانبغى بالقرآن بدلًا ، ولكن نريد من هو أعلم منا بالقرآن .

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : «لعن الله الواشمات ، والمستوشمات ، والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله » فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد ، فقالت : يا أبا عبد الرحمن بلغنى أنك لعنت كيت ، وكيت فقال ، «ومالى لا لعن من لعنه رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله » فقالت المرأة : لقد قرأت مابين لوحى المصحف فما وجدته ، فقال لئن كنت قرأته إنك وجدته . أما قرأت : (وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما منها كم عنه فانهوا) ، قالت : بلى . قال : فإنه قد نهى عنه رسول الله ﷺ .

وبعد أن يذكر الإمام الشافعى الوجوه الثلاثة :

١ - بيان السنة للكتاب على ما في الكتاب .

٢ - بيان السنة لحمل الكتاب .

٣ - مابين رسول الله فيما ليس فيه نص كتاب .

يقول : وذلك ما يريد أن ننتهي إليه ، وهو بين في وضوح من كل ما ذكرنا ، وأى هذا فقد بين الله أنه فرض فيه طاعة رسوله ، ولم يجعل لأحد من خلقه عذرًا بخلاف أمر عرفه من أمر رسول الله ، وأن قد جعل الله بالناس كلهم الحاجة إليه في

دينهم ، وأقام عليهم حجته بما دلهم عليه من سن رسول الله ، معانى ما أراد الله بفرضه في كتابه ؛ ليعلم من عرف منها ما وصفنا - أن سنته عليه السلام إذ كانت سنة مبينة عن الله معنى ما أراد من مفروضه فيما فيه كتاب يتلونه ، وفيما ليس فيه نص كتاب آخر - فهي كذلك أين كانت ، لا يختلف حكم الله ثم حكم رسوله ، بل هو لازم بكل حال .

الفصل الثّالث

تدوين السنة

بدأ رسول الله ، ﷺ في العهد المكى يبشر بالقرآن الكريم ورسالة التوحيد سراً ثم جهراً ، وكان الرسول ﷺ يلقى بالأصوات كلها على القرآن .

١ - ذلك أن القرآن كلام الله سبحانه وتعالى ، وهو بأسلوبه معجز ، وهو معناه يأخذ بالأفتدة ، وهو بعظاته يملك القلوب ، وهو بمنطقه يسيطر على العقول .

٢ - ثم إن موضوع القرآن في هذه الفترة كان موضوعاً محدداً : لقد كان جملة من القضايا يتصل بالغيب ، الغيب الإلهي ، أو - بتعبير آخر * توضح العقيدة : توحيداً ، ورسالة ، وبعثاً .

وكان أسلوب القرآن في ذلك واضحاً لا لبس فيه ، بينما بياناً سافراً .

٣ - وخشي رسول الله ﷺ . أن يضيق بعض الناس شيئاً من كلامه إلى القرآن ويخلطوه به ، وربما أسرفوا في هذه الإضافة : فلا يستبين الناس الفوائل والفرق بين الأسلوب القرآني والإلهي ، والأسلوب النبوي ، حينما يتلونها في أول العهد بالإسلام متزجين ، لا تمييز بينهما .

إن معلم الأسلوب القرآني واضحة ، وكلام الله سبحانه أيّاً كان يتميز بصفات تجعله يسمى بمعزز من غيره .

ولكن لابد من إيجاد الفرصة الكافية لترسم هذه المعلم في النفوس أي لابد من تقديم القرآن خالصاً صافياً لا يتمزج به غيره .

لابد من تقديمه كما أنزل في ثوبه الإلهي البحث حتى تصبح المعلم معلم الإعجاز المعجز بيّنة سافرة .

من أجل ذلك نهى رسول الله ، ﷺ عن كتابة حديثه صلوات الله وسلامه عليه .

٤ - على أن هذه الآيات القرآنية في العهد المكى وهى تشرح التوحيد توحيد الله في الذات ، وتوحيد الله في الصفات - إنها وهى تشرح الهيمنة الإلهية على الكون ، على العالم ، جميع العالم - ليست في حاجة إلى بيان أوضح ، أو إلى تعبير أقوى .

بل إنه لا يتأتى أن يكون هناك بيان أوضح أو تعبير أقوى .

إنها وهى تهدم الشرك ، وتدرك حصونه . – تقول مثلا :

(قل : الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى الله خير أمة يشركون ، أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ما فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها إله مع الله بل هم قوم يعدلون .

أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلاها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً إله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون . أمن يحب المضطرب إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض إله مع الله قليلاً ما تذكرون . أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته إله مع الله تعالى عما يشركون . أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض ، إله مع الله ، قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صاقين^(١) .

إنها حينما تقول ذلك لا تحتاج إلى شرح أو تفسير .

وهي حينما تتحدث عن البعث فتقول :

(ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، وأشرق الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون ، ووفيت كل نفس بما عملت وهو أعلم بما يفعلون^(٢) .

ليست بحاجة إلى شرح أو تفسير .

وهي : حينما تتحدث عن الرسول ﷺ ونزول القرآن عليه فتقول :

(نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين)

الشعراء / ١٩٣ / ١٩٥ .

ليست بحاجة إلى شرح أو تفسير .

ثم هي ، حينما تقول ترغيباً وتبشيراً :

(١) سورة العنكبوت الآيات : ٦٤ - ٥٩ .

(٢) سورة الزمر الآيات : ٦٨ - ٧٠ .

(إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكمون ، هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكمون ، لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون ، سلام قولًا من رب رحمه) ^(١).

ليست بحاجة إلى شرح أو تفسير.

وحيثما تقول موعظة وإنذاراً :

(و يوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ، حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، وقالوا جلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ، وما كنتم تسترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ، وذلكم ظنكم الذي ظنتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ، فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعبوا فما هم من المعتبرين ^(٢))

ليست بحاجة إلى شرح أو تفسير.

٥ - ثم إن الموضوعات التي تتحدث فيها هذه الآيات المكية - موضوعات غيبية ، والمواضيع الغيبية دقيقة وغاية في الدقة ، فهل إذا تحدث الرسول ﷺ في هذه الموضوعات ، ونقل عنه هؤلاء شفهياً - وهم حديث عهد بالإسلام وقريبو عهد بالجاهلية الوثنية - فهل سيحسنون التعبير عنها أو سيقولونها كما تحدث بها الرسول ﷺ في دقته الدقيقة وفهمه الواعي عن الله سبحانه وتعالى ؟

من أجل كل ذلك أمر رسول الله ﷺ ألا يكتب عنه غير القرآن .

وحكمة هذا الأمر وتعليله واضح كل الوضوح مما ذكرنا .

ولكن في فترة العهد المدني تغير الوضع :

ها هو ذا الإسلام ينتشر انتشاراً واسعاً وسريعاً ، وهذا هي ذي الأمة الإسلامية الناشئة المؤمنة القوية تبعث الأمل واسعاً في أن دين الله سيتشرّف في الآفاق ، وسيعم نوره الأقطار ، وستحطم كلمة الحق صروح الباطل ، وسيم الله نوره ولو كره المشركون ، وسيعم للأئمه برغم أنوف الكافرين .

(١) سورة يس الآيات . ٥٨ - ٢٤ .

(٢) سورة قصص الآيات : ١٩ - ٢٤ .

ومن أجل هذه الأمة بدأ الوحي ينزل إرسالاً إرسالاً بالتشريع في جميع ألوانه : تشريع دولي ، وتشريع جنائي ، وتشريع مدنى ، وتشريع للعبادة ، وتشريع للأحوال الشخصية .

لقد بدأ التشريع الالهي ينظم حياة الفرد : عباداً ومعاملة : حياته مع نفسه ، وحياته مع أمهاته ، وحياته مع الله تعالى .

لقد أخذ ينظم حياة الإنسان منذ أن يستيقظ في الصباح إلى أن ينتهي به الأمر إلى الصبح من جديد في صباح تال .

وينظم حياته من أسبوع إلى أسبوع ، ومن شهر إلى شهر ، ومن عام إلى عام .

وينظم حياته في ذاته ، وينظم حياته في أسرته ، وينظم حياته في مجتمعه .

وينظم حياة المجتمع الإسلامي كله في الكون كله .

وما كان يتأنى أن يتعرض الوحي في ذلك للتفاصيل المفصلة ، ولا للجزئيات الجزئية التي لا تحد ولا تختص ، ولكنه كان يفصل تفصيلاً يشبه أن يكون تماماً في الأمور التي تكون عادة مثار النزاع ، وخصوصاً الماليات : كالميراث ، وكتابة الدين مثلاً .

ويضع قواعد عامة شاملة تتضمن الجزئيات المتعددة في موضوعات أخرى وكان لابد من أن يستفيض الرسول ﷺ في البيان والشرح والتفسير .

وكان المسلمون قد ألفوا الجو الإسلامي . وألفوا الأسلوب القرآني . عرفوا مفهوم الشرك ومفهوم التوحيد ، وتبينت لهم الفروق الفاصلة بين العلم والجهل ، وبين الإسلام والجاهلية ، وبين توجيه الوجه للذى فطر السموات والأرض ، وتوجيهه للأصنام أو الشهوات أو الله ، ولم يكن هناك من خوف على خلط أسلوب القرآن الكريم بغيره .

وكان لابد من تدوين شروح الرسول ﷺ وتفسيراته .

لم تكن هناك ظروف توجب عدم كتابة الحديث . وكانت هناك ظروف توجب كتابته .

ومن أجل ذلك أباح الرسول ﷺ كتابته بعد أن كان قد نهى عنها .

وبدأ الصحابة رضوان الله عليهم يكتبون .

روى الإمام البخاري في كتاب العلم ، باب كتابة العلم قال : « حدثنا محمد بن سلام قال : أخبرنا وكيع عن سفيان عن مطرف ، عن الشعبي ، عن أبي جحيفة ، قال : قلت لعلى : هل عندكم كتاب ! قال : لا ، إلا كتاب الله ، أو فهم أعطيه رجل مسلم ، أو ما في هذه الصحيفة .

قلت : فما في هذه الصحيفة !

قال : العقل ، وفكاك الأسير ، ولا يقتل مسلم بكافر .

ويروى الإمام البخاري :

حدثنا أبو نعيم الفضل بن دكين ، قال حدثنا شيبان ، عن يحيى ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة :

أن خزاعة قتلوا رجلا من بنى ليث عام فتح مكة بقتيل منهم قلوه ، فأخبر بذلك النبي ﷺ فركب راحلته ، فخطب فقال :

« إن الله حبس عن مكة القتل ، أو الغيل : شك أبو عبد الله ، وسلط عليهم رسول الله ﷺ ، والمؤمنين ، ألا وإنها لم تحل لأحد قبلى ، ولم تحل لأحد بعدى ، ألا وإنها حلت لى ساعة من نهار ، ألا وإنها ساعتها هذه حرام ، لا يختلى شوكها ، ولا يعتصد شجرها ، ولا تلتقط ساقطتها إلا لمنشد ، فمن قتل فهو بخیر النظرين : إما أن يعقل ، وإما أن يقاد أهل القتيل .

فجاء رجل من أهل اليمن ، فقال : اكتب لى يا رسول الله .

فقال : اكتبوا لأبي فلان .

فقال رجل من قريش : إلا الآخر يا رسول الله ، فإنما نجعله في بيتنا وقبورنا .

فقال النبي ﷺ : إلا الآخر ، إلا الآخر .

قال ، أبو عبد الله : يقال : يقاد ، بالقاف .

فقيل : لأبي عبد الله : أى شيء كتب له ؟

قال : كتب له هذه الخطبة .

ويقول البخاري .

حدثنا علي بن عبد الله قال حدثنا سفيان قال حدثنا عمرو ، قال : أخبرني وهب بن منبه عن أخيه قال : سمعت أبي هريرة يقول : ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه مِنْ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ، فَإِنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ وَلَا يَكْتُبُ . تابعه عمر عن همام ، عن أبي هريرة ». انتهى عن البخاري . ولقد اشتهرت كتابة عبد الله بن عمرو لكل ما يصدر عن رسول الله ﷺ حتى لقد نوتش في ذلك من بعض القرشيين : يقول رضي الله عنه على حسب ما يروى في سنن الدارمي وغيره كنت أكتب كل شيء سمعته من رسول الله ، عليه السلام ، أريد حفظه ، فنهى قريش ، وقالوا : تكتب كل شيء سمعته من رسول الله ، عليه السلام ! ورسول الله عليه السلام بشر ، يتكلم في الغضب والرضا ! فأمسكت عن الكتاب ، فذكرت ذلك لرسول الله عليه السلام ، فأوْمأْتُ ياصبعه إلى فيه ، وقال : اكتب ؛ فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حق .

وروى عن أبي هريرة ؟ كما يذكر الترمذى – أن رجلاً من الأنصار كان يشهد حديث رسول الله عليه السلام ، فلا يحفظه ، فيسأل أبي هريرة ، فيحدثه ، ثم شكا قلة حفظه إلى الرسول عليه السلام ، فقال له النبي عليه السلام : استعن على حفظك بيمينك ؛ أي بالكتابة .

وروى عن رافع بن خديج ؛ كما يذكر في كتاب : « تقييد العلم » أنه قال : قلنا يا رسول الله ، إننا نسمع منك أشياء ، أفنكتها ؟ قال : « اكتبوا ولا حرج ». على أنه قد روى عن رسول الله ، عليه السلام – أنه كتب كتاب الصدقات والديات والفرائض والسنن لعمر بن حزم وغيره ؛ كما يروى ذلك صاحب – كتاب « جامع بيان العلم وفضله » .

هذا بعض ما كان من الصحابة في عهد الرسول عليه السلام ، وتكثر الروايات فيما كان من كتابة الصحابة بعد انتقاله صلوات الله وسلامه عليه إلى الرفيق الأعلى . في مسند الإمام أحمد عن أبي عثمان النهدي قال : كنا مع عتبة بن فرقان ، فكتب إليه عمر بأشياء يحدثه عن النبي عليه السلام ، فكان فيما كتب إليه :

إن رسول الله ﷺ قال : « لا يلبس الحرير في الدنيا إلا من ليس له في الآخرة منه شيء إلا هكذا ». وقال بأصبعيه السابعة والوسطى ». قال أبو عثمان : « فرأيت أنها أزرار الطيالسة حين رأينا الطيالسة » .

ولقد كان الصحابة ينقل بعضهم عن بعض : فعروة بن الزبير رضي الله عنه ينقل عن خالته السيدة عائشة رضوان الله عليها ، فتقول له : يا بني ، بلغنى أنك تكتب عن الحديث ، ثم تعود فتكتبه .

فقال لها : أسمعه منك على شيء ، ثم أعود فأسمعه على غيره .
فقالت : هل تسمع في المعنى خلافاً ؟
قال : لا .

قالت : لا بأس بذلك .

وبشير بن نهيك يكتب عن أبي هريرة ، ويحيى أبو هريرة بالرواية عنه .
يقول بشير - كما يذكر كتاب : « السنة قبل التدوين » نقلًا عن كتاب : « الحدث الفاضل » وغيره - أتيت أبا هريرة بكتابي الذي كتبته ، فقرأته عليه ،
فقلت : هذا سمعته منك ؟
قال : نعم .

وكان لابن عباس رضي الله عنه الواح يكتب فيها عن الصحابة : مثل أبي رافع
صاحب رسول الله ﷺ .

بل لقد وصل الأمر بأنس رضي الله عنه الواح يكتب فيها عن الصحابة : مثل أبي رافع ملازمة
تکاد تكون تامة طيلة عشر سنوات - أنه كان يلقي الحديث على جموع من
الطلابين ، فإذا كثروا عليه الناس ، واحتاجوا إلى صحف يكتبون فيها جاء إليهم بها من
عنه فاللقاها إليهم ، ثم قال : هذه أحاديث سمعتها وكتبتها عن رسول الله ﷺ ،
وعرضتها عليه .

وكان يقول ، رضي الله عنه لبنيه : يا بني ، قيدوا العلم بالكتاب .
وكان الصحابة يتراسلون في الأحاديث يستفسرون ويتذكرون : فعاوية بن

أبي سفيان رضي الله عنه - يكتب للمغيرة بن شعبة رضوان الله عليه عدة مرات ، يستفسر عن بعض ما يرويه المغيرة عن رسول الله ﷺ . فيجيبه المغيرة بن شعبة مرة عما كان رسول الله ﷺ مثلًا يقول في ختام كل صلاة :

« اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا راد لما قضيت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد ». ويجيبه مرة أخرى بأن رسول الله ﷺ نهى عن : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال .

ويكتب زياد بن أبي سفيان إلى السيدة عائشة رضوان الله عليها يسألها عن مسائل تتعلق بالحج ، ويدركها فتوى ابن عباس رضي الله عنه ، فتكتب له بما كان عليه يفعله في الحج .

ويصف المرحوم الأستاذ السباعي بعض الجهود التي قام بها الصحابة لجمع الحديث فيقول في نهاية حديثه عن تلك الجهود :

فلمَا كان عهد عثمان سمح للصحابة أن يتفرقوا في الأمصار ، واحتاج الناس إلى الصحابة ، وخاصة صغارهم . بعد أن أخذ الكبار يتناقصون يوماً بعد يوم ، فاجتهد صغار الصحابة بجمع الحديث من كبارهم ، فكانوا يأخذونه عنهم .

كما كان يرحل بعضهم إلى بعض من أجل طلب الحديث : فقد أخرج البخاري في الأدب المفرد ، وأحمد ، والطبراني ، والبيهقي ، واللفظ له ، عن جابر بن عبد الله قال : بلغني حديث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ عن رسول الله ﷺ لم أسمعه ، فابتعدت بعيداً فشددت عليه رحله ، ثم سرت إليه شهراً حتى قدمت الشام ، فإذا هو عبد الله بن أئس الأنصاري ، فأتيته ، فقلت له :

حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في المظالم لم أسمعه ، فخشيت أن أموت ، أو تموت قبل أن أسمعه .

فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « يخسر الناس غرلاً بهما » .

قلنا : وما لهم ؟

قال : ليس معهم شيء ، فيناديهم نداء يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب :
أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار ، وأحد من أهل الجنة عنده
مظلمة حتى أقصصها منه .

ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ، أحد من أهل النار يطلب
بظلمة حتى أقصصها منه حتى اللطمة .

قلنا : كيف ؟ وإنما نأى الله عراة غلا بها ؟

قال : بالحسنات والسيئات .

وأخرج البيهقي وابن عبد البر عن عطاء بن أبي رباح أن أبو أيوب الأنصاري
رحل إلى عتبة بن عامر يسأله عن حديث سمعه من رسول الله ﷺ لم يق أحد سمعه
منه غيره ، فلما قدم إلى منزله مسلمة بن مخلد الأنصاري - وهو أمير مصر - فخرج
إليه فعانقه ، ثم قال :

ما جاء بك يا أبو أيوب ؟

قال : حديث سمعته من رسول الله ﷺ في ستر المؤمن .

فقال : نعم ، سمعت رسول الله ، ﷺ ، يقول :

«من ستر مؤمناً في الدنيا على كربته ستره الله يوم القيمة» .

ثم انصرف أبو أيوب إلى راحلته ، فركبها راجعاً إلى المدينة ، فما أدركته جائزة
مسلمة إلا بعرش مصر » ا.هـ .

ولقد وقر في أذهان الناس بصورة راسخة أن السنة لم تدون إلا في القرن الثاني ،
ومن أجل اقتلاع هذه الفكرة الخاطئة أطلنا في نقل بعض النصوص التي ثبتت
الحقيقة ! وهي أن السنة دونت في القرن الأول في عهد الرسول ﷺ ، وفي عهد
الصحابة الأجلاء .

ومن أجل زيادة الأمر وضوحاً ، ومن أجل تأكيد الحقيقة في الأذهان : ننقل
هنا أيضاً رأى الأستاذ الجليل السيد سليمان التدويني ، كبير علماء مسلمي القارة
الهنديّة في هذا العصر ، نقله عن كتابه التفيس : «الرسالة الحمدية» وهو
محاضرات ألقاها في جامعة مدراس :

يقول :

وإني أكشف القناع لأول مرة في ناديكم هذا – بأن من زعم أن الأحاديث النبوية لم تدون إلى مائة سنة أو تسعين سنة قد أخطأ ، والتاريخ يعارضه . والسبب في هذا الخطأ ظنهم أن أول كتاب في الحديث النبوي : « كتاب الموطأ » مالك بن أنس ، وأول كتاب في السيرة كتاب المغازى لابن إسحاق ، وهذا الإمام الجليلان كانوا معاصرین ، وتوفي الأول سنة ١٧٩ هـ ، والثاني سنة ١٥١ هـ ، فاعتبروا العقود الأولى من القرن الثاني بدایة تدوین الأخبار والسير . والأمر ليس كذلك : فإن بواكيير التدوین ابتدأت قبل ذلك بكثير ، وقد كان أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز المتوفى سنة ١٠١ عالماً جليلاً ، ولـ إمارة المدينة ثم استخلف سنة ٩٩ ، وقد عهد إلى القاضي أبي بكر بن محمد بن حزم – الذي كان إماماً في الحديث والخبر – أن يبدأ في تدوين سنن النبي ﷺ وأخباره ، لأنـه خاف على العلم أن يرفع شيئاً فشيئاً .

وخف دروس العلم وعفاؤه ، وقد ذكر هذا في تعلیقات البخاري ، والموطأ مالك ، والمسند للدارمي . فقام بذلك أبو بكر بن حزم ، وكتبت الأحاديث والأخبار والسنن في القراطيس ، وأرسلت إلى دار الخلافة بدمشق ، ونسخت في الصحف والكتب ، وبعث بها إلى البلاد الإسلامية وكبريات المدن يومئذ (مختصر جامع بيان العلم للحافظ بن عبد البر ص ١٣٨ طبع بمصر) .

فأبو بكر هذا الذي علمـتـ مكانتـهـ منـ الـعـلـمـ وـالـفـضـلـ – وكان قاضياً بالمدينة المنورة – هو الذي اختاره عمر بن عبد العزيز لهذا العمل الجليل لعلمه وفضله ، ولأنـ خـالـتهـ عـمـرةـ كـانـتـ مـنـ كـبـرـياتـ تـلـمـيـذـاتـ أـمـ المؤـمـنـينـ عـائـشـةـ ، وـكانـ مـارـوـتـهـ خـالـتهـ عـمـرةـ عـنـ أـمـ المؤـمـنـينـ عـائـشـةـ مـحـفـظـاًـ عـنـدـهـ . فأـوـعـزـ إـلـيـهـ عمرـ بنـ عبدـ العـزـيزـ بـتـدوـينـ مـرـوـيـاتـ خـالـتهـ ، وـقـدـ اـخـتـصـهـ بـالـذـكـرـ فـيـ كـتـابـهـ إـلـيـهـ .

ويتابع السيد سليمان الندوی حديثه فيقول :

وأمر ﷺ فكتبت أحكام الزكاة ، وما تجب فيه ، ومقدار ذلك ، فكتبت مشرحة مفصلة في صفحتين ، وبعث بصورة ذلك إلى أمراء البلاد وولاتها ،

وبقيت محفوظة في بيت أبي بكر الصديق ، وأبي بكر بن عمرو بن حزم (الدارقطني في كتاب الزكاة ٢٠٩) وكان عند عمال الزكاة رسائل فيها أحكام الزكاة . وكان لمرويات عبد الله بن عباس كثريات عدّة .

وجاءه قوم من أهل الطائف بكراسة منه ليرووها عنه (العلل للترمذى ٦٩١) وكان سعيد بن جبير يكتب روایات عبد الله بن عباس (الدارمی ٦٩) وبقيت صحيفه عبد الله بن عمرو (الصادقة) موجودة عند حفيده عمرو بن شعيب (سن الترمذى) ، (ص ٦١ ، ١١٣) .

وكانوا يضعون عمرو بن شعيب ، لأنّه يروى من الصحيفه ، وكان ينبغي له أن يروى من حفظه .

وجمع وهب التابعى روایات حابر بن عبد الله ، وكانت عند إسماعيل بن عبد الكريم ، وضعفوه لأجل ذلك (تهذيب التهذيب لابن حجر : ٣١٦) . وروى سليمان بن سمرة بن جندب أنه كان عند أبيه صحيفه فيها أحاديث وكذلك روى ابنه حبيب بن سليمان (تهذيب التهذيب ٤ : ١٩٨) .

وجمع همام بن منبه روایات أبي هريرة وهو أكثر الصحابة رواية ، وأوعاه حفظاً لأحاديث الرسول ﷺ . فصارت تعرف صحيفته بين المحدثين بصحيفه همام ، وقد أوردها الإمام أحمد بن حنبل في الجزء الثاني من مسنده (ص ٣١٢ - ٣١٨ الطبة الأولى) .

وكذلك بشير بن نهيك : كتب مروياته عن أبي هريرة في كتاب وقرأه عليه . (كتاب العلل للترمذى ص ٦٩١ . والدارمی ص ٦٨ والسنن الكبير للبيهقي ١٠ : ٢٨٠) .

وذكر ابن حجر في كتابه فتح الباري : أنّ أبي هريرة جاء برقيل إلى بيته وأراه أوراقاً وقال : هذه روایاتي . وقال الذي روى ذلك : إنها لم تكن مكتوبة بيده : (فتح الباري ١ : ١٨٤ - ١٨٥) .

وكان أنس بن مالك - وهو معروف بكثرة الرواية - يقول لأولاده : يا بني ، اكتبوا العلم وقideoه بالكتابه (الدارمی ص ٦٨) .

وكان تلميذه «ابان» يكتب رواياته بين يديه (الدارمى ص ٦٨).
وروى عن سلمى قالت : رأيت عبد الله بن عباس يستعمل أبا رافع خادم
رسول الله عليه السلام وما كان عليه يفعل أو يقول (طبقات ابن سعد ٢ / ٢ :
١٢٣).

والواقدى وهو من متقدمى المصنفين فى السيرة النبوية يقول : رأيت عند
عبد الله بن عباس الكتاب الذى أرسله رسول الله عليه إلى المنذر بن ساوى سيد
عمان مع كتب أخرى (زاد المعاد ٢ : ٥٧).

وفي تاريخ الطبرى : أن عروة بن الزبير كتب جميع ما كان فى غزوة بدر مفصلا
إلى عبد الله الملك الخليفة الأموى (الطبرى ١٢٨٥).

ويقول سعيد بن حبیر التابعى : كنت أكتب على الأفتاب ما أسمعه في الليل من
عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس ، فإذا أصبحت كتبته واضحاً . (الدارمى
ص ٦٩).

وكان أصحاب البراء بن عازب يكتبون عنده رواياته (الدارمى ٦٩).
وكان نافع - وقد صحب ابن عمر ثلاثين سنة - يملى على الناس (الدارمى
ص ٩٦).

وعن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود أنه أخرج كتاباً وقال : وائم الله ، هذا
ما كتبته يد ابن مسعود . (جامع العلم لابن عبد البر ص ١٧).

ونتابع الحديث فى الموضوع على الرغم من أن الأمر أصبح واضحاً فنضيف إلى
ما سبق :

أن مروان قد خطب فى الناس ، فذكر مكة وحرمتها ، فقال رافع بن خديج
بصوت يسمعه الناس :

والالمدينة حرمها رسول الله ، عليه السلام ، وهو مكتوب عندنا في أديم خولا في إن
شئت أن نقرئكه فعلنا .

فتاداه مروان : أجل قد بلغنا ذلك . (مسند الإمام أحمد بن حنبل
٤ : ١٤).

وأرسل الفصحاكم بن قيس كتاباً إلى النعسان بن بشير يسأله فيه عن السورة التي
كان رسول الله عليه عليه يقرؤها في صلاة الجمعة غير سورة الجمعة .

فكتب إليه يقول : كان يقرأ (هل أتاك) ، (صحيح مسلم) .

وكتب عمر بن الخطاب إلى عتبة بن فرقد كتاباً ذكر فيه : أن رسول الله عليه عليه
نهى عن لبس الحرير (صحيح مسلم) .

« ويقول مجاهد : رأيت عند عبد الله بن عمرو كتاباً فسألته : ما هذا ؟ فقال :
هذه « الصادقة » فيها ما سمعته من رسول الله عليه عليه ، ليس في ذلك بني وبين رسول
الله عليه عليه أحد » .

وما ولـ رسول الله ، عليه عليه عمرو بن حزم البين وبعثه إليها أعطاه أحكاماً مكتوبة
في الفرائض والصدقات والديات « كنز العمال ٣ : ١٨٦ » .

وتلقى عبد الله بن حكيم كتاباً من رسول الله عليه عليه فيه أحكام الحيوانات الميتة
(المعجم الصغير للطبراني . ص ٢١٧) .

ولما أراد وائل بن حجر أن يرجع لبلاده حضرموت ناوله رسول الله عليه عليه كتاباً
فيه أحكام الصلاة والصوم والربا والخمر وغير ذلك (الطبراني ص ٢٤٢) .

ولما وجه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب السؤال إلى أصحاب رسول الله ، عليه عليه
إن كان عند أحد منهم سنة عن النبي عليه عليه في نصيب المرأة من دية زوجها - قام
ال الصحراكم بن سفيان فقال :

نعم عندنا كتاب من رسول الله عليه عليه يبين فيه ذلك (الدارقطني
٢ : ٤٨٥) ^(١) .

وقد بلغ عدد الصحابة رضي الله عنهم في آخر حياة النبي عليه عليه - عندما حج
حجـة الوداع - مائة ألف ، ومن هؤلاء عشرة آلاف صحابي مذكورة أسماؤهم
وأحوالهم في كتب التاريخ التي أفردت لتدوين أحوالهم خاصة .

وإن التاريخ لم يتم بتدوين أحوالهم ولم يحفظ لنا شئونهم إلا لأن كل واحد
منهم حفظ شيئاً من أقوال النبي عليه عليه وأفعاله وتصرفاته وهديه وسيرته .

(١) انظر « السنة قبل التدوين) والسنة ومكانتها في التشريع الإسلامية ، ورجال الفكر والدعوة .

لقد توفي رسول الله ﷺ سنة ١١ من الهجرة النبوية ، وبقي فريق من كبار الصحابة بعده إلى سنة أربعين ، وبقي بعد ذلك من الصحابة الذين كانوا أحداثاً في حياة النبي ﷺ عدد غير قليل . فلما انقض ذلك الجيل لم يبق من الصحابة أحد ، وانطفأ كل سراج أودى بنور النبوة .

وإليكم أسماء آخر من مات من الصحابة والبلاد التي ماتوا فيها ، وسنوات وفاتهم :

آخر الصحابة موتاً	المدن التي توفوا فيها	سنة الوفاة
١ - أبو أمامة	الشام	٨٦
٢ - عبد الله بن الحارث بن جزء	مصر	٨٦
٣ - عبد الله بن أبي أوفى	الكوفة	٨٧
٤ - السائب بن يزيد	المدينة	٩١
٥ - أنس بن مالك	البصرة	٩٣

وأنس بن مالك هذا الذي كان آخر من بقى من الصحابة كان الخادم لرسول الله ، ﷺ استمر في خدمته عشر سنوات متالية .

ومعظم هذه الثروة الحديثة كما يقول الأستاذ الجليل أبو الحسن الندوى - قد كتب ودون بأقلام رواة في العصر الأول ، وقد يزيد ما حفظ في الكتب والدفاتر كتابة وتحريراً في العصر النبوي وفي عصر الصحابة رضي الله عنهم على عشرة آلاف حديث : إذا جمعت صحف ومحاميع أبي هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وأنس بن مالك ، وجابر بن عبد الله ، وعلى ، وابن عباس رضي الله عنهم - فيمكن أن يقال : إن ما ثبت من الأحاديث الصلاح واحتوت عليه محاميعها ومسانيدها قد كتب ودون في عصر النبوة وفي عصر الصحابة قبل أن يدون الموطأ والصحاح بكثير .

جمعت السنة إذن – جميعها تقربياً – في عهد الرسول ﷺ وعهد الصحابة .

جمعت دون ترتيب ولا تنسيق .

جمعت متفرقة متناشرة يكتب هذا الحديث والحاديدين ، ويكتب الثاني المائة والمائتين ، ويزيد الثالث عن ذلك ، ويلى الرابع من حفظه على الآخرين ، وهكذا ، وفي ذلك لم يكن لأحد اهتمام بالتنضيد أو التنسيق .

يقول الأستاذ العالم الورع المتثبت أبو الحسن الندوى في كتابه : « رجال الفكر والدعوة » ما يلى :

وإذا جمعت هذه الصحف والجاميع ، وما احتوت عليه من الأحاديث – كونت العدد الأكبر من الأحاديث التي جمعت في الجوامع والمساند والسنن في القرن الثالث .

وهكذا يتحقق أن المجموع الأكبر من الأحاديث سبق تدوينه وتسجيجه – من غير نظام وترتيب – في عهد رسول الله ﷺ ، وفي عصر الصحابة رضي الله عنهم . ويتحدث الأستاذ أبو الحسن الندوى عن الوهم الشائع بين الناس من أن السنة لم تدون إلا في القرن الثالث ، ويعلل هذا الوهم تعليلاً منطقياً فيقول : وقد شاع في الناس – حتى المثقفين والمؤلفين – أن الحديث لم يكتب ولم يسجل إلا في القرن الثالث المجري ، وأحسنهم حالاً من يرى أنه قد كتب ودون في القرن الثاني .

وما نشأ ذلك الغلط إلا عن طريقتين :

الأولى : أن عامة المؤرخين يقتصرن على ذكر مدوني الحديث في القرن الثاني ، ولا يعنون بذكر هذه الصحف والجاميع التي كتبت في القرن الأول ؛ لأن عامتها فقدت وضاعت مع أنها اندمجت وذابت في المؤلفات المتأخرة ،

الأخري : أن المحدثين يذكرون عدد الأحاديث الضخم الهائل الذي لا يتصور أن يكون قد جاء في هذه الجاميع الصغيرة التي كتبت من القرن الأول ، مع أن عدد الأحاديث الصحاح غير المتكررة المتجردة من المتابغات والشواهد لا يزال قليلاً ، وقد نبه على ذلك العلامة مناظر أحسن الكيلاني رئيس القسم الديني سابقاً في

الجامعة العثمانية بمحضر أباد في كتابه العظيم : « تدوين الحديث » يقول رحمة الله : وقد يتعجب الإنسان من ضخامة عدد الأحاديث المروية فيقال : إن أحمد بن حنبل كان يحفظ أكثر من سبعاً وألف حديث . وكذلك يقال عن أبي زرعة .

ويروى عن الإمام البخاري أنه كان يحفظ مائة ألف من الأحاديث الضعيفة ، ومائة ألف من الأحاديث الصحيحة .

ويروى عن مسلم أنه قال : جمعت كتابي من ثلاثة ألف حديث . ولا يعرف كثير من المتعلمين – فضلاً عن العامة – أن الذي يكون هذا العدد الضخم هو كثرة المتابعات والشواهد التي عنى بها المحدثون .

ف الحديث : « إنما الأعمال بالنيات » مثلاً يروى من سبعاً وألف طرق . فلو جردنا مجاميع الحديث من هذه المتابعات والشواهد لبقي عدد قليل من الأحاديث .

فالجامع الصحيح للبخاري لا تزيد الأحاديث التي رويت بالسند الصحيح فيه على ألفين وستمائة وحدى وسبعين .

وأحاديث مسلم يبلغ عددها أربعة آلاف حديث .

وهكذا لا يبلغ عدد الأحاديث المروية في كتب الصحيح الستة ، ومسند أحمد ، وكتب أخرى – خمسين ألف حديث ، منها الصحيح ، ومنها السقيم ، ومنها المتفق عليه ومنها المتكلم فيه .

وقد صرَّحُ الحاكمُ أبو عبد الله – الذي يُعدُّ من المتساخيين المتوزعين – أنَّ الأحاديثَ التي في الدرجة الأولى لا تبلغُ عشرةَ آلافَ « توجيه النظر ص ٩٣ ». ويقول الأستاذ :

ولم يتصف القرن الثاني حتى كانت حركة الجمع والتدوين أنشط وأقوى ، وكان من سبق إليها من رجال هذا القرن :

ابن شهاب الزهرى (مات عام ١٣٤ هـ) .

وابن جريج المكي (مات عام ١٥٠ هـ) .

وابن إسحق (مات عام ١٥١ هـ).
 ومعمر اليمني (مات عام ١٥٣ هـ).
 وسعید بن أبي عروبة المدنی (مات عام ١٥٦ هـ).
 وریبع بن صبیح (مات عام ١٦٠ هـ).
 وسفیان الثوری (مات عام ١٦١ هـ).
 ومالک بن انس (مات عام ١٧٩ هـ).
 واللیث بن سعد (مات عام ١٧٥ هـ).
 وابن المبارک (مات عام ١٨١ هـ).
 ثم تتابع الناس ^(١).

ليس من همنا في هذا الفصل أن تتابع السنة في تدوينها ؛ وإنما أردنا أن نوضح توضيحاً شافياً فكرة أن السنة دونت في عهد الرسول ﷺ وعهد الصحابة رضوان الله عليهم ، وأظن أنه قد استبان الآن الأمر بما لا يحتاج إلى مزيد ، وشكراً للباحثين الأعلام المتبرسين الذين استندنا إليهم في هذا البحث .

(١) انظر كتاب . رجال الفكر والدعوة لأبي الحسن الندوی .

الفصل الثالث

المحدثون في جهادهم

وفي ضوء ما سبق قد يتساءل بعض الناس : هل معنى ذلك أنه لم تحدث محاولات للوضع ، أو حدث وضع بالفعل وتزيف واحتراز في السنة ؟ الواقع أن من يزعم أن السنة - على مجرى التاريخ - قد خلت من الوضع إنما ينكر الحقائق الثابتة :

لقد حاول الكثيرون وضع أحاديث على لسان الرسول ﷺ ، حاولوا ذلك لأسباب مختلفة منها :

١ - أن بعض الناس كذابون بطبيعتهم اتخذوا الكذب هواية ، لا يستقيم أمرهم إلا على الكذب ، فكذبوا على رسول الله ﷺ ، وإذا كان من المعروف في جميع الأديان أن بعض الناس يكذب على الله فإن من الأمور التي تحدث أن يكذب بعض الناس على رسول الله ﷺ .

٢ - وبعض الناس يسيطر عليه مذهب من المذاهب أو نزعة من التزعات ، ويتشيع بذلك حتى يملاً عليه أقطاره ، فيكذب على رسول الله ﷺ تأييداً لمذهبه ، وتأكيداً لترعته ، وإرضاء هواه .

٣ - وبعض الناس دخل في الإسلام كرهاً للإسلام : دخله ليتأمر عليه ، دخله ليكون في ظروف أكثر ملائمة للتآمر عليه ؛ فكذب على رسول الله ﷺ ؛ إفساداً للمبادئ الإسلامية الصحيحة ، وتزييفاً لها .

٤ - وبعض الناس استباح الكذب على رسول الله ﷺ في سبيل موعضة الآخرين وهدائهم ، ورأى أن غايتها التهذيبية تبيح له ركوب هذا المركب الفاسد ! هذه هي كل أو أكثر الأسباب التي دعت إلى وضع الأحاديث والكذب على رسول الله ﷺ .

ولكن ذلك لم يكن في السنة بداعاً من الأمر .

فهذه الأسباب في الجملة كانت ولا تزال الأسباب لتزيف التاريخ . إن التاريخ - منذ عرف - لم يخل من العوامل التي تحاول وضعه على غير ما كان

عليه بالفعل ، وتلوينه على الصورة التي يريد بعض الناس - لو ملوكاً أو أمراء أو زعماء على أى وضع كانوا - أن يكون عليها .

ولكن تزييفهم للتاريخ لم يمنع من ظهور الحقائق ، وكذبهم على التاريخ لم يمنع من بيان الحق ومعرفة الناس له .

ولقد وضع المؤرخون المحدثون أصولاً للنقد ، وعلامات للحوادث المزيفة وقواعد لمعرفة الحقيقة .

ولقد استعنوا في سبيل المعرفة الصحيحة باللغة ، وبالحوادث اليقينية المتواترة ، وبالشهود العدول ، وبالمقارنات :

لقد استعنوا بالنقد الداخلي والنقد الخارجي ، ووصلوا بذلك إلى الحقائق التي يطمئنون إليها برغم ما يفصل بينهم وبين مكان الأحداث من آلاف الأميال ، وبرغم ما يفصل بينهم وبين أزمنة الحوادث من عشرات القرون .

ومع كل ما حاوله المؤرخون من جهد ، ومع كل ما وضعوه من قواعد للوصول إلى اليقين فإنهم - والحق يقال - لم يصلوا في كل ذلك إلى ما وصل إليه سادتنا المحدثون رضوان الله عليهم ، وذلك للأسباب التالية :

١ - لقد بدأ تسجيل السنة في عهد الرسول ﷺ ، وتم تسجيلها - كلها تقريباً - في عهد الصحابة رضوان الله عليهم ، فكان قرب الزمن إذن من عوامل صحة السنة .

٢ - وسجل أكثرها في المكان نفسه الذي كان فيه رسول الله ﷺ ، أو في أمكنة قريبة نسبياً منه .

٣ - ولقد روی عن الرسول ﷺ أحاديث كانت تحد من الوضع في المبدأ على الأقل ، مثل حديث :

«من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» .

وهذه ملاحظات نذكرها لا لقول إنها حاسمة فيها يتعلق بأمر صحة ما روی ، ولقد قدمنا أن الوضع وجد بالفعل ، ولكننا نذكرها في مقابلة ما يحاول بعض الناس التهويل به من أمر التزييف والوضع .

أما الأمور الخامسة التي تجعلنا نثق في النتائج والثار التي وصل إليها سلفنا الصالح فيها يتعلق بأمر السنة فإن في أساسها :

١ - إيمان هؤلاء السلف بأنهم في عنيتهم بالسنة - بما صح منها ، وبما وضع فيها - إنما يجاهدون في سبيل الله .

لقد كانوا مؤمنين إيماناً عميقاً ثابتاً بأن في عنقهم وجهاً دينياً أن يخلصوا سنة رسول الله ﷺ من كل زيف ؛ وأن ينقوها من الكذورات في إخلاص مخلص ، وفي صورة من اليقين لا يفترون في الوصول إليه .

ولقد كانوا يعدون بالآلاف ، ويتأذون - كما يقول أبو الحسن الندوى - بعلو نشاطهم ، وقوة احتمالهم وصبرهم وقوة ذاكرتهم وحفظهم ، وقد تدفق سيلهم من بلاد العجم ، وقد ملكت قلوبهم وعقولهم الرغبة الشديدة في جمع الحديث ، وشغلوا به شغفاً حال بينهم وبين الشهوات ، فطاروا في الآفاق ، ونقبوا في البلاد في البحث عن الروايات المختلفة ، والأسانيد الصحيحة .

وكان لهم في ذلك هيام وغرام لم يعرفا عن أمة من الأمم في التاريخ كله ، يدل على ذلك بعض الدلالة ما يروى عن المحدثين من الجولان في البلاد ، والسفر في العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه :

فقد روى : أن البخاري صاحب الصحيح بدأ رحلته العلمية وهو لا يزال في الرابعة عشرة من سنه ، وقد زار البلدان الإسلامية ما بين بخاري ومصر وشيوخها .

وروى عن أبي حاتم الرازي م ٢٧٧ هـ قال :

« أول ما رحلت أقت سبع سنين ، ومشيت على قدمي زيادة على ألف فرسخ ، ثم تركت العدد وخرجت من البحرين إلى مصر ، ثم إلى الرملة ماشياً ، ثم إلى طرسوس وهي عشرون سنة » .

وقد سمع محدث الأندلس ابن حيون (م ٣٧٤ هـ) الحديث في الأندلس وال العراق ، والمحجاز واليمن ، وهكذا قطع قارة أفريقيا من طنجة إلى مصر ، وعبر البحر الأحمر .

ومن المحدثين من سافر في قارة أفريقيا وأسيا وأوروبا في طلب الحديث . وهكذا

انضمت رحلته العلمية ثلاثة ثلات قارات من القارات الكبرى .
وكان كثير من المحدثين يخرج من الأندلس أقصى الغرب في العالم المتقدم
المعروف يومئذ ، ويبلغ أقصاه في الشرق إلى خراسان أو بالعكس ، والمطالع في
تذكرة الحفاظ للذهبي يدهش لطموح هؤلاء الرجال واحتمالهم المشاق في طلب
العلم .

٢ - ولقد استعمل أئمنا النقد الداخلي والنقد الخارجي ، بل لقد استعملوا
ما يمكن أن نسميه المشاركة الوجданية ، أو بعبارة أدق : استرواح راحة النبوة ،
أو استلهام طابع رسول الله ﷺ في الحديث ، أو استبصار القلب ، وإلهام الروح ،
وإشراق البصيرة في المعرفة :
يقول الربيع بن خيثم :

« إن من الحديث حديثاً له صورة كضوء النهار تعرفه به وإن من الحديث حديثاً
له ظلمة كظلمة الليل تعرفه بها ^(١) ». .

وهذه الطريقة تعتبر في العصر الحاضر الأوروبي من ابتداعات القرن العشرين .
لقد استعملها أئمنا ووضعوا لها الأصول ، وبيّنوا كيفيةها ، ولم يتركوها للأهواء
والمشارب ، ومن أدق التعبيرات عنها ما يقوله ابن القيم .
سُئلت : هل يمكن معرفة الموضوع بضوابط من غير أن ينظر في سنته ؟ فهذا
سؤال عظيم القدر .

وإنما يعلم ذلك من تصلع في معرفة السنن الصحيحة ، واختلطت بدمه
ولحمه ، وصار له فيها ملكة ، وصار له اختصاص شديد بمعرفة السنن والآثار ،
ومعرفة رسول الله ﷺ وهديه فيها يأمر به وينهى عنه ، ويخبر عنه ويدعو إليه ،
ويحبه ويكرهه ، ويشرعه للأمة بحيث كأنه مخالط للرسول ﷺ كواحد من
 أصحابه . .

ومثل هذا يعرف من أحوال الرسول ﷺ وهديه وكلامه وما لا يجوز ما لا يعرفه
غيره .

(١) الحكم : في معرفة علوم الحديث . ص ٢٦

وهذا شأن كل متبع مع متبعه ؛ فلأنه ينبع به الحريص على تبع أقواله وأفعاله في العلم بها ، والتباين بين ما يصح أن ينسب إليه وما لا يصح - ما ليس له لا يكون كذلك ..

وهذا شأن المقلدين مع آئتهم : يعرفون من أقوالهم وتصوّرهم ومذاهبهم وأساليبهم ومساربهم مالا يعرفه غيرهم ، وفي هذه الطريقة أيضاً يقول ابن دقيق العيد :

«وكثيراً ما يحكمون بذلك (أى بالوضع) باعتبار يرجع إلى المروى وألفاظ الحديث ، وحاصله أنها حصلت لهم بكثره محاولة الفاظ التي عليهـ هيئة نفسانية وملكة يعرفون بها ما يجوز أن يكون من الفاظه وما لا يجوز» .

ويقول ابن الجوزي :

الحديث المنكر يقشعر له جلد الطالب للعلم ، وينفر منه قلبه في الغالب .
٣ - وإن لم يُعرف أن عناية سلفنا الصالح لم تكن موجهة إلى جمع الحديث وتدوينه فحسب ؛ وإنما تعدد ذلك - كما يقول الأستاذ الجليل أبو الحسن الندوى - إلى الوسائل التي وقعت في رواية الحديث - وهم الرواة الذين رووا هذه الأحاديث .

فعنوا بمعرفتهم ومعرفة أسمائهم وأسماء آباءهم ، وحوادث حياتهم وأخلاقهم ومكانتهم في الأمانة والصدق والحفظ .

وهكذا أصبح الذين اتصلوا بالشخصية الكريمة التي وعد الله لها بالخلود وبقاء الذكر وانتشار الاسم (ورفعنا لك ذكرك) . أصبح الذين اتصلوا بها موضوع الدارسين والباحثين ، وخرجوا من زوايا الخمول واستحقوا الحياة والاشتهر ، وأصحابهم فيض من حياة هذه الشخصية الخالدة ، فحيوا وظهروا ، واحتفظ التاريخ بأسمائهم وأحوالهم ، ورأه حقاً على نفسه . وهكذا ظهر علم أسماء الرجال في عالم الوجود ، وكان من مفاخر هذه الأمة التي لا تشاركها فيها أمّة من الأمم ، قال الدكتور «اسبرنجر» Sprenger في مقدمته الإنجليزية على كتاب الإصابة في أحوال الصحابة للحافظ بن حجر العسقلاني ما ترجمته :

«لم تعرف أمة في التاريخ ، ولا توجد الآن على ظهر الأرض وقت لاختراع فن من أسماء الرجال الذي نستطيع بفضلها أن نقف على ترجمة خمسةألف (نصف مليون) من الرجال».

ولم يعن المحدثون بتعريف رجال الحديث فحسب ، بل التزموا الصدق والصراحة في تعريفهم ، وجمعوا كل ما يتصل بأخلاقهم وعاداتهم ، وما يدل على قوتهم وضعفهم واحتياطهم وتساهلهم وتقواهم وعلمهم وذاكرتهم ؛ وجمعوا كل ما قاله معاصرتهم فيهم ، ولم يداروا ولم يجاملو في ذلك ، ولم يهابوا أحداً ، ولو كان بعضهم أميراً مهيباً أو شيخاً وقوراً .

وقد روى التاريخ في ذلك طرائف تدل على شدة هؤلاء الناقدين وعلمهم بقوله تعالى :

(كونوا قومين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ^(١)) .
وتدقيقهم .

قال أبو داود : كان أبو وكيع على بيت المال ، فكان وكيع (م ١٩٧) إذا روى عنه قوله ^{آخر} .

وقد ترك معاذ بن معاذ العنبرى (م ١٩٦) رواية المسعودى لأنه رأه يطالع الكتاب ، يعني قد تغير حفظه . وقد قدم إليه عشرة آلاف دينار ، وطلب منه أن يسكت عن فلان فلا يتكلم فيه بحرج ولا تعديل ، فأبى ورفض هذا المال العظيم ، وقال : «لا أكتم الحق» !

وهذا قليل من كثير جداً يدل على أمانة علماء الحديث والرجال ، وتدقيقهم في موضوعهم ، وتحريهم الحق والعدل في شهادتهم ، فهل في تاريخ العلم نظير لهذه الأمانة والتدقير ؟

* * *

وما من شك في أن سلفنا الصالح بدأ بالاهتمام بالإسناد :
أى بالاهتمام بهؤلاء الذين رووا الحديث واحداً عن واحد وصلوا به إلى رسول

(١) سورة النساء آية : ١٣٥ .

الله ﷺ ، أو إلى أحد الصحابة رضوان الله عليهم .
ولقد اهتموا بالإسناد إلى درجة أن جعلوه من الدين .
يقول الإمام الزهرى .
« الإسناد من الدين » .

لقد بحثوا عن هؤلاء الذين جاء حديث رسول الله ﷺ عن طريقهم :
لقد بحثوا عن ميلادهم ، وعن وفاتهم ، وعن أخلاقهم ، وعن غفلتهم
وسهوهم ، ويقطفهم وصحوهم ، وعن ذاكرتهم وضيّعهم ، لقد بحثوا عن كل ما
يتصل بهم في ألفاظهم التي ينطقون بها ، وفي سلوكهم الذي يسيرون عليه ، وفي
سمتهم من ناحية الوقار والخفة ، وفي أهوائهم ومشاربهم ، وفي نزعاتهم ، وفي ميولهم
على وجه العموم .

لقد اخترع المسلمون علم تَشْرِيعٍ كاملاً وضعوا به على مائدة المعرفة ما يقرب من
نصف مليون من البشر .

لقد اخترعوا علمًا لم يخترعه سابقوهم ؛ حتى بالنسبة لكتابهم المقدسة ، ولم يصل
إليه لاحقونهم حتى في العصر الحديث .

علمًا يقول عنه المستشرق الألماني « إسبرنجر » في تصديره لكتاب الإصابة لابن
حجر حينما كان في كلكتا ١٨٥٢ - ١٨٦٤ : الكلمة التي سبق أن ذكرناها ، والتي
تعبر عن الحقيقة الواقعية .

ولقد قيل مرة لابن المبارك : « هذه الأحاديث المصنوعة ؟ ».
فقال : « يعيش لها الجهابذة » .

هؤلاء الجهابذة قاموا بما عليهم خير قيام .

يتحدث صاحب كتاب « تقدمة المعرفة لكتاب الجرح والتعديل » عن بعض ما
قام به هؤلاء الجهابذة فيقول :

« التمييز بين الرواية » قال أبو محمد :

فلياً لم نجد سبيلاً إلى معرفة شيء من معانٍ كتاب الله ، ولا من سنن رسول الله ،
عليه السلام إلا من جهة النقل والرواية - وجب أن نميز بين عدوى الناقلة والرواية وثقاهم

وأهل الحفظ والتثبت والإتقان منهم ، وبين أهل الغفلة والتشتت وسوء الحفظ والكذب ، واحتزاع الأحاديث الكاذبة .

ولما كان الدين هو الذي جاعنا عن الله عز وجل وعن رسوله ﷺ بقل الرواية – حق علينا معرفتهم ، ووجب الفحص عن الناقلة والبحث عن أحوالهم ، وإثبات الذين عرفناهم بشرط العدالة والتثبت في الرواية ، مما يقتضيه حكم العدالة في نقل الحديث وروايته بأن يكونوا أمناء في أنفسهم ، علماء بدينهم ، أهل ورع وقوى وحفظ للحديث وإتقان به وتثبت به .

وأن يكونوا أهل تمييز وتحصيل ، لا يشوبهم كثير من الغفلات . ولا تغلب عليهم الأوهام فيها قد حفظوه ودعوه ، ولا يشبه عليهم بالأغلوطات .

وأن يعزل عنهم الذين جرحوهم أهل العدالة ، وكشفوا لنا عن عوراتهم في كذبهم ، وما كان يعتريهم من غالب الغفلة وسوء الحفظ وكثرة الغلط والسهو والاشتباه ، ليعرف به أدلة هذا الدين (وأعلامه - ١) وأمناء الله في أرضه على كتابه وسنة رسول الله ﷺ ، وهم هؤلاء أهل العدالة ، فيتمسك بالذى روى ويعتمد عليه ، ول يعرف أهل الكذب تخرصاً وأهل الكذب وهما ، وأهل الغفلة والنسيان والغلط ورداءة الحفظ ، فيكشف عن حالهم وينبئ عن الوجوه التي كان مجرى روایتهم عليها ، إن كذباً فكذب ، وإن وها فوهم ، وإن غلطاً فغلط .

«طبقات الرواية» : ثم احتاج إلى تبيين طبقاتهم ومقدار حالاتهم ، وتبين درجاتهم ؛ ليعرف من كان منهم في متزلة الانتقاد والجهابذة والتنقير والبحث عن الرجال والمعرفة بهم ، وهؤلاء هم أهل التزكية والتتعديل والمرجح .

ويعرف من كان منهم عدلاً في نفسه من أهل التثبت في الحديث والحفظ له والإتقان فيه ، فهوئلاء هم أهل العدالة .

ومنهم الصدوق في روایته ، الورع في دينه ، المثبت الذي يهم أحياناً وقد قبله الجهابذة النقاد ، وهذا يحتاج بمحبته أيضاً .

ومنهم الصدوق الورع المغفل الغالب عليه الوهم والخطا والجهل والغلط ، وهذا

يكتب من حديثه الترغيب والترهيب والزهد والأدب ، ولا يجتمع بحديثه في الحلال والحرام .

ومنهم من قد أصلق نفسه بهم ودلسها بينهم ؛ ومن قد ظهر للنقاد العلماء بالرجال منهم الكذب ، فهذا يترك حديثه وتطرح روايته ويسقط ، ولا يشتغل به اهـ .

ولقد كان هؤلاء الجهابذة في سبيل الدين يبدون آراءهم في أمس الناس بهم نصيحة للمسلمين ، وتقوى منهم : فزيد بن أبي أنيسة – كما يذكر صحيح مسلم بشرح النووي – يقول : « لا تأخذوا عن أخي ». ويسأل على بن المديني عن أبيه فيقول : « سلوا عنه غيري » .

فييعيدون السؤال من جديد ، فيطرق ، ثم يرفع رأسه ، ويقول : « هو الدين ، إنه ضعيف » .

وكان أمر وكيع بن الجراح طريفاً : فقد كان أبوه رجلاً صالحًا ، لا مأخذ عليه ، غير أنه كان على بيت المال ، ومن أجل وظيفته هذه كان ابنه – إذا روى عنه – يقرن معه آخر .

لقد كان سلفنا رضوان الله عليهم يعنون بالإسناد عنابة فائقة ؛ حتى لقد قال سفيان الثوري رضي الله عنه :

« الإسناد سلاح المؤمن ، فإذا لم يكن معه سلاح فبأى شيء يقاتل ! » (١) .
ويفسر الدكتور ناصر الدين الأسد العناية بالإسناد تفسيرًا صادقاً فيقول ص ٢٢٦ من كتابه النفيس : مصادر الشعر الجاهلي :

يبدو لنا أن مرد التزام الإسناد المتصل في رواية الحديث إلى أمرتين : أمر داخلي ، وأخر خارجي :

أما الداخلي فيبعثه من نفس الراوى ، ومصدره شعوره بالتحرّج الديني ، وذلك

(١) انظر كتاب السة قبل التدوين ص ٢٢٣ .

أنه ينقل كلاماً من كلام رسول الله ﷺ ، وهو الذي قال في حديثه المشهور : « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ». .

وفي الإسناد المتصل ما يجعل المحدث يطمئن إلى أن غيره من شيوخه وشيوخ شيوخه ، ثم التابعين والصحابة ، يشاركونه في تحمل تبعه هذا الحديث ونقله ، وأنه لا يستقل وحده بحمله هذا العبء ، وأن تبعته لا تعدو النقل الأمين لما سمعه عن شيخ ثقة ثبت . .

وأما الأمر الخارجي فرجعه إلى سامي الحديث من الحديث : وذلك أن الحديث يتضمن جزءاً كبيراً من السنة ، أو هو السنة كلها ، وهو من أجل ذلك مصدر من مصادر التشريع الإسلامي . بل إنه هو المصدر الثاني الذي يلى في القيمة كتاب الله ، فلذلك كان ما رأيت منهم من التدقيق والتحقيق ، وما يبعث الطمأنينة في نفوس السامعين ، ويوحى إليهم بالثقة في حديث المحدث – أن يصل بين عصره وعصر الرسول الكريم بسلسلة متصلة من الرواية الحديثين ، كلهم يشهد أنه سمعه من قبله حتى يصل الإسناد إلى الصحابة فالرسول .

مصادر الشعر الجاهلي ٢٥٨ : ٢٩٥ هـ .

وتدخل في هذا الباب – باب الإسناد – نقد الرواية وتصنيفهم إلى فئات يأخذون من بعضها ويتوقفون عن بعض ، ويعلنون على ملأ من الناس كذب بعض وكان لهم في هذا المجال شعور مرهف ، أو شعور مترف إذا أمكن هذا التعبير :

يقول الإمام مالك رضي الله عنه :

لا يؤخذ العلم عن أربعة :

١ - رجل معلن بالسنة ، وإن كان أروى الناس .

٢ - رجل يكذب في أحاديث الناس ، وإن كنت لا أتهمه أن يكذب على

رسول الله ﷺ .

٣ - وصاحب هو يدعو الناس إلى سواه .

٤ - وشيخ له فضل وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحدث به .

ولقد كان يحيى بن سعيد القطان رحمة الله يترك حديث الكثير من يظن بعض الناس بهم الخير ، فقيل له : « أما تخشى أن يكون هؤلاء الذين تركت حديثهم خصيماءك عند الله يوم القيمة ! .

فقال : لأن يكون هؤلاء خصمي أحب إلى من أن يكون خصمي رسول الله عليه عليه ، يقول : لم لم تذهب الكذب عن حديثي » .

لقد اتفق الحدثان على ألا يأخذوا الحديث عن :

١ - الكاذبين على رسول الله عليه ، بل لقد اختلفوا في كفر هؤلاء ، بل لقد اختلفوا في قبول الله لتوبيتهم ، ويكون أن يعرف الكذب من أحذهم مرة واحدة على رسول الله عليه ، فيسقط ذلك جميع أحاديثه .

على أن الكذب على الناس كان في ترك حديث الكذاب ، حتى لو كان يخرج من الكذب على رسول الله عليه ، كما ذكر الإمام مالك رضي الله عنه فيما سبق . ولأنّنا في تعقب الكاذبين طرائف :

يقول الأستاذ السباعي في كتابه النفيس : « السنة ومكانها في التشريع الإسلامي » :

مبينا بعض علامات الوضع في السندي ، ومنها أن يروى الراوي عن شيخ لم يثبت لقياه له ، أو ولد بعد وفاته ، أو لم يدخل المكان الذي ادعى سماعه فيه ، كما ادعى مأمون بن أحمد المروي أنه سمع من هشام بن عمار .

فأسأله الحافظ بن حبان :

متى دخلت الشام ؟

قال : سنة خمسين ومائتين .

قال بن حبان : فإن هشاماً الذي تروي عنه مات سنة خمس وأربعين ومائتين . وكما حدث عبد الله بن إسحاق الكرماني عن محمد بن أبي يعقوب ، فقيل له : مات محمد قبل أن تولد بتسعة سنين .

وكما حدث محمد بن حاتم المكي عن عبد بن حميد ، فقال الحاكم أبو عبد الله

هذا الشيخ سمع من عبد بن حميد بعد موته بثلاث عشرة سنة !
وفي مقدمة مسلم : أن المعلى بن عرفان قال :

حدثنا أبو وائل ، قال : خرج علينا ابن مسعود بصفين ، وقال أبو نعيم يعني الفضل بن دكين حاكمه عن المعلى : أتراه بعث بعد الموت ! وذلك لأن ابن مسعود توفي سنة اثنين أو ثلاثة وثلاثين ، قبل انقضاء خلافة عثمان بثلاث سنين .
ولا شك أن العمدة في مثل هذه الحالة على التاريخ ، تاريخ مواليد الرواية ، وإقامتهم ورحلاتهم ، وشيخوختهم ، ووفاتهم ، ولذلك كان علم الطبقات قائماً بذاته علماً لا يستغني عنه نقاد الحديث .

قال حفص بن غياث القاضي : إذا أتهمتم الشيخ فحاسبوه بالسنين يعني :
سنة : وسن من كتب عنه .

وقال سفيان الثوري ، لما استعمل الرواية الكذب استعملنا لهم التاريخ ١ هـ .
ومن أعجب ما روى في ذلك ، ما يرويه أبو أحمد بن عدى الحافظ عن الإمام
محمد بن إسماعيل البخاري صاحب الجامع الصحيح ، قال :

« سمعت عدة من مشايخ بغداد يقولون : إن محمد بن إسماعيل البخاري قدم بغداد ، فسمع به أصحاب الحديث ، فاجتمعوا وأرادوا امتحان حفظه . فعمدوا إلى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها ، وجعلوا متن هذا الإسناد لإسناد آخر ، وإسناد هذا المتن لمن آخر ، ودفعوها إلى عشر أنفس لكل رجل عشرة أحاديث ، وأمروهם إذا حضروا المجلس أن يلقوا ذلك على البخاري ، وأنخذوا عليه الموعد للمجلس ، فحضرها وحضر جماعة من الغرباء من أهل خراسان وغيرهم من البغداديين .

فلما اطمأن المجلس بأهله انتدب رجل من العشرة ، فسأله عن حديث من تلك الأحاديث فقال البخاري :
« لا أعرفه » .

فما زال يلقي عليه واحداً بعد واحد حتى فرغ والبخاري يقول :
« لا أعرفه » .

وكان العلماء من حضروا المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض ويقولون : «فهم الرجل» .

ومن كان لا يدرى القصة يقضى على البخارى بالعجز والتقصير وقلة الحفظ . ثم انتدب رجل من العشرة أيضاً ، فسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة .

قال : «لا أعرفه» .

فأله عن آخر فقال : «لا أعرفه» .

فما زال يلقي عليه واحداً واحداً حتى فرغ من عشرة والبخارى يقول : «لا أعرفه» .

ثم انتدب الثالث والرابع إلى تمام العشرة حتى فرغوا كلهم من إلقاء تلك الأحاديث المقلوبة ، والبخارى لا يزيدهم على أن يقول : «لا أعرفه» . فلما علم أنهم قد فرغوا التفت إلى الأول فقال : أما حديثك الأول فقلت كذا ، وصوابه كذا ، وحديثك الثاني كذا ، وصوابه ، كذا والثالث والرابع على الولاء حتى أتي على تمام العشرة ، فرد كل من إلى إسناده وكل إسناد إلى متنه ، وفعل الآخرين مثل ذلك .

فأقر الناس له بالحفظ ، وأذعنوا له الفضل» .

قال الحافظ بن حجر بعد ما حكى هذه القصة «قلت : هنا ينضم للبخارى ! فما العجب من رده الخطأ إلى الصواب ، فإنه كان حافظاً ، بل العجب من حفظه للخطأ على ترتيب ما ألقوه عليه من مرة واحدة» .

ونختم هذا الفصل بقول الأستاذ العلامة الكبير الشيخ شبل النعاني : «لما أرادت الأمم الأخرى من غير المسلمين أن تجتمع في أطوار نهضتها أقوال رجالها وروايتهם كان قد فات عليهم زمن طويل ، وانقضى بينها وبينهم عهد بعيد ، فحاولوا كتابة شئون أمة قد خلت ، ولم يميزوا بين غث ذلك الماضي وثمينه ، وصححه

وسقيمه ، بل لم يللموا أحوال رواة تلك الأخبار ولا أسماءهم ، ولا تواريخ ولادتهم .

فاكتفوا بأن اصطفوا من أخبار هؤلاء الرواة المجهولين وروايتهم ما يوافق هو لهم ، ويلائم بيئتهم ، وينطبق على مقاييسهم . ثم لم يمض غير زمن يسير حتى صارت تلك الحرفات كالحقائق التاريخية المدونة في الكتب . وعلى هذا المنهج السقيم صنفت أكثر الكتب الأدبية مما يتعلق بالأمم الـخواли وشعوبها والأقوام القديمة وأخبارها ، والأديان السالفة ومذاهبها ورجاها . أما المسلمون فقد جعلوا لرواية الأخبار والسير قواعد محبكة يرجعون إليها ، وأصولاً متقدة يتمسكون بها :

أوها وأعلاها : ألا تروى واقعة من الواقع إلا عن الذي شهدتها ، وكلما بعد العهد على هذه الواقعة وجب تسمية من نقل خبرها عن الذي شهدتها ، ثم تسمية من نقل ذلك الخبر عن الذي نقله عمن شهد ، وهكذا بالتدليل من وقت الإشهاد بالواقعة والتحدث عنها إلى زمن وقوعها ، والثبت عنأمانة هؤلاء الرواة ، وفهمهم وعدائهم وحسن تحملهم للخبر الذي يروونه . وإذا كانوا على خلاف ذلك وجب تبيئه أيضاً .

وهذه المهمة من أشق الأمور ، ومع ذلك فإن مئات من المحدثين تفرغوا لها ، ووقفوا أعمارهم على تحري ذلك واستقصائه وتدوينه ، وطافوا لأجله بالبلاد ورحلوا بين الأقطار باحثين دارسين لأحوال الرواة ، وكانوا يلقون المعاصرين لهم من الرواة لينقذوا أحواطهم .

وإذا اطمأنوا إلى سيرة فريق منهم سألوهم عما يعرفونه من أحوال الطبقة كانت قبلهم .

وقد اجتمع من هذا المجهود العلمي العظيم علم مستقل من العلوم الإسلامية أطلق عليه فيما بعد عنوان (أسماء الرجال) ، فتيسر لمن أتى بعدهم أن يقفوا على أعداد مئات الآلاف من الحفاظ والعلماء والرواة وغيرهم .

الفصل الرابع
الوضاعون في العصر الحاضر

يقول الله تعالى :

(يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) ^(١)

والفاسق هو الذي لا تتوفر فيه شروط العدالة ، ولقد وضع أئمتنا شروطاً للعدالة ذكر منها أن :

من شرط العدل أن يتوفّر فيه الصدق بمعنىه الأعم الأشمل الذي يدخل فيه عدم تزييف النص بزيادة أو نقصان ، والذى يدخل فيه أولاً وبالذات عدم الكذب في الرواية ، وعدم الكذب في الحديث العادى .

ولا نريد هنا أن نستقصى ما قيل في العدالة ، إنما نريد أن ننقل بعض نصوص لترى فيها بعد تطبيقها على بعض المؤلفين الحديثين .

إننا نتبين دقة أسلافنا الدقيقة مما قاله الشعبي وأقسم عليه ، وله مغزاه العميق في بيان مدى ما كان عليه أسلافنا رضي الله عنهم من تحرر للصواب : يقول الشعبي :

« والله لو أصبحت تسعًاً وتسعين مرة ، وأنخطأت مرة — لعدوا على تلك الواحدة ». .

« وكان أسلافنا يعتبرون الإعلان عن الكاذبين وفضحهم والتشهير بهم من الدين : يقول عبد الرحمن بن مهدى :

سألت شعبة ، وابن المبارك ، والثورى ، ومالك بن أنس عن الرجل يتهم بالكذب ، فقالوا :

« انشره فإنه دين ». .

وعن يحيى بن سعيد قال : سألت سفيان الثورى ، وشعبة ، ومالكًا ، وابن عبيدة عن الرجل لا يكون ثبتاً في الحديث ، فأيّتني الرجل ، فيسائلنى عنه .

قالوا : أخبر عنه ، إنه ليس ثبت .

(١) سورة الحجرات آية : ٦

ولقد قال رسول الله ﷺ :

«من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» .

وهذا الذي يكذب على رسول الله فليتبوأ مقعده من النار فاسق يحب التشهير به ، وهو فاسق قد سقطت عدالته ، ومن سقطت عدالته فإنه يجب على كل مؤمن أن لا يثق في حديثه ولا في رأيه أو نتائج بحثه .

ومن ثبت عليه الكذب أو الغش ، أو الزيادة في النص ، أو النقصان منه ، ليثبت بالزيادة أو النقصان رأياً يتفق مع هواه ، ومع ترهاته – إن كل من يفعل ذلك فقد سقطت عدالته .

على أن من يزيد في النص أو ينقص منه ، أو يحرف فيه يعتمد ذلك للحط من إنسان أو للنيل منه – فإنه من الناحية الإنسانية قد نزل إلى مرتبة تألف الإنسانية السليمة منها ، وانحط إلى درجة تنفر الفطرة الطاهرة منها .

وبعد هذا نقول : إنه نشأ في زماننا هذا طائفنة من الناس يزعمون أنهم من الباحثين على الأسلوب الحديث ، أسلوب النقد والتحقيق ، والثبت فيما يزعمون .

وما من شك في أن أسلوب النقد والتحقيق في الحديث وفي روایة الحديث أسلوب البحث العلمي بأدق ما يمكن أن تعبّر عنه هذه الكلمة – إنما وجد حقاً عند أسلافنا من المحدثين ، إنهم هم أصحاب المنهج العلمي الدقيق في كتابة التاريخ ، إنهم المخترعون له ، ولا يزالون للآن أدق من اتبّعه ، وطبقه في صدق ؛ والمؤرخون المحدثون لم يصلوا بعد إلى ما وصل إليه سادتنا المحدثون القدماء من الدقة العلمية .

ولا نريد أن نتعجل فنقول : إن هؤلاء الذين يزعمون في العصر الحاضر أنهم قد تحضروا للبحث العلمي ليسوا من البحث العلمي في شيء ، ولنرتّب قليلاً حتى نطبق عليهم مقاييس أسلافنا في العدالة لنرى : هل كانوا أهلاً للثقة أو ليسوا بأهل لها !

لقد كان أسلافنا يكتفون بثبوت الكذب مرة واحدة على شخص ، فيسقطونه من قائمة العدول ، فإذا ثبت مثل ذلك على هؤلاء الكتاب المحدثين فإننا نسقطهم من طبقة العدول ، ونضعهم في قائمة الذين وصفهم الله بالفسق حين قال فيهم :

(يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بناً فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) ^(١).

لقد أراد قوم - تحت تulle البحث العلمي - التشكيك في السنة ، بل هدم السنة رأساً ، وهؤلاء تقودهم أهواء مختلفة :

رأيت إلى مركب النقص في إنسان مغدور يطمع أن يتولى مركز القيادة الفكرية فلا تسعفه مواهبه القاصرة بالأصالة أو الاختراع أو الابداع ؛ فيتجه إلى المخط من شأن الآخرين والنيل منهم ، ويوجه كل الترعرعات الشيطانية فيه إلى تزييف في التاريخ ؛ ليحط من شأن قوم قد كتب لهم التاريخ في سجله الصحيح ما يبؤهم المكانة العليا في الخلق الكريم ، وفي الصدق الصادق ، وفي العمل الجاحد لإحياء سنة رسول الله ، ﷺ : بنشراً وتطبيقاً ، إذاعة ، واتباعاً ؛ فكانوا أمّة بقولهم ، وأمّة بعملهم ؛ وانتقلوا إلى العالم الآخر مرضياً عنهم من معاصرهم ومرضياً عنهم من الله إن شاء الله ..

رأيت إلى مركب النقص في إنسان مغدور كيف يحمله على الهجوم على صحابة رسول الله ، ﷺ الذين قال فيهم ، صلوات الله عليه وسلم ، وهو المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى - الكثير من المدح ، والكثير من الثناء ؛ والذين نهى رسول الله ﷺ أن يتناولهم غيرهم بالإساءة أو التحقيق ..

رأيت إلى مركب النقص في إنسان مغدور كيف يحمله على حمل القلم ، لا ليرسم هداية قرآنية أو خلقاً نبوياً ، ولا ليثبت إيماناً أو يهاجم إحاداً ؛ وإنما ليتناول هؤلاء الذين كرسوا حياتهم لخدمة السنة النبوية لا يبغون من وراء ذلك مالا ولا جاهماً ، ولقد عرض على أحدهم مبلغ ضخم من المال ليسكت - مجرد سكوت - عن محدث ، فلا يتعرض له بمحرج أو تعديل ! لقد عرض عليه الكثير لا ليشهد زوراً ولا يمدح من لا يستحق المدح ؛ وإنما ليهمل شخصاً معيناً ؛ ليصرف النظر عنه ؛ ليسقطه من قول ما يعتقد أنه الحق فيه ، فأبى وقال عن المحدث ما رأى أنه يوافق الحق والصواب ..

(١) سورة الحجرات آية ٦.

إن مركب النقص عند بعض المغورين الذين حرمهم الله مواهب الفضلاء يحملهم على حمل القلم للنيل من بعض صحابة رسول الله ﷺ جرحاً، وقدحاً، وسباً وشتماً وتحقيراً وإساءة ..

ومن أجل إرضاء ما بنفوسهم من نزعة تحقير كل فاضل ، والنيل من كل كريم ظاهر - تجدهم يزيفون التاريخ ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ويكتذبون متعمدين ؛ ليصلوا إلى هدم من سجل التاريخ خلودهم فضلاء ممتازين .

ولنتظر الآن إلى أى مدى يصل بهم تحريف الكلم عن مواضعه وتزييفه والكذب فيه إرضاء لترعاتهم الفاسدة : يقول المرحوم الأستاذ مصطفى السباعي في كتابه النفيسيس : « السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي » متحدثاً عن الكذب والتحريف والبهتان الذي في كتاب : أضواء على السنة ، تأليف أبي رية :

١ - يقول في الهاشم رقم ٣ من صحفة ١٦٢ من كتابه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه :

« وكان قد أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب وكان يرويها للناس « عن النبي » ثم نسب هذا القول إلى ابن حجر في فتح الباري ص ٦٦ ح ١ .

وعبارته في الفتح ليس فيها « عن النبي » وإنما زادها أبو رية ، ونسبها إلى الحافظ بن حجر ؛ ليؤكد للقارئ الشك في أحاديث صحابة رسول الله ﷺ الذي كان بعضهم يستمع إلى مسلمة أهل الكتاب يتحدثون عن أخبار الأمم الماضية : فنفهم من كان ينقلها عنهم على أنها قصص متعلق بالماضين .

ولكن أبو رية كان يتهمهم بأنهم كانوا « ينسبونها » إلى النبي ﷺ ! .. ولم يكتف بذلك البهتان حتى نسبه إلى الحافظ بن حجر ، وهو لم يقله قط ، ولا يقوله مسلم يعرف ما كان عليه هذا الجيل الفذ في تاريخ الإنسانية من صدق اللهجة ، واستقامة الدين ، ووقف عند حدود الله فيها أمر وفيها نهى ، وهم يعلمون أن الله لعن الكاذبين ومقتهم ، وليس أقرب لعيون أعداء الله والإسلام من أن يرموا بما رماهم به « أبو رية » .

٢ - ونقل في ص ١١٥ عن ابن كثير في البداية والنهاية : ص ٢٠٦ ح ٨ أن عمر رضي الله عنه قال لكتاب الأحاديث :
لتركت الحديث «عن رسول الله» أو لأنحقنك بأرض القردة .
وعبارة ابن كثير : لتركت الحديث «عن الأول» وليس فيها «عن رسول الله» .

ولكن «أمانة» أبي رية أجازت له تحريف هذا النص ؛ ليثبت ما ادعاه من أن كعباً كان يحدث عن رسول الله ﷺ ، وأن الصحابة كانوا يأخذون عنه الحديث .
وهذه الفريدة دسها المستشرقون اليهود أمثال «جولد زير» ليدعوا تأثير اليهودية في الدين الإسلامي ! . فتفقها منهم «الحق العلمي» أبو رية ، وتبرع لهم بإثبات الأدلة عن طريق «التزوير» ! ..

٣ - ونقل في ص ١٦٣ عن البداية والنهاية لابن كثير ص : ١٠٦ ح ٨ أن عمر رضي الله عنه هدد أبا هريرة بترك الحديث أو ليلحقنه بأرض دوس «أو بأرض القردة» .

وهذه الزيادة «أو بأرض القردة» من مفتريات أبي رية على عمر وابن كثير معاً ؛ وإنما قالها عمر لكتاب كعب كما مر بهده في ترك الحديث عن «الأول» أى الأم الماضية ؛ كما نقل ذلك ابن كثير .

٤ - نقل أبو رية في عدة مواضع من بحثه عن أبي هريرة نصوصاً في تكذيب عمر وعمان وعلى وعائشة وغيرهم لأبي هريرة ، ثم نسبها إلى ابن قتيبة في «تأويل مختلف الحديث» وترجم أبو رية لابن قتيبة في هامش كتابه بأنه كان لأهل السنة كالجاحظ للمعتزلة في قوة البيان والحججة .

وقصده من ذلك تأكيد تضليل القارئ بأن رجالاً كابن قتيبة له مكانته بين أهل السنة يطعن في أبي هريرة هذا الطعن دليل على صحة ما يذهب إليه أبو رية من تكذيب أبي هريرة فيما يرويه عن رسول الله ، ﷺ .

مع أن ابن قتيبة ألف كتابه «تأويل مختلف الحديث» للرد على من طعن في أئمة الحديث منذ الصحابة حتى عصره ، وأخبر أنهم هم رؤساء الاعتزال كالنظام وأمثاله

وآخرين . ثم ساق ابن قتيبة شرائط النظم لأبي بكر وعمر وعثمان وعلى وابن مسعود وأبي هريرة وغيرهم من كبار الصحابة ، ثم كر بالرد عليه وتفنيده ما قاله عن كل واحد من هؤلاء .

فأخذ «أبوريه» ما قاله النظم في أبي هريرة ونسبه إلى ابن قتيبة ، وتعامى عن رد ابن قتيبة على النظم . وهكذا تكون الأمانة «الأمانة العلمية» عند هذا «الحق العلمي» ! .

٥ - ونقل في ص ١٩٥ عن المرحوم السيد رشيد كلاماً عن كعب ووهب بن منبه قال فيه :

« وما يدرينا أن كل الروايات - أو الموقوفة منها - ترجع إليها » مع أن العبارة : « وما يدرينا أن كل (تلك) الروايات إلخ . فأسقط أبو رية كلمة « تلك » التي أشار بها السيد رشيد - رحمة الله - إلى مرويات كعب ووهب عن أهل الكتاب ؛ لتجيء العبارة موهمة بأن كل روايات الصحابة ترجع إليها . . فانظر إلى هذا الدس والتلاعب في نقل النصوص لتفق مع أهواءه وأغراضه . .

هذه أمثلة لا مجال للمناقشة فيها تدل على تلاعبه في النصوص التي ينقلها ، ونسبتها إلى غير قائلتها .

وأشهد أن لا أعلم أحداً من أشد المستشرقين تعصباً ودساً بلغت جرأته في تحريف النصوص والتلاعب فيها كما بلغت جرأة أبي رية فما ذا نقول في هذا «العلامة الحق الأمين؟» اهـ .

إن مقاييس أسلافنا ، بل مقاييس البحث العلمي الصحيح في كل عصر ، تسقط عدالة أبي رية وتنفيه عن دائرة الباحثين ، وتشهر به كذاب ، وكمحرف للكلم عن مواضعه وكخائن للأمانة العلمية ، وتسحب الثقة منه كليلة .

وأبوريه لا يعدو أن يكون صبياً من صبيان المستشرقين ، وللمستشرقين صبيان في الشرق معروفوون : إن لهم صبياناً مأجورين ، وإن لهم صبياناً ملاحظة ، وإن لهم صبياناً تابعين . مقلدين !

فلتحدث إذن عن المستشرقين في صورة صريحة : إن من المعروف أن

الاستشراق - في طائفة كبيرة منه - إنما هو امتداد للحروب الصليبية . إن الغربيين يريدون بكل وسيلة القضاء على الإسلام كقوة لها ذاتيتها ، وأصالتها ، ومنهجها في الحياة ؛ وهم يستعملون من أجل ذلك كل الوسائل : إنهم يستعملون السلاح في قسوة قاسية ، وفي عنف عنيف حينما يمكّنهم استعمال السلاح ، فإذا لم تواتهم الظروف استعملوا أسلحة أخرى : منها الاستشراق . وكثيراً ما يرافق الاستشراق المدفع والدبابة في الأقطار المستعمرة ، وهدف الاستشراق إفساد ما يمكن إفساده من الدين . ومن ثم من الخلق : وقد وضح - على مر الأيام - أن خصائص الاستشراق أنه :

١ - متأثر بالبيئة التي نشأ فيها المستشركون : ولقد عبر عن هذه الحقيقة أبلغ تعبير أحد الغربيين الذين كانوا يريدون معرفة الحقيقة عن سيدنا محمد ﷺ ، فقرأ كتاباً عنه بعدة لغات ثم قال :

إن صورة نبي الإسلام صورة فرنسيّة إذا كانت بقلم الفرنسيين ، وهي ألمانية إذا كانت بقلم الألمانيين ، وهي أمريكية إذا كانت بقلم الأميركيين ، وهي .. وهذا فيما يتعلق بالبيئة الاجتماعية .

٢ - والاستشراق متأثر بالبيئة الدينية ، ومن الطبيعي الواضح أنه إذا كان المستشرق مؤمناً بدينه فإنه يكتب عن الإسلام مؤمناً بأنه دين مزيف . ولا أدرى كيف يعزب ذلك - مع بداهته - عن أذهان المسلمين الذين يقرءون الإسلاميات بقلم المستشرقين ، فيولونهم شيئاً من الثقة أو يولونهم كل الثقة على حسب درجة استعداد القارئ للتقليل والمتابعة .

٣ - ومن المعروف اليقيني أن الاستشراق - في أغلبه - يسير في ركاب الاستعمار أو في ركاب الكنيسة .

إن ذلك ظاهر واضح لكل من قرأ تاريخ الاستشراق وصلته بالكنيسة والاستعمار ؛ ومن أجل ذلك لم يكن غريباً أن يزيف الاستشراق الحقائق . وهو وإن لم يزيفها وطنية يزيفها تديناً ، وإن لم يزيفها تديناً زيفها وطنية ، فإذا لم تقو الوطنية وحدها أو التدين وحده على حمل الاستشراق على التزييف - تكاتف التدين

والوطنية معاً فحملاه - متعاونين - على التزييف ، فزييف تدينناً ووطنية .؛ إنك لا تنتظر من قسيس يعيش في الكنيسة مثل : «أزین بلاسيوس» ، حينما يكتب عن الإسلام إلا مسخاً وتشويهاً كما فعل ذلك حينما كتب كتابه المعروف بالعنوان الذي لا يتسم بأدب ولا بمحاجمة وهو «الإسلام المسيحي» !

أما القسيس لامنس فقد وهب حياته لمحاولة هدم الإسلام عقيدة ، ولمحاولة هدم الإسلام تاريخاً ، ولمحاولة هدم الإسلام رجالاً ، ولمحاولة هدم الإسلام في كل ما يتعلق به : إن المستشرقين القساوسة عدد لا يحصى ؛ أما المستشرقون في وزارات الخارجية الغربية .

وفي وزارات الدفاع والحربيه .

وفي وزارات الإعلام والدعية .

فإنهم أيضاً عدد لا يكاد يحصى .

ماذا تنتظر من مستشرق هو مستشار في وزارة الدعاية ، أو في وزارة الخارجية ، أو في وزارة الخارجية ؟ إن السذاجة منها وصلت درجتها لا يتأتى أن تولى مستشرياً يأكل عيشه من سيره في ركب الكنيسة ثقها .

٤ - وطائفة من المستشرقين مستعدة أن تسير في أي ركب ؛ لأنها تسير في ركب الشيطان : تلك هي طائفة المستشرقين اليهود .

إن كتاب : بروتوكولات حكماء صهيون أو كتاب الخطر الصهيوني : يبين في وضوح أن اليهود قد آتوا على أنفسهم أن يفسدوا على الإنسانية دينها وخلقها وثقافتها .

وقد منى الإسلام بطائفة من المستشرقين اليهود على درجة من الخبرت والمكر والدهاء يعجب لها الشيطان نفسه .

رأيت إلى الذكاء الحاد الخبيث حينما يستعمله صاحبه جاهداً لا يفتر في أغراض شيطانية : ي يريد بذلك أن يفسد على المسلمين منهم العليا في الفضيلة والخير وإيمانهم الراسخ في الله في رسوله . . . ؟

إن هذا الذكاء الحاد الخبيث الذى أخذ يعمل لا يفتر قد تركز في بضعة أفراد

من اليهود - كأني بث ما يكون اليهود - على رأسهم جولد زيهير : ولقد كان جولد زيهير حركة لا تفتر في الإفساد والتشويه ، وساعدته مال اليهود ودعائهم ، فترجموا ونشروا أفكاره في كل مكان ؛ حتى لقد ترجمت كتبه الخبيثة إلى اللغة العربية نفسها ونشرت في مختلف الأقطار الإسلامية : تذيع الكذب في صورة البحث العلمي ، وتنشر التشويه في صورة الحقائق الثابتة ، وتدعوه إلى الشك فيما لا يتأتى فيه الشك ، واغتر به طائفة من المغورين وظنوا أن أبحاثه علمية ، وأنه باحث متثبت ، وعالم يتحرى الحقائق .

وإلى هؤلاء ، وإلى كل من يشق بالمستشرقين نذكر مثالين اثنين - من عشرات الأمثلة - التي تعمد جولد زيهير أن يكذب ، وأن يحرف الكلم عن مواضعه فيها . وهذان المثالان إنما هما نموذج لأعمال كثير من المستشرقين العلمية .

يقول المرحوم مصطفى السباعي :

زعم جولد زيهير أن الزهرى اعترف اعترافاً خطيراً في قوله الذى رواه عنه عمر : «إن هؤلاء النساء أكرهونا على كتابة «أحاديث» وأن ذلك يفهم استعداد الزهرى لأن يكسو رغبات الحكومة باسمه المعترف به عند الأمة الإسلامية .

قدمنا لك عند الحديث عن صدق الزهرى وجراحته أنه أبعد الناس عن الإذعان لأهواء الحاكمين ، وذكرنا لك من الواقع التاريخية بينه وبين خلفاء بي أمية ما تجزم معه بأنه ليس ذلك الرجل المستعد لأن يكسو رغبات الحكومة باسمه المعترف به عند المسلمين .

أما هذا النص الذى نقله ففيه تحريف بسيط يقلب المعنى رأساً على عقب وأصله كما في ابن عساكر وابن سعد : أن الزهرى كان يمتنع عن كتابة الأحاديث للناس - ويظهر أنه كان يفعل ذلك ليعتمدوا على ذاكرتهم ، ولا يتتكلوا على الكتب كما ذكرنا من قبل - فلما طلب منه هشام وأصر عليه أن يمل على ولده ليمتحن حفظه كما تقدم ، وأملى عليه أربعين حديث خرج من عنده وقال بأعلى صوته : «أيها الناس إنا كنا منعناكم أمراً قد بذلناه الآن هؤلاء ، وإن هؤلاء النساء أكرهونا على كتابة «الأحاديث» فتعالوا حتى أحدثكم بها فحدثهم بالأربعين حديث» هذا هو

النص التاريخي لقول الزهرى ، وقد رواه الخطيب بلفظ آخر وهو : كما نكره كتاب العلم - أى كتابته ، حتى أكرهنا عليه هؤلاء الأمراء فرأينا ألا نمنع أحداً من المسلمين . اهـ . « تقييد العلم ص ١٠٧ » .

فانظركم الفرق بين أن يكون قول الزهرى ، كما روى جولد زيهـر « أكرهونا على كتابة أحاديث » وبين أن يكون كما رواه المؤرخون : « أكرهونا على كتابة الأحاديث » أو كما رواه الخطيب « على كتاب العلم ؟ » .

ثم انظر إلى هذه الأمانة العلمية « حذف » « ال » من الأحاديث فقلبت الفضيلة رذيلة . حيث كان النص الأصلى يدل على أمانة الزهرى وإخلاصه فى نشر العلم ، فلم يرض أن يبذل للأمراء ما منعه عن عامة الناس إلا أن يبذله للناس جميعاً ، فإذا أمانة هذا المستشرق تجعله ينسب للزهرى أنه وضع للأمراء أحاديث أكرهوه عليها ، فأين هذا من ذاك ؟

أما ما نقله « جولد زيهـر » من قول وكيع عن زياد بن عبد الله من أنه كان مع شرفه في الحديث ! كذوباً - فهذه إحدى تحريرات هذا المستشرق الخبيث فأصل العبارة كما وردت في التاريخ للإمام البخاري : وقال ابن عقبة السدوس عن وكيع : هو (أى زياد بن عبد الله) أشرف من أن يكذب اهـ من القسم الأول الجزء الثاني ص ٣٢٩ .

فأنت ترى أن وكيعاً ينفي عن زياد بن عبد الله الكذب مطلقاً ، لا في الحديث فحسب ، وإنما أشرف من أن يكذب ، فحرفها هذا المستشرق اليهودي إلى أنه كان - مع شرفه في الحديث - كذوباً . وهكذا تكون أمانة هذا المستشرق إن المستشرقين وأتباعهم من الملاحدة والمؤجرون والمقلدين هم الوضاعون في العصر الحاضر .

ولكن الله سبحانه قد هيأ للسنة تدويناً صحيحاً ، وتسجيلاً متقدماً ورجالاً كرسوا حياتهم لها ، يدافعون عنها عصراً بعد عصر ، وينشرون أريجها جيلاً بعد جيل : مذيعين وشارحين ، ناشرين وموضعين .

فهرس

صفحة

.....	مقدمة :
٥		
الكتاب الأول : القرآن الكريم	الكتاب الأول : القرآن الكريم
٢٣		
تمهيد	تمهيد
٢٦		
الفصل الأول : الجو الذي نشأ فيه الإسلام	الفصل الأول : الجو الذي نشأ فيه الإسلام
٢٩		
الفصل الثاني : تصحيح الفكرة العامة عن العرب	الفصل الثاني : تصحيح الفكرة العامة عن العرب
٤٧		
الفصل الثالث : في العقيدة	الفصل الثالث : في العقيدة
٥٧		
الفصل الرابع : في تفسير القرآن	الفصل الرابع : في تفسير القرآن
١٠١		
الفصل الخامس : اقرأ باسم ربِّكِ الذي خلق	الفصل الخامس : اقرأ باسم ربِّكِ الذي خلق
١٣٩		
الكتاب الثاني : النبي ﷺ	الكتاب الثاني : النبي ﷺ
١٩١		
تمهيد	تمهيد
١٩٤		
الفصل الأول : النسب الشريف	الفصل الأول : النسب الشريف
٢١٣		
الفصل الثاني : نبي التوبة	الفصل الثاني : نبي التوبة
٢٢٥		
الفصل الثالث : الوحي	الفصل الثالث : الوحي
٢٣٥		
الفصل الرابع : الإسراء والمعراج	الفصل الرابع : الإسراء والمعراج
٢٦١		
الفصل الخامس : الهجرة	الفصل الخامس : الهجرة
٢٧٥		
الفصل السادس : الجهاد	الفصل السادس : الجهاد
٢٨٩		
الفصل السابع : النبي العайд	الفصل السابع : النبي العайд
٢٩٧		
الفصل الثامن : إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق	الفصل الثامن : إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق
٣١٣		
الفصل التاسع : من توجيهات القرآن الكريم	الفصل التاسع : من توجيهات القرآن الكريم
٣١٩		
الكتاب الثالث : السنة الشريفة ومكانها	الكتاب الثالث : السنة الشريفة ومكانها
٣٣١		
تمهيد	تمهيد
٣٣٤		
الفصل الأول : وما أرسلناك إلا كافحة للناس	الفصل الأول : وما أرسلناك إلا كافحة للناس
٣٣٩		
الفصل الثاني : تدوين السنة	الفصل الثاني : تدوين السنة
٣٥٥		
الفصل الثالث : المحدثون في جهادهم	الفصل الثالث : المحدثون في جهادهم
٣٧٣		
الفصل الرابع : الوضاعون في العصر الحاضر	الفصل الرابع : الوضاعون في العصر الحاضر
٣٨٩		

١٩٩٠ / ٢٢١٠	رقم الإبداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-٢٨٨٨-٥	الرقم الدولي

١/٨٩/٢٠٠

طبع بمطباع دار المعرف (ج.م.ع.)

هذا الكتاب

كان القرآن في نصرته الدائمة ، والسنّة في روحانيتها السامية مبعث إلهام وتوجيه ، أذهلاً الدارسين والمستشرقين ، بما جعل سخّخصية الإسلام متفردة بين العقائد والأديان .

وهذا الكتاب يسهم في إحياء المفاهيم الإسلامية ، فيتناول كتاب الله ، ذلك الإعجاز الذي طغى على كل بلاغة العرب ، والذي رسم لهم طريق الفلاح والحكمة والحياة جميعاً .

ثم يتناول الكتاب أيضاً ذلك البشير النذير الذي أدى رساله الله ، وتم بشخصيته وسته مكارم الأخلاق ، وأحدث أثراً بالغاً في الفكر الإنساني .

لقد أسمهم الإمام بهذا العطاء الرائد ، لكي يتفع به المسلمون ، ويهتدى به كل دارس مخلص .

To: www.al-mostafa.com